الأعمال القصصيّة الكاملة

(الجزء الثاني)

د. سناء شعلان

الطبعة الأولى
٢٠٢٠
جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

المؤلّف ومن هو في حكمه	**: د. سناء شعلان**
عنوان الكتاب	**: الأعمال القصصيّة الكاملة لسناء شعلان/ جزء٢**
بيانات الناشر	**: أمواج للنّشر والتّوزيع، عمّان – الأردن**
عدد صفحات الكتاب	**: ٤٦٢**
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة	**: ر. أ (٢٠٢٠/٦/١٥٣١)**
الرقم المعياري الدّوليّ (ISBN)	**: ٩٧٨- ٩٩٥٧- ٥٤٥- ٤٦- ٨**
الواصفات	**: / القصص العربية// المجموعات القصصيّة// الأدب العربي/**

- **يتحمل المؤلّف كامل المسؤوليّة القانونيّة عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنيّة أو أي جهة حكومية أخرى.**
- **تم إعداد بيانات الفهرسة والتّصنيف الأوليّة من قبل دائرة المكتبة الوطنيّة**

جميع حقوق الملكيّة الأدبيّة محفوظة للمؤلّفة سناء شعلان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة هذا الكتاب أو أي جزء منه أو إدخاله على الكمبيوتر أو ترجمته على اسطوانات ضوئيّة إلا بموافقة خطيّة منها.

أمـــواج للطباعة والنشر والتوزيع
المملكـــة الأردنية الهاشميـــة - عمان
تلفاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٨٨٨٣٦١/ ٠٠٩٦٢٦٤٨٨٩٦٥١

amwajpub@yahoo. com
www. amwaj- pub. com

الأعمال القصصيّة

الكاملة

د. سناء شعلان

الجزء الثاني

الطّبعة الأولى

٢٠٢٠

الفِهْرستْ

كلمة النّاشر ١١

(٤)

المجموعة القصصيّة "حدث ذات جدار"

قريباً من الجدار ٢١

إضاءة على ظلام ٢١

وبكى الجدار ٢٢

المقبرة ٢٦

حالة أمومة ٢٨

الصّديق السرّيّ ٣١

شمس ومطر على جدار واحد ٣٦

مَنْ أطفأ الشّمعة الأخيرة؟ ٤٠

عندما لا يأتي العيد ٤٤

وادي الصّراخ ٤٩

الغروب لا يأتي سرّاً ٥٤

سلالة النّور ٥٧

ما قاله الجدار ٦٠

السّجّان مسجون أيضاً ٦٠

قبر الرّمثاويّ لا يُضام ٦٠

لا قصّة حبّ للجدار العازل ٦١

بوّابة واحدة لا تكفي ٦٢

لا قانون ضدّ الأقدام العائدة ٦٣

الخيل الأصيلة تعود دائماً إلى أهلها...... ٦٣
الموتى لا يرحلون ٦٤
طائر الفينيق حقيقة لا أسطورة...... ٦٥
المجانين ضدّ الجنون ٦٥
الموت يساوي بين الأشياء...... ٦٦
ثورة العصافير خارج التّاريخ...... ٦٧
على الجدار أن يرحل في النّهاية ٦٧
بعيداً عن الجدار ٦٨
البوصلة والأظافر وأفول المطر ٦٨
خرافيّة أبو عرب ٧٤

(٥)

المجموعة القصصيّة "تراتيل الماء"

تراتيل الماء ٨٧
سيرة مولانا الماء ٩٩
س. ص.ع لعبة الأقدام ١٠٨
سِفْر البرزخ ١١٦
المفصّل في تاريخ ابن مهزوم وما جادَتْ به العلوم ١١٩
حكاياتها...... ١٣٨
قاموس الشّيطان ١٤٤
أحزان هندسيّة ١٦٣
خرافات أمّي...... ١٦٩
نفسٌ أمّارةٌ بالعشق...... ١٧٦
مليون قصّة للحزن...... ١٨٢

(٦)

المجموعة القصصيّة "أرض الحكايا"

سداسيّة الحرمان ١٨٩
أكاذيب البحر ٢٠٣
الباب المفتوح ٢١٩
الجدار الزّجاجيّ ٢٢٤
ملك القلوب.. ٢٣١
الطّيران على ارتفاع ١٠٠٠ دقّة قلب.. ٢٣٩
صديقي العزيز ٢٤٦
اللّوحة اليتيمة.. ٢٥٣
رجل محظوظ جدّاً! ٢٦١
دقلة النّور.. ٢٧٤
الصّورة ٢٨٠
الذي سقط من السّماء ٢٩٠
أرض الحكايا ٢٩٦
مدينة الأحلام.. ٣٠١
البلّورة.. ٣٠٥
الشّيطان يبكي ٣١٤

(٧)

المجموعة القصصيّة "الكابوس"

الكابوس.. ٣٢١
عالم البلّورات الزّجاجيّة ٣٣١
أوديسيوس مرّة أخرى ٣٣٧
حكاية شجرة ٣٤٢

حادث مؤسف سعيد جدّاً... ٣٤٩
بطل المكنسة ٣٥٦
سُـــهـــاد... ٣٦١
مهرجان البصل ٣٧٢
المستأنس... ٣٧٧
بحيرة السّاج ٣٨٥
قصّة طويلة ٣٩٢
صانع الأحلام ٤٠٦
آنسة قطّة... ٤١٢
الضّفّة الأخرى... ٤٢١
صداع قلب ٤٢٥
القاتل... ٤٣٤
صباح الخير يا دكتور ٤٣٩
صاحب الصّوت الأجشّ ٤٤٣
المواطن الأخير ٤٤٨

الإهداء

إلى أمّي سيّدة الكلمات والحكايات

كلمة النّاشر

حرصنا في هذا الكتاب الجامع الكبير الذي يقع في جزأين على جمع القصص القصيرة والقصيرة جدّاً التي صدرت للأديبة الأردنيّة د. سناء شعلان على امتداد عقد ونصف من عطائها الإبداعيّ، وهي قصص نشرت فرادى في المجلّات والصّحف والملاحق الثّقافيّة والمواقع الثّقافيّة، وبعد ذلك نُشرت في مجموعات قصصيّة مستقلّة صادرة عن أكثر من جهة ناشرة.

لقد حظيت هذا القصص بالاهتمام النّقديّ والأكاديميّ والبحثيّ والشّعبيّ والإعلاميّ، وحصلت على أكثر من جائزة محليّة وعربيّة ومحلّيّة، كما حصل كامل إبداعها على الكثير من الجوائز المهمّة، مثل: جائزة المثقّف العربيّ عن مجمل إنتاجها النّقديّ والإبداعيّ، مؤتمر القمّة الثّقافيّ العربيّ التّحضيري الأوّل، وزارة الثّقافة العراقيّة ومؤسّسة جائزة العنقاء والمنظّمة العربيّة لحقوق الإنسان في مصر والشّبكة العربيّة للتّسامح وتجمّع عقول وجامعة ابن رشد في هولندا، ميسان، العراق، ٢٠١٨، وجائزة مؤتمر المرأة العربيّة للعام، جائزة التّميّز الإبداعيّ والأكاديميّ والتّأثير عن مجمل إنتاجها الإبداعيّ والنّقديّ، مؤتمر المرأة العربيّة، مركز التّفكير الإبداعيّ، عمان، الأردن، ٢٠١٢، وجائزة كلاويز التّقديريّة للإبداع عن مجمل إنتاجها الإبداعيّ والنّقديّ، مهرجان كلاويز، مركز كلاويز الثّقافيّ والإبداعيّ، السّليمانيّة، إقليم كردستان العراق، العراق، ٢٠١١، وجائزة الشّيخ محمد صالح باشراحيل للإبداع الثّقافيّ العالميّة في دورتها الثّالثة في حقل الرّواية والقصّة القصيرة عن مجمل إبداعها الرّوائيّ والقصصيّ، السّعوديّة، ٢٠١٠

وهذا يدلّ على مدى أهميّة هذا المنجز القصصيّ التي تميّز بالفرادة والاستثنائيّة والتّجريب وتحطيم الأشكال الإبداعيّة الكلاسيكيّة والمكرورة، حتى غدت د. سناء شعلان مدرسة إبداعيّة خاصّة أغرت الكثيرين لدراسة أعمالها في مقالاتهم ودراساتهم وأبحاثهم وكتبهم ورسائلهم وأطروحاتهم الجامعيّة.

يأتي هذا الكتاب الجامع لقصصها في جزأيه مرحلة أولى في سبيل جمع الإرث القصصي لشعلان، في خطوة أولى في هذا الدّرب في سبيل جمع المزيد منه في المستقبل في أجزاء أخرى؛ لنقدّمه هديّة نادرة للمكتبة العربيّة وللقارئ العربيّ بغية مساعدته في الاطّلاع على هذا الإبداع القصصيّ كاملاً غير مجزوء.

لقد انتهجنا في هذا الكتاب نهجاً خاصّاً لأجل جمع هذه القصص الثّرّة المميّزة، وهذا المنهج قام على ما يلي:

١. هذا الكتاب هو نسخة جامعة مزيدة منقّحة من المجموعات القصصيّة كلّها.

٢. قمنا بحذف المجموعات القصصيّة التي تتشابه في القصص التي تضمّنتها، وأشرنا إلى ذلك في هامش الكتاب ليسهل على المطّلع والباحث أن يدرك هذا الأمر.

٣. قمنا بإدراج القصص القصيرة وفق المجموعات القصصيّة التي وردت فيها وبالتّرتيب ذاته التي وردت به في تلك المجموعات القصصيّة.

٤. هذا الكتاب بجزأيه يحتوي على المجموعات القصصيّة التاليّة:

١. المجموعة القصصيّة "أكاذيب النّساء ٢٠١٩

٢. المجموعة القصصيّة "الذي سرق نجمة"، ٢٠١٥

٣. المجموعة القصصيّة "تقاسيم الفلسطينيّ"، ٢٠١٥

٤. المجموعة القصصيّة "حدث ذات جدار"، ٢٠١٥

٥. المجموعة القصصيّة "تراتيل الماء"، ٢٠١٠

٦. المجموعة القصصيّة "أرض الحكايا"، ٢٠٠٦

٧. المجموعة القصصيّة "الكابوس"، ، ٢٠٠٦

٨. المجموعة القصصيّة "مقامات الاحتراق"، ٢٠٠٦

٩. المجموعة القصصيّة "ناسك الصّومعة"، ٢٠٠٦

١٠. المجموعة القصصيّة "قافلة العطش"، ٢٠٠٦

١١. المجموعة القصصيّة "الهروب إلى آخر الدنيا"، ٢٠٠٦

١٢. المجموعة القصصيّة " مذكّرات رضيعة"، ٢٠٠٦

٥. راعينا في إدراج المجموعات القصصية في الكتاب أن ندرجها مرتّبة ترتيباً زمانيّاً تنازليّاً وفق تاريخ صدورها الميلاديّ.

٦. وضعنا في هوامش الكتاب معلومات ببيليوغرافيّة مهمّة عن المجموعات القصصّية والقصص القصيرة.

نتمنّى أن نكون قد وفّقنا في مسعانا هذا، والله من وراء القصد، ونتمنّى قراءة ممتعة لكلّ من يطلّع على جهدنا الكبير والمخلص في هذا الكتاب في جزأيه.

(٤)

المجموعة القصصيّة

"حدث ذات جدار" (١)

١- صدرت المجموعة القصصيّة "حدث ذات جدار" في طبعتها الأولى عن دار أمواج للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠١٥

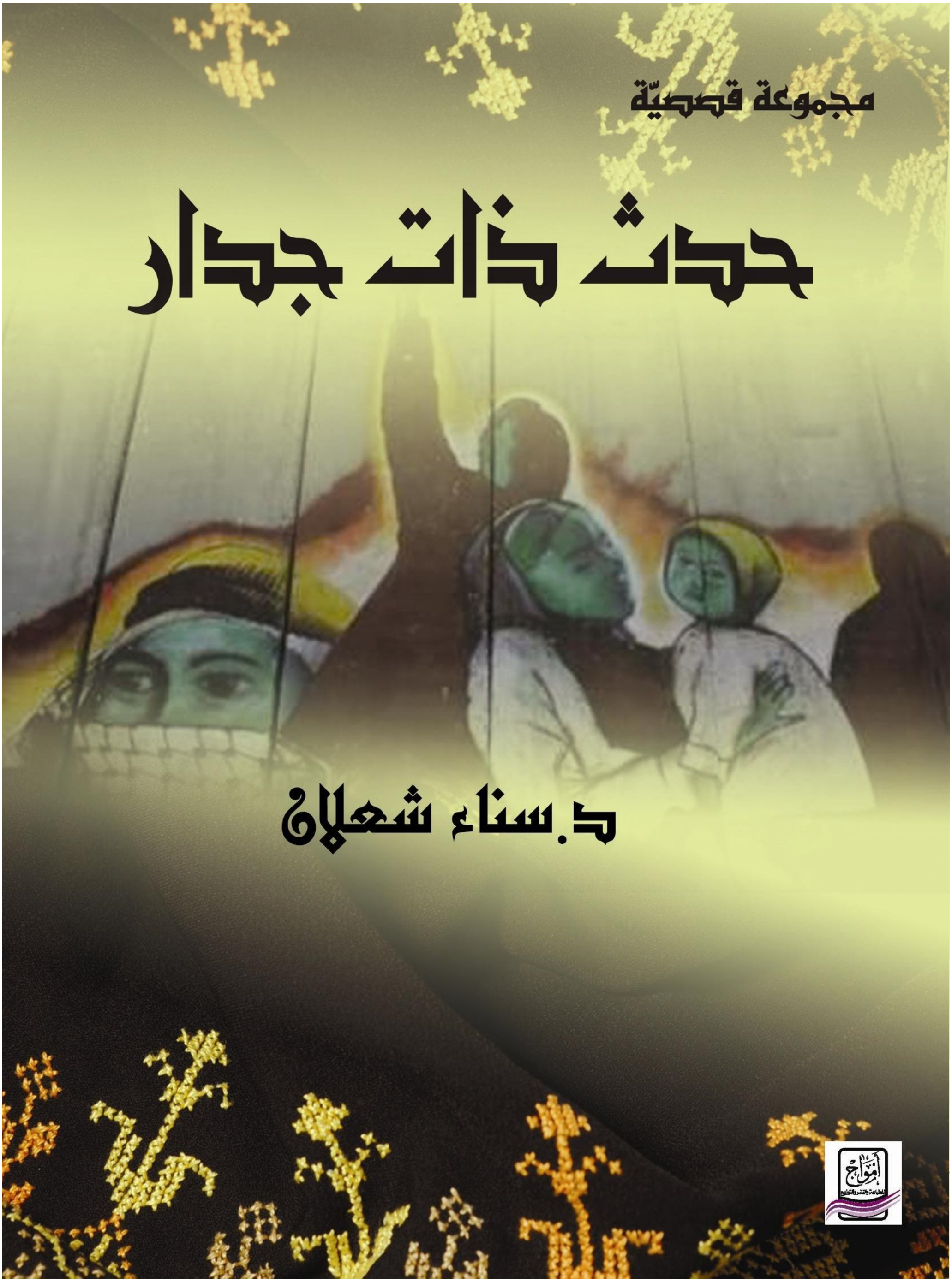
مجموعة قصصيّة
حدث ذات جدار
د.سناء شعلان
أمواج

قريباً من الجدار

إضاءة على ظلام

الجدار العازل أو الجدار الفاصل هو عبارة عن حاجز طويل بناه الكيان الصّهيونيّ في الضّفّة الغربيّة من فلسطين المحتلّة قرب الخطّ الأخضر؛ لمنع دخول الفلسطينيين سكّان الضّفّة الغربيّة إلى الكيان الصّهيونيّ أو إلى المستدمرات(١) الصّهيونيّة القريبة من الخط ّالأخضر.

يتشكّل هذا الحجاز من سياجات وطرق دوريّات، أو من أسوار إسمنتيّة بدل السّياجات في المناطق المأهولة بكثافة مثل منطقة المثلّث أو منطقة القدس.

بدأ بناء الجدار في عام ٢٠٠٢ م في ظلّ انتفاضة الأقصى، وفي نهاية عام ٢٠٠٦م بلغ طوله ٤٠٢ كم، ويمرّ في مسار متعرّج يحيط بمعظم أراضي الضّفّة الغربيّة، وفي أماكن معينة، مثل مدينة قلقيلية، يشكّل معازل، أيّ مدينة أو مجموعة بلدات محاطة تقريباً بالجدار من جهاتها جميعها.

بينما تعارض السّلطة الوطنيّة الفلسطينيّة والمنظّمات الفلسطينيّة بناء الجدار، وتُطلق عليه اسم"جدار الفصل العنصريّ"، أو"جدار الضّم والتّوسّع العنصريّ"، تعبيراً عمّا تراه فيه من محاولة صهيونيّة لإعاقة حياة السكّان

١- المستعمرة تحمل معنى الإعمار، أمّا ما يبنيه الكيان الصّهيونيّ على أرض فلسطين ليأوي فيه المهاجرين الصّهاينة المرتزقة هو ليس أكثر من مستدمرة تدمّر الأرض والشّعب الفلسطينيّ بعد أن تسرق الأرض الفلسطينيّة من أهلها بقوّة القهر والظّلم، ثم بعد ذلك تفسد كلّ شيء؛ إذن فهي مستدمرة لا مستعمرة.

الفلسطينيين أو ضمّ أراضٍ من الضّفّة الغربيّة إلى الكيان الصّهيونيّ، يصمّم الكيان الصّهيونيّ على الاستمرار في التّوسّع في بناء هذا الجدار!

وبكى الجدار

وُلدا في يوم واحد، كان يوماً فلسطينيّاً حزيناً يعجّ بالخوف والظّلم والقسوة والحرمان، كان يوماً ماطراً من مُزن السّماء ومن عيون المآقي، وكان العمّ نور محمولاً حينئذٍ على محفّة خشبيّة قديمة ملفوفاً بالعلم الفلسطينيّ، ومشيّعاً بترنيمة الخلود: "الله أكبر".

في طريقه إلى مثواه الأخير في بطن ثرى أمّه فلسطين، كانت الزّغاريد في انتظارهما لا ترحيباً بهما، بل وداعاً لعمّها البطل المغوار. كانا فتى وفتاة، من لحظاتهما الأولى في الحياة حملا الاسم نفسه، ففي خلاف عاجل بين والديهما المتنازعين على وهب اسم شقيقهما الشّهيد لأحد المولودين الجديدين، قرّرا أن يكون اسم كلّ منهما نوراً نزولاً عند اقتراح أمّهما الجدّة الّتي أرادت أن تحسم الخلاف بحلّ توفيقيّ مرضٍ لابنيها في آن.

لم يفترقا أبداً منذ وُلدا لا في نهارٍ ولا في ليل، يأكلان ويشربان ويستيقظان وينامان في لحظة واحدة كتوأمين متحابّين، كلّ من رآهما ظنّ أنّهما وليدا رحم واحد، قليل من كان يعرف أنّهما أبناء عمّ، وأقلّ منهم من يستطيعون أن يجزموا إن كانا صبيّين أم فتاتين أم صبيّ وفتاة؛ لأنّ الجدّة اعتادت -على الرّغم من احتجاج أميهما- على أن تلبسهما ملابس متشابه أكانت بزّات ولاديّة أم أثواب بناتيّة وفق المتيسّر عندها من خوالف ملابس باقي الحفدة؛ فقد كان يسعدها أن

تراهما يكادان يطيران فرحاً بملابسهما المتشابه الموروثة الرّثة الفاقدة للونها الأصليّ الزّاهي بفعل التّقادم وطوال الاستهلاك.

كلّما صاح أحدهما باسم نور، طارا كلاهما إليه مبتسمين بخبث طفوليّ مشاكس يصمّم على أن يكونا شريكين في كلّ شيء حتى في تلبية صوت الدّاعي، ما كانا ليقبلا بأن يفترقا أبداً مهما كانت الأسباب، لكنّ المرض وحده هو من فرّق بينهما؛ الجدّة أخذت حفيدتها نور إلى الطّبيب في البلدة المجاورة لقريتهم، يومها وعدت حفيدها الباكي نور بأن تعود بحفيدتها نور في ظرف ساعات قليلة بعد أن تعرضها على الطّبيب المختصّ، لكنّها لم تبرّ بوعدها مكرهة لأنّ مرض نور ألزمها البقاء في مستشفى البلدة لأيّام أُخر.

أضرب نور عن الطّعام في انتظار عودة ابنة عمّه نور، ولولا تهديد والده له بعدم عودة نور إن لم يأكل لقضى نحبه جوعاً، ومعدته الصّغيرة وجسده الهزيل أضعف من أن يحتملا الجوع لساعات فضلاً عن أيّام.

طال انتظار نور لعودة ابنة عمّه نور، وما عاد أحد قادراً على أن يجيب عن سؤاله الحائر المفجّع: "متى تعود نور إلى البيت؟" فالكلّ كان في انشغال وهمّ بسبب ذلك الجدار الإسمنتيّ الأصمّ الذي زُرع حول قريتهم على غفلة بين ليلة وضحاها بخرسانة جاهزة تثبّت في الأرض تثبيتاً سريعاً في ساعات قليلة، وتغوّل حتى وصل إلى عنان السّماء حاجباً خلفه الشّمس وجدّته ونوراً، بصعوبة استطاعت سنواته السّبع أن تستوعب أنّ جدّته ونوراً مسجونتان خلف الجدار الصّلد العاتي، وأنّه من الصّعب إن لم يكن من المستحيل أن يُسمح لهما بعبور بوابة الجدار للعودة إلى قريتهما، لكنّه أبداً لم يسلّم إلى هذا الحكم الجائر الذي يحرمه من أثيرته نور.

وعلا الجدار أكثر وأكثر، ومضت الأيّام الطّوال ببطء قاتـل، والجـدّة ونـور مسجونتان خلف الجدار، وهو لا ينفكّ يذهب كلّ صباح إلى الجدار يلازمه بالحدّ الذي يُسمح له به الجنود الصّهاينة الـذين لا يمكـن أن يفهمـوا معنـى أن ينتظـر أثيرته نوراً دون فتور أو كلل أو ابتعاد. كثيراً ما كان يصـرخ باسـم نـور؛ لعلّهـا تكون قريبة من الجدار، فتردّ عليه، وعندما كان يعييه صمتها كان يضرب الجدار بحجر، ويولّي هارباً من الجنود الذي يصلونه بتوعداتهم وسبابهم البذيء الخليط من العربيّة الرّكيكة والعبريّة والكلمات الانفعاليّة المضطربة اللّفظ والمعنـى، ثـم يهرب بعيداً ليعود من جديد في أقرب وقت ليستأنف نداءه لنور دون مجيـب أو رحيم بحاله.

كثيراً ما حمله أبوه بحزم حنون بعيداً عن الجـدار، وهـو يعـضّ علـى حزنـه وانتظاره لأمّه المسجونة خلف الجدار، منكوداً بعجزه وقلّة حيلته، متسلّحاً بجملة واحدة لا تتغيّر، وهي: "ستعود جدّتك ونور في القريب العاجل إنّ شاء الله"، فإنّ ألحّ نور على معرفة وقت عودتهما بالتّحدّيد انخرط أبوه في بكاء صامت مخنوق يبّلل لحيته، فيكفّ نور عن إلحاحه رحمة منه بأبيه الباكي المحزون.

عرف نور أنّ جدته وابنة عمّه نوراً تعيشان في بيت قريب لهمـا في البلـدة خلف الجدار، وعلم أنّ صحّة نور في تحسّن، لكنّه لم يستطع أن يفارق أمله في أن يسمع صوتها يرّد على ندائه اليوميّ من خلف الجدار، وفكّر في أن يلفت نظرها بإطلاق طائرته الورقيّة إلى أعلى الجدار، لعلّهـا تطاولـه أو تعلـوه، فتراهـا نـور، وتعرف أنّه في أقرب نقطة ممكنة منها، وكاد ينجح في خطّته التّي كلّفته الكثير من الجهد والخيوط المستعارة من أبناء حيّه، لكن الجنود الصّهاينة صادروا طائرته في أوّل تحليقة لها، وأعدموها هناك في حجرة المراقبة المنتصـبة فـوق بوابـة الجـدار، وهكذا فقد أمله الأخير في التّواصل مع أثيرته الصّغيرة نور.

صمّم على أن لا يفارق الجدار دون أن يعود بنوره، واعتكف إلى جانبه لأيّام شتويّة باردة، فشلت محاولات الأسرة كلّها في إعادته إلى البيت، فكان يمضي وقته هارباً من ناحية إلى ناحية كي لا تتلقّفه أيدي المصّممين على إعادته إلى بيته ضنّاً به على هذا العذاب الموصول في انتظار ابنة عمّه نور التّي لن تعود مهما كابد من عناء البرد والعراء والجوع والضّنك والانتظار المعذّب.

وحده الجدار من كان يعرف أين يختبئ نور من مطارديه من أسرته حتى يقفلوا راجعين خائبين من حيث أتوا دون أن يعودوا به على كره منه، وكم كاد يتمنّى من أعماقه الإسمنتيّة الصّلدة القاسية لو يستطيع أن يملك نطقاً ليوصل سلام نور المشتاق إلى الصّغيرة نور التّي تنتظره على الجهة الأخرى منه رافضة أن تعود مع جدتها إلى بيت الأقارب هرباً من هذه اللّيلة الباردة.

عندما كان يغلبه ضعفه كان يحاول دون جدوى أن يصدّ بمنكبيه تلك السّحب السّوداء التّي تنذر بليلة ماطرة باردة، لكنّ السّحابة تطاولت عليه، واستهانت بمنكبيه العملاقين، وغشيت المكان ضدّ رغبته، وهيمنت على السّماء مزبدة مرعدة، فارتدّ الجدار إلى نفسه مخزيّاً خجلاً من قسوته على قلبي طفلين لا يريدان من الحياة إلاّ أن يلتقيا.

المطر ألجم المكان بالصّمت والعجز، وأغرقه في دفعات ضخمة من شآبيبه، وما انجلى إلاّ في الصّباح وقد غسل كلّ شيء بطهره البلّوريّ البارد، وهناك كان الجدار يبكي بحرقة على طفلين صغيرين كلّ منهما يحمل اسم نور، وهو يغشاهما بظلّه اللّئيم الأسود القابض وكلّ منهما ميّت مسجّى على ناحية مختلفة من جسده الصّلد البارد.

حزن الجدار على الطّفلين المتغالين حزناً وحسرة؛ لأنّه حرم أحدهما من الآخر بجريمة أنّهما فلسطينيين، لم يستطع الجدار أن يمدّ كفيه ليلتقط هذين الجسديّن الهزيلين الصّغيرين كي لا ينجسهما بخطيئته تجاههما، وفي لحظة غضب شعواء منه شرع يهتزّ في مكانه، خالعاً كلّ ما عليه من غرف ومكامن ومراقب وجنود وبوّابات، مستسلماً للدّك والتّهاوي تكفيراً عن ذنبه الأسود، ومنداحاً في دموعه الإسمنتيّة وفي أحزانه وندمه على قتل الصّغيرين العاشقين بتجبرٍ وبطش دون رحمة.

المقبرة

لا تستطيع الحاجة رشديّة أن تُحصي أحزانها الفلسطينيّة؛ فأحزان الفلسطينيّ لا تُحصى ما دامت لعنة الاحتلال الصّهيونيّ تنهش ماضيه وحاضره ومستقبله، كذلك لا تستطيع أن تُحصي عدد من فقدتْ من أحبّة من أقارب وجيران وأصدقاء بين قتل وسجن ونفي وتعذيب ومرض وتشويه واختطاف، ونكاية بعدوّها الغاشم فهي تصمّم على أن لا تذكر علناً عدد من قدّمت من أبنائها شهداء في قوافل الحرّيّة، وإن كان قلبها يحصيهم في كلّ لحظة بحرقة وتوجّد وفقد، فهم ثلاثة من زينة الشّباب، كانوا مثل سنابل فرعاء نديّة شهيّة عندما قصفهم العدوّ الصّهيونيّ الواحد تلو الآخر دون أن يرأف بشبابهم المُرتجى أو بآمال أمّهم التّي أفنت سنين شبابهم عاكفة على يتمهم وفقرهم.

لم يرها أحد في يوم تبكي أحداً من أبنائها، وكانت تصمّم على أن يناديها أهل الحيّ باسم أمّ الشّهداء، وتتيه فخراً كلّما روت بالماء وبدموع العينين

زيتونات قبورهم، وداعبتها بانكسار يتعالى على زفراتها اللآّهثة المفطورة على ألم عملاق.

أمّا اليوم فهي لم تخجل من أن تنتحب، وأن تبذل دموعها سخيّة مدرارة وهي تعانق زيتونات بستانها، وتتشبّث بجذع أكبرها لعلّها تعصمها من أيدي جنود الصّهاينة الذين داهموا القريّة من طلوع الشّمس، وعاثوا تقتيلاً في أشجارها قبل أن يجرّفوا أرضها، ويلقوا بأهلها جميعاً خارجها حفاة مذعورين بحجّة تملّك أراضيهم من أجل بناء الجدار العازل. لكنّها على الرّغم من جبروت رفضها الأبيّ للرّحيل وجدت نفسها شعثاء غبراء دون غطاء رأسها الأبيض ودون بيتها أو بستانها أو زيتوناتها الوفيرة بل دون قريتها كاملة، ففي ساعات قليلة كانت معظم أراضي القرية مصادرة، وكانت الأراضي الزّراعية جرداء مغتصبة مجرّفة من أشجارها ومن فرحها، فغدت القرية دون سكّانها بعد أن شطر مخطّط الجدار الفاصل القرية إلى نصفين؛ نصف صغير يسجن خلفه حشداً عظيماً من أهلها، والآخر يعزل أمامه مقبرة القرية الباقي الوحيد منها بعد أن غدت كلّها خلا المقبرة خلف الجدار العازل ذي الأسلاك الشّائكة والكلاب والبنادق والجنود الصّهاينة.

وحدها الحاجة رشديّة من بقيت في القرية المختزلة في المقبرة بعد هذا التّقسيم الجائر السّرّيع الذي نهشها، إذ ظلّت متشبّثة بأرضها، ورفضت الرّحيل لتكون شهيدة جديدة تزفّ إلى المقبرة وإن كانت لا تزال على قيد الحياة! أمضت أيّاماً قصيرة في مثواها الجديد موزّعة بين أبنائها الأرواح الثّاوين في القبور، وبين شجراتها الزّيتونات المرسلات قتلى على أرض المقبرة بعد أن رحّلتهم إلى جانبها، وفي جنباتها ذلك الحقد المرجل على ذلك الجدار الغاشم الذي بات ينمو بتوحّش أمام عينيها ليحرمها من قريتها وأهلها وتاريخها المديد.

المقبرة هي آخر من تبقّى لها من عالمها المتواري قهراً خلف الجدار، وهي هنا وحيدة لا تملك سوى شجاعتها وإصرارها على البقاء، وفأسها آخر من رافقها في دربها نحو زيتوناتها، تحدّق في فأسها العتيد المخلوع جانباً، تتفرّس مقبضه الخشبيّ الموشّى بمزق جلد يديها، تتأبّطه، وتحكم ربط غطاء رأسها، وتحزّمه بأطراف ثوبها، وتخطو أوّل خطواتها نحو الجدار، خطواتها ثابتة وسريعة تقصد أن تنهال بفأسها على الجدار تحطيماً وتهميشاً، تقترب أكثر من جنود العدوّ الذين يهرعون هروباً نحو البعيد من وجه امرأة عجوز تحمل فأسها وغضبها وانتقامها المستعر، وخلفها أجساد تجرّ أكفانها، وتحمل فؤوساً مهدّدة بها وهي تكاد تنقضّ على الجدار، وفي الأفق تلوح المقبرة بقبور مفتوحة قد غادرها الشّهداء إكراماً لدموع الحاجة رشديّة بغية مساعدتها في تحطيم الجدار العازل.

حالة أمومة

لم تكن تعلم بزرع الجدار العازل على أرض قريتها في فلسطين، وهي تقبع في غرفتها الصّغيرة المعزولة في مستشفى إحدى العواصم العربيّة بعد أن حصلت على منحة علاج من إحدى المنظّمات الطّبّيّة الخيريّة الدّوليّة بعد طول انتظار لتُعالج من مرض السّرطان الخبيث الذي غزا ثديها الأيسر منذ أن وضعت ابنها الوحيد هاشم، ومنعها من أن ترضعه ولو لمرّة واحدة في حياتها، ثم ألجأه إلى حضن عمّاته الثّلاثة العوانس اللّواتي يشاركنها السّكنى في البيت نفسه، كما يقاسمنها أعباء الحياة القاسيّة في مواجهة عدوّ اعتاد جنوده على مهاجمة بيتهم في دوريات تفتيشيّة مداهمة مكرورة منذ أن اعتقلوا زوجها في مواجهات احتجاجيّة في الشّهر الثّاني من حملها.

زوجها كذلك لم يعرف شيئاً عن مرضها أو عن سفرها خارج الوطن برفقة والدها من أجل العلاج، فقد أخفت أمر مرضها عن زوجها بناء على رغبة شقيقاته اللّواتي آثرن التّكتّم على هذا الخبر كي لا يزدن من عذابات معتقله، وبوائق أحزانه وآلامه.

كانت تحلم بأن تعود إلى بيتها بعد طول غياب كي تضمّ صغيرها إلى صدرها الذي فقد ثديه الأيسر قرباناً للمرض، فتشمّه، وتغيب معه في احتضان طويل دافئ يجفّف برد حرمانها منه، وما كانت تعلم أنّها ستجد وطنها قد سُرق من جديد، وأن بيتها قد أصبح محض ذكرى سرابيّة بائدة، وأنّ شقيقات زوجها قد توزّعن على بيوت الأقارب مهجّرات بعد أن صادر العدوّ بيتهم وأرضهم، وحوّلها إلى مساحة جرداء تحتضن جداراً إسمنتياً يحوّل الوطن إلى سرادق ضيقة ومصائد فئران وسجن انفراديّ.

تلاشى حلمها الورديّ بأن تحتضن طفلها الصّغير، بعد أن تحوّل إلى كابوس تعيشه بتفاصيله القبيحة الموحشة، وها هي قد أصبحت لاجئة في وطنها، وعلقت مع أبيها في بيت حجرة يسكنه أفراد عشرة من أقاربها، ومن جديد بات عليها أن تحارب سرطان الألم والوحدة والنّبذ.

حاولت دون جدوى أن تعود إلى أسرتها خلف الجدار، واشتدّت محاولاتها إلحاحاً عندما علمت أنّ زوجها قد خرج من المعتقل، واكترى بيتاً صغيراً في أطراف قريته، وجمع شمل أسرته من جديد، وجعل شغله الشّاغل أن يجد طريقة تسمح لزوجته بالعودة إلى بيتها وأسرتها وابنها، لكنّه كان يخفق المرّة تلو الأخرى في تحقيق مراده، ويعود إلى سريره الحزين مخذولاً محروماً.

كانت الفرصة الوحيدة للّقاء هي عبر الحصول على تصريح زيارة حصلت عليه بشقّ الأنفس، ولو كان هناك سفر للشّمس لكان أيسر من الحصول عليه، وأخيراً استطاعت أن تضمّ طفلها إلى صدرها تحت عيون الرّقباء غير الوامقين من الجنود الصّهاينة، بدا لها أنّه بالغ الإعياء على الرّغم من تلك الحمرة الوراثيّة التّي تعلو وجنتيه، جفل منها عندما أمطرته بقبلها الهوجاء الملوّعة، لكنّه استسلم سريعاً إلى رائحة أمومتها الفيّاضة التّي تزكم أنفه وهي تدسّه في حضنها بانفعال واضطراب.

عيناه موئل لحزن عتيق، ورائحته تعجّ برائحة عشرات النّساء اللّواتي تناوبن على إرضاعه بعد أن فقد أمّه كي يحافظن على حياته من الهلاك، فأصبحت له عشيرة من الأمهات المرضعات والأخوة بالرّضاعة، ضمّته أكثر إلى صدرها؛ لعلّها تكسوه برائحتها الحانية، فتنزع عنه رائحة الأمهات المرضعات الكُثر اللّواتي يشاركنها أمومتها بوحيدها الصّغير.

سريعاً ما انتهى وقت زيارة التّصريح، وتلقّف زوجها ابنهما منها، وضمّه إليه بشجاعة يحاول أن يصطنعها على كره وإصرار، لكنّه يخفق في إتقانها، طبعتْ قبلة سريعة على جبين ابنها، وهمستْ في أذنه: "سأعود في القريب. صدّقني". ثم غادرت المكان، وهي تخلع قدميها المرّة تلو الأخرى من الأرض التّي يصعب عليها أن تغادرها، ومزقة من قلبها تضطرب بعجزٍ بين يدي زوجها الذي يسير نحو البعيد مهدّماً ضعيفاً، كأنّه شاخ بمقدار قرن أو اثنين في أسابيع قليلة.

مضى يومان، وهي تحلم بأن تضمّ طفلها إلى صدرها من جديد، وهي أسيرة عينيه الزّائغتين في فراغ مجهول، عندما رفض العدوّ أن يعطيها تصريحاً

للزّيارة ولو لدقائق قليلة، هزأت من جبنه المتجبّر على طفل صغير وأمّ مريضة وحيدة، وقرّرت أن ترى ابنها أوافق العدوّ على ذلك أم أبى.

في المساء كانت قد عبرت الجدار الفاصل رغم أنوف الجنود الصّهاينة المدجّجين بالسّلاح والخوف والحذر، لكنّها لم تكن تسعى حيّة على قدميها عندما عبرته، بل كانت جثة هامدة مخرّقة بالرّصاص، وموصومة بجريمة التّخريب، ركلها الضّابط المناوب على الحراسة اللّيليّة بحذائه العسكريّ الغليظ، وأمر جنوده بأن يبعدوها عن البوّابة، ففعلوا، وكوّموها إلى جانب الجدار وكفّ يدها متخشّبة على ثديها الأيمن الذي كانت تحلم بأن ترضع ابنها منه ولو لمرّة واحدة في حياتها المهدورة على بوابة الجدار العازل.

الصّديق السّرّيّ

لم يحظّ يوماً بأيّ صديقٍ بالمعنى الدّقيق لهذه الكلمة، ولعلّ هذه الشّفة الأرنوبيّة هي السّبب في هذا الأمر؛ لم يستطيع أبداً أن يدير حواراً غير مختزلٍ مع أيّ أحد خارج بيته كي يختزل لحظات تحديق العيون الفضوليّة في شفته الأرنوبيّة التّي وُلد بها، البعض يقول إنّها عيب خلقيّ مردّه إلى أنّ أمّه قد أنجبته وهي كبيرة في السّن قد تجاوز عمرها الخمسين سنة بعامين، والبعض يرجّح أنّ هذه الشّفة هي من مضاعفات القنابل المسيلة للدّموع التّي يغرق العدوّ الصّهيونيّ الشّوارع والأحياء بها مرّة تلو الأخرى.

لا يعرف سبب علّته ونقصه، لكن ما يعنيه من كلّ ما سمعه حول شفّته أنّه يستطيع أن يتخلّص منها بعمليّة تجميليّة سهلة في أيّ عاصمة عربيّة خارج الوطن حيث طبّ التّجميل متقدّم ومتيسّر، لكن هذا حلم مؤجّل بسبب ذلك

الجدار العازل الذي خنق قريته، وعزله وقومه عن الدّنيا وأهلها في جغرافية ضيّقة تناضل لتظلّ على قيد الحياة في أصعب معطيات الاستمرار.

هذه الشّفة جعلته يصادق النّاي الخشبيّ الذي صنعه جدّه له منذ زمن طويل، هذا النّاي هو الصّديق الوحيد الذي يهبه وجهه كاملاً غير متدارٍ خلف الصّمت كي يشيح بشفته عن أيّ نظرات فضوليّة قد تطرح عليه الأسئلة المزعجة الخانقة عن سبب هذا التّشوية الخلقيّ المزعج.

لولا هذا الجدار العازل لستطاع أن يجري العمليّة المنشودة منذ أشهر طويلة، لكنّه مصلوب على عذاب يتلخّص في أنّ من يخرج من بيته خلف الجدار الفاصل قد لا يستطيع العودة إليه، إذن عليه أن يظلّ في انتظار أمله المجنّح المحلّق نحو البعيد، وفي انتظار ذلك يهمس بأحلامه الزّاهية وآماله الملحاحة إلى نايه الحبيب الذي يحوّل دواخل نفسه المكلومة إلى موسيقى عذبة قادرة على أن تتحدّى الجدار، وأن تحلّق بفرح نحو البعيد حيث الانعتاق والحرّيّة دون أن تطالها يد خانقة، أو يصادرها ظلّ جدار عال لا يُتخطّى.

جزء من الجدار العازل ما يزال غير إسمنتيّ بل هو أسلاك شائكة، وحراسة مشدّدة في انتظار دوره كي يُزرع إسمنتاً وصلباً وحديداً مثل سائر الجدار، ومن أقصى امتداده الشّرّقيّ حيث يمتدّ في حقول الحمضيات بعد أن اكتسح الأشجار، ونزعها ليلقي بها بعيداً يكشف عن تلك المستعمرة الصّهيونيّة التّي تربض على أرضٍ سلبتها وجوه غريبة شوهاء قادمة من البعيد لينتصر الموت والبغي والظّلم والأسلحة على الجغرافيا والتّاريخ في معادلة سياسيّة استبداديّة ساخرة.

في البداية اعتاد على أن يتلصّص على المستدمرة من باب الشّهوة في كسر إسار الجدار المضروب حول كلّ شيء، فيما بعد غلبه الاستسلام لتلك اللّعبة الفضوليّة الجهنميّة المسمّاة مقارنة، أركان اللّعبة متوفّرة كاملة في هذه اللّحظة وفي اللّحظات جميعها، فعالمه المقهور المظلوم في مواجهة ذلك العالم المرفّة الجميل هناك في المستدمرة، هنا تحاصره وجوه الجنود والكلاب والسّلاح والموت والأرض المحروقة والمعتقلات والتّعذيب والقتل والخراب واليتم والخوف والفقر والحرمان وحظر التّجول والشّوارع الضّيّقة والبيوت القديمة والخدمات المعدومة والغلاء والمعاناة، وهناك في المستدمرة على مسافة يقطعها بربع ساعة من السّير الهوينى يرى الرّخاء والرّفاهيّة والسّلام والأمن والغنى وأسباب السّعادة حاضرة جميعها، قليل من التّفرّس في تلك الوجوه الطّفوليّة الباسمة الرّغيدة المترعة صحّة وعافية، وهي تصهل في تلك السّاحة العشبيّة الخضراء، وتتبارى في صخب وضحك كفيلة بأن تقوده إلى صور بؤسه المقيم حيث الوجوه الكالحة في القرية، إذ لا تأتي السّعادة إليهم إلاّ مهربّة تستعجل المغادرة، ثم تولّي هاربة مع أوّل طلقة رصاص من بندقية صهيونيّة.

كم يحلم بأن يعيش في هذه العالم الجميل، ومن جديد يتساءل لماذا عليه أن يكون أسير عالمه البائس حيث ظلّ الجدار العازل؟! يكرّر السّؤال على نفسه المرّة تلوالأخرى، وتحار الإجابات، وتضلّ طريقها بعيداً عنه، ويظلّ أسير هذا السّؤال الذي يقدح زناد سخطه وحقده، فيضيفه إلى جملة أسئلته ذات الأقدار المجهولة.

لم يكن يتوقّع أنّ هناك عينين ترقبانه منذ أيّام طويلة، وتسعيان إلى أن تقتربا منه إلى أكبر مسافة ممكنة، ولم يتخيّل أن تسلّله لبضع خطوات إلى داخل المستدمرة سوف تجعل تلكم اليدين الصّغيرتين تقبضان عليه بعطف موزّع بين

الحذر والخوف والرّغبة الشّديدة في التّواصل، كاد قلبه يطير خوفاً عندما هبطت اليداناللدّافئتان الصّغيرتان على كتفه، لكـن تلـك القبضـة الحنونـة البعيـدة عـن القسوة التّي ألفها وشعبه من أيادي الصّهاينة جعلته يستسلم لها، ويلزم مربضـه دون أن يفكّر في الهرب.

العينان اللّتان كانتا ترقبانه واليدان اللّتان قبضتا عليـه كانتـا لصـبيّ في مثـل عمره، هو صهيونيّ صغير من ذلك العالم حيث الرّفاهية والسّعادة، إنّه من أبنـاء الغاشمين الظّلمة الـذي سـرقوا وطنـه، ذلـك الغريـب الصّـغير يعـيش في نـور الشّمس، أمّا هو فيعيش قسراً في ظلّ الجدار العـازل، عليـه أن يبتعـد عنـه، وأن يغادر المكان ليعود إلى أهله وبيته، وأن لا يثق فيه، لكنّه يرى أمناً غريباً في عينيـه الرماديّتين، ورجاء مخلصاً يسأله بذل أن يظلّ معه، وأن لا يهرب بعيـداً عنـه، في نفسه حربان، وعليه أن ينتصر لواحـدة منهمـا ضـدّ الأخـرى كـي يجـد طريـق الرّشاد؛ إمّا أن يهرب نحو البعيد، أو أن يصدّق قلبه الذي يهمس لـه بـأن يبقـى مع هذا الصبيّ الصّهيونيّ ولو لبعض الوقت، ونفسه تهتف به أن يستسلم لهمس قلبه، وأن يقطع أجمل أوقات اللّعب معه في هذه الحديقة الجميلة التّي يرتع فيهـا ليل نهار.

مضت أسابيع طويلة وهو يسعد بهذا الصّـديق السّـرّيّ الـذي وهبـه لـه القدر في لحظة تخلّ عن قسوته، لقد حظّي أخيراً بصديق حقيقيّ لا يخجل من أن يحدّق في شفّته الأرنوبيّة الشّوهاء، هما من عالمين مختلفين، بـل مـن معسـكرين متحاربين، لكن تجمعهمـا محبّـة طفوليّـة كلّهـا دهشـة وأُنـس وألفـة ولا تخضـع لحروب الكبار وخصوماتهم، ولا تعترف بجدران أو فواصل، يجلسـان لسـاعات مختبئين في مربضهما بين الأشجار في حديقة المستعمرة، متواريان عن كـلّ شـيء خلا حديثهما العذب الحنون، يتحدّثان في كلّ شيء بلهجة خلـيط مـن العربيّـة

والعبريّة التّي يتوافر كلّ منهما على أقدار كافية منهما، ويتمنيّان لو يستطيعان أن يجريا في المروج دون وجل أو خوف.

في لحظة تخلّ عن ضوابط عالميهما يقرران أن يجريا ويرمحا في الحديقة، يخرجان من مكمنهما، وشطيرة كلّ منهما في يده، يقضم كلّ منهما قضمات سريعة من شطيرته، ويمضغ لقمه على عجل، ثم يستسلمان لرغبتهما الأثيرة في الرّكض واللّعب، ويعلو صوت لهاثهما المحمّل بالضّحك والسّعادة، ويطغى ضجيج لهوهما على أصوات الصبيّة حولهما، دقائق تمرّ، وينتبه الموجودون إلى الفتى الفلسطينيّ الأسمر الذي يصهل في الحديقة، ويعانق الفتى الصّهيونيّ، فوضى سريعة تطغى على المكان، وخبر الصبيّ الفلسطينيّ الموجود في الحديقة يطيّر في المستدمرة كما النّار في الهشيم، بنادق تصوّب نحوهما، عيون شريرة كثيرة تحاصر المكان لاقتناص الصّبيّ الفلسطينيّ الذي يتجمّد في مكانه مبهوتاً مرعوباً متذكّراً وصايا أمّه بعدم الاقتراب من المستدمرة، عشرات الصّور والوجوه تمرّ سريعاً دون سبب مبرّر في مخيلته البريئة، وأزيز طلقات يعلو في المكان، ثم تستقر الطّلقات جميعها في بطنه، وتتوالى أخر مسرعة إليه لتستقرّ أنّى شاءت في جسده الصّغير الغضّ، رغبة جارفة في الاستسلام للعدم تجتاحه، فيجثو مهدوماً على الأرض، وعيناه تبحثان عن أرض دون ألم في عيني صديقه الصّهيونيّ الذي يرفع عقيرته برجاء موصول للبنادق كي تكفّ عن صبّ جحيمها على جسد صديقه الفلسطينيّ، وعندما يفشل في إقناع البنادق بأن تكفّ عن إطلاق رصاصها، يلقي بنفسه على جسد صديقه، ليشاركه بتلقّي الرّصاصات الواغلة في جسديهما دون رحمة.

الصّور والوجوه جميعها تغيب عنهما، يسقطان أرضاً في مساحة صغيرة، عينا الصبيّ الصّهيونيّ تجولان بوهن في عيني صديقه الفلسطينيّ بحثاً عن ابتسامة

مسامحة يهبها له تكفيراً عن هذه الرّصاصات التّي اغتصبت فرحه وروحه، وعينا الصبيّ الفلسطينيّ تهربان نحو الجدار العازل حيث وجه أمّه مسجوناً خلفه في حزن دائم، يبتسم لوجهها ذي الحزن النّبيل الدّائم وهو يبرق في ذاكرة قلبه، ثم يمضي نحو البعيد حيث لا جدران عازلة أو بنادق غادرة أو صديق صهيونيّ اللّعب منه يعني الموت.

شمس ومطر على جدار واحد

لا شيء في هذا المكان يذكّرها بالشّمس الجميلة المشرقة على الرّغم من ارتفاع حرارة الجوّ إلاّ وجه ذلك الشّاب الفلسطينيّ الذي اعتادت على أن تراقب قسماته في كلّ صباح وهو يعبر بوابة الجدار العازل حيث يمرّ بالمكان جبريّاً ليعبر إلى الطّريق السّريّع باتّجاه عمله، منذ وقعت عيناها عليه في صباح مشمس شعرت بالدّفء الحاني بدل الحرارة اللافحة التّي كانت تحرقها في مكانها، وتجعلها تلعن اللّحظة التّي جعلتها تترك هنغاريا، وتجري خلف أساطير كاذبة عن أرض الميعاد.

في حقيقة الأمر هي كانت تبحث عن فرصة جديدة للحياة والعمل والدّراسة بعيداً عن صديقها البلجيكيّ الذي خدعها وسرق أموالها مرّة تلو الأخرى، وفي منأى عن زوج أمّها السّكير الذي اعتاد على التّحرّش الجنسيّ بها منذ كانت صغيرة.

جاءت إلى هنا طلباً لفرصة جديدة في الحياة، فلم تجد إلاّ القهر والخوف والعمل المضني ليل نهار، في هنغاريا درست رقص الباليه الذي تحبّه، ويليق بجسدها المرمريّ الذي يخبّ خبّاً مثل حصان أسطوريّ مجنّح بأردية من سحر

ليجيد الرّقص بين السّحاب، ما كانت تتخيّل أبداً أن تقودها الظّروف والخيبات المتتابعة والوحدة والفشل المستمرّ والخوف من العودة إلى هنغاريا لتتطوّع لتكون مجنّدة في الجيش الصّهيونيّ لتقف على الأبواب، وتعدّ أنفاس الفلسطينيين، وتبادلهم كرهاً بكره دون أن تعرف مسوّغاً مقبولاً لذلك سوى موجبات عملها الكريه، ثم تعود إلى بيتها مساءً محطّمة، وتنزف نفسها تقيؤاً وهي تسبّ وجهها الجميل الذي يرضى بأن يعانق هذا القبح كلّه صباح مساء على تلك البوّابة اللّعينة في الجدار العازل.

أُخضعتْ لدورات تدريبيّة نفسيّة مكثّفة لتقبل بفكرة أنّ هذا الجدار يحمي شعبها الصّهيونيّ الذي تنكر في سحيق أعماقها انتسابها له، وتقنع نفسها ظاهريّاً بأنّها تقف على هذه البوّابة لتخدم أمّتها، ولتقمع أولئك المتوحّشين من الفلسطينيين الذين ينخرون في أمن كيانهم الرّابض على هذه الأرض التّي تشعر بأعماقها بأنّها غريبة عنها، ولا تنتمي إليها بأيّ شكل من الأشكال، لكنّها على الرّغم من ذلك ما تزال تشعر بالقرف من نفسها كلّما وقفت ببزّتها العسكريّة تفتّش الأجساد العابرة من بوّابتها، وتشمّ جبراً رائحة الكره والضّغينة والتّحدّي في العيون الفلسطينيّة المتحفّزة لغضب قابل للاندلاع في أيّ لحظة.

كلّ شيء في هذه البوّابة يشعرها بأنّها في جهنم؛ فهي بوابّة متوحّشة تفصل بين عالمين مشتعلين، وهي حارسة عليها دون معنى لوجودها هنا بعيداً عن عاصمة الثّلج حيث وُلدت.

وحده ذلك الشّاب الفلسطينيّ هومن يشعرها بدفء مكلّل بالمطر كلّما مرّ بالقرب منها، لا تشمّ فيه رائحة حقد أو كره أو تحفّز لإيذائها، ترى في عينه غزلاً نادراً لا يجيده إلاّ من يملك روحاً مثل روحه التّي تقدر على أن تغلي عاطفة وحنوّاً حتى في ليلة ماطرة!

هو من جعل لوجودها في هذا المكان معنى وغاية، النّهارات التّي تبدأ بوجهه تغدو رؤومة قابلة للامتداد في الرّوح والجسد والكلمة، عندما تراه تفكّر دائماً برقصة بالية مشتركة مع جسده الرّجوليّ المعجون بشقائه وعرقه وسمرته المثيرة على الجليد اللّامع الزّلق. أحياناً كان يفوتها أن تراه في طابور العابرين في الصّباح لانشغالها بتدقيق أوراق المناوبين الصّباحيين، ولكي تتلافى هذا الحدث غير السّعيد، فقد اعتادت على أن تأتي مبكّرة لتدقّق الأوراق الرّسميّة، فيخلو لها وجه الأسمر تتفرّسه قدر ما شاءت حتى يغادر نحو البعيد مع زملائه من العمّال الفلسطينيين الذين يعبروا كلّ يوم بوّابة الحزن نحو الشّقاء في الأراضي المستدمرة كي يلاحقوا لقمة العيش المغموسة بالخوف والحزن والذّل وساعات لا تعدّ ولا تُحصى من الانتظار على البوّابات والمعابر ونقاط التّفتيش والتّحميل والتّفريغ.

أصبحت الحياة أجمل بوجوده، مرّة تعمّدت أن تفتّشه بيديها العاشقتين، فاحترقت برعشة الاشتهاء، ولوعة الشّوق وهي تتلمّس هضاب جسده وسهوله بضراعة من يتبرّك بعباءة وليّ صالح، مسّدت أكثر من مرّة على عضلات صدره، وكادت تلمس خفقات قلبه الذي فضح صمته، وقال لها قهر تكتّمه: "أحبّك".

فيما بعد عاهدت نفسها على عدم الاقتراب منه أكثر كي لا تحترق بجمر جسده، واكتفت بأن تكون في أقرب نقاطها منه في كلّ صباح، تيسّر له العبور مع من معه من العمال بأقلّ قدر من الانتظار والإزعاج، وتسعد بادخار نظراته في عميق وجدانها حيث تسكن الإيقاعات الموسيقيّة ممزوجة برقص الباليه.

كانت ترجوه بصمت أن يهمس لها بأيّ كلمة، وما كانت تحلم بأن يهديها ديواناً شعرياً لشاعر فلسطينيّ قال لها إنّ اسمه محمود درويش، وإنّه يحبّه جداً،

فكان لزاماً عليها من تلك اللّحظة أن تحبّه إكراماً لحبيبها الأسمر الجميل. تفرّست في الدّيوان على غير عجل، كأنّها تريد أن تنعّم أناملها بمس كلّ صفحة قد يكون قد مسّها من قبلها، حدّقت طويلاً في الصّفحة الأولى حيث كتب لها بخط عربيّ بديع الانحناءات: "عندما أراك يسقط المطر في سماء روحي: مصلح الوادي".

قرأت العبارة عشرات المرّات حتى حفظت انحناءات كلّ حرف فيها، وراق لها أن تجمع مطر قلبها مع شمس وجهه كلّما التقيا في بوّابة هذا الجدار المقيت الذي باتت تتقزّز من ظلّه الرّابض على صدر الرّجل الذي تخشى أن تعترف لنفسها بأنّها تحبّه.

أشهر طويلة مرّت وهي تراقصه رقصة العشق في هذه البوّابة، وتحلم دون توقّف بنهار مشمس يتخلّله مطر مداهم يدكّ هذا الجدار ببوّاباته جميعها، ويسمح لها بأن تقترب منه لتقول له دون خوف أو وجل أو ريبة: "أحبّك".

هذا الصّباح استيقظت من نومها وهي تتمتم بجملة: "أحبّك"، طوال الطّريق وهي في دربها إلى البوّابة في سيّارة الجيش كانت تحلم بأصابعه تداعب نمشها الورديّ، وبشفتيه الغليظتين ترسمان قبلة على جبينها الصّغير النّاصع البهاء، المطر كان يقرع زجاج السيّارة، وأشعة الشّمس تتحدّى قطرات المطر الوليدة، وتشاغب خصلات شعرها الأحمر المجعّد، فتبتسم ابتسامة أنثويّة تعجز عن كتمانها في أعماقها، وتشرئب نحو البعيد حيث البوّابة تقترب منها، وموعد لقائها الصّباحيّ بمن تحبّ يقترب كذلك.

عندما وصلت إلى البوّابة كان المكان يضطرب بالجنود والصّخب والكلمات المتطايرة التّي تشير إلى مشكلة ما، ومن خلف جموع الجنود كان تبزغ

أجساد مسجّاة على الأرض وكلاب بوليسيّة شرسة تنهشـها، زملاؤهـا الجنـود قالوا لها إنّهم عمّال فلسطينيون مخرّبون، اقتربت منهم بوجل؛ فهي تدرك معنـى كلمة مخرّب المزعومة التّي يتّخذها جنودهم ذريعـة لممارسـة مـوهبتهم في القتـل والتّنكيل بالبشر، وجه ذلك الأسمر المدرّج بالدّم والزّبد وابتسـامة هازئـة بكـلّ جبروت أوّل ما صفع وجههـا، وأشـعرها بالصّـقيع اللافـح المغـروز في العظـام والقلب، تكوّمت إلى جانبه دون أن تجرؤ على أن تدفن رأسه في حضنها ولو لمرّة واحدة في حياتها، كانت مغمورة بظلّ الجـدار العـازل حيـث العفونـة والظّـلام والكآبة والظّلم، فكانت العودة إلى هنغاريا دون رجعة إلى هذا المكان هي الفكرة الوحيدة التّي تملك عليها ذاتها، وتلحّ عليهـا قبـل أن يقتلـها الجـدار كمـا قتـل الرّجل الذي عشقته.

مَنْ أطفأ الشّمعة الأخيرة؟

لا تجيد التّنظير السّياسيّ أو الفلسفيّ مثـل معظـم المناضـلين الفلسـطينيين، كذلك لا تستطيع أن تقرأ أو أن تكتبُ؛ فهي من مواليد القرن الماضـي، ولم تـتح لها فرصة للذّهاب إلى الكتّاب، فقد كان ذلك محرّماً على الفتيات في ذلك الوقت وفق أعراف اجتماعيّة صارمة، وكان مقصوراً على الـذّكور، ومـن ثـم أخـذتها الحياة الزّوجيّة المبكّرة والأمومة المتكرّرة لتسع مرّات متتابعة من متابعة الـبرامج الثّقافيّة أو تعلّم القراءة والكتابة أو التفرّغ للجلسات الحواريّة السّياسـيّة، لكنّهـا تعرف أنّ البطولة والوطنيّة والمقاومة الفلسطينيّة للعدو الصّـهيونيّ تكـون علـى قدر الظّروف والمعطيات والملكات.

ملكتها العظمى تتمثّل في أمومتها التّي تتّسع لسكّان كوكب الأرض جميعهم، وتمتدّ لتحتضن الأسرى الفلسطينيين في المعتقلات الصّهيونيّة؛ بدأت حكايتها مع أمومتها العملاقة عندما زُجّ بابنها البكر عبد المجيد في المعتقل الصّهيونيّ، وحُكم عليه بالسّجن مدى الحياة، ثم لحقه أخواه الأصغران ليغدو ثلاثتهم أسرى المعتقل المتوحّش، كانت تمضي أسبوعها تلاحق الجهات المسؤولة والصّليب الأحمر كي تحصل على تصريح زيارة لأحدهم أو لجميعهم، وقليلاً ما كانت تحصل عليه دون تكرار رفض ومماطلة وتنكيد ومراوغة لأوهى الأسباب، ومن ثم بات من المستحيل أن تحصل على تصريح لزيارة ابنها البكرعبد المجيد الذي غُلّظت العقوبات عليه، ومُدّد حبسه الانفراديّ إلى الأبد، من ثم حرُمت من زيارة ابنيها الأصغرين بسبب الجدار الفاصل الذي قطع الأرض بينها وبين معتقليهما، فتباعدت الأرض بينهم على الرّغم من تقاربها، وأصبح العالم في فلسطين لا يُفهم إلاّ بمنطق باطن الجدار وظاهره.

من هذا المنطق الظّالم وجدت نفسها أمّاً يفصلها جدار إسمنتيّ أصمّ عن أولادها المعتقلين، كما يفصل الجدار نفسه آلافاً من الأمهات الفلسطينيات عن أبنائهنّ وبناتهنّ في المعتقلات؛ فقرّرت أن تكون إلى جانب المعتقلين الفلسطينيين ضدّ الجدار، كما صمّمت على أن تمارس أمومتها معهم، بدأت الفكرة بتجربة، ثم أصبحت التّجربة واقعها المعيش، في معتقل البلدة كان هناك ١٤٦ معتقلاً ومعتقلة، وقد بات شغلها الشّاغل أن تزورهم الواحد منهم تلو الآخر، وأن تتعرّف عليهم، وأن تكون أمّاً لهم أجمعين بدل أمّهاتهم المحرومات من الزّيارة اللّواتي لا يستطعن الوصول إليهم.

تعاطف الصّليب الأحمر مع رغبتها، وجنّد إمكاناته المحدودة من الوساطات والدّعم من أجل أن يساعدها على زيارة الأسير تلو الآخر، كانت أمومتها

عونها في هذا الأمر، كانت الشّمعة الوحيدة في حياة الكثير من المعتقلين، تحفظهم فرداً فرداً، وتسأل عن أحوالهم، وتعرف ظروفهم، وتتابع قضاياهم، وتصغي إلى شكواهم دون تذمّر أو ملل، وتحاول ما استطاعت أن تخفّف عنهم آلامهم وقهرهم حتى باتت الأم الحقيقيّة لكلّ منهم، وغدت زيارتها بلسم لكلّ معتقل، كما غدت شمعتهم الأخيرة والوحيدة في ظلام معتقلهم القابض على أرواحهم الثّائرة، ونالت باستحقاق لقب "أمّ الأسرى".

كانت تتشفّع عند الله بهذه الأمومة الغامرة، وهذا العطاء الموصول كي يفكّ أسر أبنائها، وييسّر لها أمر الحج إلى بيت الله الحرام قبل أن يستردّ الله روحها الأمانة، ويختارها إلى جانبه حيث الرّحمة والعدل، وعلى غير متوقّع خرج ابنها الكبير من المعتقل، وهو المحكوم مؤبداً في صفقة تبادل للأسرى مع الصّهاينة، ونُفي إلى بيروت تنفيذاً لبنود الصّفقة حيث سيستقرّ هناك، كان أوّل ما عمله هو أن سعى للحصول على فرصة لكي تحجّ والدته ووالده إلى البيت الحرام، وتكلّلت مساعيه الحثيثة بالنّجاح، فكانت تأشيرة السّفر وحجز مكانين في حافلة الحجّ ونقود كثيرة أوّل ما أرسل إليها من منفاه الجديد.

فرحت "أمّ الأسرى" بتحقّق حلمها بالحجّ لاسيما مع اقتراب موعد خروج ابنيها الآخرين من المعتقل، وأعدّت العدّة كي تتوّجه إلى بيت الله الحرام برفقة زوجها، وطوّفت لأسابيع على المعتقلين كي تودّعهم قبل سفرها، فحمّلوها بمحبتهم وبدعواتهم لها وبرسائلهم الشّفويّة لأمهاتهم وأسرهم إن تسنّى لها في خروجها من أسر الجدار أن تقابلهم أو أن تزورهم.

عندما خرجت من بوابة الجدار نحو الحرّيّة متّجهة إلى بيت الله الحرام، تذكّرت أمراً واحداً، وهو الرّسائل الشّفويّة التّي حمّلها المعتقلون لها، كانت هذه

هي المرّة الوحيدة التّي تخرج فيها منذ سنوات من أرض عزلة الجدار، ولعلّها تكون المرّة الأخيرة أيضاً قبل أن ترحل عن هذه الحياة.

حدّقت طويلاً في السّماء الممتدّة في الأفق دون قيود، وتراءت أمامها قلوب أمّهات الأسرى الفلسطينيين التّي تتوق إلى أخبار عن أبنائهنّ المعتقلين، وضجّت في خاطرها نصوص آلاف الرّسائل الشّفويّة موشّاة بأصوات أصحابها وبمشاعرهم وباختلاج جوارهم، وقرّرت في لحظة تضحيّة أن لا تذهب إلى الحجّ، وأن تستثمر أيّام حرّيتها خارج الجدار في تبليغ الرّسائل إلى أصحابها.

لم يكن من الصّعب عليها أن تزجر نفسها الطّامحة إلى تحقيق حلمها في زيارة بيت الله الحرام، منحازة بذلك إلى صوت الرّحمة والأمومة في داخلها، ودّعت زوجها على تخوم الجدار وهو يقصد الحجّ وحده دونها، وهو يلوّح لها بثوبه الأبيض، ويدعو لها وله بالمغفرة.

قضت "أمّ الأسرى" أيّاماً موصولة بالتّطواف في أرض وطنها، دقّت الأبواب وفق العناوين التّي تحفظها عن ظهر قلب، حتى أوصلت الرّسائل إلى أصحابها، فما تركت أمّاً إلاّ وواستها، ولا زوجة إلاّ وأسرّت لها بكلام زوجها، ولا طفلاً إلاّ وحملت له قبلات أبيه، وحفظت قسماته بعناية واقتدار كي ترسمها في مخيال والده الذي لم يره منذ زمن.

لقد قرّت نفساً بعد أن أدّت الرّسائل الأمانات إلى أهلها، وها قد أزف موعد العودة إلى منزلها، حزمت تعبها واشتياقها إلى أبنائها الأسرى، ووقفت في طابور انتظار طويل كي تعبر بوّابة الدّخول عبر الجدار العازل، وطال انتظارها كما طال بالموجودين جميعهم إمعاناً في إذلالهم والتّضييق عليهم، فانتبذت مكاناً قريباً لتريح شيخوختها الثّمانينيّة المثقلة بهموم المعتقل والمعتقلين، وطال انتباذ

جسدها مكاناً قصيّاً، أمّا روحها فكانت طائراً أبيض طاهراً يحلّق نحو ربّه في مستقرّة الأخير بعيداً عن شبح الجدار العازل بعد أن حجّت بطريقتها الخاصّة، واستعدّت للقاء ربّها الحنّان المنّان.

عندما لا يأتي العيد

إذا لفظ بصعوبة موزّعة بين مخارج الحروف المشبعة بزفير الهواء، وحشرجات دفعها خارج فمه الذي يزمّه بشدّة ليخرج منه كلمة"هاها" فهو يلفظ -دون شكّ- اسم ابنه هادي، لم يفكّر يوماً في أن يحاول أن يتحدّى بكمه الذي ناله عطية مجانيّة إجباريّة صهيونيّة من انفجار مدوّ لقنبلة أفقده سمعه وهو رضيع، ولم يجرّب في يوم أن يلفظ كلمة واحدة، واكتفى بالقدر القليل من الإشارات والإيماءات التّي أنتجها بفعل حاجاته الضّروريّة مثل الحاجة إلى الأكل أو الشّرب أو الرّاحة أو النّوم أو قضاء الحاجة، فهو لم يتلقَّ أيّ دروس في لغة الصّم والبكم؛ لبعد تلك المؤسّسات عن قريته، ولتعذّر الذّهاب إليها بسبب الحواجز الصّهيونيّة التّي تطوّقه وقريته من كلّ مكان، لكن منذ زفّت السّماء إليه فرحة قلبه ابنه هادي بعد زواج طال لعقد كامل من ابنة عمّه تمام، غدت الحياة في عينيه أجمل، وأصبح يملك سبباً مقدّساً كي ينطق اسمه ليل نهار، وإن كان نطقه له يخرج على شكل ترديد ممطوط مشبع بالمدّ لحرف الهاء، لكن ما يعنيه في هذا الأمر أن يعرف ابنه هادي أنّه يناديه، أو يقصده بكلامه، وهذا حسبه في الحياة كلّها، فما الحياة عنده إلاّ ابنه هادي.

منذ أن وُلد هادي قبل تسع سنوات صار يملك سبباً للحياة، وهدفاً للامتداد، والتحق سرّاً بالكتائب المسلّحة في قريته لمواجهة الاحتلال الصّهيونيّ،

وتلقينه الضّربات الموجعة الواحدة تلو الأخرى عقاباً له على جرائمه وتنكيله، وحثّاً له على الخروج من وطنه السّليب، وعليه أن يفعل ذلك، فهذا الوطن ملك لابنه هادي ولأبناء الفلسطينيين لا لأبنائهم الغرباء، ابنه هادي وأبناء الفلسطينيين عليهم أن يكبروا هنا، وأن يسعدوا هنا، وأن يدفنوا هنا بعد أن يموتوا، أمّا الغرباء فلا مكان لهم في هذه الأرض، ولذلك عليه أن يبذل النّفيس والغالي من عمره ونضاله وصحّته كي يهب لابنه هادي مستقبلاً محرّراً وعادلاً دون شبح شيطانيّ اسمه الاحتلال الصّهيونيّ.

في البداية لم تتحمّس الكتائب المسلحّة الفلسطينيّة لفكرة تجنيد رجل أصمّ شبه عاجز عن التّواصل على حدّ تقديرهم، لكن عندما وضعوه في اختبارات متعدّدة وجدوه مثالاً للشّجاعة والإصرار والعمل والتّضحية والتّكتم، لذلك عهدوا إليه المرّة تلو الأخرى بالمهمّات الصّعبة، وكان يقوم بها بكلّ سرّيّة وإخلاص وتفانٍ، ولا يهمس لبشر بأمرها خلا ابنه هادي الذي كان يهمس له في أذنه اليمنى وهو نائم بكلّ ما فعله لأجله، ويطبع قبلة مديدة على جبينه النورانيّ، ويضمّه إلى صدره بكلّ عطف وفخر به، وينام قريراً سعيداً حالماً بفجر قريب.

غداً يكون عيد الأضحى المبارك، وعيده اليوميّ المتكرّر هو أن يرى وجه ابنه هادي باسماً سعيداً عفيّاً مشافىً من كلّ مرض أو همّ، وزوجته تحمله كباقة زهر، وتدور به على بيوت القرية، تبارك لهم بالعيد، وتطمئنّ على أحوالهم، وتحمل الحلوى إلى البيوت الأشدّ فقراً من بيوتهم، وتصلهم ببرها وحنانها وتعاطفها مع سائر أحوالهم، هو وزوجته لم يلبسا ملابس عيد جديدة منذ سنوات بسبب ضيق اليدّ لاسيما بعد أن زُرع هذا الجدار العازل الذي ابتلع المزيد من فرص العمل القليلة التّي كان الفلسطينيون يحصّلونها بشقّ الأنفس

من هنا وهناك أينما تيسّر لهم ذلك، لكن هادي كان يزهو بـالملابس الجديـدة في كلّ عيد، ولو كلّفهم ذلك بيع قطعة من أثاث البيت، أو التّنازل عن أكل اللّحـم لأيّام طويلة، فهذا هو هادي الغالي العزيز، وله أن يسعد، ولو كانت عيناه وعينا زوجته باكيتين حزينتين، فما العيد إن لم يسعد هادي بملابسه الجديـدة؟! ويطـير فيها في شوارع الحيّ ودروبه الصّغيرة.

في الأعياد السّابقة كان يرافقه مع أمّه إلى السّاحة الكبرى العامّـة في القريـة للاحتفال بالعيد مع أهل القرية، لكن منذ أن فصل الجدار بينهم وبـين السّـاحة والكثير من أراضي قريتهم وبيوتها، بات يكتفي بأن يراقبـه وهـو يلعـب علـى الأرجوحة الوحيدة الموجودة في الفناء الخلفيّ للبيـت، ويقتسـم المتعـة بهـا مـع أترابه الكُثر من أبناء الجيران؛ متعتهم صغيرة، لكـن قلـوبهم الصّـغيرة الطّـاهرة قادرة على صنع السّعادة من أصغر مسبّباتها، ولو كانت أرجوحة خشبيّة صغيرة مثبّتة على أغصان شجرة توت عجوز بحبال مهترئة.

أمّا سعادته فهي تنبع وتصبّ في قسمات وجه هادي وهو يبتسم على قـدر ملء روحه وهو يلعب مع أترابه، ويستقبل العيد بغطرسة طاووسيّة وهو يتبختر بملابسه الجديدة الزّاهيّة البهيجة، يراقبه دون ملل من النّافذة الخلفيّة للبيت التّـي تُطلّ على مرجة الأرجوحة، ولولا وجوب أن يذهب لصـلاة العصـر جماعـة في مسجد القرية لما كان يفارقه لحظة واحدة دون أن يملأ حواسه بحركاتـه وكلماتـه التّي لا يشبع منها أبداً مهما ارتوى.

في المسجد لم يسمع صوت انفجار كبير، كما سمعه المصلّون جميعهم؛ فهو أصمّ، لكنّه أوجس خيفة لم يألفها مـن قبـل بشـكل مفـاجئ تزحـف إلى نفسـه بدبيب موجع، وعرف من المصلّين الرّاكضين خارج المسجد باتّجاه الانفجـار أنّ مكروهاً ما حلّ بالمكان، كان الجميع يركضون باتّجاه الدّوي المزلزل، وكان هـو

يركض معهم في الاتّجاه نفسه، لكن باتّجاه وحيده هـادي، تمنّـى أن يصـل إليـه بأسرع وقت ممكن ليضمّه إلى صدره، وليشمّ رائحته النّدية دون توقّف، لكن مـا شاهده حال وصوله المكـان أعـدم أمنياتـه الثّكلـى دون رحمـة أو تمهّـل، كانـت الأرجوحة قتيلة على الأرض تغرق في بحر من الدّماء والأشلاء المقطّعة المختلطة بالدّم المتدفّق منها زلاليّاً رطباً حارّاً، لم يستطع أن يرى وجه هادي بـين الوجـوه المحوقلة بأسى، والمستنجدة بالسّماء من البطش الصّهيونيّ الذي طاب نفساً بـأن يقصف أطفالاً صغاراً وهم يلعبون في صـبيحة العيـد، فحـوّلهم في طرفـة عـين وسهوة قلب إلى حطام من أشلاء ودماء.

لم يطل بحثه عن هادي بين الأشـلاء المتنـاثرة، فقـد وجـد رأسـه المـتفحّم متدحرجاً قرب الأرجوحة القتيلـة، ولم يميّـزه إلاّ مـن عينيـه الزّرقـاوين اللّـتين ورثهما من جدّه لأمّه الحـاجّ عبـد اللّطيـف، فمـا كـان في الحـيّ طفـل بعيـنين زرقاوين سواه، حضن رأسه إلى صدره، وزمّها، وذهب بها نحو البعيـد؛ فهـادي يخاف من الدّم والموت والخراب!

في تلك اللّيلة لم يبكِ، ولم ينعَ موت هادي، فهـادي لا يمـوت وإن سُـجّي في القبر برأس أو دون رأس، فمثله يجب أن يظلّ حيّاً في نفس والده كي يسـتمرّ في النّضال حتى يتحرّر وطنه، فرحيل هادي يعني أن لا معنى للنّضال أو الأرض أو الوطن، فما حاجته بغد موعود دون ابتسامة هـادي، ولـذلك يجـب أن يظـلّ هادي على قيد الحياة ليكون عنده مبرّر ليستيقظ في كلّ صباح.

اللّيلة عنده مهمّة عسكريّة مُوكلة إليه مـن قبـل جماعتـه، وهـي تتمثّـل في تهريب السّلاح والطّعام إلى القرية من خارج الجدار العازل الذي حرمهم حتـى من لقمة الطّعام، وحاصرهم حتى في أقواتهم.

لن يؤجّل هذه المهمّة، فهناك ألف هادي أو يزيد من أبناء القرية جائعين، ويجب أن يمدّهم بالطّعام، وهادي لا يقبل بأن يجوع الأطفال حداداً على اغتيال رأسه الجميل ذي العينين الزّرقاوين، ولذلك عليه أن يقوم بمهمّته بكلّ التزام وإخلاص على الرّغم من احتجاج زملائه في الجماعة، وتصميمهم على أن يعفوه من هذه المهمّة في هذه اللّيلة نظراً للظرّوف القاسية التّي يمرّ بها نتيجة اغتيال وحيده الصّغير، لكنّه يأبى إلاّ أن يأكل الصّغار في هذه اللّيلة بالتّحدّيد.

يقوم بمهمّته بإتقان، وتدخل الأسلحة والأطعمة إلى القرية بعد رحلة عناء لعبور التّخوم الفاصلة بسبب الجدار العازل، يغادر الرّفاق المكان بأحمالهم العزيزة بغية أن توزّيعها على مستحقّيها في الصّباح، ويعود هو من جديد إلى الجدار متسلّلاً ليصفّي حسابه مع أولئك الأوغاد القتلة الذين اغتالوا ابنه هادي، لا يملك إلاّ قنبلتين ومدفعاً صغيراً محمولاً وجراباً يخصّره، فيه رأس هادي المتفحّم المتخثر الدّم على شعره الملبّد الأكثّ الذي يهبّه قوّة خرافيّة قادرة على أن تجعله يقلع هذا الجدار بأظافره الحاقدة، بسرعة خاطفة ينزع فتيل القنبلتين، ويحوّل المكان إلى جهنم حمراء تصطليّ بأصوات المستنجدين والمحتضرين من الجنود الصّهاينة، تنهال الطّلقات عليه من عشرات الجهات، ويده على زناد مدفعه الرّشاش تهب الموت جزافاً لكلّ من يقترب منه من الجنود، ورأس هادي يترنّح في جرابه طرباً بشجاعة والده.

عندما يأتي الصّباح تكون المجزرة قد استوت على أجساد العشرات من القتلى، وعلى جثّة رجل بملابس فلسطينيّة وجراب يحمل رأساً صغيراً متفحّماً، عشرات المدرّعات الصّهيونيّة المعزّزة تطوّق المكان، وترحل الجثّة محاطة بالجنود والكلاب، فتودّعها زغاريد القرية الشّامتة بوجع الجنود، ورأس هادي المتفحّم

يجهل المصير الذي يُقاد إليه، لكنّه لا يبالي بذلك طالما أنّه سيواجه مصير والده الحبيب.

في المساء تُوزّع الأطعمة المهرّبة على بيوت القرية جميعها، يأكل الأطفال حتى يشبعوا، ويشبع هادي في قبره عندما يأكل أطفال قريته، وفي كلّ مساء يأتي الطّعام المهرّب على ميعاده إلى أطفال القرية، ولا أحد يعرف كيف يصل الطّعام إلى بيوتهم، لكنّهم يؤمنون بحكاية الرّجل الأصمّ حامل الطّعام"، ويعرفون تماماً أنّ شبحاً شجاعاً ما يزال يسكن في جوار الجدار العازل، ويخوّف الجنود الحرس بجرابه ذي الرّأس المتفّحم المحروق، ويُدخل إلى القرية كلّ ما يشاء من مؤن، ولا أحد يجرؤ على منعه، وهو يصرخ بملء فيه قائلاً: "ها ها".

وادي الصّراخ

كان اسم المكان منذ سنين طويلة هو "وادي الرّمان"، لكنّ منذ جاء الجدار العازل، وجرّف أراضي الوادي، وقلع أشجاره، وجعله بائداً خاوياً على عروشه أصبح أرضاً فاصلة بين طرفي البلدة التّي أصبحت بلدتين صغيرتين بعد أن كانت بلدة واحدة ذات تاريخ طويل موغل في القدم، فغادرت البلابل الوادي بعد أن خسرت أعشاشها الوارفة في حقول أشجار الرّمان، وحمل الوادي متفجّعاً محسّراً اسم "وادي الصّراخ" حين أصبح ملعباً للأصوات المتناجية عبر الجدار العازل حين حرُمت اللّقاء أو المشاهدة أو الحديث عن قرب.

الفلسطينيون أسموه "وادي الصّراخ" تخليداً لمعاناتهم اليوميّة في الصّراخ عبر أراضيه للحديث عن أيّ أمر في ضوء حرمانهم من لقاء أو تواصل، غدا الصّوت هو ألسنتهم ووجوههم وجلودهم وقلوبهم وأطرافهم وأزمانهم

ومسافاتهم وآمالهم، ففـي هـذا الـوادي تُسـمع الزّغاريـد والتّـرانيم والأشـواق والأخبار والنّكات والأدعيّة والآيات القرآنيّة بل وبعض المقطوعـات الموسـيقيّة يتبادلها الفلسطينيون الذين حرمهم الجدار من حقهم الإنسـانيّ المتواضـع في أن يوسدوا يداً إلى يداً، وقلبـاً إلى قلـب، وعينـاً إلى عـين، وأن يـديروا أيّ حـديثٍ إنسانيّ مهما كان محدوداً وقصيراً، ولذلك غدا الصّراخ عبر مسافة فاصلة طويلة آخر ما يملكون من حقّهم المهدور الفاني.

في الوادي تُسمع أمّاً تحدّث ابنتها التّي فصل الجدار بينهما، وعجوزاً أكلتها سنوات الضّنى والمعاناة تدعو لابنها بالعودة إلى بيته، ويعبق الدّمع في عـيني مـن يسمع صوت طفلة صغيرة تطلب من والدها أن يعيدها إلى بيتها بعد أن علقـت خارج الجدار في رحلة زيارة لدار عمومتها، وتبكي له متوسلّة أن يأخذها معـه، وأن لا يردّها خائبة وحيدة، فيغرق الأب في نشيج موصول متحشـرج لا يملـك قوّة فيه ليصوغ لها وعداً جديداً يصبّرها به، وهو يعلم أنّ تحقيقه بعيد عسير، وفي أقصى الوادي في أقرب نقاطه من السّياج الشّائك يقف صالح ملويّاً متكئاً على عكازين خشبيّين ينغرزان في تجويفي إبطيه، وهو يكابد نفسه كي تنتصب واقفة، ولا تسقط إعياءً بعد رحلة كادحة من بيته حتى الوصول إلى الجدار، وهي رحلة تقتضيه زمناً أكثر من ساعتين، وإن كانت تنقضـي في عشـر دقـائق لمـاشٍ بحـزم وقصد، لكنّه بالكاد يستطيع أن يجرجر نفسه ليصل إلى هنـا، ويـدسّ نفسـه بـين جموع الصّارخين، ثم ينتبذ بصعوبة أقصى الوادي ليكون في أقـرب نقطـة ممكنـة للصّراخ المسموع من هدى تلكم الملاك الحمائميّ الأبيض الغارق ليـل نهـار في نقيع الموت هناك في مستشفى الهلال الأحمر في مخيم الدّهيشـة حيـث قابلـها أوّل مرّة.

هدى تكبره بأحد عشر عاماً، لكنّ جسدها النّحيل وعينيها الغائرتين في جمجمتها الصّغيرة، ويديها الصّغيرتين بقدر حفنة لوز أخضر، وابتسامتها الخجولة، وزيّها الأبيض ذا الياقة المرتفعة، تجعلها تبدو أصغر من عمرها بعقد كامل، بل تبدو أحياناً أصغر منه سناً ببضع سنين، ليست جميلة بمقاييس الجمال الباذخة التّسويقيّة التّسليعيّة، لكنّها آسرة الجمال بمقاييس الجمال الرّوحيّ، حيث طيبتها البيضاء، وقلبها الورديّ، ونفسها المنسرحة دائماً في عون مبذول دائم لكلّ من يطلب عونها لاسيما من المرضى والجرحى الذين تعجّ بهم المستشفى، لذلك يراها صالح حمامة فلسطينيّة بيضاء خُلقت كي تهدل بالتّسبيح للرّب والوطن والإنسان ليل نهار.

كان يتمنّى لو أنّه قابلها هناك في جامعته في القدس القديمة حيث كان شبلاً جسوراً لا يعرف خوفاً أو ضعفاً أو جبناً، كان الأوّل في تخصّصه في الجامعة، والأوّل في برّ والديه العجوزين، والأوّل كذلك في صفوف المتظاهرين والمحتجّين على استبداد الصّهاينة، لكن حظّهما غير الموفور جعلهما يلتقيان في أضعف حالاته، وأشدّها عوزاً للشّفقة والرّحمة والعون؛ طلقة جرثوميّة واحدة من بندقيّة مستدمر[1] صهيونيّ أصابته بالشّلل الدّائم، وبحشد من أمراضّ الدّم السّرطانيّة الدّائمة، أشهر طويلة قضاها هناك على سريره في المستشفى أعزل من كلّ شيء سوى قلبها الكبير، ورعايتها التّي لا تعرف فتوراً أو انقضاء أو رحيلاً.

لم يكن في حاجة إلى أن يخبره أهله على جرعات من الحياء والحزن والعطف أنّه أصيب بالشّلل الدّائم، ولن يسير أبداً على قدميه؛ فهو يعرف هذه الحالة تماماً، ولطالما رآها في صفوف أصدقائه وأترابه وجيرانه من أبناء الشّعب

١- هم مستدمرون لا مستعمرون؛ لأنّهم لا يعمّرون بل يهدّمون.

الفلسطينيّ، كان يعرف أنّه سيظلّ عاجزاً إلى الأبـد علـى الـرّغم مـن دعـاء أمّـه الموصول له بالشّفاء والصّحة؛ فطلقات العـدوّ الصّـهيونيّ لا تنصـاع أبـداً لأيّ دعاء أو استجداء أو استرحام، لكنّه كان يعرف أنّ تلكم النّظرات التّي تمطره بها الممرّضة هدى ليست نظرات شفقة أو رحمة أو واجب كما كان يصـرّ عمّـه أبـو حسين المرافق له في المستشفى ليل نهار على تسميّتها، فقلبه الذي لم يكن قد قرع بعد قرعات العشق، يستطيع أن يدرك أنّ هناك ناراً مقدّسة مشتعلة في قلبها كما هي ذات أوار حارق في قلبه الصّغير العشـرينيّ الـذي لم يـذق مـن السّـعادة إلاّ النّزر منها في مخيمه الغارق في العوز والكدّ والاكتظاظ والأحلام التّي لا تتحقّق.

عندما أخبر أهله بنيته بالزّواج منها، وقفـوا مشـدوهين، ثـم عـاجلوا قلبـه بنخزة لئيمة على شكل تشكيك بأن تحبّه هذه الممرّضة العفيّة، وهو العاجز كلّيـاً حتى عن ضبط بوله فضلاً عن عجـزه عـن الحركـة أو عـن أيّ سـلوك طبيعـيّ فطريّ كمضاجعة جنسيّة مثلاً. لكنّه أكّد لهم أنّ حبّهمـا أكـبر مـن التّوصـيفات الاجتماعيّة والمعطيات الوضعيّة، باختصارهو يعشقها، وهي تعشقه، ومن يعشق لا يعرف مستحيلاً أو مانعـاً، ولـذلك سـيكون معهـا إلى الأبـد، وهـي قـرّرت صراحة وبوضوح أن تكون معه حتى آخر لحظة من حياتهـا، مضـحيّة بحقّهـا في الجنس أو الإنجاب انتصاراً لقلبها على مطالب جسدها وحياتها وعالمها.

رثى أهله لسذاجة ثقته في هـذا العشـق المـأمول، وتركـوا الأمـر للوقـت ليداويه بطريقته، وكثيراً ما تكون مداواته مؤلمة وكاوية، لكـنّهم تفاجـأوا عنـدما علموا علم اليقين أنّ الممرّضة هدى توافق علـى هـذا الـزّواج، وتعـدّه الكفيـل الأوحد لسعادتها، وباركوا هذا الزّواج بحملة تبرّعات مـن الأسـرة لجمـع مهـر العروس، فجمعوا بصعوبة ألف دولار كي تكون أوّل عون لهما علـى الـزّواج،

وكـاد الأمـر يـتمّ في القريـب بعـد أن غـادر صـالح المستشـفى، وعـاد إلى بيتـه لاستكمال تجهيز غرفته في بيت أمّه حيث سيكون عشّ الزّوجيّة المنتظر.

جاء الجدار العازل في ليلة وضـحاها ليحبسـه في بيتـه، ويحـبس حبيبتـه في مستشفاها بعد أن قطع الطّريق بينهما، وجعل الأرض أرضـين، وصـنع بينهمـا برزخاً من الحرمان والقطيعة، ليكون كلّ منهما حبيساً خلف جهة مـن الجـدار، حاول دون جدوى أن يستقدم حبيبته إليـه، أو أن يـذهب إليهـا عـبر تصـاريح علاج يحصل عليها بمعونة الصّليب الأحمر، لكنّه ما فتئ يخفق في ذلك المـرّة تلـو الأخرى، حتى أدرك أنّه حُرم من هدى إلى الأبد.

الطّريقة الوحيدة للتّواصل معها كانت عبر الصّراخ في واديه الحزين، تـأتي هي كلّ صباح، ويجرّ نفسه منذ الفجر حتى يصل إليها في الموعد المضـروب كـي يقف مهدوماً على عكازيته بالقرب من الجدار الشّائك، ويصرخ بأعلى صـوته: "هدى" أنا أحبّكِ... كِ... كِ".

فتردّ عليه بجرأة عاشقة لا تعرف خوفـاً، ولا لومـة لائـم في عشـقها: "وأنـا أحبّك أكثر يا صالح".

فيسألها بلذّة من يطرح سؤاله الشّهي الحلو لأوّل مرّة: "هل تقبلين بالزّواج بي؟"

فتردّ عليه بفرحٍ شقيّ مرح: "نعم، أقبل بالزّواج بكَ".

يسعد صالح بموافقتها، كأنّه يسمعها لأوّل مرّة في حياته، ويشدّ على الألف دولار التّي يدفنها في عميق جيب بنطاله الكتّانيّ القديم، فلا تفارقـه ليـل نهـار على أمل أن ينقدها في القريب المداهم لحبيبته مهراً لها، ويبتسم وهو يحلم بملاكه الأبيض وهي ترتدي ثوب الزّفاف الأبيض، وتجري نحوه دون جدار عازل جبّار

لا يرحم قلب عاشقين، ويصرخ بعقيرة مشدودة كوتر قوس متحفّز للانطلاق: هدى، أنا أحبّكِ... كِ... كِ"

الغروب لا يأتي سرّاً

يقول له صديقه معزّياً ومواسياً له: "لا تجزع يا صديقي، فعند كلّ إنسان أمر يخشاه. أتصدّق أنّ قائدنا في الجّيش يخاف من الدّم، ويفزع منه أشدّ الفزع على الرّغم من أنّه ترأس أكثر من عمليّة إبادة جماعيّة للفلسطينيين؟!"

يردّ عليه بخجلٍ من حالته: "لكنّني لا أخشى الدّم، بل أستمتع به جدّاً، وقمّة فخري أن أسفحه من رقاب الفلسطينيين المخرّبين الذين يعيثون فساداً في دولتنا، لكن يا للعار، أنا أخشى غروب الشّمس، أصاب بهلع عظيم عندما تغيب الشّمس، وتتركني وحيداً في ظلمة هذا الكون، فأتخيّل أنّ كلّ الفضاء حولي يعجّ بالأرواح الشّرّيرة التّي تطاردني بمصائدها النّاريّة، وتحاول أن تنهش جسدي بمعاولها المسنّنة، وتسعى لخطف أرواح أبنائي، لتجرّها إلى الجحيم، هذا أمر رهيب، أكره اللّيل، وأخشى لحظاته التّي أقضيها في صراع مع شياطين وهميّة لا يراها سواي، ولذلك تمعن في تعذيبي".

– "حالة غريبة بحقّ. عليك زيارة طبيب نفسيّ لاستشارته في هذا الشّأن" يقول صديقه معلّقاً على حالته.

– "عرضتُ نفسي على أكثر من طبيب نفسيّ، لكن دون فائدة؛ فلا أحد منهم يستطيع أن يساعدني، ولا الشّمس تتشبّث بمكانها في السّماء، ولا الغروب يأتي سرّاً، فلا يوقظ الأرواح الشيطانيّة التّي تتفلّت من عوالمها تقصد أن تطاردني بعذابها المسوم" يجيب الجنديّ الصّهيونيّ بهلع ووجع.

– "لكن لماذا؟ ما سبب هـذه الحالـة المرضـيّة النّـادرة؟" يسـأل صـديقه مـن جديد.

– "لا أعرف، بحقّ أنا لا أعرف لها سبباً، لكنّني أتمنّى أن يأتي الغروب سـرّاً" يهتف الجنديّ بنبرة رجاءٍ وتمنٍّ.

يصمت الصّديق، وتزوغ عيناه بعيداً نحو الأفـق، ونحـو ذلـك اليـوم الـذي يحاول أن يبتلع ذكراه لحظة بعد لحظة، فيخفق في ذلك، ويـأتي الغـروب ليخـزه بذكراه التّي تقضّ مضجعه، وتحوّله إلى ملعون سيزيفيّ لا يعرف عذابه نهايـة أو عقابه توقّفاً، يومها كانت الشّمس تكاد تنزلق خلف الجدار العازل لتردي المكان في المزيد من الظّلمة والوحشة، وكان هو الحارس اللّيليّ المسـؤول عـن حراسـة البوّابة في المساء بعد عناء يوم طويل من المراقبة، وتفتيش العـابرين، والتّفـنّن في تعذيبهم وتعطيلهم وتوقيفهم وتأخيرهم وإذلالهم، فهـو متـورط معهـم في هـذه اللّعبة الظّالمة بقدر تعذيبه لهم؛ إذ لا يمكن أن تكون مُعَذِّباً دون أن تكون مُعَذَّباً!

جاءت تلك المرأة الفلسطينيّة لتعبر البوّابة دخـولاً إلى منطقـة سُـكناها في المدينة المعزولة التّي طوّقها الجدار من كلّ مكان كشريط سـحريّ شـرير خـانق، كانت تجرّ ستّة أطفال، وتحمل في بطنها تلاً لحميّـاً يمـور بجـنين قـد أزف موعـد خروجه إلى الحياة، كانت مرهقة وبادية التّعـب، وجـد لـذّة خاصّـة مسـتفزّة في مشاكستها، وتعطيلها وتلويعها وأبناءها الصّغار قبل أن يسمح لها ولهـم بـالعبور من البوّابة، وعندما ردّته بشموخ لا يتوقّع من قسماتها الكسيفة، ومن شـحوبها البادي، ومن لهاثها الموصول، قرّر أن يبـالغ في تمتّعـه بتعـذيبها بـأن يمنعهـا مـن العبور من البوّابة إلى أن يخيّم ظلام اللّيل، ليتشفّى ببؤسها وهي تفترش الأرض، وتتلحّف بالسّماء وبنوها على باب الجدار حتى الصّباح.

كان يتوقّع أن ترضخ لذلّه، أو أن تتضرّع لـه مـن أجـل العبـور، لكنّهـا لم تفعل ذلك، بل تفلت في وجهه غير آبهة بجبروته، وجمعت أبناءهـا علـى عجـل، وأدارت ظهرها لتعود بهم من حيث أتت. اشـتعلت نـيران الغضـب في صـدره الصّدئ، وأطلق حشداً من رصاصات نزقة باتّجاهها، فخرّق جسـدها وأجسـاد بنيها في لحظات، تكوّموا جميعاً على الأرض غارقين في بركة دم حارّ من جداول أجسادهم، وغربت الشّمس تماماً هروباً من هذا المشهد المروّع، وبقيت عينا تلك المرأة تشخصان نحو السّماء، وترفضان أن تُغلقا، وتتوعدان بانتقام، هكـذا فهـم نظراتها، وصمّم على أنّها تحدّثه وتتوعدّه بالثّأر، وعندما عجز الجنود عن إغلاق عينيها انهال عليها بوابل جديد من الرّصاصات حتى بدا بطنها كمصفاة معدنيّة قديمة، لكنّها على الرّغم من ذلك ظلّت شاخصة العينين تتوعدّه بانتقام قريب.

مـن يومهـا بـات غـروب الشّـمس يروّعـه؛ إذ يكشـف لـه عـن عينيهـا الشّاخصتين، ويتوعّده بالعذاب، وزاد الطّين بلّة حمل زوجته بطفلـهما الثّالـث، هو يعرف أنّ الموت قريب، وأنّ الانتقام قد أزف، لابدّ أنّ الانتقام سيكون مـن جنس العمل، ولذلك لا بدّ أنّ الأرواح الشّرّيرة ستفتك ببنيه وبزوجتـه الحامـل لتحرق قلبه كما أحرق قلب ذلك الأب الفلسطينيّ على زوجته وأولاده.

"لكن ما ذنب زوجتي وأطفالي الصّغار بما اقترفـت يـداي؟" يسـأل الأرواح الشّرّيرة التّي تطارده، فترّد عليه بسؤال تنفخه في وجهه بلسان لهيب: "ومـا ذنـب تلك المرأة الفلسطينيّة وأولادها الصّغار لتقتلهم دون رحمة؟"

- "لا، لا ، لـن يقتـل أحـد أيّـاً كـان زوجـتي وأولاديّ الصّـغار، دعـوهم يعيشون، دعوهم يأكلون ويشربون ويكبرون، هم سـيموتون في يـوم مـا، لكـن ليس الآن؟" يرجو الجنديّ الأرواح متضرّعاً.

تجلجل الأرواح بضحكات خشنة، وتقول بجزم: "بل عليهم أن يموتوا الآن".

- "لا، لن يكون ذلك أبداً، ابنتي الصّغيرة راحيل تخاف من الموت والقبور، أحبّها أكثر من كلّ البشر، هي أشدّ رقّة من نسمة صيف، لن يقتلها أيّ أحد، ويجب أن تعيش مديداً وأن تسعد كثيراً" يزمجر الجنديّ، ثم يغادر غرفته كالمجنون حاملاً مدفعه الرّشاش، ويهبط سلّم البيت سريعاً متوجّهاً إلى المطبخ حيث يجد زوجته الحامل وطفليه متحلّقين حول مائدة العشاء، يشيّع دهشتهم دون مبالاة، ويشرع يخرّقهم برصاصات مدفعه مبتدئ بابنته راحيل التّي تخاف الموت والقبور، ويحبّها أكثر من البشر أجمعين، وعينا المرأة الفلسطينيّة القتيلة الشّاخصة العينين تقدحان شرراً، وهو يصرخ بهستيريّة: "هؤلاء زوجتي وطفلي، أنا أحبّهم، لن يقتلهم أحد سواي، هيّا اغربي عن وجهي أيّتها المرأة الملعونة".

سلالة النّور

دم سلالته المباركة يتدفّق في أعماقه ووجدانه وشرايينه، فيدفع حلمه إلى أن يكبر من أجل أن يسافر إلى القاهرة ليستكمل علومه الإسلاميّة في الأزهر الشّريف ليفقّه نفسه، وينفع أمّة المسلمين، منذ أجيال طويلة رجال أسرته الواحد تلو الآخر يحملون راية الشّريعة الإسلاميّة، ويسمّون الشّيوخ في المدينة، أبوه وجدّه ورجال أسرته جابوا بقاع الوطن الفلسطينيّ، وحملوا لواء الدّين والإحسان والخير والبناء، وهذه البذرة الصّالحة تنمو في أعماقه منذ وُلد، فمنذ صغره هو مفطور على الصّلاة والصّوم والعبادة والبرّ والإحسان، وقد حفظ القرآن الكريم كاملاً منذ طفولته، وكثيراً ما صلّى بالجماعة إماماً في صلاة الفجر، برامج حياته كافّة مكيّفة وفق هدف واحد، وهو الذّهاب إلى الأزهر لاستكمال علومه الإسلاميّة، حتى زهر خطيبته اختارها وفق هذا البرنامج، فقد

كانت صالحة عابدة مثله، تحفظ الكثير من أجزاء القرآن، وتتوق مثله إلى دراسة العلوم الإسلاميّة في الأزهر الشّرّيف.

كان عليه أن يحزم نفسه وكتبه، وأن يسافر إلى القاهرة بصحبة خطيبته بعد أن يتزوّجها كي ينخرطا في دراسة العلوم الإسلاميّة بعد أن حصّل لهما قبولاً في الجامعة، لكنّ الجدار العازل الذي وُلد من رحم شيطانيّ وقف حاجزاً أمامهما، ومنعهما من السّفر خارج مدينته القديمة، وحطّم أحلامهما، وغيّر مشاريع حياتهما إلى الأبد.

على الرّغم من ذلك كان من الممكن أن يقبل بواقعه الجديد لو لم يسرق الجدار معظم أصدقائه، ويقتلهم الواحد تلو الآخر على تخومه وبوّاباته، عندها قرّر أن يطعم سدنة الجدار للنّار والموت، هدوءه الغامر أجاد أن يُخفي مخطّطه المزمع، وفي اللّحظة المناسبة كانت الضّربة القاسمة، اختارها أن تكون في ليلة زفافه على المرأة التّي اختارها شريكة لحياة الضّنك المريرة، خرج منذ الظّهيرة إلى صلاة الظّهر، وبعد أن أدّاها بأناة وخشوع، خرج إلى مراده، كان يحمل في كيسه الصّغير مسدّساً ومجموعة من القنابل، ويستعيد في ذاكرته تفاصيل خطّته المرسومة للتّسلّل إلى المعهد الدّيني اليهوديّ الدّاخليّ، والدّلوف إلى قاعة التّدريس الرّئيسيّة ليوسعهم موتاً، انتقاماً منهم لأصدقائه الذين قتلوهم، ولحلم دراسته الذي أجهضوه في تبرعمّه، ولأرضه التّي قسمها الجدار دون رحمة أو وجه حق، ولخطيبته التّي يعشقها، ولن يستطيع أن يصطحبها معه إلى الأزهر الشّرّيف كما وعدها مراراً وتكراراً.

كان أمر الدّخول إلى المعهد سهلاً بمساعدة ملامحه الخلاسيّة الشّقراء التّي يملكها وراثة عن جدّة أبيه ذات الأصول التّركيّة التّي تزوجها جدّه عند دراسته العلوم الإسلاميّة في القاهرة قبل عقود طويلة، وعاد بها إلى مدينته القديمة حيث عاشت وماتت ودُفنت.

بخطوات ناقرة بخفّة على الأرض كرذاذ على ماء وصل إلى القاعة الرّئيسيّة، وبسرعة خاطفة شرع ينثر الموت على الجميع بقنابله وبمسدسه، لم يدركه الحرس برصاصهم إلاّ وقد أرسل الجميع إلى جحيم الموت، ثم استسلم إلى جنّته الخضراء الموعودة، وحلّق بأجنحة من نور نحو البعيد، وترك جثته لهم ليركلونها بأقدامهم، ويمثّلون بها، ويسجنوها أيّاماً في حافظة مبرّدة قبل أن يسمحوا بدفنها على عجل في جُنح اللّيل، كأنّها فعل محظّور البوح به.

لم يزفّ إلى عروسه، ولم تُزفّ إليه، وبقيت في ثوبها الأبيض تنتظره طويلاً دون أن تصدّق أنّه لن يبرّ بوعده لها، ولن يتزوّجها، بل ولن يعود إليها أبداً، فليس من عادته أن لا يبرّ بوعد قطعه على نفسه، لكن يبدو أنّه لن يستطيع أن يبرّ بوعده لأوّل مرّة في حياته، كذلك لن يستطيع أن يعود إليها، لذلك عليها أن تذهب هي إليه، وإن كان هو من سلالة العلماء الأبرار، فهي من سلالة الشّهداء الطّاهرين، فليس هناك في أسرتها بيت لم يقدّم شهيداً؛ فهي ابنة شهيد، ووالدها كان ابن شهيد، وجدّها ابن شهيد، بل ابنها المنتظر الذي لم تحظّ به منه لا بدّ أنّه سيحلم بالاستشهاد، فما عليها إلاّ أن تكون شهيدة أيضاً؟

خلعت ثوبها الأبيض إلى ميقات، وعندما حان الوقت المنتظر، استحمّت، وتمشّطت، وتعطّرت، وتزيّنت، وتحزّمت بحزام ناسف، ويممتْ نحو الجدار الفاصل الذي أخذ منها كلّ من تحبّ، أُمرت بالوقوف على عتبة بوّابته، لكنّها لم تفعل ذلك، وفي اللّحظة المناسبة، تحولّت إلى جمرة نار تكوي كلّ من حولها من جنود صهاينة، وتهزأ من الجدار الذي انهارت أجزاء منه من شظايا حزامها النّاسف، وحمل على أكتافه مكرهاً طرحة عرسها ملوّحة بالأفق لروحها التّي تحجل في دربها نحو السّماء لتلحق بسلالتها النورانيّة الطّاهرة.

ما قاله الجدار

(١)
السّجّان مسجون أيضاً

كان يبدو العمل له ممتعاً، ومسليّاً، فليس هناك متعة أكثر من أن يقف على بوّابة يراقب منها الخارج والدّاخل، ويمارس عبرها متعته السّاديّة في تعذيب النّاس والتّنكيل بهم، استمتع سنوات طويلة بهذه اللّعبة العمل؛ إذ كان يظنّ أنّه السّجّان المعذّب للفلسطينيين، لكن عندما أيقن أنّه لا فرق كبير بين أن يُسجن المرء خلف الجدار أو أمامه أو في بوّابته، انتحر بجرعة إضافيّة من المخدّرات.

(٢)
قبر الرّمثاويّ لا يُضام

لا أحد يعرف على وجه الدّقّة اسم الشّهيد الرّاقد في هذا القبر، لكن الجميع يسمّونه قبر الرّمثاويّ، فهم يعرفون أنّ صاحبه جاء من مدينة الرّمثا في شمال الأردن ليجاهد إلى جانب الفلسطينيين، فقضى نحبه في هذه المنطقة، فُدفن في بستان البيت الذي كان يجوزه، ويدافع عن أهله ساعة استشهاده، القبر ظلّ محراب البيت، وعامود فخر أهله، بل سمّي البيت مع الوقت ببيت الرّمثاويّ، ولقّبت الأسرة نفسها بآل الرّمثاويّ.

عندما غُرز الجدار العازل في خاصرة الشّعب الفلسطينيّ بتر القبر عن البيت، فكان البيت في شرق الجدار، والقبر في غربه، حزن أهل البيت أشدّ

الحزن لحرمانهم من القبر، وحزن القبر لنفيه عن عائلته التّي جاورها سنين طويلة، ولأنّ الرّمثاويّ لا يُضام، فقد حمل قبره، وانتقل به إلى جوار البيت في النّاحية الأخرى من الجدار، وفي الصّباح كان من جديد في بستان البيت ينتظر أهله ليسقوا زهوره النّابتة عليه، غير آبه برغبة الجدار الملعون!

(٣)

لا قصّة حبّ للجدار العازل

جاء هذا الصّحفيّ الأمريكيّ ذو الأصول اليهوديّة من أقصى ولايات أمريكا بُعداً من أجل أن يقوم بالوظيفة التّي أُسندت إليه بحكم شهرته الصّحفيّة وإنجازاته الإعلاميّة الجريئة، كان عليه أن يعاين تجربة الجدار الفاصل؛ ليكتب عنه المقالات والقصص الدّاعمة لكلّ من يرى وجوده في هذا المكان عدلاً وضرورة لحماية اليهود الغاصبيّن الصّهاينة في أراضيهم المسلوبة من الفلسطينيين.

الحقيقة أنّه معنيّ بالمبلغ المالي الكبير ذي الأصفار الكثيرة المُتفق عليه مقابل هذا العمل الدّعائي الإعلاميّ العاري من الحقيقة أو العدل، ومن قال إنّه يبالي بالحقيقة وبالعدل؟! المال كلّ همّه، ورصيده المتنامي في البنك جنّة حياته.

لكن مشكلته الكبرى تكمن في أنّ قلمه يكتب ما يشاء وعلى هواه دون الانصياع له، حاول أن يكتب قصّة حبّ واحدة في ظلّ هذا الجدار، فعجز عن ذلك، فكتب مئة قصّة حزن بسبب هذا الجدار، ومزّق أمر الدّفع "الشّيك" ذا الأصفار الكثيرة، وشرع يعيش قصته الأولى مع الحقيقة، فكان في الصّف الأوّل إلى جانب المتظاهرين الفلسطينيين ضدّ هذا الجدار، وتصدّرت صوره وسائل

الإعلام العالميّة تحت عنوان: "صحفيّ أمريكيّ يقضي نحبه برصاص قوّات الاحتلال الصّهيونيّ".

(٤)
بوّابة واحدة لا تكفي

ليس لهذه البلدة منفذ على الدّنيا سوى هذه البوّابة اللّئيمة في الجدار العازل، إن أُغلقت، وكثيراً ما يحدث ذلك، فأهل البلدة يغدون مجرّد سجناء في سجن كبير، جدرانه الجدار العازل، وسقفه السّماء البعيدة.

في كلّ صباح كان يقود شاحنته القديمة بحملها من العمّال الفلسطينيين نحو البوّابة ليواجهوا كبد ساعات من الانتظار والذّل على أمل أن يُسمح لهم بمغادرة البوّابة، لعلّهم يعودون إلى عائلاتهم بأقوّات يومهم التّعس، وهو يظلّ قعيد الأرض ينتظر أن يسمح له الجنود بمغادرة المكان، ليعود إليها من جديد في اليوم التّالي.

بوّابة واحدة لا تكفي لعبور أولئك العمّال الفلسطينيين كلّهم، حتى عندما قتل مستدمر لعين عشرين عاملاً منهم على البوّابة بسلاحه الرّشّاش، فقد ظلّت البوّابة الوحيدة لا تكفي، لذلك فقد ركب شاحنته، وأسرع بها، وهوى بها على البوّابة، فخلعها، وحطّم جزءاً من الجدار، وسحق بعض الجنود تحت عجلات شاحنته، فوجد الأرض أرحب دون بوّابة أو جدار أو جنود.

(٥)
لا قانون ضدّ الأقدام العائدة

مرض السّكري أكل القدم اليمنى لمؤّذن الجامع في الحارّة القديمة، قيل له إنّ من الممكن أن تُصنع له قدمان من اللّدائن الطّبّيّة الصّلبة، لكن هاتفاً في المنام صاح فيه إنّ عليه أن يصنع له قدمين من السّنديانة الكبيرة في أرضه التّي تقع الآن خلف الجدار العازل، حاول كثيراً أن يعبر البوّابة، وأن يصل إلى أرضه، لكن دون جدوى، ففي كلّ مرة كان الجنود يردّونه رداً قبيحاً.

ظلّ يحلم بالقدم الخشبيّة من السّنديانة، وفي لحظة حلم سرقه الموت، قدمه اليتيمة قرّرت أن تحقّق الأمنيّة، انشلعت من جسده بلين ودعة، وسارت في الزّقاق القديمة التّي تحفظها عن ظهر قدم، وعبرت بوّابة الجدار دون أن يوقفها أيّ جنديّ صهيونيّ، ويمّمت نحو السّنديانة المعمّرة في البستان الجبليّ، وكبّرت: "الله أكبر".

(٦)
الخيل الأصيلة تعود دائماً إلى أهلها

في المعتقل الصّهيونيّ مارسوا ضدّهم أعتى أنواع التّعذيب الجسديّ والنفسيّ، ولم ينفكوا عنهم إلاّ عندما جعلوا منهم جواسيس لهم، فلا أحد يشكّ في أنّ صبيّة صغاراً قد يكونون جواسيس على أهلهم وجيرانهم وشعبهم؛ لذلك أخرجوهم من المعتقل بهذا الشّفيع المخزي.

نقلوا إلى الجنود الصّهاينة الكثير من الأخبار الصّغيرة حول الثوّار والمتظاهرين من الفلسطينيين، ثم نقلوا إليهم تفاصيل أكبر عمليّة مقاومة سيقوم

بها الثّوار الفلسطينيون، وأمدّوهم بالمعلومات ليحاصروا عشرين بطلاً من أبطال الثّورة، ليبيدوهم في أرض العمليّة الفدائيّة قبل أن يقوموا بها، أخذوا مبلغاً كبيراً مقابل هذه الوشاية الدّسمة.

في الوقت المحدّد للعمليّة الفدائيّة كان الفندق الهدف مدجّجاً بالجنود الصّهاينة والآليّات في انتظار إلقاء القبض على الثّوار، ولم يطل بهم الانتظار، فقد جاءتهم استنجادات ملحّة وعاجلة من معسكرهم الذي أُبيد عن بكرة أبيه على أيدي الثّوار الذين خدعوهم عبر المعلومات المضلّلة من خيلهم الصّغيرة الأصيلة التّي لا يمكن إلاّ أن تعود إلى أهلها.

(٧)

الموتى لا يرحلون

قال الضّابط الصّهيونيّ بسحنةٍ تمساحيّة ولؤم قنفذ أجرب: "لا أحد سيبقى في هذا المكان، الجميع عليه أن يرحل إلى ما خلف الجدار، الجميع دون استثناء سيرحلون الآن إلاّ الموتى سكّان القبور".

ضحك العجوز الفلسطينيّ من جهل الضّابط، وتمدّد على أرضه، وقال: "إذن هنا أموت"، وأسبل عينيه، وراح في سبات أبديّ.

اقترب الضّابط من العجوز ليحرّكه، لكنّه لم يقدر على ذلك؛ فقد تباعدت الأرض به، وغارت بالعجوز في باطن طبقاتها، وغيّبته عن العيون.

(٨)

طائر الفينيق حقيقة لا أسطورة

منذ صغره يحلم بأن يكون طائراً بجناحين يحلّقان نحو عنان السّماء، عندما كبر قليلاً بات يحلم بأن يصبح طيّاراً يجوب العالم بطيّارة زجاجيّة نفّاثة، لكن عندما كسّروا له عظام يديه في المعتقل الصّهيونيّ كي لا يحمل من جديد العلم الفلسطينيّ في المظاهرات ضدّ الجدار العازل، وغدا عاجز اليدين قرّر أن يصبح طائر فينيق في النّار، ولا يحترق، يطير في السّماء، ولا يغادرها، ضمّ يديه العاجزتين بضعف على العلم الفلسطينيّ بعد أن وقف على أعلى مطلّ جبليّ في مدينته، وفرد كتفيه، وطار، وحلّق دون أن يهبط من جديد على الأرض، وخيّم العلم الفلسطينيّ على الأفق، وغاب الجدار العازل في ظلّه.

(٩)

المجانين ضدّ الجنون

"لا يفهم المجانين إلاّ المجانين مثلهم"، هذه هي جملته الوحيدة التّي يفسّر بها قدرته السّحريّة على اجتياز الجدار العازل دون عبور بوّابته.

هو من مجانين القرية العتيقين الذين غدوا من آثارها ومعالمها وأوابدها، لا أحد يعرف متى بدأ جنونه أو لِمَ؟ لكنّهم جميعاً في قريته يعدّونه من عقلاء المجانين إن جاز التّعبير؛ فهو لا ينطق إلاّ حقّاً، ولا يتنبّأ إلاّ بآتٍ.

عندما بُني الجدار العازل أمطره بوابل من السّخرية، وقال مواسياً الجميع: "لا تخافوا، هذا الجدار ليس أكثر من جنون، ولا أحد يخشى مجنوناً، بل إنّ المجانين عينهم ضدّ الجنون"، ومنذ الوقت تغلّب على الجدار بسلطة سحرٍ لا يعرفه أحد،

وظلّ حرّاً خارج نطاق سلطة الجدار، يخترقه متى شاء، ويعـود إلى القريـة عـبره متى شاء حاملاً الحلوى والسّمك الطّازج من سواحل عكا ويافا وغزّة.

(١٠)

الموت يساوي بين الأشياء

حياة الإنسان هي الأثمن في هذا العالم، هـذا مـا تعلّمـه مـن أبويـه ومـن مدرّسيه في كلية الطّبّ البشريّ، وما كان ليخمّن أنّ رحلة ميدانيّة واحدة خارج كلّيته سوف تعلّمه ما ينسف به ما تعلّمه كلّه طوال حياتـه؛ كانـت الرّحلـة هـي مرافقة ميدانيّة مـع طـواقم عسـكريّة صـهيونيّة في إحـدى جولاتهـا في أراضـي الفلسطينيين خلف الجدار العازل، يومها وقع جريح فلسـطينيّ في أيـدي الجنـود بعد مواجهات دامية في باحة أحـد المسـاجد القديمـة، كـان يتوقّـع أن تُقـدّم لـه الإسعافات الأوليّة من قبيل الإنسانيّة والأعراف الدّوليّة لمعاملة الأسرى، لكنّـه فوجئ بأستاذه الجامعيّ في مادّة التّشريح يقـدّ جـزءاً مـن بطنـه بمشـرطه وسـط صراخ رعديّ من الجريح، في حين تـذهب اسـتغاثاته المحزنـة أدراج الـرّيح دون مجيب، ثم يشرع يعطيهم درساً حيّاً على تشريح إنسان حيّ لا على جثـة قديمـة متعفّنة، يومها تقيّأ مبادئه جميعها على أرض الموت، وأيقن أنّ الغاية هي الأثمـن في هذا الكون! وإخلاصـاً لمبدئـه الجديـد الوليـد فقـد شـرع يقتـل كـلّ جـريح صهيونيّ يقع بين يديه عندما عُيّن طبيباً في المستشفى العسكريّ، ليبيـع أعضـاءه سرّاً لمن يدفع له المال الوفير، فلا قيمة عنده للحياة، والمال هو الغاية الكـبرى في هذه الحياة. هذا ما تعلّمه في رحلته الميدانيّة الوحيدة إلى الجدار العازل.

(١١)

ثورة العصافير خارج التّاريخ

لأنّ البشر يؤرّخون الأعوام بأحداثهم الخاصّة المهمّة، فهم يجهلون تاريخ العصافير الذي يقول: "كانت العصافير تعيش بأمن في غابات وحقول وسهول فلسطين، إلى أن جاء العدوّ الصّهيونيّ، وقطع الأشجار، وجرّف الأراضي، وبنى جداراً عازلاً بين البشر، لا تعرف الطّيور سبباً لوجوده، ولا حقّاً له ليحرمها من أعشاشها وأوطانها.

قيل لها إنّ البشر سوف يردّون حقّها عليها، ولمّا طال بها الانتظار، شنّت حرباً شعواء على الجدار، وبضربة واحدة من صدورها المجتمعة في جُمع قوّة ضاربة واحدة دكّت الجدار على الغاشمين الصّهاينة، واستردّت أرضها، وبنت أعشاشها من جديد على الأشجار النّامية على رفات الأشجار المقطوعة، وكتبت لها تاريخ نصر تحتفي فيه في كلّ عام.

(١٢)

على الجدار أن يرحل في النّهاية

حدّق الجدار العازل في حياته المعيشة، فوجد نفسه جداراً كريهاً، من باطنه المظلوم، ومن ظاهره الظّالم، فكّر ثم قرّر ثم دبّر، وفي الصّباح استيقظ الفلسطينيون والصّهاينة فلم يجدوا الجدار، فقد رحل دون عودة رافضاً أن يظلّ شريكاً في هذه الجريمة النّكراء.

بعيداً عن الجدار

البوصلة والأظافر وأفول المطر

إن كان اسمك هاشماً، وكنتَ تملك بوصلة نحاسيّة قديمة مربوطة بجيبك بخيط صوف أزرق غليظ، فلا تفارقه، وكنتَ تجزمُ بأنّك ستموت في أشدّ أيّام مربعانيّة[1] الشّتاء برودة، وكنتَ تدسّ يديك في غالب الأحيان في جيبي معطفك أوفي جيبي بنطالك كي لا يرى أحد أصابع يديك العاريتين من الأظافر، فأنتَ -دون شكّ- هاشم النتّيفيّ[2]

الكثيرون يعرفونه ويجهلونه في الوقت ذاته؛ كان اسماً دون وجه لسنوات طويلة، فطوال سنين سجنه الطّويلة في غياهب المعتقل الصّهيونيّ كان يذكره أفراد عائلته دون انقطاع باسم البطل، وكان يقرن اسمه دائماً بجملة "فكّ الله أسره".

١- أيّام المربعانيّة: هي عند العامّة الأيّام الأربعون الأشدّ برودة في فصل الشّتاء.

٢- نسبة إلى قرية بيت نتّيف: تقع إلى الشّمال الغربيّ من مدينة الخليل، وتبعد عنها ٢١ كم، وترتفع عن سطح البحر ٤٢٥م، وتقوم على قمّة جبل في المنطقة الغربيّة من جبال الخليل، تبلغ مساحة أراضيها ٤٤٥٨٧ دونماً. وقُدر عدد سكّانها عام ١٩٢٢ بحوالي (١١١٢) نسمة، وفي عام ١٩٤٥ بحوالي (٢١٥٠) نسمة، وفي عام ١٩٤٨ بلغ عددهم (٢٤٩٩) نسمة.
قامت المنظّمات الصّهيونيّة المسلّحة بهدم القرية، وتشريد أهلها البالغ عددهم عام ١٩٤٨ (٢٤٩٩) نسمة، وكان ذلك في٢١/ ١٠/ ١٩٤٨، ويبلغ مجموع اللاّجئين من هذه القرية في عام ١٩٩٨ حوالي (١٨٩٩٥) نسمة، وقد أقام الصّهاينة على أرضها مستدمرة (نتّيف هلامدة) ١٩٤٩، ومستدمرة (افيعيزر) ١٩٥٨، ومستدمرة (روجيلت) ١٩٥٨، ومستدمرة (نفي مخائيل) ١٩٥٨، وتُعدّ القرية ذات موقع أثريّ يحتوي على خربة أم الرّوس وخربة أمّ الحاجّ والنّبي بولس واليرموك والعبد وجداريا والشّيخ غازي والتّبانة وغيرها.

كان يتجسّد في مخيلتي حينها على شكل فارس أسطوريّ قامته ممتدة حتى السّماء، ويداه مغروستان في الأرض على شكل زيتونة ألفيّة، وعيناه مسكونتان بأسراب الحمام البريّ البغداديّ، كان –في نفسي– أكبر من أنّ أتمنّى أن ألقاه، وبقيت أرفض أن أصدّق أنّ الحاجة وطفة المتكوّمة في ثوب فلسطينيّ أزرق قديم فيه آثار دارسة لقصب ذهبيّ، والمتلفّعة بشالٍ كان أبيض في يوم قد نُسي متى كان هي أمّه التّي ولدته، وحملته تسعة أشهر في أحشائها قبل أن يسرقه العدوّ الصّهيونيّ من حضنها صبيّاً صغيراً، ويزّج به في غياهب المعتقلات بتهمة الشّرّوع في قتل مستدمر استولى على بيّاراته، وشرع يخلع أشجارها الواحدة تلو الأخرى بذنب أنّ زارعها فلسطينيّ!

كنتُ أضنّ على أيّ امرأة بشريّة فانية أن أمّه، وأرى أنّ أمّاً أسطوريّة هي من تليق به؛ فهذا البطل الغائب الذي سمعتُ الكثير من القصص عن شجاعته لا تليق به إلاّ أمّاً بعظمة الزّباء أو أمّ سيف بن ذي يزن أو أليسار أو شجرة الدّر، أمّا الحاجة وطفة المقتضبة في نحو خمسين كيلو غرام وفي مئات خطوط الكبر في وجهها أنّى لها أن تلد كائناً أسطوريّاً مثل هاشم؟!

يوم قيل لنا إنّ هاشماً قد خرج أخيراً من المعتقل شعرت بحزن أنانيّ عميق، فبعد أن يخرج من المعتقل من سيكون بطليّ العائليّ المأسور الذي أفاخر به الصّديقات والمعارف؛ وعندما قيل لنا إنّه قد وصل إلى الأردن، وسوف تقيم له العائلة استقبالاً عائليّاً حاشداً في ديوانها الاجتماعيّ كدتُ أتقيّأ من شدّة الانفعال ثم أصابني صداع نصفيّ لساعاتٍ طويلة، ثم تورّطت في لعبة الانتظار مجهولة الأسباب.

كان الحفل الأسريّ الحاشدّ بعد أيّام قليلة تواترت عليها أخبار شتّى عن تفاصيل عودة هاشم، فعرفنا أنّه عاد وحيداً عبر معبر الجسر إلى الأردن، وانتحبنا

طويلاً عندما عرفنا أنّ الحاجة وطفة الضّريرة عرفته من رائحته قبل أن يقول أيّ كلمة، وخجلنا من بخلنا عليه عندما عرفنا أنّه اشترى بدنانيره القليلة التّي يملكها من حطام الدّنيا مترين من قماش الحبّر لأمه التّي لطالما سمعها في طفولته تسبّ أخوته إن شاكسوها بقولها: "يا أولاد الكلب، هل اشتريتم لـي ثـوب الحبّـر كـي تزعجونني هكذا؟!" فخمّن أنّ غاية ما تحلم أمّه به هو أن تملك ثوب حبر مطـرّزاً بالحرير الأحمر المونّس (١)، لكنّ نقـوده قصّـرت دون أن يشـتري لهـا "طبـب"(٢) الحرير المطلوبة.

كنتُ أعتقد أنّني سأرى فارساً ذهبيّاً يجرّ بحبله نمراً مقيّداً، خمّنـت أنّ أرض ديوان العائلة ستميد بخطواته الضّاربة في الأرض التّي ألفت أن تسخر مـن ثقـل الأغلال الوقحة التّي تنحاز إلى المعتدي ضدّ صاحب الأرض والحقّ، أغمضـت عيني للحظة كـي أفتحهمـا اسـتعداداً لدخولـه بصـحبة رجـالات العائلـة، ثـم فتحتهما، فلم أرَ الفارس الأسديّ العائد الذي لطالما تخيّلته، وإنّما رأيـت رجـلاً متكوّماً في معطف شتويّ قديمّ بلحية بيضاء وشعر عنـزيّ مسـدّل، يسـير بثقـةٍ مقصودة تكابرعرجاً بادياً في قدمه اليسرى، ويحرص على أن يدسّ يديه في جيبي معطفه، كدّتُ أخون لحظة استقباله، وأهرب من المكان، وطفقت أنتظر الفرصـة المناسبة للهرب خارجاً، لكنّ صوته هو من أخجلني من خيانتي المزمعة، فوحـده صوته من جاء على قدر الأمنيّـة؛ كـان صـوتاً فيـه أرث كامـل مـن الحكايـات والنّضال والشّهداء والأوجاع والكفاح الذي لا يعرف مهادنة، صوته غابـة مـن الرّوائح والكلمات الوجلات والتّنهدات والصّرخات والإغفاءات واللّمسات.

١- الحرير المونّس: أيّ يتكوّن من درجتين من اللّون ذاته.

٢- طُبب الحرير: كرات الحرير.

من يستطيع أن يهرب من صوت ابتلع معتقلاً بكلّ ما فيه من جنود غواشم وكلاب عادية وأغلال وسياط وآلات تعذيب؟! صوته مقبرة للأعداء، وترنيمة للبداية والنّهاية.

تكلّم طويلاً عن تجربته في المعتقل، لم يستخدم كلمة أنا أبداً، دائماً كان يقول نحن، كلماته نقلتنا إلى المعتقل، هناك عرّفنا بالأبطال اسماً اسماً، ووجهاً وجهاً، وقصّة قصّة، كنّا نسأله بفضول وشره، فيجيبنا عنهم بإسهاب وتفصيل، كنّا نكلّمه عن هنا، فيحدّثنا عن هناك، كنّا جميعاً غائبون، وهو وحده الحاضر.

يومها صمّمتُ على أن أكون في أقرب مسافة من هذا الرّجل ذي الصّوت السّماويّ، ودفنت صورته المتخيّلة في أبعد نقطة خارج ذاكرتي؛ فما حاجتي إلى الصّور الباذخة التّمنّي، وأمامي الحقيقة وافرة الصّدق؟!

لم أكن الوحيدة التّي أرادت أن تكون في أقرب مسافاتها من هاشم؛ فهناك الكثير من أفراد العائلة الذين أرادوا أن يقتربوا من هذا الرّجل المثقل بالصّمت على الرّغم من موهبته الفطريّة في البوح الآسر المؤثّر، لكنّني كنتُ الأكثر حظّاً في الحصول على النّصيب الأكبر في الاستماع إليه، وفي مرافقته في كثير من الدّعوات العائليّة والمحافل الشّعبيّة التّي استضافته بفضول مجلوب مفتعل لتزيد من رصيدها الشعبيّ، وتستعرض قائمة جمهورها غير العريض في غالب الأحيان، ثم نسيته تماماً بعد أن حقّقت هدفها الإعلاميّ منه.

أخيراً خلا لي وجه هاشم ووقته واهتمامه، لكنّه عندها كان وجهاً كسيفاً فيه خرائط حزن بائد لا تضاريس جبال شمّاء كما هي نفسه الأبيّة العصيّة على الكسر أو الصّهر أو الاستلاب، قدّر سريعاً بحسّه المرهف أنّ الجمع قد انفضّ من حوله، وخلّوا بينه وبين أحزانه، ليجرع منها ما شاء، فقد نفِدَ نصيبه من

الاهتمام المجتلب المصنوع، أحد لم يسأله عن حاضره أو مستقبله، قليل من عرفوا عن وحدته وخواء جيبه من أيّ قرش، وشخصان أو ثلاثة هم من سألوه عن سرّ بوصلته النحاسيّة أو أظافره المنزوعة من أصابعه.

أمّا أنا فتحوّلت أقداري من امرأة حالمة بفارسٍ أسطوريّ تفكّر في خبثٍ بأن تحصل من هاشم على مادّة شيّقة لتقرير صحفيّ يصلح لأن ينشر في عامود بارز في صحيفة يوميّة مشهورة إلى صديقة مخلصة تحرص على أن تستمع باهتمام موصول لبطل حقيقيّ قرّر الجميع في خضمّ صخب حيواتهم أن يسرقوا فمه منه، ليعتقلوه من جديد في صمت خبيث.

حكايات هاشم كانت بوصلة لا تشير إلاّ إلى الوطن فلسطين وإلى العودة، كانت طُرقه كلّها تقود إلى دربٍ واحد، وهو درب العودة إلى بيت نتّيف، كان حريصاً في كلّ مكان يذهب إليه على أن يمدّ أصابعه العارية من الأظافر إلى جيبه ليخرج بوصلته النحاسيّة القديمة، ويفتحها ليرقب إبرة المؤشّر تشير إلى اتّجاه فلسطين، كأنّه في مسير مستعجل نحو العودة، كان يقول لي دائماً إنّه عائد في القريب إلى قريته، وهناك سيعيش في بيت العائلة في الحارّة "التّحتى" (١)، وسيتزوّج من بنات عائلة أبو حلاوة (٢)؛ لأنّهنّ الأشدّ جمالاً وخصوبة في نساء القرية، وسيعيش وأولاده العشرة الذين يريد أن ينجبهم من ريع الأرض، فهو فلاّح ابن فلاّح، ولا يتقن إلاّ أن يكون كذلك. وعندها يشتاط انفعالاً، فتغلب الحُمرة على خدّيه، كأنّ الحياة ردّت إليه فجأة بعد رحيل وهو يرفل في أمنياته، كان يحرّر يديه من سجنهما الجيب، ويشرع يستنطقهما في حركاته وهو تتكلّم بإسهاب أخضر مورق بالسّعادة عن أدق التّفاصيل قرية بيت نتّيف، فيطوّف بي

١- التّحتى: أيّ الجنوبيّة، إذ كانت قرية بيت نتّيف قبل هدمها تتكوّن من ثلاث حارات رئيسيّة.

٢- أبو حلاوة: هي إحدى عائلات قرية بيت نتّيف.

على عائلات حاراتها الثّلاثة، ويعدّد أسماء ساداتها، ويتتبّع أنسابها، ويؤكّد في كلّ مرّة أنّ كثيراً من أفخاذ عائلاتها كادت تنقرض في تصدّيها الشّجاع لعصابات اليهود الصّهاينة الواغلة في أراضيهم في عام ١٩٨٤، ثم يطوّف بي على قاعة السّحلة والمالحة وبير الصّفصاف وخربة أم الذياب وخربة أم الرّوس وجسر الأربعين ومراح أبو جهنّم وسهل حمادّة.(١)

عندما يحين وقت المساء يصمّم على أن يعود إلى بيته راجلاً بحجّة رغبته في بعض الرّياضة، وأنا أعلم علم اليقين أنّه لا يملك ثمن أجرّة حافلة تنقله إلى بيته، فأصمت رحمة بحاجته الأبيّة على الشّكوى والاستجداء.

لم تطل صحبتي مع هاشم، فقد ألّبت خيبات الأمل الأمراض عليه، فكان سهلاً عليها أن تتحالف ضدّ نفسه المفطورة على الإباء حتى أمام الألم، كنتُ كلّما عرضتُ عليه أن أصحبه إلى الطّبيب، يؤجّل ذلك قائلاً: "سأذهب فيما إلى حكيم الوكالة(٢) ليكشف عليّ، لا تخافي، لن أموت أبداً في الصّيف، أنا لن أموت إلاّ في مربعانيّة الشّتاء، لأدفن في ليلة ماطرة كلّها زخّ من الرّبّ".

فأضحك عندها، ويضحك هو، ونتكلّم في أيّ موضوع إلاّ عن أظافر يديه المنزوعة بالكامل تعذيباً في المعتقل الصّهيونيّ التّي أؤجّل السّؤال عنها إلى وقت آخر لا أعرف متى يكون، دون أن أعرف أنّ لا مزيد من الوقت أمامي، بل أمامه؛ فقد مات هاشم بهدوء وحيداً في بيته الغرفة في المخيّم بعد أن سافرت أمّه لتحقّق حلمها بأن تزور البيت الحرام قبل أن ترحل إلى العالم الآخر.

١- أسماء أماكن جغرافيّة في قرية بيت نتّيف.

٢- طبيب عيادة وكالة الغوث "الأونروا".

مات هاشم وفي كفّه بوصلته، وعلى شفتيه ابتسامة صافية كروحه المهر التّي لا تبالي بأن تفارق جسده في ليلة صيفيّة لا ممطرة من ليالي المربعانيّة كما كان يتوقّع، مادامت طليقة تحلّق نحو وطنه فلسطين لتخلد هناك إلى الأبد.

خرافيّة أبو عرب (1)

"باعوها بعلبة سردين، ووقّعوا"(2)، يتعالى صوته الموتور بالحشرجة والزّبد والضّحكات المتدفّقة بتواتر متقطّع محقون، وهو يعيد هذه الجملة كلّما أراد أن يبدأ حديثاً، أو أن ينهي آخر، أو أن يعلّق على أمر ما، أو أن ينتقد موقفاً أيّاً كان حتى ولو كان انتقاداً لأزمة المرور الخانقة في وسط المدينة القديمة حيث يُعسكر منذ سنوات، ثم يطير بعيداً بملابسه المهلهلة، وقبعته الجيفاريّة الخضراء الدّاكنة، ومعطفه العسكريّ الشّتويّ المرّقع الذي لا يخلعه حتى في أشدّ أيّام الصّيف حرّاً، وتطير خلفه جملته العتيدة التّي لا تهترئ في فمه على الرّغم من تكراره لها، وتطلّ صورة جدّتي في ذاكرتي من ركن عزيز أثير، وهي تختم حكاياتها المسائيّة والصّباحية إن ألححنا عليها بسرد إحداها في الظّهيرة: "وطار الطّير، وتتمسّوا بالخير".

1- خرافيّة: أيّ حكاية أو قصّة، وهي كلمة عاميّة مستعملة بكثرة في السّياق اليوميّ عند الفلسطينيين لاسيما عند كبار السّن منهم، وهي مشتقّة من كلمة خرافة، والفعل منها" خرّف"، ويعني حكى وقال ورى ونقل.

2- علب السّرّدين إشارة إلى علب سمك السّرّدين المعلّب التّي كانت تُوزع على الفلسطينيين على شكل معونات دوليّة في خضم نكباتهم ومآسيهم وتشريدهم المتكرّر خارج وطنهم على أيدي الصّهاينة.

عندما نلحّ عليها بأن تروي لنا من جديد قصّة مجنون وسط المدينة القديمة صاحب الجملة الشّهيرة "باعوها بعلبة سردين ووقّعوا"، تقول لنا وهي تزّم شفتيها احتجاجاً مهزوماً على إجبارها على تكرار القصّة ذاتها لعشرات المرّات: "خرافيّة أبو عرب كلّها عجب يا أولادي، اسمه أبو عرب، كان –والله– زينة الشّباب في قريتنا في فلسطين قبل النّكسة، طوال عمره وهو فدائيّ، يحمل سلاحه، ويهيم في الجبال، ويقاتل الصّهاينة، كان رأسه مطلوباً دائماً للجيش الصّهيونيّ، لكن أحداً لم يستطع يوماً أن يقبض عليه، كان أسرع حركة من البرق، لكن أولاد الحرام من الخونة وشوا به، فقُبض عليه، وعُذّب طويلاً في المعتقل الصّهيونيّ، لكنّه بقي على مواقفه الثّوريّة بكلّ ثبات وإصرار، ورفض أن يُدلي بأيّ معلومة قد تكشف عن هوية أيّ من إخوانه الثّوار، عندما خرج من السّجن نُفيَ إلى هنا، كان يعتقد بأنّه سيجد الرّحمة بين أهله من العرب، وهو من كان يسمّي نفسه بأبي عرب تبرّكاً وتفاؤلاً وإيماناً بالعرب أجمعين، لكن منذ اللّحظة الأولى التّي وطئت قدمه فيها هذه الأرض أُعتقل من جديد بتهمة أنّه مناضل فلسطينيّ، لبث في السّجن العربيّ طويلاً دون أن يعرف أحد مصيره، حتى نسيه النّاس، وعندما خرج من السّجن كان قد خلع فيه مكرهاً ومغبوناً شبابه وذاكرته ونضاله، فنسي النّاس أجمعين إلاّ جريمة تشريد الفلسطينيين، وتواطؤ الخونة مع قوى الاحتلال والظّلام، ولم يعد ينطق إلاّ بجملته الوحيدة "باعوها بعلبة سردين ووقّعوا" التّي يكرّرها تعليقاً على كلّ موقف في الحياة؛ فهي ترنيمة جرحه النّازف دون شفاء، ويلخّص بها فجيعة الشّعب الفلسطينيّ: يا أولادي، أبو عرب كان وسيظلّ زين الشّباب حتى ولو كان مجنوناً ضائعاً مشرداً في الشّوارع والزّقاق.

لأنّني كنّتُ أثق بحماس طفوليّ مطلق بمصداقّية كلّ كلمة تقولها جدّتي الحاجة إلى بيت الله الحرام ثلاث مرّات، فقد كنتُ أُجلّ أبا عرب وأقدّره، بل

أحبّه بصمت وتكتّمٍ محزون، وأنظر إليه على أنّه رمز من رموز الكفاح الفلسطينيّ، وكنتُ أصمّم على أن ألقي عليه تحيّة السّلام كلّما مررت به في طريقي ذهاباً وإياباً إلى المدرسة، مخاطراً بأن يطاردني بحجارته الطّائشة التّي غالباً ما تُصيب هدفها شأني في ذلك شأن الأطفال الذين يزعجونه بملاحقتهم له، لكنّه ما فعل ذلك معي قط؛ لأنّه على الرّغم من تحليقه خارج العقل إلاّ أنّه كان يملك نظرة سابرة تصبّ مباشرة في فراسته التّي لا تخطئ حيال نية من أمامه تجاهه؛ لذلك كان يكتفي بأن يصمت عندما ألقي عليه تحية السّلام، ثم يجنح إلى الابتعاد، وهو يكّرر جملته الشّهيرة، فتكرّرها الزّقاق الصّغيرة الآسنة بالصّدى الذي لا يفارقها.

عندما داسته سيّارة مجهولة في ليلة صقيعيّة باردة، وتركته جثّة هامدة تهبّ دمها قطعاً متجمدّة على قارعة الطّريق، أبت جدّتي أن تكون هذه هي نهاية خرافيّة هذا البطل المجهول، وصمّمتُ على أن تصنع له نهاية تليق بروحه الذّهبيّة الأبيّة؛ فأبو عرب لا يمكن أن ينتهي مثل سائر البشر مهزوماً مجهولاً وحيداً، لا يمكن أن تأكل الأرض جسده بشهيتها المتوحّشة النّهمة، بل هو محرّم على الأرض، وعلى الفناء؛ لذلك أصبحت نهاية خرافيّته عندها تقول إنّ أبا عرب لم يمت، لكنّه عاد متسلّلاً إلى فلسطين، وأُستشهد هناك في عمليّة فدائيّة بطوليّة، ودُفن في مكانٍ سرّيّ في أعالي جبال الشّمال الفلسطينيّ، وفي كلّ ليلة تخرج روحه، وتحمل السّلاح وتقاتل، وسيظلّ كذلك حتى يُبعث يوم القيامة حاملاً سلاحه وروحه، ومردّداً"الله أكبر، فلسطين حرّة عربيّة".

كفرنا جميعاً، أنا وأخوتي وأبناء عمومتي وأولاد الجيران وأترابنا في المدرسة، بنهاية أبي عرب الفاجعة في تلك اللّيلة الشّتويّة الباردة، وآمنّا بحكاية جدّتي؛

فهي لا تكذب، وأبو عرب لابدّ أن يحظى بالميّتة التّي يستحقّها، وروحه لابدّ أنّها تركض الآن فرحة سعيدة في أحراش جبال فلسطين.

أمّا ظلّه فبقي يسعى هناك في الطّرقات المعبّدة بالحجارة الصّخريّة البيضاء، وفي الزّقاق الطّينية الزّلقة، أقسم على أنّني صادفته هناك مئات المرّات بل يزيد، كان يتبختر دون توقّف بخيلاء تليق بقامته المديدة ورقبته الزّاهية الانتصاب، وعندما ألقي عليه التّحية، يبتسم، ويدير ظهره، ويغذّ الخطى نحو البعيد، ويختفي في طرفة عين، فأتسمّر مكاني أقرأ الفاتحة على روحه، ثم أقصد مبتغاي دون أن ألتفت ورائي مهما حضّتني نفسي على ذلك؛ فأبو عرب يكره النّظرات الفاحصة الفضوليّة.

كنتُ أعتقدُ أنّ أبا عرب سيموت بموت خرافيّات جدّتي التّي ماتت بعد أن صلّت العشاء ذات مساء، ودلّكت قدميها بزيت الزّيتون الفلسطينيّ الحارّ في الشّتاء ذاته الذي قضى أبو عرب نحبه فيه، لكنّه لم يمت، بل وجدته في كلّ مكان ذهبتُ إليه، وما أكثر الأماكن التّي ذهبت إليها، وما أجمل أنّ أبا عرب كطائر الفينيق، لا يموت، بل يُبعث حيّاً من رماده المرّة تلو الأخرى.

هناك في مخيّمات الفلسطينيين المهجّرين في الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين قابلته وجهاً لوجه ألف مرّة ومرّة، أحياناً كان يصادفني بفعل بحثي عنه لأغطّي إعلاميّاً أحوال الفلسطينيين المهجّرين في تلك الأماكن بحكم وظيفتي في وكالة الأخبار العالميّة التّي أعمل فيها منذ تخرّجت من معهد وكالة الغوث للمعلّمين في تخصّص اللّغة الإنجليزيّة، وكثيراً ما كان يقابلني بسبق إصرار وترصّد منه في جولاتي الفضوليّة الشّخصيّة الرّاجلة وحدي أو مع أصدقاء أو أقارب أو زملاء عمل لاسيما في زيارتي الدّورية المكّوكيّة التّي كانت تستنفذ جُلّ راتبي

ومدّخراتي أجور سفر بين تلك الدّول ذات التّخوم الحدوديّة المحمّلة بالانتظار والتّصاريح والأختام والتّواقيع خروجاً ودخولاً إليها.

لكنّني ما كنتُ لأبالي بذلك الجُهد كلّه والغُرم والانتظار ما دمّتُ سأكون وجهاً لوجه مع أبي عرب، وفي كلّ مرّة كانت له خرافيّة تؤكّد أنّه خُلق لقدر واحد جبريّ، وهو أن يكون أبا عرب بحيواته النّضاليّة المتجدّد، ونهاياته المشرّفة، كان يجيد أن يلعب معي لعبة التّخفي، لكنّني كنتُ في كلّ مرة أكشفه، وأمّيزه من بين الجميع، فيضحك ملء شدقيه كما لم أره يضحك في حياته الأولى قبل أن يتحوّل إلى روح محلّقة في الخلود، ويقول: "باعوها بعلبة سردين ووقّعوا"، ثم يختفي حتى يظهر في القريب العاجل من جديد.

أبو عرب غدا جيشاً من الرّجال والنّساء والأطفال؛ تخفّى في أرحام الفلسطينيات اللّواتي يرضعن أولادهنّ الإباء، فوجدته، تخفّى في حجارة الأرض التّي تصرخ يا فلسطينيّ، لكنّني كشفته، نام في مهود الأطفال الفلسطينيين فرأيته، وعندما كنتُ أسمع ترانيم الأمهات، كنتُ أسمع صوت قهقهات أبي عرب.

مرّة كان الحاجة محفوظة شتية أم غالب التّي حضنت شجرة الزّيتون، ورفضت أن تتخلّى عنها للجّرافة الصّهيونيّة لتقتلعها، وتقذفها بعيدة قتيلة كما فعلوا بابنها منذ أيّام، وقفت وقالت لآلة الدّمار الصّهيونيّة أمام أنظار العالم وحيدة عجوزاً صامدّة: "لا" فعرفت عندها أنّ روح أبي عرب قد تقمّصتها.

عندما أُغتيل العمّال الفلسطينيون على الحواجز الصّهيونيّة بجريمة أنّهم يسعون في مناكب وطنهم بحثاً عن لقمة عيش كريمة لهم ولأهاليهم كان لهم جميعاً وجه ضاحك مزهوّ بالشّهادة، لم يعرف الصّهاينة لمن يكون هذا الوجه المتكرّر في الجماجم جميعها، لكنّني كنتُ أعرف أنّه وجه أبي عرب.

تصميمي على أن أكون في أقرب نقـاطي مـن أبـي عـرب جعلـني أحظّـى بعروض إعلأمّية بالغة الأهميّة والنّدرة والاستثنائيّة، وهيّـأ لـي العمـل في أكثـر وكالات الإعلام الإخباريّة شهرة وعالميّة وتغطية، وغـدا لـي برنـامج أسـبوعيّ جماهيريّ استقطابيّ واستفزازيّ لكلّ مـن لا يملـك أن يكـون أبـا عـرب، وقـد أسميّت البرنامج "خرافيّة أبو عرب"، كلّ حلقة كانت حول بطل فلسطينيّ أو بطلة فلسطينيّة على ثغور الصّمود، كانت الأسماء والوجوه في ظاهرها مختلفة، لكنّها في باطنها كانت جميعاً لأبي عرب.

مرّة كان اسم أبو عرب دلال المغربيّ، ومـرّة كـان ينشـد أناشـيد إسـلأمّية بلغته غير العربيّة، قبل أن يقوم بعمليّة استشـهاديّة، ويكـون اسمـه مـرّة آصـف محمد ومرّة عمر خان شريف اللّذين آمنا بعدالـة القضـيّة الفلسـطينيّة، وأصـبح اسمهما أبا عرب، وإن لم يكونا من العرب.

أجاد أبو عرب أن يملك الأسماء جميعها والوجوه كلّها، وقصّرتُ عـن أن أحيط به علماً في كلّ مكان وزمان وفعل، لكـنّني عرفـت أنّـه كـان مـرّة هاشـم النّجار، ومرّات أُخر كان محمد صلاح حبيشي، ومحمد فرحات، وحاتم السّيسي، وعماد عقل، ورائد زكارنه، وعلاء أبو دهيم، وريم الرّياشيّ، وفاطمـة النّجـار، وعجبت من حصافته عندما كان اسمه يحيى عيّـاش، فـابتكر وسـائل التّفخـيخ والدّارات الكهربائيّة في العمليّات الاستشهاديّة، ثم ابتكر تقنية التّفجير عن بعـد بواسطة الهاتف النّقال عندما كان محيي الدّين الشّرّيف، وهلّلت كما هلّل العـالم كلّه لشجاعته وهو يتصدّى وحده لمعشر الشّرّك الصّهيونيّ، ويفجّر نفسه بهم في رام الله عندما كان سليمان زيدان، أو في بيسان عندما كان سـاهر التّمـام، أو في نتانيا عندما كان اسمه عبد الباسط عودة، أو عندما أطلـق أوّل صـاروخ يُصـنع محلّياً في فلسطين وهو عندئذ نضال فرحات، وكم شعرتُ بالقهر وخيبـة الأمـل

عندما أُغتيل قبل أن يكمل صناعته لأوّل طائرة تُصنع في فلسطين، وكم بكيتُ وبكى العالم معي وهو يسمع وصيّته المسجّلة بالفيديو الموجّهة لأمه كي لا تحزن و كي تفخر به، وهو عندها الشّاب الفلسطينيّ الوسيم الذي يزخر بالحياة والعافية والصّحة محمد فرحات.

أضناني أبو عرب وأنا أجده في كلّ مكان، كان هناك في المقابر يشيّع الشّهداء، ويلقّنهم إجاباتهم لملائكة الحساب، وهو من كان يضرب طبول السّحور في رمضان، كان آخر من يغادر حقول الحصاد في موسم الجني، وعلى الجدران كنتُ أميّز خطّه المسهود المزهو بعبارة: "فلسطين حرّة عربيّة"، وفي الصّفوف الأولى لصلاة الفجر كان يتّخذ مكانه، وهو من كان يقرع نواقيس الكناس في القدس القديمة، وهو من كان يؤذّن في آذان المواليد الجدد، وبفمه كان يلوك لهم لقم تمرهم الأولى.

حاولت كثيراً أن أحضن أبا عرب، ولو لمرّة واحدة في حياتي، لأقول له ما لم أستطع أن أقوله له وأنا صغير، كنتُ أريد أن أقول له: "أنا أحبّك كثيراً يا أبا عرب"، لكنّه في كلّ مرة كان يهرب منّي إلى قدره الذي يجبره على أن يكون سوّاحاً في سائر أرجاء الأرض، وأن أكون مطارداً له لا يعرف هدأة أو سكوناً؛ وفي هذه المطاردة اكتشفتُ عاداته الكثيرة، وطبائعه المختلفة، وملكاته المتعدّدة، ولغاته المتنوّعة، وحيواته المتعدّدة، كان موجوداً في كلّ قلب يؤمن بعدالة القضيّة الفلسطيّنيّة أياً كان، وأينما كان، ومتى كان.

فرحتُ إذ علمت أنّ أبا عرب لم يعش وحيداً، ولم يمت فرداً أبترَ كما كنتُ أعتقد، وكما حدّثتني جدّتي في خرافيّته، بل كان هناك عشرات الألوف من النّساء اللّواتي تزوجهّن، وأسماؤهنّ جميعاً أم عرب، كذلك عنده جيش من البنات والبنين الذي يحملون اسم عرب، ويحملون أسماء وهميّة مضلّلة كي لا

يُفتضح أمرهم؛ لذلك شرعتُ أحدّق في الوجوه الصّغيرة في كلّ مكان، وأتساءل أيّهم قد يكون ابن أبي عرب؟ وحلاً لهذا السّؤال المجنون الـذي لا يـدرك عقـل الحقيقة تعاملت مع الأطفال جميعهم على اعتبار أنّهم أبناء أبي عرب، ولم أنفـك أحكي خرافيّته لكلّ طفل ألقاه لكي يعرف في يوم من الأيّـام مـن تـراه يكـون، وأخالهُ سيفعل.

كان مشروعي القادم هو أن أسجلّ خرافيّات أبي عرب جميعها في كتـاب قصصيّ جامع للأطفال كي يقـرأوا مـا علـيهم أن يكونـوا، لكـن تلـك المهمّـة الإعلاميّة العاجلة في قطاع غزّة جعلـتني أتـرك ورقـي وأقلامـي ودواتـي علـى طاولة مكتبي، وأطير إلى هناك أسرع من نعامة كي أنقل للعالم جرائم الصّـهيونيّة في حق أبي عرب، أعني في حقّ الفلسطينيين العزل، لم تكن مهمّتي أن أصـوّر مـا يحدث بشكل ميدانيّ، لكنّني صمّمت على ذلـك لتكـون عدسـة آلـة تصـويري حجّتي عليهم أمام الله وأمام العـالم كلّـه، بعدسـتي أخـذت آلاف الصّـور لأبـي عرب، ذُبح في يوم واحد آلاف المرّات، ورقد على أسرّة المرض جميعهـا بالعلـل كلّها والجراح والحروق، واستصرخ العالم، فكاد جوابهم له الصّـدى، ولا شـيء غير الصّدى، لكنّه على الرّغم من ذلك ظلّ يُبعث حيّاً مرّة تلو الأخرى، وأخيراً كانت القذائف المدفعيّة التّي كانـت تسـتهدف قـدمي اللّـتين قفزتـا بعيـداً عـني شهيدتين على الأرض، ووحدها آلة تصـويري مـن بقيـت مخلصـة لـي في هـذه اللّحظة الغادرة، في البعيد رأيت أبا عرب يكرّ ويفرّ، وقريباً مـني كانـت قـدماي ونزيف دم ضخم، وألم خارق ممزّق لا يخجل من أن يتحالف مع قذائف غاشمة ضدّي، وسيراً على أهمّ عادات أبي عرب الملغزة الخالدة ابتسمت هازئاً من ألمي الطّاغي، وتساءلت ماذا تراه يفعل ابني عرب الآن؟ لقد جاء إلى الدّنيا قبل أيّـام قليلة، وسمعته ينطق في المهد، ويقـول: "اصـمد يـا أبتـاه"، لكـنّني لا أسـتطيع أن

أصمد أكثر، في الأفق كانت تفُتح بوابة الزّمن، وتُطلّ منها جيوش العائدين من الفلسطينيين المهجّرين كأطواق زنابق نديّة، وأجداًث الأرض تُفتح ليخرج أمواتها الفلسطينيون عائدين ليرقدوا رقدتهم السّرّمديّة في وطنهم، في حين جلست جدّتي عن يميني تروي لي خرافيّة أبي عرب التّي أعشقها لعلّها تلهيني عن ألمي المتضخّم كما كانت تُلهيني عن جوعي ومرضي في صغري، ومن شمالي شخصتُ أرقب قذيفة صهيونيّة أخرى تقصدني، بل تقصد أبا عرب، كان اسمي واسمه عندئذ عماد غانم مصوّر قناة الأقصى الفلسطينيّة ([1])، وعمّ الصّمت، وغابت الصّور جميعها، وغشينا أخيراً السّكون الأزليّ اللّذيذ.

١ – أسماء الأبطال والشّهداء الواردة في القصّة هي أسماء حقيقيّة، وبطولاتهم المدرّجة في القصّة هي بطولات حقيقيّة لا خياليّة.

(٥)

المجموعة القصصيّة "تراتيل الماء"[١]

١- صدرت المجموعة القصصيّة "تراتيل الماء" في طبعتها الأولى عن مؤسّسة الورّاق للنّشر والتّوزيع بدعم من وزارة الثّقافة الأردنيّة، عمّان، الأردن، ٢٠١٥

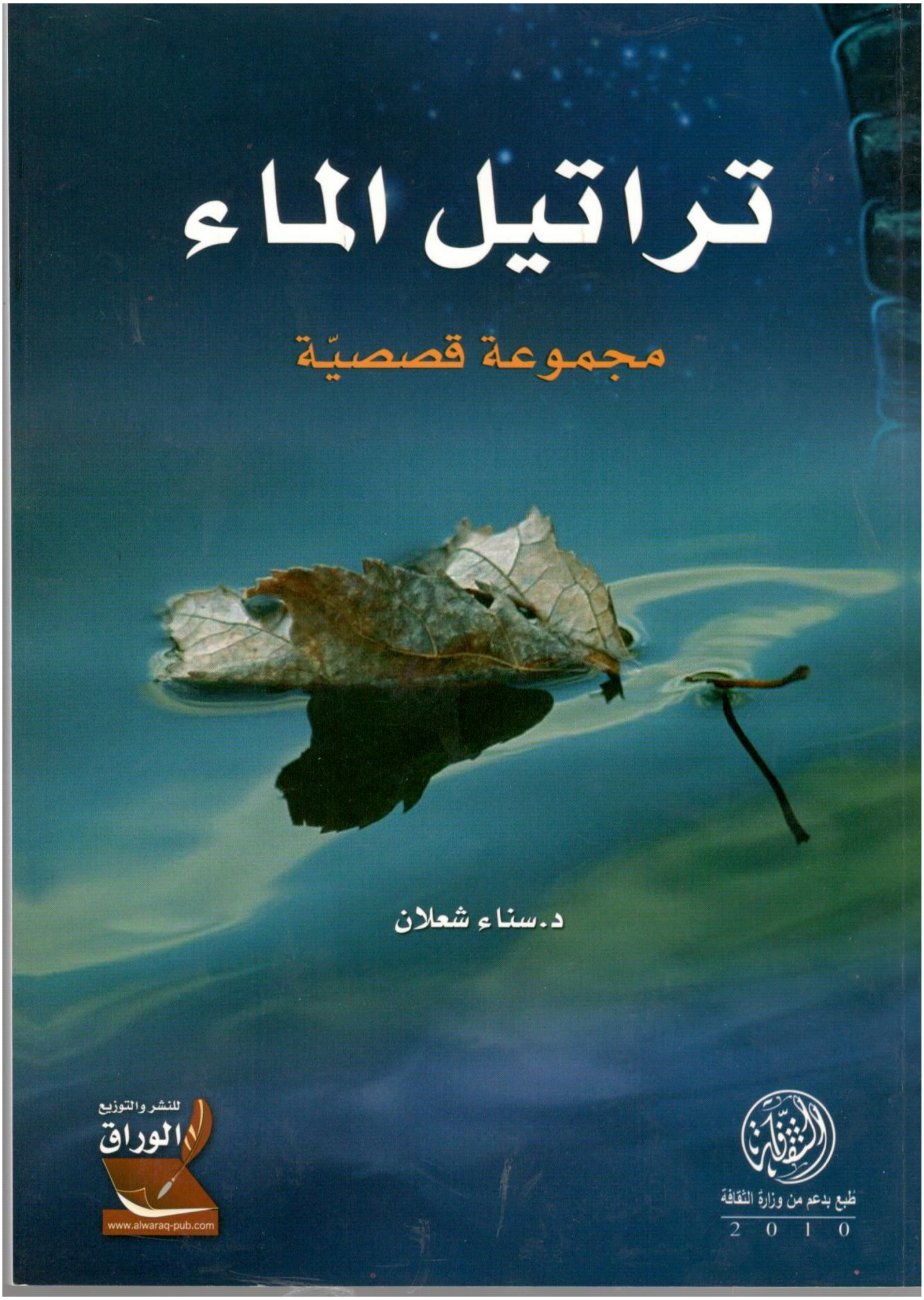
تراتيل الماء
مجموعة قصصيّة
د.سناء شعلان
للنشر والتوزيع
الوراق
www.alwaraq-pub.com
الثقافة
طبع بدعم من وزارة الثقافة
2010

تراتيل الماء

"الماء وحده هو الذي يحفظ سيرة الحقيقة؛ لذلك كُتب عليه الرّحيل أنّى كان" (١)

(١)
ماء السّماء
(تراتيله مقدّسة)

كان دون أقربائه وإخوانه في بسطة الجسد والحظّ والجمال، بل دونهم حتى في كرم الأقدار عليه وعونها له، ومنذ لحظة ولادته الأولى كُتب عليه الحرمان، فنفَسه الدّنيوي الأوّل كان مسلولاً من نفَس أمّه التّي لفظت نفسها الأخير معنّاة بعد ولادة تُوصف على سبيل التبسيط بالمتعسّرة، وهي تتوسّد حلم حضن طفلها الرّابع، لكنّها ما حضنت مُنتظرها، ولا هو حُضن، فكان الطّرد من فردوس حنانها دون خطيئة يذكرها على وجه التّحديد أو يقدّرها أوّل ما استقبله في هذه الحياة التّي كان يسميّها أمّه تقرّباً منها، فتعامله مثل زوجة أب شريرة نكاية بضعف يتمه.

لكنّه ما كان يبالي بعسرته، فهو على الرّغم من كلّ نقائصه وهفواته ومشاكله وحرمانه وعذاباته، صاحب أطيب قلب في الدّنيا، قلبه الأثير لروحه الموشّاة بجمال صفاته أعزّ ما يملك، كسب الكثير من السّعادة الرّوحيّة بسبب هذا القلب، وخسر أكثر بسبب عصيانه له، وتجبّره في أمره، فقد كان أنّى شاء فعل.

١- لا تحتاج قراءة الماء إلى خرائط.

قلبه يشبه ماء السّماء، طاهر، ومبارك من الرّبّ، لم تمسّه يد بشر أو جان، ولم يتلاعب به شيطان خنّاس، مكانه في العلياء؛ لأنّه لا يعرف إلاّ الخير والعطاء والبذل، ولم يخلق إلاّ لذلك، الشّيء الوحيد الذي يسكن بياضه؛ هو الرّحمة والعطاء على الرّغم من حرمانه المتواصل الذي لا يعرف هوادة.

كان أوّل المتطوعين لصدّ أولئك الغاشمين المعتدين على أرض الوطن، لم يكن يتقن الشّعارات والتّصريحات، ولم تُلتقط له أيّ صورة في ملابسه الحربيّة خلف متراس أو جدار، أو في ملجأ، أو في ساحة حرب مفترضة؛ لتُنشر بالألوان في الصّفحة الأولى في أيّ مجلّة أو صحيفة في الدّنيا، ولم تتحرّق أيّ أمّ على غيابه، ولم تنعَه أخت، أو تبكيه حبيبة أو زوجة، إنّما كان نسيج وحده، خرج وحيداً إلى الجهاد، مفاخراً بجسده الصّغير المختزل المتآكل الشّهداء والأبطال والأبرار كلّهم، صادق سلاحه وضمّه إلى قلبه، وكان الجزء الأصعب في ساحة الوغى من نصيبه، على عكس الفرار والملاجىء التّي كانت من نصيب إخوته المبسوطين جسداً وحالاً؛ فقد كانوا يضنّون بأجسادهم الجميلة، وأرواحهم القميئة على الموت ولو كان بلبوس شهادة.

بصدره الفقير الصّغير ذي الضّلوع النّاتئة استقبل رصاصات العدوّ، ضمّها إلى عميق وشائجه، لم يبالِ بفعلها الآثم في لحمه، وقبل أن يسقط أرضاً – كما ينبغي لكلّ شجرة مُغتالة– أفرغ أمانته من الذّخيرة في أجساد رهط من جنود الأعداء، ثم استسلم ليدي أمّه الأرض، وابتسم برضا لأوّل مرة في حياته يخال نفسه فيها مُنصَفاً؛ إذ رأى روحه تُحمل ببَرَدِ الماء وتسعى نحو مستقرّها الأبيض الأزليّ في السّماء.

(٢)

ماء الأرض

(تراتيله مكاءٌ وتصدية)

هي ليست مخلوقة من ماء الأرض الزلق الكدر المتسخ فحسب، بل هي مخلوقة بالتّحدّيد من آسن مياه المستنقعات ومن قتام رذيلتها ومن مقّزز مدرها وقذر قيعانها، لم تختر أن تُخلق من هذا الماء الملعون بنفسه دون غيره، لكن هذا هو قدرها، وقدر مائها الذي ماعرف مآلاً غير السّقوط والتّمرغ في الرّذيلة والرّخص والتهاوي.

هي صنيعة البغاء والإجرام، ومن التحامهما كانت؛ فهي نتاج شهوة أبٍ مجرم متعاظم على ضعف البغايا، وعائش على عرقهنّ المحموم الآثم، وشهوة مصنوعة إجباريّاً لمومس تعسة اعتادت على أن تهب جسدها لكلّ دافع لثمنه أو متجبرٍ مبتزٍ كانت.

لم تحظّ بغير عار هذين الوالدين، وعنهما ورثت الرّذيلة والسّقوط والتّردّي، كانت تحلم بمدرسة ودفتر وعصفور وكأس حليب قبل النّوم وحكاية عن الشّاطر حسن، وبدمية بثوب ورديّ شأنها شأن أيّ طفلة حالمة في هذا العالم، وما كانت تعلم بعد أنّ الحلم محرّم على من هنّ مثلها من الوارثات التّعسات، لكن أوّل سرير بغاء ذُبحت عليه قتل أحلامها كلّها، وجعلها كوابيس تطارد نومها المنكود وصحوها المأسور.

احترفت إعدام أحلامها، والرّقص عارية على رفاتها غير آبهةٍ إلاّ بزبائن جسدها المنهوك بمهنته الحارّقة وبباغيه، إلاّ ذلك الحلم، فقد كان قدرها الذي ما استطاعت أن تغتاله، فمن له أن يغتال حلمه؟ كان حلمها أطهر من أن يحمله

جنان بغي، لكنّه كان أثيرها، كانت تحلم بأن تحجّ إلى بيت الله، لتخلع هناك كلّ آثامها، وتخلص بحبّ لا يعرف رجساً أو ألماً ولا خطيئة لربٍّ غفور.

مرة أفشت سرّها لشريكاتها بمهنة الخطيئة، فأحرقنها بسخريتهنّ، وجدّفن أمامها بصفاقة هي من طبعهنّ، وأسمينها الحاجة إمعاناً بإزدراء حلمها البعيد عن روح خاطئة مثلها، لكنّها ظلّت تحلم وتحلم وتحلم حتى اختفت يوماً وشهراً وعاماً، وما بالى بغيابها أحد، ولا افتقد روحها مفتقد؛ فالبغايا دون أرواح!

هناك في حياض الكعبة المشّرفة كانت تحجل ليل نهار بثوب أبيض يجلّل جسداً تحمل روحاً طاهرة تائبة ماعادت مخلوقة من ماء الأرض والمستنقعات بل من ماء السّماء!

(٣)

ماء البحر

(تراتيله سخط)

تعلّمتْ من البحر الذي وُلدتْ في كوخ بالقرب منه الغدر والقسوة والجبروت، وتعلّمت منه بامتياز التقلّب والدّهاء، ونفسها تنطوي على ألف سرّ خبيء كبحر خرافيّ، وفي زرقة عينيها تسكن أسرار البحر كلّها، وفتنة عشقه، لكن خلفهما تماماً يسكن خواء أسود عميق لا يعرف معناه إلاّ ضحاياها من المغدورين أو المقربين القلّة من الأصدقاء وشركاء العمل.

جمالها وبطش قلبها عماد عملها، تبيع خدماتها لكلّ من يملك أن يشتري مواهبها في التّجسّس، ولا تبالي بالأسباب أو الأهداف أو النّتائج أو الضّحايا أو

الخيانة، وتتبجح قائلة أمام حاسديها في العمل إنّها على استعداد للتجسّس على والدها إن دُفع لها ثمن مناسب لذلك.

التّجسّس عملها ومنهجها ومبدأهما في الحياة، كان من الممكن أن يظلّ سرّ سعادتها فضلاً عن ثرائها لو لم تقابله.

كانت مهمّتها تنحصر في التقرّب منه، وإيقاعه في حبّها أو حتى في الرّغبة في جسدها، ثم تمكينه من مأربه للتمكّن من مأربها وصولاً إلى انتزاع المعلومات كلّها منه انتهاء بالنّكوص هرباً نحو المجهول، ولا بأس في أنّه قد أُعطيت لها أوامر جديدة بالتّخلّص منه بسمٍّ زعاف من السّهل أن تدسّه في طعامه، وهو الذي بات مستسلماً لها، لا يعرف راحة أو هناء أو سعادة دونها، فذلك يعني زيادة في أجرها.

كم كان الأمر سيكون سهلاً لو أنّها لم تقع في حبّه! كم كان هذا الرّجل الوسيم المقيم في الرّوح سيغدو صيداً سانحاً لو أنّها لم تعشق الحياة معه! هو الحبّ المستحيل الذي لطالما داعب قلبها المقدود من الصّخر إلاّ من أمنية وحيدة عرجاء، اسمها قلب رجل يعشقها دون القلوب، وها قد جاء القلب العاشق، وجاء الرّجل، وتحقّقت الأمنيّة، وحضر الجزاء بلون أسود من جنس عملها، وعليها الآن أن تدسّ السّم في كأس الرّجل الوحيد الذي عشقتْ، ومن له أن يرفض أوامر الجهة التّي تعمل لحسابها؟ إذن ستُسحق هي وأهلها، و سيطال الموت أيضاً من أحبّتْ دون رحمة.

ليس عندها فسحة من الوقت لتقارع هواجسها، وتسكّن لواعج قلبها، عليها أن تكون كما شاءت أن تكون الأمّة المطيعة ما دامت قد استمرأت ذلك، وأجازت لنفسها أن تغدر من تحبّ بحكمة البحر وبجماله وببطشه، أعدّت حفلة بهيجة لكليهما، وارتدت الأزرق الذي يشبه شرخ روحها وأملس حجر عينيها،

وأعدت عشاءً فاخراً، وراقصته طويلاً، واستمهلت الموت حتى يأخذ قسطه من الطّعام والرّقص والمسرّة، ثم قدّمت له كأس الشّراب المسموم، وقرعته بفرح مصنوع بعناية بكأسها الذي أفرغت فيه نصف قارورة السّم، فكانت لها الرّشفة الأولى التّي استنفدت نصف الكأس، وانسرحت مع صمت مستسلم تنتظر الموت الذي جاء يتبختر على حرقة قلبها.

أمّا هو فبات يمسّد صمتها بربت خفيف حنون على كتفيها، وهي تتكوّم كقطّة سيامية أليفة في حضنه، وتزفر آخر أنفاسها بصعوبة وحشرجة تفوق كتمها وصرّها. وفي يسراه كأسه المسموم الذي لم ينقص جرعة، فهو رجل بحر، لا يأمن أبداً لغيره، ما دام الغدر طبعه الأصيل، ولو كان لقلب امرأة عشقته بصدق، وآثرت الموت معه إن لم تستطع الحياة له، ولهذا يُعدّ أفضل جاسوس في بلده.

(٤)

ماء البحيرة

(تراتيله بكاء)

جميلة هي البحيرة التّي يسكنها صمت أزرق موغل في القدم، وترحل إليها الجداول الصّغيرة، وتصادق صغار الحيوانات والبشر ومحبّي الصيد والطّيور المهاجرّة وصبيّة الكشّافة دون غدر أو قسوة، قاعها قريب وإن كان بعيداً، وما تبتلعه تقدّمه قرباناً لجمالها.

لكنّها مأسورة، لا يسمح لها بالرّحيل أو الحركة، وكلّ ما يصبّ فيها من ماء الثلوج والجبال والجنادل يغدو مثلها مأسوراً حتى تبتلعه الشّمس بلهيبها المحرق صيفاً.

هو يشبه البحيرة، أو البحيرة تشبهه، أو كلاهما يشترك في أزمة الحصار والقيد، هو ليس من أهل هذا المكان وليس مجرماً أو شريراً أو مطارداً أو منفياً أو باعثاً عن متعة مترفة، لكنّه مأسور هنا حتى يشفى. المرضى اللّئام يهمسون دائماً له بأنّه لن يُشفى، ويقولون بثقة يمقتها: "لا شفاء من داء الجذام".

مرضه مؤلم وغريب، ويفرض عليه عزلة مقيتة تجعله يعتقد أنّ كلّ من في هذا المكان إمّا مجذومون أو معالجوّن للجذام، لا يتذكّر والديه، فقد التّهمهما الجذام في قريته التّي ماعاد يذكرها، عندما سِيْق إلى هنا منذ أن كان صغيراً.

يحلم بأيّ مكان في هذه الدّنيا سوى أسره بالقرب من هذه البحيرة التّي لطالما حرّضها على الثّورة والهروب من مكانها دون جدوى، هي تستسلم للتبخّر والنّقصان أمام جبروت لهيب الشّمس، هي جبانة، وهو أيضاً جبان أمام مرضه، فها هو يأكل أطرافه بعد أن يدميها دون أن يقول له لا، ويتذرّع بالدّمع مآلاً لضعفه.

الدّولة تجبره ومن معه على الإقامة في هذا المكان وإلا الموت حرقاً أو رمياً بالرّصاص لمن يحدّثه عقله بالهرب منه، والعودة إلى الدّيار بهذا الوباء المرعب. لكنّه يتمنّى الهروب من هنا على الرّغم من عقاب الموت الذي ينتظره، وفي جنباته يضجّ ماء البحيرة الحالم مثله بالهرب.

هذا الصّباح الماطر هو أفضل الفرص للهرب، السّماء تزمجر، وتلقي أحمالها من الماء بسخاء، والبحيرة تضطرب بالشّآبيب التّي تصّب بها بعشوائيّة، وروحه تعانق الانعتاق.

ينتعل الحلم، ويركض بعيداً لا يلوي على شيء، وصوت الكلاب التّي تطارده تسبق خطواته في الغابة، والبحيرة تتضامن مع ثورته، وتفيض، ويتدفق ماؤها راكضاً خلفه وخلف الكلاب في الغابات.

في الصّباح كان الهدوء يخيّم على الغابة وعلى الكلاب النّائمة بعد ليلة مطاردة متعبة وعلى البحيرة التّي عادتْ مكرهةً، وابتلعت ماءها الملفوظ مع أوّل إشراقة شمس، وعلى جسد الصّغير المجذوم الذي قُدُم للنّار لتأكله دون شهوة بعد أن أردته رصاصات حرّاس المصحّة في ليلة أمس الماطرة.

(٥)

ماء النّهر

(تراتيله رقص)

لا يجيد السّباحة، ويكاد لا يتذكّر كيف قطع هذا النّهر في يوم من الأيّام هرباً من عدو صهيونيّ داهم قريته المسالمة مع للموت والنّسيان والأحلام المنفيّة، كان ليلتها فتيّاً لا يملك سوى الأحلام وعمل شاق في الأرض، وألمٍ طارىءٍ مؤلمٍ في عينيه حار فيه الطّبّ الشعبيّ وأدوية أبي حسين الحلاّق الذي نصّب نفسه منذ زمن بعيد طبيباً للقرية، ورضي به النّاس إكراماً لفقرهم، وذلاً أمام فاقتهم وعجزهم.

أيدي الإخوة هي من حملته إلى ما بعد النّهر، وأنقذته من موت ليته كان على أيدي عصابات الصّهاينة التّي اغتالت قريته في ساعات، وجعلتها خرائب وقبور ومدافن.

ألف وعد نحر على هذه الضّفّة، وهو يؤمّل النّفس بالعودة، أقسم على أن لا يسكن جبلاً أو كهفاً أو مخيماً أو معتقلاً، وأن يعسكر في هذا المكان من الضّفّة الأخرى حتى يعود، وطال الانتظار، ورحل البصر مع الرّاحلين، وما ترك مكانه، ولا بارح انتظاره، وعندما خيط سلام مع العدوّ، وانتحر حلم

عودته، وغاب في ظلمة عينيه بارق عودة، خلع قميصه الوحيد وحذاءه المطاطيّ المهترِيء، ويمّم نحو الوطن، وألقى نفسه في النّهر مجدّفاً نحو الضّفّة الأخرى، ووجيب قلبه المشتاق هو بصره الدّليل، وما زال حتى الآن يجدّف، وإن لم يكن يجيد السّباحة...

(٦)

ماء الينبوع

(تراتيله حكايا)

"ماء الينبوع لما شُرب له"، هذه هي حكمة الماء، وحكمة أهل القرية التّي اعتزلت التّجارب والعلم والرّحيل منذ زمن، وركنت إلى الرّاحة، وآثرت سلامة الجهل على مخاطر العلم، ونسيت كلّ ماض خلا ينبوعها السّحريّ الذي آمنت بقدرته على الوهب والعطاء والشّفاء والانتقام والحرمان، حتى عندما جفّ الينبوع إلاّ من النّزر القليل، وبات ماؤه شبه آسن، بالكاد يتنزّى الماء منه كثقب في قربة، ظلّ أهل القرية يؤمنون بطاقاته العجيبة وقدرته السّحريّة، ويسوقون إليه العطايا والنّذور، ويطرحونها تباعاً في فمه الذي كاد يُغلق من كثرة ما دُفع إليه من أشياء.

الينبوع كان يسخر من جهل من حوله، ويتمنّى لو كان يستطيع أن يتشكّى لهم من الضّرر الذي يلحقونه به من كثرة ما يلقون فيه من نذور لا تعنيه، ولا تسعده، فما حاجته هو إلى الطّعام والمال والنّفائس والعطور والنّمارق والتّحف ونوادر البهارات والأعشاب والزّهور والشّموع؟!

لكن ما كان لأحد أن يسمع شكواه أو يفهمها؛ لذلك فقد قرّر أن يثور لاضطهاده، ولفظ في لحظة جنون كلّ ما فيه من نذور وهدايا وهبات، فانبلج ماؤه من جديد متدفّقاً رقراقاً، يعلوه خرير سعيد طروب.

أهل القرية عدّوا ثورة الينبوع بركة ومنّة جديدة على قدراته الخارقة، ومن جديد غمروه بالمزيد من النّذور، فقد غدا عندهم رمزاً للثّورة أيضاً، وهم مولعون بالرّموز التّي يصنعونها من الخرافة والعدم والأوهام والنّذور.

(٧)

ماء الشّلّال

(تراتيله عشق)

بين يدي الشّلاّل المنهمر بتمرّد مزهو من شقوق الصّخر وقف، تحت ثقل دفقه المندفع بقوّة برودته المعانقة لذكريات الشّتاء، وصقيع الثّلج المذاب انتصب بعزم مُستدعَى تحت منزلق مياه الشّلاّل الملقي نفسه بتكسّر من علٍ. هو لايقف بين يدي الشّلاّل فحسب، بل هو يقف بين يديها دون نساء الدّنيا، مفارقة مؤلمة تشبه مسرحياته الفاشلة وموهبته الخاملة التّي أنّى حاول أن يبعث الحياة فيها فشل.

هي مسرحيته الأجمل التّي أيقن بمرارة منذ زمن قريب أنّه لن يلعب فيها دور البطولة أبداً مهما اجتهد، ومهما عشق؛ ولذلك كرهها ببذخ وبسخاء بقدر ما كسرت فيه من أمنيات جميلة، ومشاعر متقدة.

ما كان ليظنّ أنّه سيلعب معها اليوم دون كلّ الأيّام مشهداً صغيراً وجميلاً من مسرحيته الحلم الخالدة على الرّغم من أنّها لم ولن تُولد.

كلّ شيء رتّبه القدر ليقف بين يدي الشّلاّل، أيّ بين يديها هي المولعة بالأماكن المرتفعة، والمياه المتدفّقة، ما كان يريد أن يجتمع معها في أيّ مكان، ما دامت قد لفظتْ مشاعره غير آبهة بحبّه الرّتيب.

بدقائق من إقناع واهٍ من الأصدقاء وجد نفسه يرافقها في رحلة نحو الجبال، ومع أوّل شطحة جنون معهودة منها كانت أوّل المتسلقين ارتقاء نحو الشّلاّل، وكان هو آخرهم بمهمّة أُسندتْ إليه على عبث من الأصدقاء للإمساك بها، وحمايّتها من الانزلاق في مهاوي المسقط الصّخريّ للشلاّل.

هو يكرهها، ربما، لكنّ من المؤكد أنّه كان يحبّها في يوم من الأيّام، عنده ألف سبب مزعوم ليكرهها، وإن كان يعرف في قرارة نفسه المولعة بالصّمت والكبت أنّه يكرهها؛ لأنّها لم تحبّه في يوم قطّ.

الآن هو يقف تحت الشّلاّل معها، يمسكها بيديه كي يحميها من الانزلاق، وينسرح في تراتيل الشّلاّل الذي يعرف ماؤه دون غيره كم يعشقها، وكم يعشق أريجها الذّائب في مياهه الجامحة.

دقائق سعيدة مرّت، وهو يمسكها حاضناً حامياً أو حامياً عاشقاً، ومع أوّل ارتجافة برد انزلقت من يديه، وغادرت معبدهما المائيّ التّليد، ابتعدت تجفّف شعرها الفاحم، وتركته هو الممثّل المخلوع يعانق طيفها بين يدي الشّلاّل، ويتململ بتبرّم ظاهر؛ ليعرف الأصدقاء الموجودون جميعهم أنّه يكرهها، وبشدّة.

(٨)

ماؤهما

(تراتيله نسل)

جمعهما حبٌّ اسمه احتياج واقتناع وأفكار مشتركة، هو يبحث عن امرأة تخترق الشّكل التّقليديّ، والوظائف النّسويّة الرّتيبة؛ لتكون صنواً له في مجتمعه المخمليّ الذي يكرّس الأفكار التحرّريّة كلّها ومبادىء الحداثة ومابعد الحداثة، وهي في حاجة إلى رجل يردّد أمامها دون انقطاع إيمانه بالمرأة وبطاقاتها وبأدوارها المعطّلة المأمولة؛ لذلك فقد تزوّجا، وآلا إلى هذه اللّحظة الحميميّة، حيث نسيا مبادئهما واحتياجهما جميعها، واستحضرا كامل تركيزهما ليعلو ماؤه ماءها، فيكون مولودهما ذكراً، لا أنثى إن علا ماؤها ماءه، فهما على الرّغم من تقدّميّتهما العريضة إلاّ أنّهما في الفراش رجعيّان يفضّلان إنجاب ذكر على أيّ أنثى.

سيرة مولانا الماء

سيرة مولانا الماء هي سيرة الحياة، بها أُرّخت الأزمان، وبها كُتِبَت الحقب، وفي حصْنه انبثقت الحياة؛ فمولانا الماء هو الحياة. فمرحى لسيرة الماء، وما أطولها وأشقاها من سيرة !

(١)
سيرة التّكوين

تقول الأسطورة إنّ مولانا الماء بدأ حياته وحيدًا حزيناً، وإنّه وُجد من غير أبٍ أو أمّ، وإنّما كان بكلمة كُن فكان، فكان مزيجاً من الموت والحياة، من الدّفء والبرد، من الخوف والأمن، من التدفّق والسّكون، من الاعتام والنّور، من القسوة واللّين، من التّعالي والتّواضع، من البدايات والنّهايات، كان خليطًا من المتناقضات جميعها؛ لذلك كان بقلب إنسان، كما أشبه الموجودات به؛ لهذا أولاه الإنسان حبّه، وأكنَّ له التّقدير، وعدّه شبيهه الأزليّ، وتوأم وجوده، وأرّخ بأزليّته تاريخه الزّائل، وأسماه مولانا.

تكريماً لمولانا الماء فقد جعل الله الجبّار عرشه العظيم فوق صفحات مائه، ليتباهى بجلال وسرمديّة، وترك له حرّيّة الحركة والانتقال والتشكّل والتّحوّل، فكانتْ الغيوم أوّل أشكال الماء، كان عندها مولانا الماء صغيراً يافعاً، طاهراً مثل دمعة، ناعماً مثل كلمة، حنوناً مثل خفقة قلب، سهلاً مثل حزن، اعتاد على أن يجوب الدّنيا، وأن يطلّ عليها من علٍ؛ لذلك فقد كان طاهراً بريئاً نبيلاً سامياً لا يعرف قسوة كالجبال، أو إحراقًا كالنّار، أو غضبًا حارقاً كالرّياح،

أو تذبذباً كالتّضاريس أو حقداً كالمعادن، أو خوفاً أو ذلاً مثل الكائنات الحيّة؛ فقد كان مكانه السّحاب والغيوم حيث لا يرتقي أحد.

نهارهُ كان يزجيه بمراقبة البشر، والتسكّع في الفضاءات، وليله يقطعه بالتّعبد لله خالقه، خالق الحياة من العدم، فقد كان صديّقاً مؤمناً تقيّاً مجبولاً على طاعة الله وعبادته إلى أن شغلته الدّنيا ببريقها، فهفا قلبه إلى طيباتها وملاذّها، فتمنّى أن ينعم بنقائص البشر، وبزائل سعادتهم، ووقع في حبٍّ نساء الأرض وطعامها وحياتها ولهوها وعبثها وفنونها، وتمنّى أن يهبط إلى الأرض.

لأنّه مؤمن صالح، لو أقسم على الله لأبرّهُ، فقد استجاب الله لطلبه، وجعله يهبط من غيومه على شكل أمطار وبَرَدْ، فعرف البشر المطرَ لأوّل مرّة في تاريخ وجودهم، بعضهم قابلوه مرحّبين به، وعدّوه هبة السّماء، وآية الطّهر، وسمّوا أنفسهم المؤمنين، في حين عدّه الآخرون لعنة وغضباً من السّماء، وتطفّلاً على حياتهم، ومبادرة مستفزّة لإزعاجهم، وتبليل أجسادهم وملابسهم، وإغراق محاصيلهم، ورفضوا استقباله، وهدّدوه بالهراوات والمناجل والسّكاكين والفؤوس، فسمّاهم المؤمنون الكافرين.

لكنّ السّماء رفضتْ عودة الماء إليها، بعد أن هجرها طائعاً زاهداً بها، فما كان من الماء إلاّ أن احتلّ أغوار الأرض ومنخفضاتها، واستلقى فيها بعد رحلة سياحة مضنية في الأرض، فكوّن البحار والبحيرات والأنهار والجداول والآبار والينابيع، وأروى ذلك الشّعور المضني من الجّفاف في حلوق البّشر الذي سُمّي بعدها بالعطش، فتقبّله المؤمنون والكافرون على السّواء، وطفقوا يفكّرون بالاستئثار به، وقامتْ عندها أوّل حروب البشر، وسالت الدّماء، واختلطتْ بالماء التّي ابتلعها مولانا الماء مكرهاً ثم باتَ يشتهيها، ويؤمّل نفسه بها.

(٢)

عروس مولانا الماء

اعتاد مولانا الماء على ترياق الدّماء، وباتَ يطالب به أشدّ الطّلب، ويغضب، ويرعد، ويزبد، ويغور، ويفور إذ ما حُرم منه، فتجاهل طلبه الكفرة الملحدون، في حين صار المؤمنون به أنّى طلب وفعل ينفّذون طلبه، ويرضونه دون أن يسفكوا دماء الأبرياء، فأطعموه في البداية أجساد المجرمين والشّاذّين والخارجين عن جماعتهم، ثم بعد أن نَفِدَ مخزونهم من المغضوب عليهم استسلموا للعجز، فغضب مولانا الماء عليهم، وأمر البحار والأنهار أن تفيض وتغرق البّشر أجمعين، فلبّت البحار والأنهار ما أُمرتْ به، وصبَّتْ غضبها ابتداءً على الصّيادين المساكين الذين قلبتْ قواربهم، وأغرقتهم في الماء، وحاصرتْ رهطاً من النّاجين منهم في الجزر وفي أعشاش السّواحل، وهدّدتْ بإغراقهم والشّواطئ إن لم يُعطَ مولانا الماء بغيته من الدّماء.

جلّ البّشر في مدائن الحجارة لم يبالوا بغضب الماء، ولا بغرق السّواحل، ولا بموت الفقراء والصّيادين، ولم يسعوا إلى استرضاء مولانا الماء، فتقدّمت هي الحسناء السّمراء الحافية من مولانا الغاضب، وعرضتْ عليه جسدها وروحها ودماءها مقابل أن يرحم والدها الصّيّاد العجوز السّتينيّ، وأن لا يغرق سنيّ شقائه في تلك الجزيرة القزم التّي اعتصم بها.

فكّر مولانا الماء قليلاً، ثم وافق على عرض السّمراء، فعروض النّساء الجميلات لا تُرفض، وابتلعها بشهوةٍ، وامتصّ دماءها حتى النّخاع، ثم هدأ وركن إلى جلال صمته، وفكّ حصاره المائيّ عن السّواحل والشّواطئ والخلجان والجزر، وعلتْ صفحات مائه زهوراً بيضاء حزينة.

(٣)

حوريّات الماء

آنس البشر من جديد إلى مولانا الماء، وأمنوا غوائل غضبه وثـورة سـخطه، وأطلقوا اسم تلك الحسناء السّمراء على المئات مـن مولـوداتهم، وعـدّوها الأم الكونيّة الأولى، ورسموا صورتها على معابدهم وصوامعهم، وأعلوا شأنها حتى أصـبحتْ رمـزاً للتّضـحيّة والفخـار، وحـاكوا حولهـا القصـص والخرافـات والأساطير، فتناقلها النّاس جيلاً بعد جيل، واستمتع مولانا الماء بسماعها تُروى على مسمعيه مرّة تلو الأخرى، بل إنّه حفظها، وكان يرويها لنفسه في خلواتـه، ثم هيّجتْ رغبته الدّمويّة سكونه من جديد، وأرعد وأزبد من جديـد، وطالـب من جديد بعروسٍ بشريّة تزفّ إليه، وإلاّ فسـيغرق البشـر أجمعـين والأرضـيّن، فخاف البّشر أيّما غضب، وسكنتهم ذلّة، وأرهقتهم مسكنة، فنزلوا علـى رغبـة مولانا الماء، وزفّوا له عاماً إثر عام -بعد أن أصبح غضبه موسميّاً دوريّاً- أجمـل نسائهم في أثوابٍ قشيبة، واحتفالاتٍ بهيجة، كـان علـى النّسـاء فيهـا أن يـبكين ويضحين، وعلى الرّجال أن يرقصوا ويترنمّوا ويتغنوا بالتّراتيل المقدّسة.

نجح كاهن مولانا الماء في أن يقنع النّساء الأُضحيات بأنّهن سيتحوّلن إلى حوريّات ماء بديعات، ينعمن بالسّعادة وباللّهو بالمـاء دون أن يـؤرّقهن غضـبه، وسيحظّين بشباب خالد، وجمالٍ أبديّ، وفتنة منقطعة الـنّظير، فصـدّقت النّسـاء الأُضحيات بهذه الجنّة الموعودة مجبرات، واستسلمن لقدرهنّ المشؤوم، في حـين ضحك مولانا الماء سـاخراً مـن خبـث كاهنـه الأكـبر، وقـرّر أن يغرقـه في أوّل فيضان؛ لأنّه مقت خداعه، فهو مازال يحمل بعض صـفاته الطّاهرة التّي كـان يملكها عندما كان سحاباً وغيوماً.

هامتْ أرواح النّساء الأضحيات في البحار والأنهار، وطاردن الرّجال في أسفارهم، وزيّنّ لهم المهالك، وأفسدن عليهم عقولهم، وأزغن قلوبهم، وكثيراً ما أسلمنهم إلى الموت غير آسفاتٍ، فبات الرّجال يخشون حوريّات البحر، ويحسدون مولانا الماء على استمتاعه بهنّ، فانتفخت أردانه فخراً برجولته المائيّة المزعومة، وفكّر كثيراً بصنع أعضاء جنسيّة رجوليّة ضخمة له، لتلبّي أطماعه، وتتناسب مع حسد الرّجال له.

(٤)

عرّافة الماء

شعر مولانا الماء بالوحدة تقرص قلبه، وتدمي هيجانه، وطحنه اشتياقٌ إلى أنيسٍ يسامره، ويداعبه، ويهبه كلَّ جواهره وكنوزه، ويبوّأه سدّة عليائه، ومقت أن يكون شخصاً مسروقاً أو أضحيّة مجبرة، وفي لحظة حزنٍ وجوديّة عميقة أخلى مولانا الماء سراح أرواح أسيراته من النّساء، وكفَّ عن فيضاناته الموسميّة، وتراجع منسوبه في الأحواض حتى كاد يجفّ، فأدركت العباد مشقّة، وأحاط بهم القحط، وكادوا يهلكون هم وزروعهم، وتضرّعوا له بشدّة، ووعدوه بالنّساء الأضحيات، لكنّه لم يبالِ بتضرعاتهم أو إغراءاتهم، وصدّ عن سماع توسّلاتهم، وزهد بنسائهم الأضحيات إلى أن قابلها في صومعة متنسكّة في قلب الصّحراء، كانتْ كاهنة في محراب عشقه، عرّافة تسبر الماضي، وتتنبّأ بالمستقبل بيسير مائه، تقرع الأقداح به، وترى في صفائه خطوط الزّمن، عشقته دون أن تراه، وحملت لواء عبادته دون أن تدركه، وبقيتْ عذراء تنتظرُ قدومه ليفترعها، فقد قرأتْ مجيئه في خطوط الماء.

عندما رأته أمامها بلجّته وقسائمه وفوضاه أدركتْ أنّ الوقت قد حـان، لم تهمسْ بأيّ كلمة، اكتفتْ بابتسامة عميقة كـأغواره، وحزمـتْ أشـياءها القليلـة وكؤوسها المجيّدة بصمت، وتأبّطـت ذراعـه بعـد أن همسـتْ في أذنيـه بكلمـتين سحريّتين، ثم رحلتْ معه إلى السّواحل والشّطآن، وأصبحتْ زوجة مولانا المـاء التّي تحكم بالعدل إذا نام حبيبها الماء، فتقصدها النّساء لتنصفهنّ، فـإنِ اسـتيقظ مولاها الماء نامتْ هي، وتركتِ اليابسة في عهدته يسقط عليهـا سـخطه وغضـبه أنّى شاء، وكثيراً ما كان يشاء.

لقد غدتْ آلهة الولادة والزّيجات والولاء والعدل، ورُفعتْ لهـا التّماثيـل في الباحات جميعها، وفي خدور النّساء ومخادع المحظيّات، وتبرّكـتْ بهـا النّسـاء، وتبتّلن في دور عبادتها، وجعلن لها عيداً مقدّساً اسمه عيد "سيّدة الماء".

(٥)
تحوّلات السيّد

مولانا الماء كان ملولاً قلقًا هائجـاً لا يفـتر، متـوتّراً لا يهـدأ، متطلّبـاً لا يرضى، كانتْ نفسه تتبدّل مرة بعد أخرى، وما كـادتْ نفسـه تـأنس إلى زوجتـه العرّافة حتى عاد ونفر من أنسه، واشتاقتْ نفسه من جديد إلى التّمرد والفيضان وتقبّل النّذور والقرابين والأضحيات الجميلات، ولأنّ زوجتـه غيـورة لا تقبـل شريكة، حقودة تجيد الانتقام لنفسها، ولها عينـان سـحريّتان أهـداهما لهـا يـوم زفافهما، تستطيع أن تراه عبرهما في كلّ ركنٍ في سائر أرجاء المعمورة، فقد اعتاد على التّنكّر والتّحوّل كي ينجح في التخفّي والعبث دون أن تنقمَ زوجتـه عليـه، ودون أن يُحرم من متعه الفاسدة، وشهواته الشّبقة.

وإمعاناً في التخفّي والخداع فقد اعتاد على أن يستعير في كلّ مرة جسداً آدميّاً لإتمام مهمّته، فكان النّجاح حليفه في كلّ مرة، فلم يكن من الصّعب أن يجد الفساد في أجساد الكثير من العامّة والخاصّة من سادة وعبيد وعلماء وجهلة وقادة ودهماء ورجال ونساء، وبقدر ما كان يسعده عبثه، كان يتقزّز من فساد البشر، ويتقيّأ طويلاً في مائه كلّما عاد من لياليه الحمراء.

(٦)
مذكّرات مولانا الماء

طوى مولانا حقباً وأزماناً ما عاد يستطيع أن يحصيها، ولولا زوجته العرّافة لأخفق في أن يتذكّر كثيراً من الأحداث والوقائع، وكثيراً ما سخر من جهله، فأنّى له أن يجهل مقدار الزّمن، وهو الزّمن نفسه؟! فبه تؤرّخ البدايات والنّهايات والأزمان، وبأفعاله تطرّز الأفكار والأحداث والأزمات، وبرضاه يرتبط التّفاؤل والخير، وبمداده السّحريّ يدوّن التّاريخ بعد أن اخترعتْ زوجته العرّافة الكتابة والقراءة للبشر.

ولأنّ مولانا الماء قد ضاق ذرعاً بانحطاط البشر، وملَّ تقيؤه المعتاد، فقد قرّر أن ينقطع عن تحولاّته الشّقيّة، وأن يعكف نفسه على كتابة مذكّراته، واستعان بعرافة زوجته في سبيل تذكّر الكثير من أفعاله الماضية وأقواله البائدة. ([1])

١. في زمن ما أصاب البشرَ جنونُ الماء، فطفقوا يزبدون، ويرعدون، ويتمثّلون طباع مولانا الماء بالغضب والسّخط والظّلم.

١- من مذكّرات مولانا الماء.

٢. في لحظة تقزّزٍ قلب مولانا الماء الأرض بمدينة الماء التّي عمّت فيها أخلاقه الفاسدة، ومظالمه السّوداء.

٣. مناسك الماء هي السّبيل إلى التّطهّر، وإلى العودة إلى خلود الماء المفقود حيث الصّفاء والإيمان والتطّهر.

٤. قطرة واحدة من عرق مُستعبَدٍ أو مسخّرٍ أو مستغَلٍ كافية لتعكير مياه البحار جمعاء.

٥. أسفار المظلومين جميعها كُتبتْ بماء اللّعنة.

٦. مولانا الماء اعتاد على أن يسجن الثّوار خلف أسوار أمواجه إلى الأبد.

٧. في كلّ مرة أعدم فيها مولانا الماء ثائراً على ظلمه كان يعود مرتعداً، وينام في كهف الخوف الذي يملكه في المجهول.

٨. السّاحرات أخذن من قبس العرّافة زوجة مولانا الماء، ومن ماء لعنته، وكتبن أسحارهنّ وتعاويذهن على ظهور السّلاحف المائيّة، وأطلقنها في البحار.

(٧)

الطّوفان

من جديد عاودتْ مولانا الماء شهوة الدّماء، وطالب من جديد بعروسه الآدميّة، واختارها هذه المرّة بنفسه، وكاد ينالها، لكنّ عاشقها الفضّيّ كان خصمه، ومسافته الطّويلة بعيداً عن عروسه، فضرب الشطآن دون رحمة، وأغرق البلاد والعباد، وما لان المنتفضون، ولا استسلم المتمرّدون، وفي لحظة جنون

ابتلع مولانا الماء اليابسة كلّها، ففرّ البشر بسفينة من صنعهم، وسخروا من جَوْرِ مولانا الماء ومن غضبه، وتحدّوه، وصمدوا حتى أوهنه التّعب، ونام.

(٨)

المدينة الفاضلة

نزل البشر الخارجون على طاعة مولانا الماء على أوّل يابسة طفتْ من قلب البحر، وخطّوا على سطحها مخطّط أوّل مدينة بشريّة تليدة، وجعلوا العدل دستوراً لجديدهم، واستكملوا البناء، لكن الماء بقي فقيدهم وطلبتهم، ولم تظهر إلاّ عين ماء مريضة في قلب الجزيرة، فبغاها الكلّ، وعلى الماء كانت أوّل المعارك في العهد الجديد، وعلى أطرافه هدّمتْ أركان المدينة الفاضلة النّاشئة.

(٩)

عام مولانا الماء

من جديد عادتِ الأزمان تؤّرخ بسيرة مولانا الماء، وأدرك النّاس أنّ الأزمان تتشابه إن أُرّختْ بالماء، فالماء متشابه في كلّ مكان وزمان، وحدهم الثّائرون هم الذين لهم سير مختلفة، ودروب شتّى، ووجوه باسمة.

س. ص. ع لعبة الأقدام (١)

"مسموح بكلّ شيء في لعبة الأقدام، مسموحٌ بتعالي الضّحكات، مسموح بتهادي الأجساد، وبتعرّق الأبدان، وبشهوة الغناء والسّخرية، حتى إنّه مسموح بالارتداد إلى زمن الطّفولة، أمّا فرحة لقاء الأقدام فممنوعةٌ، وملعونةٌ، وآثمٌ مَنْ يقتنصها أو يحترفها"(٢)

"س"

" القدم العرجاء تهوى لعبة الأقدام أيضاً"

لم تعرفْ يوماً معنى "س. ص. ع" التّي كانتْ تلوكها ضحكات أترابها من صغيرات الحيّ، وزميلات المدرسة، كلّما شرعنَ يلعبنَ لعبة الأقدام المسكونة بدبيب الرّقص، وأزيز التأرجح والتّضاحك والتّداعي، ولا فكّت يوماً رموز هذه الحروف المتفلّتة من عقال الكلمات، والمتحرّرة من رداء الجمل والمعاني المدركة، ولا فهمت أيَّ علاقة تربطها بلعبة الأقدام التّي تداعب صمت الأجساد، فتهبها حركة لذيذة، وتقافزاً مثل فراشات مزهوّة بربيع غير آفل.

لكن ما تدركه بحزن خرافيّ قديم مثل صخرة مقدّسة أنّ هذه الحروف دون غيرها من حروف كلام البشر قد ارتبطتْ عندها بالحرمان وبالعجز، وبقدمها العرجاء على غير استحياء، إذ كانت قدماً عرجاءَ بتبجحٍ تعجزُ عن أن تداريه،

١- هي لعبة للفتيات في الأردن وفلسطين، تمسك الفتيات فيها بأكف بعضهن، ويدُرْنَ في حلقات بشكل دائريّ، ومن يُداس على قدمها تخرج من اللّعبة، ويكون الفوز لآخر من تبقى في اللّعبة دون أن تُداس قدمها.

٢- في المتع كلّها هناك شيء ممنوع ملعون؛ لهذا هو مقدّس.

فتجذبها بذلّ نحو الأرض، وتحني عمودها الفقريّ نحو معقل قِصَرِهَا، وتبرز ردفيها الصّغيرين باستسلام كسير.

لم تحلم يوماً بقدم تماثل قدمها السّليمة بالطّول والصّحة، وتعفيها من ذلّ العاهة، وآفة التشوّه؛ فهي لا تتمنّى المستحيل، فقدمها العرجاء المتكوّرة عند الركبة هي هبة رحم أمّها منذ أن كانت ساكنته السّادسة بعد خمسة أخوة، لكن "س. ص. ع" لعبة الأقدام هي من كانتْ حلمها، لطالما أسندتْ ظهرها المقوّس إلى حائط الحارّة، ذلك الحائط القديم الملوّث بصدأ القدم وعبارات النّسيان، وأوساخ أخرى فقدتْ تاريخ واهبيها وأسماءهم، تتلصّص طويلاً على الأيدي الصّغيرة التّي تمتدّ بعشوائيّة لتمتصّ بتعرّقٍ ثرٍّ أكُفّاً أخرى، وترمي بأجسادها الغضّة الصّغيرة المكسوة بأثواب الطّفولة البريئة في دوائر الرّيح التّي تشكّلها حركاتهنّ البهيجة، وتعلوها ضحكاتهنَّ التّي تحجب قرع وجيب قلوبهنّ المشتعلة بحرارة اللّهو والتقافز، والمتوقّدة بضربات أقدامهنّ بالأرض.

تتابع بأسىً صحراويّ جافّ يظمئ روحها الصّغيرة مثل حفنة دقيق في كفيّ فقير خطواتهن الصّغيرة، تتمنّى لو كانتْ قدمها العرجاء طائعة طيبة مثل انكسارها؛ لتتآمر معها على الظّفر بفرصة لعب واحدة مع الصّغيرات، وعلى فكِّ أبجديّة "س. ص. ع" لعبة الأقدام، لكن بُعْدَ قدمها عن قلبها جعله يجهر بالأمنيات المؤجّلة كلّها إلاّ أمنية قدمها العرجاء، فقد ظلّت بكماء، لا تلوي على لحظة احتجاج أمنية مخنوقة.

مرّتْ عشرون عاماًا من الانكسارات والأحزان وتاريخ مُدم من العرج يعلوه صوت خطواتها غير الرّتيبة التّي تملك تتابعًا شاذّا، ليس كسائر تتابع الخطوات السّويّة، حتى يكاد يكون بصمة مميزًا لشقائها، لكنّها لم تنسها "س. ص. ع" لعبة الأقدام التّي توارثتها طفلات حيّها الشعبيّ القديم الرّابض على

حدود أحياء من هم أقلُّ من سكّان حيّها بؤسًا وانغماسًا في العمل المضـني ليـل نهار.

الأصـوات كلّهـا عنـدها تتماثـل، وتتـداخل، ثـم تتلاشـى إلا أصـوات ضحكات الصّغيرات المتوّجـة بـِ"س. ص. ع" التّـي لم ترحـل مـع ذلـك الـزّمن الرّاحل دون استئذان، واسمه سنوات الطّفولـة وبـواكير الصّبا. تخشـى الـزّوج الطّيّب بقوّة الفقر، وتخشى الهروب من مسكنٍ قديمٍ اسمه بيت، وتتفقّـد أقـدام صغارها في لحظـة ولادتهـم؛ للتـتمّ علـى أقـدامهم السّـليمة؛ إذ ترعبهـا حـدّ التّلاشي فكرة الأقدام القصيرة، والخطوات العرجاء، وتفرح أيّمـا فـرح عنـدما يمشي أطفالها خطواتهم الأولى دون حزن شفيف اسمه عرج.

تقطع الحارّة يوميّاً ذهاباً وإياباً، تتمنّى أشياء، وتسبّ أخرى، ثـم تنسـى مـا تمنّت وما سبّت، إلاّ لعبة الأقدام فهي لا تنساها؛ فهي ظلّها الحزين في منحنيات القلب، كم ستكون الحياة أجمل لو أنّني حظّيتُ ولو مرّة واحـدةً بلعبـة "س. ص. ع".

تحدّث نفسها بوجلٍ، ثم تزرع ابتسامة ممطوطة على صفحة وجهها، تتنحنح بزفيرٍ شديد، كأنّها تسحق أمنيتها القلقة، ثم تتابع طريقها بعينين زائغتين في زقاق الحيّ الجنوبيّ حيث متعة لعب "س. ص. ع".

"ص"

" الضّفائر السّوداء تتقن لعبة الأقدام "

ضـفيرتاها السّـوداوتان تـداعبان وجههـا القمـريّ الملبّـد بغيـوم حمـرة وجنتيها، وتنزلقان بشبقٍ خرافيّ علـى ردفيهـا الصّـغيرين، وتلمسـانه باضـراب دافئ، ثم تحملان اهتزازه الطّفوليّ غير المثقل باكتناز الأنوثة الكاملة بعـد، همـا رفيف قلبه، وحلواء روحه، الزّمن يتوقّف تماماً عندما تبدأ لعبتها مـع طفـلات الحيّ، تغيبُ اللّحظات، ويُضبطُ الطّقس على دقّاتِ قلبه المثخن بعشقهِ الغـضّ، وتتسع حـدقتا عينيـه حتـى تكـادا تبتلعـان رذاذ ضـحكاتها، وتقرّشـان جنـون ضفيرتيها السّوداوتين مثل كحل آلة جمال فينيقيّة، لا يعرف الكـثير مـن كلمـات العشق، وتخونه الكلمات، وتذلّـه ملابسـهُ القديمـة المنكـودة بطـلاء السّـيارات، وسخام العوادم، وشحوم المكابح، فينكسر بين سـيارات المـرآب المعطّلـة حيـث يتعلّم مهنة عمّه كافل فقره ويتمه، يراقبها ليل نهار، ويلعقُ جمالهـا عـن جـدران قلق فرحه الطّفوليّ في لحظات مراقبتها وهي تلعب "س. ص. ع"، فيتمنّى عندئـذ من صميم قلبه الصّـغير لـو كـان يملـك يـدين نظيفـتين لا تجلـدهما قـاذورات المحرّكات، ولو كانتْ لعبة حبيبته القمريّـة الصّـغيرة ليسـت عنصـريّة، ومتحيّـزة للفتيات ضدّ الصبيّة، إذن لكـان أوّل مـن يغـزو حلقـات اللّعـب علـى صـهوة اشتياقه، ويحتلّ كفّ إحدى يديها، ويلاحق بقدمه قدمها التّي تحنُّ بطفولة ليست بريئة، وإن لم تكن مدنّسة إلى معانقة قدمها، ووطئها بخفـة لتصـبّ فيهـا حـرارة فرحته بها، لكنّه –وألف حسرة – صبيّ يتيم مأسور لعمّه، وهي فتاة جميلة بثوب أبيض نظيف، ووجه قمرّي مقدّس وضفيرتين سوداوين مثل حبر قصيدة مجيّـدة على جدار قلبه، إذن فليصمتْ، ويراقبها ليل نهار دون كلام، وليتحسّر ما شـاء على ضفيرتيها المزّهـوتين بثـوب الزّفـاف وبيـدي رجـل ببذلـة أنيقـة تفكّهمـا،

وتسدلهما باشتهاء قرم على ثوبها الأبيض وجسدها العـاري، لتنجـب لـه بعـد أشهر قليلة فتاة بوجه مثل وجه والدها، حيـث رحـل القمـر، لكـن بضـفيرتين سوداوتين تعشقان أيضاً لعبة "س. ص. ع".

بقوّة محرّك قديم سارتْ حياته الرّتيبة، وحسبه تاريخ حمـارٍ بشـريّ دأبـه العمل والكدّ دون تذمّر أو شكوى، عنده ثلاثة أبنـاء ذكـور، وابنـة واحـدة، لا شمسيّة ولا قمريّة، وليس لها ضفيرتان، لذا فمن حقه أن يراقب بحسرة دفينة في عميق أشواقه ابنة المرأة التّي أحبَّ دون أن تعرف، وانغرسـتْ في سـويداء قلبـه طفلةً صغيرةً تقهقه ببراءة، وهـي تلعـب لعبتهـا التّـي تتقنهـا، ولا تسـمح لأيّ صغيرة تلهو معها في اللّعبة بأن تـدوس قـدمها، وتبقـى محلّقـةً في سمـاء دوائـر الرّيح، مشرّعةً ضفيرتيها دون قصد لطفل يتيم لا يجيدُ اقتناص الكلمات.

"ع"

" عليكَ أن تحضر جسدكَ معكَ كي تلعبَ لعبة الأقدام"

اعتادتْ منذ أنْ كانت طفلة على أنَّ تجـدلَ الخـرز الملـوّن مـع ضـفيرتيها السّوداوتين، ثم غدت تجدلُ معهما حليـب أمومتهـا المتدفّقـة وخلجـاتِ قلبهـا المتوثّبة أبداً لسـعادة آدميّـة اسمهـا ابنتهـا الصّـغيرة، ثـم جـدّلتِ الأحـزان مـع ضفيرتيها بعد أن خطف الموت صغيرتها، وولّى هاربًا بها نحـو مملكتـه المظلمـة، وهي تخشى الظّلام، وتخشى كائنات الموت، وتخشى كذلك ذلك الصّمت المطبق الذي اسمه الموت، لذلك فقد آثرت أن تسلم نفسها لحزن أبديّ وجنـون دوريّ اسمه طيف ابنتها الحبيبة التّي كانت حديثةُ عهـد بمتـع الطّفولـة واللّهـو عنـدما انضّمت إلى لعبـة "س. ص. ع"، يومهـا لعبـتْ معهـا لأوّل مـرة في الشّـارع مـع

الصّغيرات، ودفعتها بحنو نحو الأكفّ الصّغيرة النّاعمة، ودوائر الرّيح والتّراقص، وجعلتْ من حرفة مراقبتها من شرفة منزلها متعة لروحها، وكادت تفكر بأنْ تنقلَ الفتيات واللّعبة والشّارع إلى بيتها كي تكونَ ابنتها في أمان، لكنّ"س. ص. ع" هي لعبة الحارّات والأزقّة، ولا يمكن أن تُدجّنَ في بيوت مطبقة الأبواب، مغلقة النّوافذ؛ لذلك فقد سهل على الموت أن يسرقَ ابنتها، وأن يطعمها بشرهٍ لسيّارة مسرعة مرّت من زقاق الحيّ، واقتاتتْ جسد طفلتين، ابنتها كانت إحداهما.

رحل الموت بردائه الجنائزيّ المقيت، وأَسَرَ ابنتها في مملكته السّوداء، وبقيتْ هي ربيبة الأحلام وطيف ابنتها المتفلّت من عالمه السفليّ، والمولع بلعبة الأقدام على الرّغم من ضبابيّته العاجزة حتى عن ضمّ كفّ صغيرة تلعب.

تصمّم أحياناً على مداعبة طيف ابنتها، وتقحمُ نفسها في حلقات لعب الصّغيرات، وتُحادث الطّيف بانكسار، فترهبُ الصّغيرات، فيهربن جزعات، وتحوقل أمّهاتهنّ؛ إذ يشفقن على جارتهنّ الشّابة التّي يداهمها الجنون من حين إلى آخر كلّما سمعت أزيز لعبة "س. ص. ع"، في حين تصمّم الصّغيرات على ممارسة لعبتهنّ المفضّلة غير آبهات بجنون أمّ خسرتْ وحيدتها لأجل لعبة أقدام.

" لعبة الأقدام "

" من حقِّ الأقدام أن تتمرّد على الأعراف والعادات والأحزان "

كان يوماً ماطراً ومشمساً وغائماً ومرعداً، وقائضاً وممطراً ومثلجاً، وتجتاحه عواصف ورمال صحراويّة، بالتّحديد كان يوماً عاديّاً، ليس من بصمة طقس مميّز تعلوه؛ لذلك فقد سَهُل أن يسقط من حسبان ثلاثتهم، إذا كان فيه بذرة

جنون، وعوالق تمرّد، وحفنة من أحزان متدفّقة، فكان حريّ به أن يجمع ثلاثتهم دون ترتيب معلن في ذلك الزّقاق، كانت العرجاء حينئذ عائدة من عملها في دورته الصّباحيّة من المستشفى، وكانت المجنونة ذات الضّفيرتين السّوداوين تلاحق طيف ابنتها الذي يكاد يغشى بفرح طفوليّ يهزأُ بالموت حلقة الأيدي الصّغيرة النّاعمة، أمّا هو فكان يراقب مجنونته الفاتنة، التّي غدا الجنون برزخاً يفصله عنها ما شاء لعمريهما أن يمتدّا.

ثلاثتهم كان مشغولاً بما يشغله، وبأصوات الضّحكات، وبترنيمه "س. ص. ع" السّحريّة التّي تضجّ بحرارة الزّقاق، والأقدام الصّغيرة الراقصة تعفر ترابه المزّ، وتهيّج غباره المنتن، الطّيف أوّل مَنْ دلفَ إلى حلقة اللّعب، ثم داهمتِ الأم المجنونة الحلقة لتحضنَ الطّيف الشّقيّ، فَعَلَتِ الصّغيرات همهمة ثم زجرة، ثم هربن لا يلوين على شيء، فوقفت الأمّ كسيرة تمدّ يديها إلى العدم، حين يقف هو بكرشه الذي نما بتغوّل في السّنوات القليلة المنصرمة، وبحزنه الذي شاخ، وما شاختْ صبوته، ولا غادرته فتاة قلبه ذات الضّفيرتين السّوداوتين.

اقتربَ منها، لأوّل مرة في حياتها تلمح كلام عينيه "أكانَ يحتاج إلى جنونها حتى تسمعَ حنينه وتقرأ أشواقه؟" حدّث دهشة عينيها بصمت.

هذه فرصته ليلاعبها، وليراقصها، وليدفن كفها في كفه ولو لمرة واحدة في حياته، مدّ كفّه بانكسار شحّاذ حافٍ، فألقمته كفّها برضا كليمٍ يمدُّ جرحه لآسٍ، وبقيت اللّعبة ناقصة، تحتاج إلى ثالث –على الأقلّ– لتبدأ.

العرجاءُ بصليل حذائها المقوّم لقدمها العرجاء كانت ذلك الثّالث الذي وهبه القدر لهما في لحظة تساهلٍ نادرة، تعانقتِ الأكفُّ السّتة، وبدأتْ رقصة لعبة "س. ص. ع"، العيون كانتْ مشرقة كنوافذ قمريّة، والرّقاب مشرئبّة،

والأرواح معلّقة في عرش السّعادة. رقص ثلاثتهم كما لم يرقصوا يوماً، وعلتْ أصواتهم وهم يردّدون بفرح مستحيل مداهم: "س. ص. ع لعبة الأقدام".

غشيتهم بركات لعبتهم السّحريّة، وساحوا في دنيا النّور والطّفولة والأقدام المنكودة، وفرحوا كما لم يفرحوا يوماً، في حين بكى كثيرٌ من سكّان الحيّ من لعنة الجنون التّي أصابت ثلاثة أشخاص طيبين من خيار أهل الحيّ، وحرّمت الأمهات لعبة "س. ص. ع" على بناتهم، إذ يتْنَ يتشاءمنَ من هذه اللّعبة اللّعنة التّي تسكن الأقدام، وتأكل القلوب.

سِفْر البرزخ

"هـذا ما وُجِدَ منقوشاً بالخطّ السّماويّ اللاّزورديّ الفاقع على جدار البوّابة العُظمى في البرزخ" (1)

قصّة الخلاص الأولى

(من صفر إلى. . .)

قرّر الإله العظيم من فوق عرشه الخالد أن يخلق كائنًا جديداً ليعبده، فخلق آدم من أديم الأرض، ثم خلق من ضلعه زوجه حواء، وكانت الخطيئة البشـريّة الأولى، وكان رحيل آدم وحواء إلى الأرض، التّي هي صورة عـن الجنّـة، الخـير فيها في كلّ مكان، وعين الله ترعاها، ويدركها تسبيح الملائكة، وتكـاثر أبنـاء آدم وحواء بالزّواج وبالسّفاح، ولسبب غير محدّد ظهر عتاة بقرون ذهبيّـة، وأجسـاد بشريّة وسياط قويّةٍ ظالمةٍ على باقي البشر، فكانوا ساداتهم وملوكهم، ومنذ تلك اللّحظة تفرّق الأخوة في الأرض، فكان لبعضهم ريـش النّعـام للنّـوم، وغلائـل الحرير للبس، وجواهر الموجودات ونفائس الكائنات والحجارة للزّينة والتطيّب، وقصور مشيّدة، وجوارٍ حسان، ولذيـذ المأكـل والمشـرب، وبقـوّة مـا كـان لهـم السّلطان على باقي إخوانهم المستضعفين مـن أبنـاء آدم الـذين أنكـروا نسـبهم، ونسبوهم إلى الشّيطان أو الحيوان أو المجهول، واتخذوهم عبيدًا، يسومونهم سـوء العذاب، وكاد العبيد أن يستسلموا لقدرهم المنكود، ويقرّوا بأصلهم الشـيطانيّ،

---

١ – تحقيق وشرح العلاّمة "دام الدّهر سلمان"، المخطوطة الوحيدة "تصنيف س م" من متحف "التّاريخ المقدّس" في س.

وينسوا رسالة والدهم آدم، وترنيمة أمّهم حوّاء، ثم شُقّ نورٌ تشكّل على شكل إنسان يقودهم إلى النّور، ويعلمّهم أنّهم مستخلفون في الأرض، لا عبيد عند عبيد الله، فكان الغضب، وكانت الثّورة التّي عصفتْ بقلوب العبيد، وملأتها بنورٍ سماويّ عجيب، انتفضتْ عليه آلاتُ العذاب، وجماعاتُ الظّلام، وكانتْ حربًا عظيمة، انتصر فيها نور الكلمة، وسقطتْ فيها الأوثان والجبابرة العُتاة، وسُجّل فيها أسماء المبشرين بعهد النّور ورضا الرّبّ في سِفْرٍ من زبرجد عُلّق ما بين السّماء والأرضِ على بوابة البرزخ، وكان الفصل بين الموت والحياة، والهداية والضلال، والمستعبدين، والظّلم والعدل، وردّدت السّماء: "إنّ الله قد جعل الظّلم محرّماً على نفسه"، فردّدت الأرض: "الحرّيّة طريق العباد إلى الله".

قصّة الخلاص الأخيرة

(من... إلى صفر)

ردّدتْ الأرض: "الحرّيّة طريق العباد إلى الله"، وردّدت السّماء: "إنّ الله قد جعل الظّلم محرّماً على نفسه"هذه هي الكلمات الفصل في سِفْر المبشرين بعهد النّور ورضا الرّبّ، الذي علّق ما بين السّماء والأرض على بوابة البرزخ، فكان الفصل بين الموت والحياة، والهداية والضّلال، والمستعبَدين والمستعيدين، وذلك بعد حرب عظيمة، انتصر فيها نور الكلمة، وسقطت فيها الأوثان والجبابرة العُتاة، في إثْرِ ثورة العبيد، التّي عصفتْ بقلوبهم، وملأت الأرض بنور سماويّ عجيبٍ، انتفضتْ عليه آلاتُ العذاب، وجماعات الظّلام، بعد أن شُقّ نورٌ تشكّل على شكل إنسان يقود العبيد إلى النّور، ويعلّمهم أنّهم مستخلفون في الأرض،

لا عبيد عند عبيد الله، الذين أنكروا نسبهم، ونسبوهم إلى الشّيطان أو الحيوان أو المجهول، واتّخذوهم عبيداً يسومونهم سوء العذاب.

كاد العبيد أن يستسلموا لقدرهم المنكود، ويقرّوا بنسبهم الشيطانيّ، وينسوا رسالة والدهم آدم، وترنيمة أمّهم حوّاء، على أيدي أخوتهم السّادة الذين كان لهم ريش النّعام للنّوم، وغلائل الحرير للبّس، وجواهر الموجودات ونفائس الكائنات والحجارة للزّينة والتّطيّب، وقصور مشيّدة، وجوار حِسان، وطيب المأكل والمشرب، وبقوّة ما كان لهم السّلطان على باقي أخوتهم المستضعفين من أبناء آدم، الذين تفرّقوا في الأرض، وظهر فيهم عتاةٌ من صلب آدم بقرون ذهبيّة، وأجساد بشريّة، وسياط مؤلمة ظالمة، وذلك بعد أن هبط آدم وحواء إلى الأرض التّي كانت صورة عن الجنّة، الخير فيها في كلّ مكان، وعين الله ترعاها، ويدركها تسبيح الملائكة، فتكاثر أبناء آدم وحواء بالزّواج والسّفاح؛ بعد أن خُلق آدم من أديم الأرض، وخلق له زوجه اسمها حواء من ضلعه، تنفيذًا لقرار الإله العظيم من فوق عرشه الخالد في أن يخلق كائناً جديداً ليعبده، ثم كانت الخطيئة البشريّة الأولى. (1)

١- هوامش المخطوطة:

١- القصّة الأولى مكتوبة بخط سماويّ مجهول.

٢- القصّة الأخيرة مكتوبة باللّغات البشريّة كلّها: مؤرّخ لتاريخ صراع البشريّة وثوراتها.

٣- القصّتان إحداهما أصل للأخرى، والله أعلم. هذا ما هدى الله عبده الفقير إليه "دام الدّهر سلمان" في زمن ما.

المفصّل في تاريخ ابن مهزوم وما جادَتْ به العلوم (1)

"التّاريخ يكتبه المنتصرون، وأنا منتصر بمعنىً ما، إذن من حقّي أن أكتب التّاريخ كما أشاء، وها قد شئتُ" (2)

(١)
ابن زُريق لم يمتْ

جلسَ بفخرٍ متعالٍ لا يناسب إخفاقاته المتكرّرة التّي كبدّته خسائر جسيمة بالتّرقيات وساعات عملٍ إضافيّة مجانيّة حدّ تسلّخ إبطيه، وتعفّن أصابع قدميه في حذائه الرّسميّ العتيد، لكن هذه هي لحظة الانتصار المنتظرة، رقّص رجلاً فوق رجل، وقال بثقةٍ فضفاضةٍ تناسب ابتسامة شدقيه: "هذا هو الدّليل" رفع المدير حاجبيه ثم قطبهما دون مبالاةٍ، وقال: "الدّليل على ماذا؟"

قال باعتزاز من حلّق فوق سوامق الجبال ووطئ الغيوم بقدميه: "الدّليل على أنّ ابن زريق لم يمت".

هزّ المدير رأسه، وطوّح كتفيه كناية عن أمرٍ لم يفهمه الموظّف، وقال: "من هو ابن زريق هذا؟"

– "صاحب القصيدة العينية الشّهيرة".

١- حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة بصيرا الثّامنة "شهداء الثّورة" في القصّة القصيرة في العام ٢٠٠٩، بلديّة بصيرا، الأردن.

٢ – من خربشات ابن مهزوم نزيل رقم (٦) في عنبر الحالات الخطرة في مستشفى الأمراض العقليّة والعصبيّة هنا أو هناك.

- "أيّ عينية؟" سأل المدير بصبر فارغ وتقزّز.

أجاب الموظّف بحماس طفلٍ مدرسيّ، وانتصب على قدميه، وضمّ فخذاً إلى الآخر، وشدّ معدته بزفير عميق، وقال جاحظّ العينين يبذل جهداً كي لا ينسى ما حفظ:

الذي قال:

"لا تعذليه إنّ العذل يولعه

قد قلتِ حقّاً، ولكن ليس يسمعه

جاوزتِ في لومه حدًّا أضرّ

به من حيث قدّرتْ أنّ اللّوم ينفعه

فاستعملي الرّفق في تأنيبه بدلاً

من لومه فهو مُضنى القلب موجعه"

قال المدير باستهزاء بادٍ: "ماذا قال أيضاً؟"

قال:

"وإنْ تنلْ أحداً منا منيته

فما الذي بقضاء الله نصنعه"

نقر المدير بأصابعه ذات الأصابع الشّجريّة السّمينة على زجاج مكتبه، وقال: "كفاك يا رجل: مَنْ هو ابن زريق هذا؟"

- "هو ابن زريق البغداديّ؟"

سأل المدير وهو يراود غضباً يكاد يسحقه: "من هو ابن زريق البغداديّ هذا؟ أهو عميل عندنا أم موظّف؟ تكلّم سريعاً لا وقت عندي أبدّده عليك وعليه".

قهقه الموظّف قهقهة مصنوعة بدقّة، وقال: "بل هو لص كبير، أراد أن يخدعنا، بل ويخدع كلّ النّاس والتّاريخ والشّعر الجميل وآلاف العصافير، وجعل من القصيدة التّي أسمعتكَ مطلعها طريقه إلى ذلك، لقد أثبتتْ تحرّياتي السّرّيّة أنّه كان شاعراً مغموراً وعاشقاً لعوباً وتاجراً فاشلاً في بغداد، وبعد تحريرها على أيدي أمريكا الفاتحة بعد قرون من احتلال العراقيّين لها قرّر أن يركب الموجة، ويخدع الجميع، ويستغلنا نحن الأمريكيّين الطّيّبين، أمّن على حياته في فرع شركتنا في دارفور، ثم تسلّل بشكل غير شرعيّ إلى إسبانيا، وادّعى أنّها الأندلس، وموطن الأجداد العرب، وأعدّ العدّة، وكتب هذه القصيدة المسروقة من متحف اللّوفر منذ وفاة صموئيل شامير الذي كتبها عن معاناة شعبه إبّان محارق النّازيين له، ومثّل دور الميّت حزناً وكمداً وهمّاً، ودُفن في فناء مجهول، ثم جاءت زوجته اللّئيمة لتطالب بقيمة التّأمين على حياته بعد أن نشرتْ قصيدته المسروقة على الإنترنت، فتغنّى بها العرب، وطربتْ لها رمال الصّحراء، وسار بها الحداة وعازفو الرّبّابة.

للحقّ كادتْ تخدعنا، وتحصل على التّأمين لتسعد به وذلك اللّئيم، لكن ذكائي بل وخبثي وأنفي الحسّاس لكلّ خداع كشف حيلته، وعرف أنّ موته ليس أكثر من إقامة مشروطة في القبر إلى حين انتهاء مدّة عقوبة فقره، وأنّ زوجته اللّئيمة بدأت تخيط من خوص دجلة والفرات غيوماً متلبّدة، وكدت أسمع صريخ الرّعد، وأرى وهج البرق، لكن في اللّحظة المناسبة استيقظ "صموئيل" من قبره، وأعلن ملكيته للعينية، وفضح أكاذيب ابن زريق ذلك

الأعرابيّ الجلف السّارق، عندها قبضتُ بمساعدة قوّات التّحرير الأمريكيّة على ابن زريق متلبّساً بالموت في قبره، والزّمناه بالغرامات، وحرّمنا عليه قول كلمة "علوج"، وإلى الأبد.

صمتَ الموظّف ليرى أثر كلامه على وجه مديره الذي راعه مدى الشّبه بين قسماته وأحافير وجه خنزيره "بولي" ثم ازدرد ريقه، وأخذ جرعة ماء من كأسٍ أمامه.

فانتهره المدير قائلاً بتوتر: "ثم ماذا حدث؟ بدأت أُعجبُ بكَ أيها الموظّف الذّكي".

استأنف الموظّف بكبرٍ لا يليق بصفرته الشّاحبة: "ثم استصدرتُ قراراً قانونيًا عاجلاً نظراً لمدى تضرّر الشّاعر الملهم صموئيل واستياء قبيلته التّائهة في ضفاف بلاد البحيرات بإعدام ابن زريق بقصيدته".

– "هل أعدم بحقّ؟"

– "نعم، بالتّأكيد".

– "أحسنت. وماذا بعد؟"

– "استرددتُ من ورثته مال التّأمين، علماً بأنّنا لم نكن قد دفعناه لهم أصلاً".

– "رائع. ومن دفعه؟"

– "دفعه كلّ عربيّ أحمق حفظ عينيته المسروقة".

– " رائع ! وماذا بعد؟"

– "وردتني آلاف التقارير من مصادر موثوقة تُفيد بأنّ ابن زريق هذه المرّة لم يمت".

(٢)

شهرياريتوب

كانتْ غلطة كبيرة جعلت شهريار يدفع سمعته ثمنًا لها، بل ويدفع ألف ليلة وليلة من السّهر المضني والمتواصل محبوسًا مع نزير الماء والطّعام في مخدعه السّلطاني الذي يحرسه السيّاف المرتشي مع زوجته الثرثارة شهرزاد، ولولا ستر الله، ودفعه الفتنة بالحكمة، والتّمرد بالحلم، لكان رأسه الآن متدحرجًا بعيدًا عن جسده، وملقىً عند قدمي زوجته الغيورة الثّرثارة شهرزاد، وما أبعده من اسم عن ودّ قلبه! فما هو إلا اختزال لكلمتي "شرّ" و"زاد"؛ فهي الشّرّ كلّه قد زاد عن حدّه، وتوّج بقباحة خلقتها وسوء معشرها.

قاتل الله الطّمع، فلولا طمع شهريار بالمال المزعوم للوزير عفّار والد شهرزاد، لما كان متورّطاً بها الآن، ولكان حظّه من المتعة مع جواريه الألف عوضاً له عن المال والسّلطان، لكن الطّمع ضرّ ما نفع، وفرّق ما جمع؛ فالكوارث تهلكه، ويبقى القرد في وجه صاحبه الطمّاع، وها هي القردة شهرزاد في وجهه.

تستطيع شهرزاد أن تلفّق آلاف القصص والأكاذيب عن جمالها المزعوم وثقافتها الواسعة وحكمتها المنشودة، لكنّ المرايا لا شكّ ستفضح كذبها، والجهل سيضع حدّاً لأكاذيبها، ولولا ذكاؤها الذي يشهد به شهريار، ويعضّ عليه بالنّواجذ لكانتِ الآن نسياً منسيّاً كما هو الآن في قصره وفي سلطنته منسياً وألعوبةً في يدي زوجته المخادعة.

منذ أن انتهتِ اللّيالي الألف التّي منعته شهرزاد من النّوم فيها، وأقامت عليه الحرس والعيون، وألزمته بالاستيقاظ والسّماع إلى حديثها المقيت دون

انقطاع، وإلاّ فرأسه الملكيّ النّبيل سيكون ثمناً لعصيانه الوحيد لزوجته، وهو يعاني من أرق ملازم، وتعجز أقراص النّوم وأقراص المهدّئ عن أن تدفعه إلى مدينة النّوم. وها هي شهرزاد تغّط في النّوم هانئة سعيدة بعد أن تمّ لها كلّ ما شاءت، وملأت الدّنيا قصصاً وأكاذيب، وجعلته أضحوكة وألعوبة، ورسمته في أذهان العامّة على هيئة السّفاح الدّمويّ الجاهل المغرور، وها هو الآن يساهر نجوم السّماء، ويتميّز غيظاً بسبب ديك الصّباح اللّئيم الذي يذكّره بمعاناته اللّيليّة الألفيّة، ويذكره بخطيئته الكبرى المدّعاة التّي ساقت البلاء إليه.

كان يوماً شمسيّاً قائظاً عندما دخل عليه نخّاس القصر اليهوديّ يزفّ إليه جارية فُلقتْ من القمر في ليلة اكتماله في ليلة صيفيّة، جمالها أطار لُبّه، واشتراها بألف ألف درهم، وما كان ذلك بالكثير إذا ما قُورن بجمالها وسحرها وأنوثتها، وقد أمل في أن يجد في جوارها السّعادة التّي رحلت عن حياته منذ أن دخلت شهرزاد مخدعه، ودسّت أنفها الكبير المقوّس كأنف صقر في شؤونه وشؤون دولته، لكن الويل كان في حضورها، فما كادتْ عينا شهرزاد تدركانها، حتى جنّ جنونها، وأصابها هوس القرود، وإلحاح البراغيث والقمل والبقّ، واتّهمته بالسّفاهة، وتبديد أموال المسلمين، وحجرتْ عليه، وأغلقتْ يديها دونه، وكادتْ للجارية، وأودعتها الأرض حيّة في صندوق خشبيّ مغلق، الشّيطان نفسه يعجز عن فتحه، ومن ليلتها كان البلاء، فقد شرعتْ شهرزاد في ثرثرتها التّي امتدتْ ألف ليلة، وغلّقتِ الأبواب، وخلعتْ ستر الحياء، وطفقتْ في حكايات وألغاز وعبرَ، تذكّره بها بخطايا البشر أجمعين، وتصفه بنواقصهم كلّها، وتضرب له الحكم، وتجسّد له الشّرّ كلّه في جاريته الدّفينة حيّة، وتلومه، وتقرّعه، وتبكي، وتنتحب، وترقص، وتقفز، وتستلقي، وتكسّر، وتتوعّد، وتسبّ، وتشتم، وتعضّ، وتضرب بالقبقاب، وبعد ذلك ليس في يدي شهريار المسكين إلا أن

يستسلم لها، وأن يتوب عن خطيئته، وأن يستجدي المغفرة من شهرزاد، ثم يضرب رأسه بنعليه ندماً على ما أخطأ وفرّط، ويخلص إلى حكمة مفادها: "حمارٌ من يتزوّج امرأة ثرثارة غيورة وقبيحة كشهرزاد لا سيما إن كانتْ تجيدُ نسج القصصِ والأكاذيب" ([1])

(٣)

"جالاتيا" مرة أخرى [2]

أخذ "بجماليون" نفساً عميقاً بقدر ذلك الغور المظلم في أشجان روحه التي أوهنها الغدر، وأضناها الشّوق إلى امرأة تعشق فنّه العظيم، وتقدّر أنامله السّماويّة القادرة على حفر البشر في الصّخر، والتّغنّي بأنّه أمهر نحّات في الدّنيا، والتّغاضي عن عيبه الوحيد والخطير، فما قيمة فحولة منشودة سرعان ما يبددها الكبر أو يبريها المرض والجوع والتّعب أمام موهبته النّادرة كقطرة عسل في جوف نملة، والسّامية مثل دمعة إله إغريقيّ نبيل؟ لكن النّساء الحمقاوات لا سيما الجميلات منهن قد آثرن عضواً شبقاً رشيقاً على موهبته الخالدة، وزهدن به وبكلّ ما صنعت يداه هبة الإله "زيوس".

لقد عضّ طويلاً على ألمه وجوعه الجسديّ المستبدّ بكبريائه المكلوم، ورضاه المصنوع من الحجر الصّلد، لكن حنقه قد كاد يفتّت روحه، ويطيّر النّور المقدّس

١- وأدرك شهريار الصّباح، فسكت مجبراً عن الكلام المُباح، وطُلب له الدّفاع المدنيّ لينقله إلى مستشفى السّلطنة في حالة إنهيار عصبيّ حادّ.

٢- حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة ساقية الصّاوي الإبداعيّة في القصّة القصيرة في العام ٢٠٠٩، القاهرة، مصر.

لإبداعه، وما وجد سبيلاً لكي يزفر غضبه خلا أن ينحت بيديه حنقه على نساء الدّنيا جميعهن على شكل تمثال يحوي نقائص المرأة كلّها، ويتمثّل عيوبها الجسديّة جميعها، ويستحضر فيها كلّ ما يُنفّر ويقزّز، ويزهّد حثالة الرّجال وعفونتهم بامرأته التّمثال المسخ.

ها قد انتهى من تمثاله الأمثولة الذي نحته عارياً، تفوح منه رائحة صنان إبطيه وبوله إذ تبوّل عليه كثيراً انتقاماً منه لعضوه المهزوم، وها هو غضبه أمامه امرأة صخريّة عرجاء كتعاء عوراء سمينة، بجلد قشرّي مشوّه، وشعر قنفذي متراجع حتى نصف الجمجمة، وبأذن واحدة مشروخة، وأنف مجدوع، وفمّ مهشم الأسنان، ممزّق الحنايا والثّنايا، وبنظرة عميقة فيها رعب عجيب كأنّه حُفر بإبرة في بؤبؤ لين ساعة ظلمة روح أبديّة.

أنعم "بجماليون" النّظر طويلاً في تمثاله الانتقام، ثم تنهّد بعمق أوهن خلجات روحه المعذّبة بآلام الثّأر وويلات سوء العمل، وغالبَ ندماً جارفاً في نفسه، فغلبه، ثم لعن بقوّة فتنة النّساء، وربّة جمالهن وحبهّن "أفروديت" الخالدة السّاحرة، وبصق على تمثاله، وكان يبغي أن يبصق على نفسه كذلك، وفي لحظة خيانة لخيانته لروح جمال الفنّان الذي يسكن يديه، ويملك عليه روحه وإبداعه، أقسم على أن يهجر فنّه عقابًا لنفسه على ما أنتجتْ من دمامة وبشاعة، وما أتلفت من جمال طبيعيّ هو مهجة الرّوح، وربيع القلب، استغفر طويلاً آلهة الحبّ أفروديت التّي سبّها، وتطاول عليها مراراً وتكراراً، وتمنّى أن تكون متسامحة معه بقدر جمالها، فتغفر له خطاياه، فجمالها الأخّاذ يتسع لكلّ مذنبي الدّنيا، وأمَّل نفسه بالمغفرة المنشودة، وخلد إلى نوم قائض في نيران هزيمته، وأسدل جفنيه كي لا يرى مسخه الصّخريّ الذي حُفر لسبب ما في جدار خاطره، ودائم تذكّره.

خمّن "بجماليون" أنّ أحزانه كافية لمسح خطيئته، لكن أفروديت كانتْ متعطّشة للحزن من نقيع ندمه وحزنه وغضبه النّزق، وقررتْ في لحظة انتقام سماويّ أن تشعل جذوة الحياة في صدر "جالاتيا" المرأة التّمثال كي تجعل أنفاسها عذاباً موصولاً لا ينقطع لـ"بجماليون" المتبجح، وهمستْ في أذنها بكلمة العشق الكبرى، فنطق وجيب قلب "جالاتيا" باسم "بجماليون"، الذي بُعثت كي تعشقه، وضحكتْ أفروديت كثيراً؛ لأنّها ضحكتْ أخيراً، فهي تعرف أنّ عشق امرأة دميمة لمبدع عظيم يشقيه أكثر آلاف المرّات من صدّ امرأة جميلة، وإنْ كان صدّ رفض لا تمنّع، وخلدتْ للنّوم في صدفتها البحريّة فوق زبد البحر؛ لأنّها ستسهر طويلاً فيما بعد لتراقب عذاب "بجماليون" على يدي "جالاتيا" العاشقة المسخ.

(٣)

(أ)

سهرتْ أفروديت طويلاً لتشهد بجسد مُحرق سعادة "بجماليون" الذي سعد أخيراً بالعشق الخالد على يدي امرأته المسخ، وفكّرت بجدية أن تتوسّل لـ"بجماليون" لينحت لها رجلاً مسخاً خُلق لكي يكون عاشقاً لها.

(٣)

(ب)

باءت تدابير "بجماليون" كلّها بالفشل الذّريع الموجع، ورأتْ "جالاتيا" وجهها في مرآة قديمة في قبو قصر "بجماليون"، لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة بعد ذلك، وسقطتْ ميّتة بعد أن تحجّر قلبها حزناً، وتيبّستْ أطرافها، وتصلّدتْ وشائجها،

وتحوّلتْ إلى صخر أوهاه الحزن، فخرّ رملاً سرعان ما ذرّاه الرّيح الذي انطلق في رحلة أبديّة لا تعرف نهاية، وغدا يستمتع بمطاردة "بجماليون" له في أصقاع الدّنيا، ويطالبه بردّ رذاذ معبودته "جالاتيا".

(٤)

مسرور المجنون

وقف مكبلاً أشعث أغبر عارياً من أيّ سلطة أو نفوذ أو سيف بل ومن حذاء مصفّد بين يدي "مولاه السّلطان حَبْر الدّم، الذي علّمه عشق الدّماء، واحتراف اشتهاء الرّؤوس المقطوعة والرّقاب المثكولة، وأورثه شبق الموت ومضاجعة الأجساد الميّتة.

في نفسه تضجّ رغبة واحدة تملك عليه منافذ حسّه، وتغلق أذنيه دون أصوات المطالبين برأسه، والوافدين إلى قاعة المُلك ليشهدوا محاكمته العادلة المزعومة على سفك رأس أو بضع رؤوس اشتهى نصله أن يذوقها، فأذاقه إيّاها حبّاً وكرامة.

فأصبح مجرماً في عشية وضحاها، وغدا مسروراً المجرم بعد أن كان يرفل ببركات اسم مسرور السّيّاف المرافق الدّائم للسّلطان الذي لا يعرف سوى لغة الدّم المسفوح، والرّقاب المهاجرّة، والأجساد المطعمة للنّار.

مولاه السّلطان هو من علّمه شهوة القتل، وهو من وضع السّيف في يديه أوّل مرة، وهو من لقّنه فنون التّمتّع بالموت، وهدر قدسيته، والتّغاضي عن توسّلات المستضعفين وأنّات المظلومين، لقد خرس تماماً منذ أن تعلّم لغة السّيف، وأصيب بالصّمم منذ أن طغى صوت سيفه على كلمات الحقّ، فغدا

أخرس أصم دمويّاً، فارتاح، وسعد، وأسعد سلطانه بـه، وأنـزل البشـر جميعهم عنده في منزلة البهائم، يحقُّ له ذبحهم متى ذكر اسم الله على رقابهم.

لو لم يمرض السّلطان لأيّام، وينقطع عن جولاته، لما آل إلى مـا آل إليـه، فقد حُرم متعته بمرض السّلطان، ومـرتْ عليـه أيّـام دون دم مسـفوك، وعيـون جزعـى، وفرائس مرتعدة، وحلوقٍ مفصودة، والسّنة متدليّة خارج الأفـواه. وفي ليلة شبه مقمرة استبدّت به رغبته، فلـبس ملابسـه علـى عجـل، واسـتلّ سـيفه الجائع، وطارد المجهول حتى أدركه، فذبح بسيفه أول وثاني وخامس وتاسع مـن وجد ليلتها في طريقه، إلى أن انتهتْ ثـورة قـرم سـيفه، فعـاد إلى كوخـه راضـياً مرضياً، وركن إلى سيفه الحبيب ذي النّصل الأحمر يضمّه، ويقبّله، ويمارس معـه أجمل متع الفراش، وحُقّ له ذلك، أليس سيّاف السّلطان؟!

يحّدق طويلاً في وجه معلّمه الأكبر المُسـمى السّـلطان، يرقـب بتقـزّز تلـك الأجساد العفنة الخائفة دائماً على رقابها، فتفرّ مـن أمامـه كـالفئران، أو تتملّقـه كبزّاقات قذرة خبيثة يطيب له أن تعلق في نعله.

يرثي لتلك الرّقاب التّي تجهل جمال لحظة الانعتاق من الهمـوم والانفصـال عن أجسادها إلى الأبد، والتّمرغ في تراب الحرّيّة، ونشوة الاضطراب والحركة.

من جديد تجتاحه دورة الاشتهاء الشّبقة لسيفه ولممارسة هوايته الوحيدة به، تغريه رقبة السّـلطان المثقلـة بقلائـد الجُمـان والمـاس، والمترعـة بحمـرة الصّـحة والرّفاهية ويخضور ماء الورد وفتات المسك، تتلبسّه قـوّة جبّـارة تجعلـه يحجـل بقيوده بيسرٍ، ويفجّر أصفاده بقوّة حركة زنديـه المتباعـدين عـن بعضـهما بقـوّة سعيه الهمجيّ إلى هدفه الدّمويّ، يستلّ سيفه الملقى على الأرض متهمـاً منبـوذاً مثله، وبضربة نجلاء يقطع رأس السّلطان، فيتدحرج بـين قدميـه مودّعـاً جسـده

المتخبّط بشدّة في دمائه، السّاجد لأوّل مرة عند أقدام العبيد والمتملّقين والمستضعفين والمنكودين والمظلومين.

يعلو المكان هرج ومرج، وتضجّ سعادة منتشية في جسد السّياف، ويسجد الجميع للسّلطان الجديد الذي بزّ من مكانه، وظهر على العرش، فيما يسجد مسرور للسّيف الذي يعبد، ويغرق في ضحك هستيريّ محموم.

(٥)
معروف الإسكافيّ

يستطيع الاعتراف بأنّه يسقط في الحكايات هكذا دون ترتيب أو قصد أو حاجة، حتى ذلك الدّور الخالد الذي لعبه في ألف ليلة وليلة، وبوّأه الشّهرة، وفتح له أبواب المجد، وكتب اسمه في سِفْر الملوك والسّلاطين والقادة وعظماء المحاربين والعلماء كان محضَ صدفة.

ما كان يبغي أدواراً في حكايات وليالِ، ولا شهرة في القصور والمخادع ودور الورّاقين والمستشرقين، إنّما كان سعيه في سبيل إيجاد حلٍّ لمشكلته المستعصية، فأيّ رجل يملك قدمين عظيمتين مثل قدميه عليه أن يفكّر جديّاً بحلّ لمشكلته، فهما سبب بلائه، وطول عنائه، وعِظَمْ مشقته، فعِظَمها الأسطوريّ جعله ألعوبة الصبيّة، وأضحوكة الرّجال والنّساء، وحَرَمهُ من أن يلبس حذاءً جديداً كان أم قديماً.

فأيّ إسكافيّ سيفكر بصناعة مركب جلديّ ضخم ليكون حذاءً له، وكم من ماعز سيحتاج إلى جلدها ليفعل ذلك؟ وكم من اللّيالي سيقطع في صناعتها؟ الأمر أعزّ من أن ينجزه، أو أن يفكر به لا سيما لفتى مُعدم مثله، أخْطَأهُ الجاه،

وتجنّبَهُ الغنى، وهجرَهُ النّسب والحسب، وفاتَهُ تعلّم صنعة ماهرة، أو إتقان حرفة حاذقة؛ لذا فقد خَطَّ في كتاب حظّهِ النّكد ضنك العيش ووجع القلب.

كان الصّدّ من الحبيبة، والقطيعة من الأصدقاء والأهل، والنّفور من الصّحبة والجيران واسطة عقد البلاء لا أوَّله ولا آخرة، إلا أن صدفه الحظّ أو عثر به أو اصطدمّ به عندما داس دون قصد بقدمه العظيمة على قدم كهرمان شهرزاد، وكاد يسحقها، فأمطره بوابل من الصّراخ والسّباب والتّوتّر، ثم الاعتذار، ثم جاء العرض الذي غيّر حياته وقلب حياته رأساً على عقب، فقد أوحتْ قدماه الكبيرتان لكهرمان شهرزاد بفكرة مذهلة، فوظّفه للتّو والسّاعة إسكافيّاً في حكايتها المشهورة ألف ليلة وليلة، وأسند إليه مهمّة صناعة الأحذية ومقارعة الوحوش وتغيّر القدر ومجالدة الطّغاة الجبابرة وأَسْرِ قلوب العذارى والحسناوات، ذلك كلّه على أن يبرز قدميه في كلّ مشهد من مشاهد اللّيالي، ليستكمل به اللّوحة العجائبيّة الأسطوريّة لليالي التّي حققت أرباحاً خياليّة، وانهال عليها القرّاء والدارسون من أقطاب الدّنيا كلّها، وعتبات الأزمان معجبين مفتتنين بها، ووافق معروف فرحاً على هذا العرض السّخي، وأصبح بقدميه الكبيرتين رمزًا لفتى أحلام كلّ فتاة في السّلطة، وسَعدَ بتنهدات الحسناوات وزفرات العذارى كلّما لاح وجهه في مكان أو ضمه مجلس أو جَمْعٌ أو شارع أو زقاق، وشرع يفخر لأوَّل مرّة في حياته بقدميه الكبيرتين اللّتين أحرزتا له ما لم يحرزه تاج سلطان، وطفق يمطرهما بالمسك والعنبر، ويغسلهما بماء الورد، ويتفنّن بربط أصابعهما بالشرّائط الملوّنة التّي تبرز مفاتن ضخامة الأظافر، وجماليّات انحناءات تلبدّات اللّحم والشّحم فيهما، وتتناسب مع تسلّخات جلد أديمهما.

أخذ يعدّ العدّة، ويدّخر المال كي ينتج بنفسه ليالي أخرى، ويسند إلى نفسه فيها دور شهريار، ويُسمي نفسه شهريار الإسكافيّ، وقد ينجح في إقناع الملكة شهرزاد الفاتنة بأن تلعب أمامه دور البطولة النّسائيّة في تلك اللّيالي، من يعلم قد ينجح في ذلك في ضوء سحر قدميه، وجاذبيّة رائحتهما، وإمكانات إبداعهما.

(٦)
السّندباد السّماويّ

درس السّندباد العروض المقدّمة له منذ نفاد مال منحته الاستكشافيّة لدراسة البحور السّبعة، ومناقشة أطروحته لنيل درجة المغامر الأوّل في اكتشاف البحار وأعالي الأنهار والأهوار من جامعة البصرة للموجودات الأسطوريّة، وقد نال درجة التميّز مع وسام الكذب السّرّديّ، ودرع اللّؤلؤة المفقودة للخيال البحريّ، وأفرغ جزءاً كبيراً من خبراته وأبحاثه العلميّة وسيرته البحثيّة في كتب مهمّة، على رأسها ألف ليلة وليلة، ثم عُيّنَ برتبة رئيس ديوان القصص والمغامرات، وبعد تقلّده وسام المحاربين القدامى تطوّع للمشاركة في حروب التّحرير في جنوب أفريقيا وأواسط أمريكا الجنوبية، ثم عُيّن سفيراً للنّوايا الحسنة، ثم تطوّع في جيوش حفظ السّلام في كلّ مكان اشتعلتْ فيه الحرب في المعمورة، وفرح بقوّة بقبعته الزّرقاء، وطرح جانباً عمامته الخرافيّة ذات ريشة طائر الجنّة، ومرجانة ملك الجان.

لكن مهمّته الأخطر كانت رئاسة حملة بحريّة بتمويل سرّي من القصر السّلطانيّ بدعم من "البنتاغون" للبحث عن قارّة أمريكا، ليتّم استعمارها من

جديد، كانت مغامرة بحريّة مثيرة تغطيها الأقمار الصّناعيّة ووكالات الأنباء الدّوليّة عبر مراسليها متعدّدي اللّغات والمواهب، وإن كان ذلك قد حرمه من متعة مقابلة الكائنات البحريّة الأسطوريّة، أو مغازلة حوريّات البحر اللّواتي يكرهن فضول الصّحفيّين وعيون الكاميرات الملحاحة.

نجح أخيراً بمهمّته، واكتشف أمريكا من جديد، وأعلن "البنتاغون" بفخر عن نجاح مهمّته في البحث عن أمريكا التّي ضاعت في البحر بعد حرب كونيّة رهيبة، وأكّد أنّ ذلك قد تمّ بخبرات أمريكيّة وعقول وطنيّة دون الاستعانة بأيّ غرباء لا سيما من أصحاب العمامات الصّحراويّة المتوحّشة!

ما كان هذا التّصريح ليحزن السّندباد بقدر حزنه لعدم صرف كافة حقوقه الماديّة المترّتبة على هذا الاكتشاف، وانضمّ إلى صفوف الباكين على أطلال الهنود الحمر الذين أُبيدوا من جديد على مذابح آلهاتهم "البنتاغون"، إذ كان يحمل في صدره تاريخاً من الأطلال الدّارسة وملاحم الأرض اليباب، ومعارك الأبطال مع مقامات السّرّاب.

عكف السّندباد نفسه على إكمال دراسته للأحياء في جامعة شينو للخدمات المصرفيّة، وأفاد كلّ الإفادة من مختبرها الذّري المتطوّر، وأجرى كافة أبحاثه لينتج طائره الخرافيّ الذي طالما حلم به، فصنعه من جينات دجاجة وخلايا حوت وبرمجيّات مُدمّرة بحريّة، وخمّره في مفاعل نوويّ عملاق إلى أن استوى بيضة، ثم فقست منها دجاجة ضخمة، بجناحين خرافيين، فأسماها الرّخ، تيمّناً بالماضي الجميل، وامتطى ظهره، وحلّق في سماء الحرّيّة حيث لا حرّيّة، وطار غير نادم وبقرار مسبق مبيّت لم يرد به تقرير أيّ مخابرات دوليّة إلى أرض الحكايات، وهبط في الرّحلة الثّانية من رحلاته في كتاب ألف ليلة وليلة، ونسي كابوس اكتشاف الأرض الجديدة، وانبرى يبحث باهتمام عن اسم مثير لطائره

الرّخ، وبعد جهد وعناء وتفكير وتدبّر وإقبال وإدبار أسماه الرّخ طائر السّـندباد السّماويّ.

(٧)

حذاء سندريلا

لم تحظَ سندريلا بأيّ تربية قويّمة تُذكر، ولولا جمالها الآخّاذ الذي ورثته عن والدتها المومس التّي أغرتْ والدها، وتزوّجته ثم ولدتْ له سـندريلا، وسـرقتْ ماله وفرّت مع عشيقها الماجن لكانتْ سـندريلا لا تسـاوي قشـرة بصـلة، ومـا وجدتْ طريقها إلى قلب وليّ العهد الأبله المأفون الـذي اسـتطاعتْ أن تُرقّصـه مثل دمية بلهاء أنّى شاءتْ، ثم أن تتزوّجـه لتغـدو سـيّدة القصـر الأولى بكثـرة الإنفاق بالصّور المبثوثة لها في الصّـحف والمجلّـات والإنترنـت، فكبّـدتْ الدّولـة خسائر لا تكاد تُطاق، فطاف حماها الملك على البلاد كلّهـا يسـتجدي، ويطلـب المنح والعطايا، واضطر أخيراً إلى أن يقيم حفلة الاستقبال هذه، ويـدعو الأمـراء والأثرياء والسّفراء إليها، ليشاركوا في مزاد على قطعه الأثريّة ومجوهرات العائلة المالكة ليبيعها، ويسدّد بثمنها جزءاً من مديونية دولتـه، فيحميهـا مـن الإفـلاس والفضيّحة، وذلك كلّه بسبب زوجة ابنه المقيتة سندريلا.

لقد حلّ الخراب على قصره وعلى ابنه وعلى قلبه الذي أصيب بـأكثر مـن جلطة منذ أن ظهرتْ سندريلا في حياتهم، ويقسم لو أنّـه كـان يعلـم أنّ الويـل سيكون على يديها، إذن لأمر جنوده بقتل كلّ فتاة وطفلـة في المملكـة، وقضـى على لعنة اسمها سندريلا التّي خدعته وخـدعتِ ابنـه ولـيّ العهـد، وخـدعت الرّواة والمحدّثين والمـؤرّخين عنـدما أقنعـتِ الجميـع بأنّهـا فراشـة رقيقـة ملوّنـة

خرجتْ للتّو من شرنقتها بكلّ براءتها وطهرها، وأنّها ضحيّة يتمها وجمالها، وكيد زوجة أبيها العاقر التّي تفضّل رعاية كلبها السّلوقي على رعايتها، واحتالتْ لنفسها حتى سلبتْ قلب الأمير الغرّ الذي ما استطاع أن يقاوم جمالها الفنييقيّ النّادر.

من صميم قلبه تمنّى لو أنّ سندريلا تتغيّب عن حضور هذا الحفل؛ فهو ما عاد يطيقها تتمايل بخيلاء بالجواهر وفاخر الثّياب بعزيز ماله، وهو يتسوّل على أبواب البلاد والسّلاطين، لكنّها –كعادتها- تطير إلى أيّ حفل يلوح لها لتعرض جمالها ونفائسها.

حضورها شغل الحاضرين، وحذاءها البلّوريّ السّاحر كقطعة كريستال فاخرة صنعتها الجنّ ومهرة الصّناع الحاذقين ألهبتْ ألباب الحضور، وهم يحاولون أن يخمّنوا ثمنه الذي يربو على ثمن كلّ ما تلبس نساء الحفل جميعاً مجتمعات من جوهر، شنّف الملك أذنيه لتخمينات المشغولين بحذاء زوجة ابنه المتلافة، وعندما سمع الأرقام الخياليّة المفترضة ثمناً له، ورأى حمرة الإحراج تعلو وجه ابنه كلّما كبّدته زوجته نفقات جديدة، شعر بحشرجة حارقة في حلقه، وطغى ركل قلبه لصدره على صوت موسيقيّ الحفلة، وشعر بدوار مغث، وسقط مغشيّاً عليه عند حذاء سندريلا.

(٨)
شمشوم الجبّار

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . . [١]

(٩)
العذراء الذّبيحة

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . . [٢]

١- هذا الباب من التّاريخ مُصادر لأسباب أمنيّة.

٢- هذا الفصل مُصادر لأسباب عشائريّة.

(١٠)
ثورة اللّصوص

. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .

(١١)
الخيل والماء والنّار وما يزرعون

. . . .
. . . .
. . . .

حكاياتها

(١)

الحكاية الأمّ

لا يستطيع الادعاء بأنّه يحبّها، وأنّه سيقتل أيّ رجل يقترب منها، كما فعل أخوه قابيل الذي قتل أخاه هابيل ليخلو له قلب أختهما راحيل، ولن يخدع نفسه، فيقول إنّ أخته جميلة إلى حدّ لا يقاوم، ولن يزعم كذلك أنّه يريد أن يصطفيها لنفسه لأنّها أثيرة أبويه، أو صاحبة مال أو موهبة نادرة، لكنّه يريد أن يحصل عليها كي يكسر أنفها الأفطس الذي يشبه أنفه تماماً، ولا عجب فهي توأمه، لكنّه يمقت أنفها المتعالي الذي كان يزحم عليهما المكان في رحم أمّه حوّاء، وهو الآن معنيّ بتحطيم كبريائه، ولو كبّده ذلك غضب الرّبّ، وفطر قلبي والديه آدم وحواء من جديد بعد مقتل ابنهما هابيل منذ دهور طويلة.

يتربّص بأخته ذات الأنف المتعالي وعزّة النّفس المقيتة، يحيك بمهارة خيوط المؤامرة، ينقضّ عليها في سكون اللّيل، وهي تسعى لقضاء حاجة في الخلاء حيث الخفافيش والعراء، ولا وجود لأحد، يستعدي عليها الأخوة الجاهلين، فيحزّ رقبتها، ويهشّم أنفها الأبيّ بحجر باشتهاء واضح، وينعاها لوالديه، ويطعم جسدها للضّواري والكواسر؛ فهي قد أهدرتْ شرفها وِفْق زعمّه، فاستحقّتِ الموت بعرف طقوس الدّم المتوارثة.

(٢)

الحكاية النّموذج

١ - ١: احتاج إلى مبلغ من المال، فسطا للمرة الألف بقوّة الذّراع ودم الأخوة المزعوم على مالها، وعندما قرّرتْ أن ترفض استنزافه المقيت لها، وقالتْ: لا. عاجلها بطعنة سكين بقرتْ بطنها، واخترقتْ أشلاءها، فانزلق جنيها أرضاً بين قدميها مطعوناً بطعنة أمّه التّي دفعتْ حياتها؛ لأنّها قالتْ لأخيها الظّالم: لا، ولأنّها امرأة وصمت العائلة بوصمة العار المزعومة، وأهدرتْ شرفها، كما قال خاله في محاضر التّحقيق الجنائي، فصدّقه النّاس والقانون، وكذّبوا الجنين المطعون.

١ - ٢: أراد أن يضمّ إرثها إلى إرثه، فرفضتْ ذلك بقوّة وإصرار، فكسر لها ضلعاً، فنبتْ لها ضلعان، منعها الطّعام، فأصيب هو بفقر الدّم الحادّ، رزمها متاعاً، وقرّر أن يبيعها لصديق لا يملك إلا ذراعاً عاتية، وعضواً ذكريّاً متحفّزاً، وعقلاً صغيراً لا يُثقل عليه، فرفضتْ ذلك، وهربتْ مع الرّجل الذي تحبّه، وتزوّجته، ومن جديد طالبتْ بإرثها، فطلبها الأخ صاحب الدّم الحارّ والعضلات المفتولة والمروءة المتعلقّة، وعدا على بيتها، وحزّ عنقها، وتبجّح قائلاً: إنّه محا عارها الذي لا يُمحى إلا بالدّم الذي غلى في مرجل غضبه باتّقاد متوحش عندما أُسقط في يديه، وعلم أنّ القاتل لا يرث من قتل.

١ - ٣: كم حاول أن يقرن كلمة إلى أخرى، لكنّه فشل في ذلك المرّة تلو الأخرى، في حين كانتْ هي عرّابة الكلمات التّي تغزلها بإتقان ويسر على مغزلها السّحريّ، كتب كثيراً، وكتبتْ أكثر، طار نجمها، وحطّ نجمه من غير علٍ، عرفها النّاس، وجهلته الحروف، أزبد وأرعد وزمجر، لكن ما طاوعته الكلمات، كتبتْ

عن حرمانها، فدبّت الحياة في كلماتها، وغدتْ أشباح علاقات محتملة مع رجال قد كانوا، قرأ ما كتبتْ، فوجد مبتغاه فيما قرأ، حاكمها بمنطق الخيال، لا بجرم الحقيقة، ذنّبها بألف حالة عشق، وألقى القبض عليها في حضن ألف رجل، ثم حاكمها على عجل، ونطق بحكمه المنتقم من سعادتها الوهميّة، ومن تفوّقها عليه هو الأخ الرّجل الرّفيع القدر في أسرته وفي قبيلته، وهي الأخت المرأة الأقلّ شأناً.

تسلّل إلى غرفتها، وذبحها، فأطلقتْ ثغاء مخيفاً هزّ أركان المكان، وأيقظ رجالها أبطال قصصها ورواياتها، داسهم جميعاً، ومزّق كلّ ما كتبت انتقاماً من تفوّقها عليه، وسخْطاً على مَلَكَة الكتابة التّي تملكها، في حين حُرم هو منها، وبالطّبّع غسل بذبح أخته النّعجة ثوب شرفه المزعوم الذي لطّخته أخته الآثمة الخاطئة التّي فرّطتْ بشرفها المصان.

١ – ٤: امرأة هي وَفق معايير الذّكورة والمجتمع الأبويّ كاملة، هادئة، مطيعة، لا تحتجّ، لا تبكي، لا تطلب. تجيد فنون الطّبّخ والحياكة، وتعد بأن تقدّم نفسها شهيّة له في كلّ ليلة بعد طبق الحلوى المفضّل عنده، وتوافق على الزّواج به؛ لأنّها دجاجة أو عنزة بيتيّة مطيعة، وتذهب زوجة مع الرّجل الذي يريده والدها وأخوتها.

لكنّ الزّوج رأى في عينيها أشباح فضيحة، وابتسامة هازئة تندّتْ من صمتها المخيف، ولمح في غضّ بصرها قرفاً من عجزه، وتلويحاً بكشف ستره، ومعرفة سبب فشله مع تلك الأجنبيّة الشّقراء التّي طلّقته سريعاً، وأخذتْ شطر ما يملك، وجلّ كرامته.

كان عليه أن يسكتها إلى الأبد، حاول أن يسكتها بالإشباع، فأعياه عجزه، حاول ذلك مراراً ولأيّام كثيرة، لكن دون فائدة، غاظه صمتها، واستفزّ جسدها المثير رجولته الرّاكدة المتخاذلة، فانقضّ عليها في لحظة غضب، وقتلها، ومزّق عذريتها ورقبتها بسكينه؛ لأنّه قرّر أنّها قد وهبتْ نفسها لغيره، ولا أحد يستطيع أن يكذّبه، فهو الزّوج الرّبّ، وإذا قال صدق، وما لأهلها إلا أن يأخذوا جسدها المكفّن بالعار، ويدفنوه بعيداً عن الزّوج الفحل الشّهم! فالذّنب كلّه كان ذنبها؛ فهي من اختارتْ زوجاً عاجزاً جنسيّاً.

١ – ٥: اعتاد على أن يروي عطشه عبر تلك اللّحظات المشحونة بالمتعة المسروقة من فيلم إباحي أو مجلّة تعرٍ، يستجمع فحولته المزعومة كاملة، ويهبها دفعة واحدة لامرأة متخيّلة، فتخمد رغبته المحمومة إلى حين، لكن جسده العاتي أراد أن يبتلع امرأة حقيقة في هذه اللّحظة، لم يجد أمامه إلاّ ابنة أخيه التّي ودّعتِ الطّفولة للتّو، وانتضتْ ثديين كسيفين، وملامح أنثويّة قادمة، تفرّسها برغبة، وانقضّ عليها، فامتصّ أنوثتها حتى روي، ونسي جريمته، لكن الجنين الذي حملته سفاحاً صرخ في أحشاء أمّه الطّفلة منبهاً لوجوده.

اجتمعتِ الأسرة، واهتزّتِ الشّوارب الغاضبة، وأغلقتِ الأبواب والنّوافذ والسّتائر، وحُجبت النّساء، وكانتِ المحكمة؛ ولأنّها الأضعف؛ فقد كان الحكم ضدّها، إذ ليس من العقل أن يضحّى بالرّجل الجائر، وتترك المرأة الطّفلة الضّحيّة! فاقتادوها إلى العراء حيث قُتلتْ بدم بارد جزاء على فعلتها الشّائنة، إذ هي -دون شكّ- من أغرتْ عمّها البريء كحمل وديع بالاعتداء عليها، وقد أخذتْ جزاءها وفاقاً، وأراحتْ وارتاحتْ.

١ – ٦: طالبتْ أمّها طويلاً بأن تُعالج ابنتها من داء السّير ليلاً، لكنّ أحداً لم يعرها أُذن اهتمام، فلا أحد عنده وقت لأخت تسير ليلاً، لكن الجميع يملكون أيدي موت عندما يتعلّق الأمر بإعدام أختٍ وُجدتْ نائمة على الأرض بالقرب من غرفة جار أعزب يسكن سطح العمارة المجاورة بعد أن أعياها السّير وهي نائمة.

حزموها بسرعة وبقرف، وألقوا بها من شفا جرف، فخرّت أرضاً ميّتة، فغسلتْ بذلك شرفاً ادّعى الأخوة أنّه تلوث هدراً، وشفيتْ تماماً من داء السّير ليلاً، وهي نائمة.

١ – ٧: جلس إلى مقعده الفاخر على منصّة مرتفعة بعد أن لبس وقاره وحزمه وعدله المزعوم، كان عليه أن ينطق بكلمته الحكم الفيصل في قضيّة أولئك السّادة اللّصوص الذين تاجروا بأعراض المستضعفات والمغلوبات على أمرهنّ من النّساء لا سيما تلك الفتاة الغِرّ التّي هتكوا عرضها عبر مؤامرة قذرة، كذلك كان عليه أن يقول كلمته العادلة في قضيّة ذلك الأخ الهمام الذي انتقم لهدر عرض أخته على يد سبعة رجال عتاة، تكاثروا عليها، فغلبوها على أمرها بأن قتلها، وتركهم يعيثون فساداً وعهراً في الأرض.

تنحنح القاضي بشكل مصطنع، واستجمع نفسه، وشدّ عباءة القضاء على صدره، إذ كان يشعر بالبرد، وحكم ببراءة الأخ الذي انتقم لشرفه، وقتل الأخت الضّحيّة، وترك الذّئاب تسعد بصيدها الثّمين، وتضجع في الشّمس ريّانة شبعانة إلى حين وقعتْ في يد القضاء، الذي بدا رحيماً معهم مقارنة بمحكمة الأخ المنتقم لشرفه المهدور على يد ذئاب سبعة من أخته ليلى ذات الرّداء الأحمر، والبراءة الشّفافة، والحكاية الدّامية.

١ – ٨: في عروق كلّ منهما يجري دم أحمر قانٍ يحمل كبراً وغيرة ورفضاً للخيانة، فإن ضجّ في شرايينه سُمّي أخو شرف، وإن ضجّ في سويداء قلبها سُميّت قاتلة آثمة، وما كانتْ لتبالي بذلك، فقد ألفته في حضن صديقتها المقرّبة، يسافدها الغرام، فقتلتهما في لحظة غضب، وانتصرتْ لنفسها، وانتظرتْ أن ينتصر لها القضاء؛ إذ كانت تدافع عن شرفها كذلك، إلا أنّ القاضي الرّجل لا يستطيع أن يرى الشّرّف إلا في قطعة لحم بين فخذي امرأة، وخلاف ذلك فهو جريمة؛ لذلك فقد أرسلها سريعاً بمذكرة إعدام مستعجلة إلى العالم الآخر؛ لأنّها قاتلة آثمة.

(٣)

الحكاية المأساة

تتشابه تفاصيل الحكايات المأساة كلّها، إذ تعلّقت بشرف زُعم أنّه هدر على يدي امرأة خاطئة، إذ تقول الحكاية دائماً[١]: "... وهكذا خسرتْ شرفها... والشّرّف المهدور لا يعوّضه إلا الدّم المسفوك... فتسلّلّ ذكَرٌ، ما اسمه... في ليلة معتمة... وقتلها... فغسل بدمائها شرفه المطلّخ بالعار، ثمّ سلّم نفسه للقضاء الذي كان به رحيماً، ولموقفه متفهّماً، فحكم عليه بشهر من العمل الشّاق، وبغرامة مقدارها قرش لا غير؛ فأرواح الخاطئات لا تساوي الكثير..."

---

١ – التّفاصيل الصّغيرة لا تساوي شيئاً إذا تشابهت النّهايات.

قاموس الشّيطان ([1])

الألف: أَحَدَثَ

أَحَدَثَ في النّاس بدعة سرقتْ ألبابهم، وألهبتْ مخيلاتهم، وفتّقتْ قرائحهم على الجّمال والرّفاهية، إلى أن طرده عظيم السّهول؛ لأنّ لونه الأسود لا يليق بجواري قصره البيض؛ دون أن يعرف أنّه طرد معه حياة الرّفاهية التّي كان يجيد فنونها، ويتقن أطايبها، فاستقبله الجبال العظيمة، وأنزله مقام التّقدير، فوهبه كؤوساً زجاجيّة، كانتْ شفّافة لم ترَ عينٌ مثلها من قبل في سلطنة الجبال، وقال لعظيم الجبال بلؤم: "عليك أن تكون بمثل شفافيّة هذا الزّجاج؛ لتستمتعَ بطعم الشّراب فيه".

أخلص عظيم الجبال لوصية صانع الرّفاهة، وحاول أن يشفَّ مثل البلّور، وعندما عجز عن ذلك أمر بتعتيم زجاج السّلطنة؛ فذلك أجدى للمتعة، وأكثر ملاءمة للون عمله وقلبه وتاريخه العظيم.

الباء: بَدا

بَدا المرض غريباً فتّاكاً، يهاجم الأجساد بشراسة مخيفة، ويلعن الماضي، فيأكله بتؤدة مخيفة.

١- عليك أن تردّ الكلمات إلى أفعال الألم، ثم تجردّها من أكاذيبها، فتحصل على المعنى الحقيقيّ للكلمات في عُرف جحيم الشّيطان.

بدأ بحالات محصورة في صفوف أولئك المطحونين بألــم الشّقاق والفقـر والضّعف، ثم تسلّل إلى آخرين مهصورين في أيدي الحيرة والضّـياع، ثـم عـضّ نابـاً أزرق في أجسـاد المستضـعفين واللّقطـاء وأصـحاب العاهـات والمجـانين والمنبوذين والمعتقلين، ثم بدأ يتفشّى في صفوف العامّة والخاصّة.

كان يبدأ بصداع وحزن رهيبين، ثم يتحوّل إلى اضطرابات في النّوم والأكل والتّبرّز مع ارتفاع واضح في الحرارة والقلق، إلى أن يصبح سـلوكيّات جسـديّة ولفظيّة عدوانيّة، ثم يشـوّش الـذّاكرة ويعطّـل الفهـم، إلى أن ينفـذ إلى العيـون، فينسج مادّة هلاميّة بيضاء شبه زرقاء على نوافـذها، فتحجـب الرّؤيـة، فتتلـبّس المريض حالة هستيريّة قصيرة، تدلفه بسهولة إلى عـالم الخَـدر والنّسـيان، فينسـى الماضي، وينسى ما كان وما لم يكن، وما كان يجب أن يكون، ويتـبرّأ مـن أدرانـه وجرائمه ومعاصيه كلّها، ويخلع أحزانـه وأمنياتـه وماضـيه، ويقطـع صـلته مـع حاضره كلّه، ويهيم في عالـم الهذيان والخيالات، فيسعد، ويُسعد، وينضمّ طائعاً راضياً إلى ضحايا "طـاعون النّسـيان"، حيـث تتبنّـى دول كوكـب الأرض بـرامج توعية للمرضى أجمعين؛ لتقنعهم بأنّهم أغنام، في غياب ذاكـرة تسـعفهم بحقّيقـة أنّهم مِنْ بني الإنسان.

التّاء: تاهَ

تاهَ في عاصفة ثلجيّة غشيتِ الجبـال حيـث يسـكن شـأنها في كـلّ موسـم، اعتادتْ سنونه التّسع على الثّلج، لكنّهـا لم تـألف جليـد مشـاعر والـده البـارد كالصّقيع، فقرّر أن يبحث عن الـدّفء ولـو في قلـب الـثّلج، تمعطـف بغضـبه، وانتعل نزقه وطيشه، وتزوّد ببوصلة قديمة كـي لا يضـلّ الطّريـق، وهـرب مـن البيت، وقصد أعالي الجبال، فما وجد قلب الجبل المنشود، لكن غشيه صـقيعه،

وجللّت روحه التّي تكاد تتجمّد في أتونها الغاضب سكينة الموت وجبروت البرد، فسقط مغشيّاً عليه في الثّلج، واستسلم للموت، الذي فاجأه بوقاحة واستهتار واستفزاز لئيم، فجاء الموت يغذّ الخطى، وكاد يلتقمه لولا يدان دافئتان خطفتا غنيمته منه اسمهما يدا أب، ومنحتا من دفق دفئهما عزيمة للصّغير البائس المستسلم للموت، الذي أدركه سهوم المفاجأة، وعالجتْ نفسه دموع النّدم، فأدرك أنّه صغير بحقّ لا يعرف معنى حبّ أبّ تتمطّى أصابعه بخجل في خصلات شعر ابن له، أبّ دفعه إلى حمأة حنان صدره، وحمله بين يديه لينقذه من عاصفة ثلجيّة عجيبة، فقد كانت أنامله دافئة إلى حدّ أذاب جليد قلب الصّغير المتمرّد، وأسلمه لمواقيت تدفّق حنان الأبوّة، التّي دنا قطافها على حين غرّة من كروم القلب، في أوقات الأزمات والشّدائد، وتبخل بعزيز جناها في غير أوانه أو مكانه.

الثّاء: ثلثا

ثلثا نهاره كان يقضيه في شرفة منزله، أو في حديقته الغنّاء التّي تضجّ بالزّهور وعشرات الأشياء القديمة التّي آن موعد الاستغناء عنها، لكنّه ما زال يعطيها مهلة ما لعلّ طارئ حاجة يدفعه إلى استثمار بعضها في حاجة أو غاية، يراقب تلك المرأة غريبة الأطوار التّي تغفل عن الدّنيا وما فيها، وتزهد بكلّ شيء إلا بزهور حديقتها وطيورها الأليفة، فتنفق الوقت تعتني بها، وتستدرك موتها بوجودها، بعد رحيل الأحبّة، وحَصْدِها الصّمت والجمود والرّتابة.

بدأ عادة مراقبتها بدافع الفضول، ثم بدافع تبديد الوقت، ثم غدا الأمر طقساً من طقوسه السّرّيّة المحبّبة إلى نفسه، ثم لسبب يجهل تفسيره أو تخونه

الكلمات في سبيل ذلك، قد غدت مراقبتها متعة الرّوح وخوخة حديقة الانتظار.

حاول أن يقترب منها، فصدّته، حاول بإصرار أكثر، فنفرتْ منه بشدّة، فرض نفسه عليها، فجفلت بكبرياء عجيب، فعزّى نفسه بأنّها غريبة الأطوار، واستمرّ بمراقبتها بصمت وتخفٍ، وإن كان يجزم دائماً للأصدقاء بأنها غريبة الأطوار، ويضحك هازئاً من أسئلتهم الخبيثة عنها، فيستعرض حنايا جسده، محاولاً إخفاء صدوع أمنياته، وانهيارات انتظاره، وذلك الألق العجيب الذي يسكن عينيه لساعات كلّما راقبها، ثم تلوح في ذهنه بأسى جريح سلوكيّاته الغريبة والشّاذّة في اقتفاء آثارها، وفي مراقبة سلوكيّاتها، والتّجسّس على خصوصيّاتها، فيستولد ابتسامة رديئة الصّنعة على وجه فضحه الشّحوب، ويقول ساخراً: "حقّاً كم هي غريبة الأطوار! وهذا ما لا يعجبني فيها".

الجيم: جمعهم

جمعهم دم واحد، ورمال واحدة، وزعيم واحد له السّؤدد، اعتادوا على أن يغضبوا إذا ما غضب، وأن يرضوا إذا ما رضي، وأن يركبوا إذا ما ركب، وأن ينزلوا إذا ما نزل، وهو اعتاد على أن يكونوا ظلّ إرثه الصّحراويّ الزاخر بالرّمال والثّارات وآلاف الأحقاد، وحفنة أرامل وأيتام ضعاف يُمكن أن يهصرهم بزفرة واحدة من زفراته، فكان شأنه الرّضا عن سؤدده، والقبول برضاه، إلى أن أصابتهم لعنة فارس منهم شبّ عن الطّوق، وقرّر أن يعرف فيما يغضب سيّدهم، ليختار الغضب أو عدمه، لكن الوقت لم يسعفه، وسيف الزّعيم لم يمهله، فمات، وأورث الغضب لألف من فرسان القبيلة الذين غضبوا لأوّل

مرة؛ لأنّهم غاضبون، وحملوا السّيف؛ لأنهم قرّروا أن يسألوا! فأُرّخَ بقرارهم تاريخ موت السّؤدد المزعوم.

الحاء: حالته

حالته العصبيّة والعقليّة تستدعي أن يمدّد إقامته الجبريّة في مستشفى المدينة العسكريّة، هذا ما قرّره رئيسه العسكريّ المباشر، وصادق عليه طبيب المستشفى مرغماً كقطٍ مبلول، وهو لا يبالي بهذا التّقرير، ولا يضيق ذرعاً بإقامته الجبريّة؛ إذ لا يجد فرقاً بين مجنون محبوس خلف أسوار المستشفى؛ لأنّه يسعد بقوّة بقتل الكلاب المدلّلة لرؤسائه في العمل انتقاماً منهم لأمر في نفسه، وبين مجنون خارج الأسوار يحمل بندقية وشارات عسكريّة على صدره وكتفيه، ويقتل أبرياء وعزل باسم الرّبّ والوطن والحقّ، بل وباسم الشّيطان لغاية في نفسه.

يهزّ كتفية دون مبالاة، ويرقّص قدمه من فوق قدم في سريره القديم، وينتهر من حوله من مجانين مثله، لا يجيدون فنون قَتْل البشر، ويومئ إلى طبيبه المعالج بحاجبيه، ويدعوه إلى الاقتراب منه، ثم يقول له بحذر وثقة: أتصدّق أنّ المجانين في كلّ مكان حتى في مستشفى المجانين؟!

الخاء: خَبَل

خَبَلٌ اجتاحه على حين غرّة فاعتدل كلّ شيء في حياته؛ قبل هذا الاضطراب كان لا يعرف أيّ اتّزان في معيشته، لكن منذ أصابه الخلل بدت الحياة تضحك له دون عبوس؛ الآن استطاع أن يقول كلّ ما يريد، وأن يفعل كلّ ما يريد، دون عتاب أو عقاب أو انتقام منه.

الدّال: دلّلها

دلّلها والدها كثيراً، ووثق بها، فاعتادتْ على أن تكون في النّور، وأن تفعل كلّ شيء في النّور، ثم مات مُدلّلها والمؤمن بها، فجاء عهد الكافرين بها، أسموهم أخوة، لكنّهم يحفظون طقوس الشّيطان، ويبرّون بقسمهم له، كرهوها، وكرهوا تدليل والدهم لها، بقدر ما كرهوا قبس النّور الذي تعيش متنسكّة في قدسيته، جلدوها وجوّعوها، وربطوها في قبو بيتهم، لكي يسجنوا فضيلتها خلف الأسوار؛ فهي برأيهم من تصنع شرف المرأة، ولأنّهم غير مسجونين خلفها، فقد كانوا يقتاتون على شرف الآخرين، ويدفعون من عزيز مالهم ووقتهم كي يستمتعوا بدم الشّرّف المسفوك، وقرّوا عيناً بحكمتهم، وما درَوْا أنّها العائشة في النّور قد غدت منذ أن جُلدتْ، وحبستْ في قبو المنزل، بعد أن كانت من عاشقات الظّلام واللّيل، ومن مانحيهما لكلّ مُشتهٍ يدفع ثمنهما.

الذّال: ذاتي

ذاتي لا أجدها، ويبدو أنّي قد أضعتها؛ لذلك فأنا أبحث عني، ومن يرغب في أيّ تفاصيل عني أستطيع أن أمدّه بها؛ لعلّه يوفق في أن يجدني، أنا أعرف اسمي وأرقام أوراقي الثّبوتيّة كلّها، وأحفظ عن ظهر قلب جميع معلومات وثائقي وشهاداتي، وأتقن قراءة أيّ خارطة مصالح وأي إشارة فساد، وأشتمّ بدقّة رائحة الجنايات والانتهاكات والتّجبّر، لكنّني لا أعرف أيّ شيء عن ذلك

الضّائع مني؛ لذلك فأنا معنيٌّ بالبحث عني، حتى أجدني، أو أضيّع عن طيب خاطر الجزء المتبقي منّي، فقد يكون ضياعه هو الطّريق إلى أن أجدني.

الرّاء: ردفاها

ردفاها أهمّ خرائط الدّنيا في عيون عشّاقها من الرّجال، الذين يحفظون تقاسيمهما وهضابهما وأهوارهما وقبابهما أكثر ممّا يحفظون من تقاسيم وجهها المنسيّ؛ فهما قد شغلا الدّنيا أكثر من اشتغالها بمقدّمة ابن خلدون مثلاً.

هي مغنيّة مجدّدة؛ فهي أوّل من نقلتِ الغناء من الفمّ إلى الأرداف، وأثبتت أنّ السّماع يكون بالعيون الشّبقة، لا بالآذان المشنّفة للصّوت الجميل، وللحن الدّافىء والأداء الصّادق، فوجب أن تحفر صورة ردفيها في سِفْر الخلفيّات، فهذا مكانها.

لا غرو إذن في أن يخرج آلاف من عشّاق غناء ردفيها ليستقبلوها في مطار عاصمتهم، ويدوسون في طريقهم ذلك المجاهد الذي عاد من معتقله بعد سنين يحمل ذكريات من نار، ويرثي سنوات مسروقة، ويفاخر الدّنيا بإيمانه بتضحيته، ويبحث عن إحدى قدميه، فيتذكر بصعوبة أنّه خلعها مجبراً منذ سنين في ساحة الجهاد، فيكاد يرثيها، إذ هي فقيدة غالية في عصر الأرداف، ويركن إلى أقرب حانوت، كي لا تلوكه الأقدام كما داسته منذ دقائق في مظاهرة استقبال سيّدة الأرداف الأولى، ويتأتئ بقوّة وهو يطلب من عامل المتجر أن يبيعه حلوى من النّوع الرّخيص الذي بالكاد يملك ثمنه.

الزّاي: زائر

زائر هو كلّ من يدخل المعتقل عند أبي الفوارس الذي لا يملك من أخلاق الفوارس إلا فحولتهم المتشجّنة دائماً، ولأنّ الزّائر يجبُ أن يُكرم؛ فقد نذر نفسه لاستقبال زوّاره من الحمقى الثّائرين والسّياسيين، يجرّدهم من ثيابهم، ويوثقهم بذل، ويجبرهم على ابتلاع عضوه قبل أن يغتصبهم على مرأى مِنْ جنود المعتقل، فيسعد إلى حدّ الثّمالة بصراخ ذكورتهم المذبوحة، ورجولتهم المسلوبة في حربهم لاستردادها، ويعود منتشياً إلى رئيسه الأعلى الذي اعتاد على أن يسافده في كلّ ليلة، بعد أن يعرّيه، ويجلده، ثم يدّس في جيبه المال وفق متعته في تلك اللّيلة، ثم يعود أبو الفوارس إلى بيته لينزوي في زاوية منه، ويبكي بحرقة من زوجته التّي توسعه إهانة وتهميشاً، وتجبره على تقبيل مداسها، وتتجاهل بلؤم أنّه أبو الفوارس.

السّين: سنين

سنين عمره قضاها في ذلك المكان المظلم الرّوح والقلب لجرم ما عاد يذكره، وتلك الفجوة المنسيّة في حائط سجنه هي أنيسه وثروته ونافذته على العالم، هي بمقدار استدارة إصبعين من أصابعه، يجهل كيف قُدّتْ في جدار السّجن الصّلد، وكيف غفلتْ عنها عيون الحراس، فما طمسوها، أو أغلقوها، لكن حسبه أنّ القدر سخرّها له، لتكون عينه على عالم ما خلف أسوار سجنه حيث باحة السّوق القديم.

اعتاد على أن يرقب النّاس منها، ولضيقها فقد كان حظّه ممّا يرى عبرها أنفاً أو عيناً أو فماً، وفق ما تتّسع الفجوة لرؤيته اعتماداً على حجمها، فألف

لغة العيون، ونفرات الأنوف، وإيماءات الأفواه، وفكّ رموز معانيها، فأجـاد من خلالها سبر الشّخصيّات، ومعرفة الطّبّائع والأحوال النّفسيّة للنّاس، وراهن على موهبته التّليدة في معرفة النّاس، وإنزالهم منازلهم بحقّ عندما يخرج مـن السّـجن الذي فارقة بعد سنين طوال لا يعرف لها عدداً، وتركته يتحسّر على مـا سـرقتْ منه من شباب الجسد، ونضارة الوجه، ومرونة الحركات، وما وهبته مكرهاً مـن وافر التّجاعيد، وابيضاض الشّعر، لكنّه أدرك أنّ شيئاً عزيزاً قد فاته في سجنه إذا لم يستطع أن يمارس علمه الـذي تعلّمـه في سـجنه في حضـور مجتمـع للأنـوف والأفواه والعيون، فقد كانت جميعها تُجيد التّضامن والتّعاضدّ في سـبيل الخـداع والكذب والغشّ.

الصّاد: صمودهم

صمودهم مدعاة للفخر والاقتداء، أسماؤهم يحفظها عشّاق البطولة كلّهم، صورهم تعلّق في صدور أضرحة الأبطال والشّـهداء، يتحـدّثون باسـم الثّـورة، ويقسمون بتضحيّة أبرارهـا، يحفظـون كامـل تـواريخ البطـولات والتّضـحيات والحروب المكلّلة بغار النّصر وحنّاء الشّهادة، ويطرّزون بأوقات فراغهم سيرهم الماجدة، ويأخذون تعويضات الثّورة، ويحصدون مكاسبها، ويقومـون بنصـيبهم منها، وهو جني ما زرعه الأبطال، إذ هم رؤساء الثّورة وقادتها وأبطال حروبها، لكن من منازلهم!

الضّاد: ضمّ

ضمّ يده إلى صدره، وانتزع من ثنايا دثاره خنجراً، وغرزه في قلب صـديقه النّائم، فاستل روحه، وسطا على ماله، ووطِئ زوجتـه المتواطئـة معـه، وعنـدما أدرك أنّ سرّهما سيفتضح علـى يـدي إحـدى الصّـديقات المخلصـات للـزّوج المغدور عمد إلى مطاردتهـا، والتّضـييق عليهـا، بغيـة كـتم الحقيقـة، لكـن أمـره وعشيقته الخائنة افتضح في النّهاية، وجُرّ إلى المشنقة حيث كان غاضباً بقـوّة مـن مصيره المشؤوم.

انتهى بذلك الفيلم السّينمائيّ الذي قام ببطولته، لكنّه بقي منزعجـاً لأيّـام من المصير الذي آل إليه في الفيلم، إذ كان يدرك بصمت وإخفاء حاذق أنّه علـى حقيقته أمام الكاميرات، و كان هذا سـرّ نجاحـه وسـعادته بمهنـة التّمثيـل، فبهـا يكسب الشّهرة والتّقدير والمال جزاء وفاقـاً علـى شـرّه، ويمـارس حقيقتـه دون خداع وتزويق وتمثيل وتكلّف، أمّا في حياته الحقيقيّة له فهو ملزم بالتّمثيل طوال الوقت، وهذا ما جعل منه ممثّلاً شهيراً وإنساناً شقيّاً.

الطّاء: طالَ

طالَ انتظـارهم لهـذه التّجربـة التّاريخيّـة الفاصـلة في تـاريخ البشـريّة التّـي ستقضي على النّواقص والهنات والتّشوّهات، وستخلق الإنسان النّموذج المثال، لسنوات طويلة عملوا في هذا المعمل من أجـل هـذه اللّحظـة، أحصـوا مناقـب البشر، وحصروا خصال جمالهم، واستبعدوا من خـرائط الجينـات كـلّ قبـيح أو شاذّ، ووقفوا على أدقّ أوصـاف الجمـال، وشـروط الملاحـة، وأسـباب الفتنـة، واستحضروها في ذلك الطّفل الاسـتثنائيّ الـذي سـيكون طفـل البشـريّة الأوّل

الكامل، وعلى مثاله سيكون البشر كلّهم فيما بعـد، وأخلصـوا سـنوات أخـرى للبحـث والاستقصـاء والتّحسـين، إلى أن كـان مولـد الطّفـل المعجـزة، والأب الشّرعيّ للبشريّة المنتظرة كاملة، فكان أمثولة لكلّ جيـل، عنـده أجمـل مفـردات الفتنة، وكافة الأعضاء وفق أرفع درجات الجمال والحسن، ويلبّـي سـائر أذواق البشر، ويستحضر مقاييس الجمال في الدّنيا جمعاء؛ فقد كان خليطاً مـن الأذواق كلّها، وسِفْراً للرّغبات والأحلام، وخلاصة للأمزجة السّويّة والشّاذّة والمتطرّفة، ومزيجاً من كافّة السّلالات البشريّة، بل سلالة بشريّة هجينة جديدة؛ فهو مسـخ مخيف يحوي جمال البشر كلّه دفعة واحدة.

الظّاء: ظاهر

ظاهر القرية هو مكانـه المفضّـل لكتابـة مقالاتـه الفكريّـة في شـتّى حقـول المعرفة، التّي يجيد التّنظير فيها، ويجهل علومها، وحقائق معلوماتها، فمهنته هـي التّنظير، وطِلْبته هي الكلمات والشّعارات الرّنّانة والعبـارات البرّاقـة المصـنوعة بدقّة، عليها غُذّي، وبها يعيش، وبها يموت الآخرون.

لا يستطيع الكتابة إلا في ذلك المكان حيثُ الشّمس الجميلة والخلوة المفيدة، والمكان المواتي للتّبرّز والتبوّل والتغوّط، للدّقة هو مكانه المفضـل؛ لأنّـه يمـارس فيه أجمل فعلين في حياتـه في آن واحـد، ودون تحـرّج: الكتابـة وطـرح فضـلات الجسد؛ فيكون إخراجه سلس ومنتظم، وتكون مقالاته وكتاباته برائحـة منتنـة، ووجود مقزّز، ثم يغلّفها بالكلمات القشـيبة، والمعـاني العظيمـة، فيسـتر خبثهـا بخبثه، فتحصل الرّاحة له إلى أن يحتاج إلى الخلاء ومتعة الإخراج فيه من جديد.

العين: عقدوا

عقدوا النّيّة على تحرير وطنهم المسلوب، ورصدوا له الأعمار والمهج وخبايا الرّوح وبروج الأمنيات، ونسجوا من زيتوناته ومن مقل عيون شهدائه ومن حفيف قلوب أمّهاتهم جسر الصّمود والنّضال، فكان الدّرب الطّويل المستعر لأجل وطن كامل لا منقوص ولا مجزوء ولا مسلوب، ثم بقدرة قادر قهّار جبار تقلّص الوطن السّليب في حكم ذاتيّ، ثم في مدينة يحكمها أخٌ قائد أضرب عن الطّعام والنّساء وصلاة الفجر، ثم أصبح مخيماً تعصف به المكاره والنّوائب، وترثيه وحوش الخرابات، ثم اختزل بعد حمية وطنيّة إجباريّة في صورة بطل مات دفاعاً عن تُخوم جسد ولده الصّغير المحاصر برصاصات جنود يكرهون الأيدي الصّغيرة والآمال المقبلة مع الفجر، إلى أن دخل الوطن في غرفة العناية الحثيثة لإنقاذه من ذبحة صدريّة قاتلة ألمّتْ به دون سبب محدّد.

الغين: غيوم

غيوم السّماء هي فقط من أنفتْ من الوقوف في طابور المعونات الهزليّة التّي تقدّمها عاصمة النّار تكفيراً عن خطاياها ورزياها، مُنذ سرقت شمس أرض النّور، وزرعتها في أكفّ الغرباء، فشرّدت الآمنين في مناكب الأرض، وطوّحت بهم إلى ما بعد حدود الماء، فكادوا يتلاشون ما بين حدود الصّحراء والماء، ويذوبون في تخومهما، إلاّ أنّ العدالة المتوّجة على رأس تماثيل عاصمة النّار اقتضتْ أن تمتدّ إليهم أيدي العون، وأن تلتقط لهم آلاف الصّور التّذكاريّة التّي تبرز وبر خيام تشرّدهم، وترصد مآقي أحزانهم، وآهات توجداتهم، ونيران حرمانهم، وثمناً بخساً لوطنهم المسلوب، فقد وهبتْ كلاً منهم صكّ تشرّد

يضمن لهم طعاماً معلّباً رديئاً وقمحاً وشعيراً وشراباً وكسوة معجونة بالذّل الذي يوقفهم طوابير كليمة في انتظار صِلات صكّ التّشرّد عاصمة النّار التّي يطول انتظارها، أليس عليها أن تمرّ على كروش من جمعوها وحصّلوها ثم من أحصوها؟ فيبتلعون منها ما يطفئ قرم بطونهم، ثم تمرّ على الموظّفين الدّوليين في عواصم عدّة، فيسرقون منها ما يسّرتْ لهم القوانين الواهية والسّرّاديب الخلفيّة أن يسرقوه، ثم تمرّ على الحكومات الوطنيّة والتكتّلات الشّعبيّة والهيئات الخيريّة، والموظّفين الرّسميين في ثغور البؤس، ومخيمات الحزن، فُتختزل إلى النّصف أو نصف النّصف، أو نصف نصف النّصف، إلى أن تتصفّى في القليل النّزر من الفُتات والبقايا وما استبقته أيدي الطّامعين للإبقاء على المهجّرّين على قيد الحياة، ثمّ تُرمى للواقفين في طوابير البّؤس، يطالعون غيوم السّماء، ويطلبون عون من جعلها تحلّق في البعيد، ثم يحصون هباتهم الحقيرة، ويحزمونها في خرقهم القديمة، ويضمّونها إلى صدورهم بأيدي مرتعشة تعجز عن أن تمتدَّ إلى عيونهم لتمسحَ سائلاً جنائزيًّا اسمه الدّموع.

الفاء: فايز

فايز كان رجلاً من هذا الكوكب، لا تعنيه تفاصيل حياته أو نسبه أو معيشته، بل لا يكاد يجزم أنّ اسمه فايز، لكن هذا الاسم تداعى إلى ذهنه لعلاقته الضدّيّة مع حاله، إذ هو الخاسر، لكن يكفيه أن يدرك أنّ فايزاً سرق حلمه الذي ما عاد يذكره بالتّحدّيد؛ لأنّه سرق معه جزءاً من ذاكرته التّي كانت على شكل أحلام وأمنيات، لكن ما يفجعه في أحلامه المسروقة وذاكرته الموؤدة أنّ فايزاً استطاع أن يسرقه لا لغفلة أو بلاهة أو حرباً شريفة، بل لأنّه يملك من الغنى والسّلطة والنّسب الرّفيع ما يعدم هو؛ لذا حُلّ له سرقة حبّة عينه، وفراشة

قلبه، ومن يومها احـترف سـلب حبّات عيـون الآخـرين، وإحـراق فراشـات قلوبهم، فقد جدّ وعمل وباع وبيْعَ حتى أصبح اسمه فايزاً.

القاف: قانون

قانون دون روح هو جثّة دون حياة، المكان الوحيد لـه هـو القـبر والظّـلام والانتهاء، بهذا آمن؛ لذلك فقد وهب حياته للقـانون، ولنشـره، وأضـاع أجمـل لحظاته الأسرة، وأعزّ لقاءات الأصدقاء، وأهمّ مناسبات الـوطن وفعاليّاتـه كـي يخدم القانون الذي كان ناموسه وحياتـه ورسـالته، وتقلّـد لإخلاصـه لـه أرفـع أوسمة التّقدير، لكن عندما فشل قانونه في أن ينصـف ابنتـه المغتصـبة؛ لأنّ مـن سَرَقَ عزيزها هو من فئة مَنْ هم فوق القـانون، الـذين يعـدّون القـانون شـباك عنكبوت، تعلق فيها الحشرات الضّعيفة، وتفتك بها الطّيـور الجارحـة، وتفسّـخ نسيجها حدّ التّلاشي، عندها صمّم على أن يكون القانون بـروح لا جسـد دون حيـاة، وطبّق فعل العدل، وقتل الوحش الآدمـيّ الـذي اسـتهان بكرامـة ابنتـه، وبروح القانون، وسعد بفعله، وإن أصبح مجرماً في نظر القانون.

الكاف: كانا

كانا أخوين متعاونين متعاضدين بآراء مختلفة وأهواء شتّى، وأذواق متباينة، لكنّهما متحابان، أليسا أخوين أنبتهما رحم واحـد، وأرضـعهما ثـديٌّ حنـون؟ ذلك كان في زمن كان الوطن فيه قويّاً متماسكاً، لكن سـيف الفتنـة حـزّ خـيط الدّم، وفكَّ عُرى النّسب، وجعل الأخَ يشهر السّلاح في وجه أخيـه؛ لأنّهـمـا مـا عادا يطيقان أيّ آراء مختلفة أو أهواء شتّى أو أذواق متباينـة، فقـرّر أحـدهما أن

يبيد الآخر، وغربان الموت أمدّتهما بالسّلاح والفرقة والفتنة، فدفع الوطن ثمن فرقتهما، ولبستْ أمّهما السّواد عليهما طوال عمرها.

اللاّم: لا

لا أحد يستطيع أن ينكر أنّ جذور الخلاف أقوى من أن تُجتثّ، وأن تاريخ التّنازع والخصومة والحقد والتّحارب أكبر من أن يطوى أو ينسى؛ لذلك لا يمكن أن تحلم تلك القبيلتان بأيّ صلح، فقدر فنائهما تناحراً وعداوة في رمال الصّحراء قدرٌ أسودُ محتوم، وما عليهم شيوخاً وشباباً وصبيّة وأطفالاً إلاّ أن يستسلموا لقدرهم المشؤوم المتمثّل في ذلك الخلاف الخطير القاسم بين القبيلتين، فأهل قبيلة الواحة يحبّون اللّبن المخفوق مطبوخاً فيه اللّحم الطّازج، ولا يقبلون عن طبقهم القبليّ بديلاً، ويربطون كرامتهم وحسن ضيافتهم وإكرام وفادتهم بطبخهِ بهذه الطّريقة، أمّا أهل قبيلة الينبوع فيحبّون اللّحم الطّازج مطبوخاً إلى جانب اللّبن المخفوق، ولا يقبلون عن طبقهم القبليّ بديلاً، ويربطون كرامتهم وحسن ضيافتهم وإكرام وافادتهم بطبخه بهذه الطّريقة.

وأمام هذا الاختلاف الخطير في الأذواق، وتباين مفاهيم الإكرام والكرم والضّيافة ضاعتْ فرصة السّلام والانتصار على الفُرقة وعلى رمال الصّحراء القاتلة.

الميم: مقبرة

"مقبرة العائلة يجب أن تليق بأفراد عائلتي، وبالتّحديد يجب أن تليق بي"، قالت وهي تداعب كلبها الصّغير الحجم كفأر، والأشعث الشّعر كخاروف

صحراويّ، فأومأ برأسه دليل الفهـم والتّأكيـد، ورفـع يديـه إلى السّـماء، ولهـج بالدّعاء بحرارة وتضرّع لأموات عائلتهـا ولأحبـائهم، وإن عجـز أن يتـذكّر لهـم مأثرة واحدة، إلاّ أنّه عدّ وقوفه على حراسة مقبرة أسرتهم لثلاثين عامـاً براتـب واحد لم يعرف زيادة مأثرة تستدعي أن يصبّ عليهم وابل ترحّماته.

قالتْ له بكبرياء لا يناسب ذل ثـدييها الـذين تـرهّلا حـدّ التّـدليّ، وبـرزا كئيبين سوداوين يجاريان سـقوط عقـدها الـثّمين مـن عليـاء رقبتهـا إلى سـعادة كرشها: "أريد أن تجدّد المقبرة بشكل كامل يا أبا جبر، أريـد أن تكسـو واجهاتهـا وأرضها وحواف قبورها بالرّخام، وأن تزرع الزّهـور في أحواضـها جميعـاً، وأن تطلى بوابتها بالأسود اللّامع، أريد كذلك أن تُبنى نافورة جصّية في الوسط، وأن تشذّب أشجارها، وأن تُشيّد في شمالهـا قبـة مـن الأرابيسـك العربـيّ الأصـيل لتكون صالة اسـتقبال للزّائـرين، كـذلك أريـد ملحقّـاً للزّائـرين، يضـمّ غرفـة للاستراحة وحمّامـاً إيطاليّــاً فـاتح اللّـون، ومطبخـاً يناسـب تحضـير الوجبـات السّرّيعة، ولا تنسَ أن تحضر خطّاطاً ليعيد كتابة الأسمـاء علـى قبورهـا بـالخطّ الكوفيّ القديم. باختصار أريد مقبرة مريحة، وقبـوراً تليـق بمقـام أفـراد عـائلتي، أفهمت ما قلت؟"

أومـأ الحارس الفقير الذي كابد سنين طويلة مـن الحرمـان والكِبَـر برأسـه مؤكّداً أمراً ما، دون أن يعي ما سمع، فقد كان مشغولاً بالتّفكير إن كانتْ سعادة السيّدة تقبل بأن يسكن وعائلته في مقبرة عائلتها الأكارم، بدل أن يبقوا موزعين في بيوت الأقارب والجيران، بعد أن انتزعتِ الدّولة بيته القديم، ومهـدّت فـوق حطامه شارعاً كـبيراً كأحزانـه؟ وسـيعدها بقـوّة أن لا يـزعج أهلـها المـوتى في قبورهم الفارهة.

النّون: نعى

نعى نفسه في الصّحيفة الأشهر في مدينته، ودفع نصف راتبه مقابل هذه المزحة، أراد أن يلهو بالأصدقاء والأهل والجيران والزّملاء والأنسباء والمعارف كلّهم، أراد أن يضحك ملء شدقيه من حزنهم عليه، ومن تقاطرهم إلى بيته معزّين جماعات وزرافات وفرادى، وأن ينزل في الصّحيفة تكذيباً لموته، واستنكارًا لكلّ من أنزل نعياً له في صحيفة، قرأ النّعي الذي نشره عشرات المرّات، وضحك حتى تفتّق مقدّماً توطئة للمهزلة المنتظرة، وطال انتظاره، وما قُرِعَ جرس بيته أو طلب مستفسرٌ رقم هاتفه، قلّب الصّحيفة لأيّام إلى أن تبدّدتِ ابتساماته، مخلّفة كدراً وضيقاً، وما وجد نعياً أو تأبيناً له، فكّر طويلاً في تعليل هذا التّهميش والتّجاهل له، استعرض أسباباً محتملة كثيرة لذلك، لم تكن أخلاقه السّيئة، ومكائده اللّئيمة، وجحوده المتّصل، وبخله الكبير، وعقوقه منها، ثم آل إلى أنّ لا أحدَ يستحقّ دعابته الكريمة، وأنزل في اليوم التّالي وفي الصّفحة الأولى مع صورة كبيرة له وملوّنة خبر تكذيب وفاته لمحبيه المهتمّين بحياته المباركة.

الهاء: هي

هي سعادته الوحيدة، ومتعة روحه، ومتنفّس حياته، لا يتذكر بالضّبط متى بدأ اهتمامه بألوانها، وبرعايتها، وبدسّ أنفه في بتلاتها كي يسعد أنفه بشذاها، لكنّه بحقّ عاشقٌ للزّهور، لولاها لما كان معنيّاً بالعودة إلى بيته الكئيب الذي لا يعرف معنى الألفة في تأبدّه فيه، وبمتابعته الحثيثة لسيرة حياتها القصيرة بين تبرعم وتفتّح وذبول يطوي أيّام عمره، لم يبكِ في حياته إلا على زهوره التّي داستها عجلات طفل متهور مرّ بالجوار على درّاجته الهوائيّة الجديدة، حينها

تمزّق قلبه، وعدّها من أعزّ الرّاحلين عن حياته بعد رحيل أخته التّي ربته، ورحيل صديقه الذي كان مضطراً لقتله؛ لأنّه أحرق قلب أخته التّي يحبّها حدّ العبادة، ثم رحيل قيمه وأخلاقه وكرامته، ثم ذبول عمره في سجن العاصمة.

كاد يسلم نفسه إلى بكائه الشّفيق على زهراته المذبوحات في منزله، لكنّه تماسك بقرار حازم، ومسح دموعه، وشرع يمشّط الحديقة من الأزهار القتيلات؛ لأنّ البكاء لا يليق بقاتلٍ مأجور، فهذا سينفّر الزّبائن منه، وهو معنيٌّ بالحفاظ على عمله. إذن ليبك قليلاً وبسرّيّة في قبو المنزل حيث لا يراه أحد إلا روح زهراته الرّاحلة.

الواو: وَقَفَ

وَقَفَ في مكانه المعتاد في النّفق الأرضيّ للمشاة الواصل بين الحيّ القديم والحيّ الجديد، لبس جنونه المعتاد، وما كان له أن يخلعه، وتأبّط عتهه، فتنزّى لعابه، وسالتْ أمانيه على يده المشلولة، التّي ترفض أن تقبل بصدقة أو هبة، فتسقطها أرضًا كارهة راضية، فما كان يقف في مكانه طلباً لصدقة ساعٍ أو هبة مارٍ، إنّما كان يطلب العيون النّجلاء، والرّوائح الأنثويّة الفاتنة، جنونه لم يمنعه من أن يستجيب لنداء الطّبيعة لذكورته المؤجّلة، كانت هي من اللّواتي مررن في ذلك الضّحى من النّفق، كانتْ مثقلة بهمومها، وبشبابها الذي دخل في فورته الأخيرة، ولوّح لها بيده شامتاً بطموحاتها المتداعية ومشاريعها الحمقاء، خلخالها أنبتَ سحراً أنوثيّاً خاصّاً في أذنيه، لاحقها بإلحاح عبر خطواتها القليلة في النّفق، يده الشّوهاء ولعابه المتنزّي نفّراها بنزق، أشاحتْ بوجهها عنه، وحاولتْ أنْ تبعده عنها، لكنّه أبى الابتعاد، وأمطرها بوابل من شهوات الذّكورة، ورغبات الوصال الحارّ ممّا لم تسعد بسماعه من قبل، ولا ظنّت أنّ فمه قادر على ينطق به، في عميق عينيه رأتْ ذلك الاشتهاء المتوحّش الذي يردّ الأنثى إلى همجيّة

اللّقاء، ولذّة الوصال، تدخل المارة، وصدّوه عنها، فابتعدتْ وهي تتقطّر عرقاً وتوتّراً وشيئًا آخر، وأقسمتْ على أن لا تعبر هذا النّفق مرة أخرى حيث هناك مجنونه، وبرّت بقسمها ليومين، ثم كانتْ في اليوم الثّالث تعبر النّفق مبكّراً حيث لا مارة يصدّون مجنونه عنها عندما يُمطرها بكلمات الدّكورة المُلهبَة.

الياء: يمرُّ

يمرُّ في كلّ يوم من أمامها، هو من عبيد والدها الوالي ومن جملة عبيد الأرض، فيطير إحساس يخضور من قلبها، حلو المذاق، هلامي التّفسير، ويهبط على قلبه المقيّد بالعبوديّة، فيهشُّ عليه بيده؛ ليطّيره بعيداً إلى قلب حرٍّ، فالحبّ يريد قلوباً حرّة لا قلوبَ تُضرب بالسّوط غدوة وعشيّة، فيعود الطّائر حزينًا كسيفاً لينام في ضلوعها التّي أورقتْ زهوراً نديّة غضّة منذ أن وقعتْ عيناها عليه.

كم أتعبها السّير في كلَّ يوم في حقول الذرّة والسّمسم كي تحظّى بمتابعته عن بُعد! وكم أشقاها عندما صدّها! وألقى بحبّها بعيداً، قائلاً: "إنّ الحبّ للأحرار لا للعبيد".

حاولتْ طويلاً أن تجد من نفوره منها مسوّغاً لهجره قبل وصله، لكن تلك النّظرات في عينيه ما كانتْ لتخطئ معناها أيّ أنثى، وكي تتأكد من حقيقة ما قرأتْ في عينيه اشْترته من والدها الوالي، وادّعتْ أنّها ستسخّره لقيادة دابتها في طريق عودتها إلى مزرعة زوجها الذي يعدّها من بين ممتلكاته، وفي الطّريق مزّقتْ صكَّ ملكيّتها له، وأرختْ رأسها على زنديه، وأغمضتْ عينيها ليسرقها إلى دنيا أخرى بعد أن تحرّرا.

أحزان هندسيّة

(١)

أحزان نقطة المركز

هو المركز في الاهتمام، يشعر بأنّ الدّنيا تدور من حوله، وهـو في المركـز لا يتحرّك، لكنّه لسبب ما لا يستطيع أن يصوغ شعوره بالكلمات.

يتمنّى لو كان له حظّ كـذلك في الـدّوران حيـث الانعتـاق والانفـلات، يشعر بأنّ هذا المركز الذي يقع فيه، ويجعله قبلة الرّعاية والعناية هو ذاتـه الـذي يكبّله، ويقيّده، ويفرض وصاية كلّ من حولـه عليـه، علـى الـرّغم مـن أنّ أمّـه تقول: إنّ عمره الآن يكاد يبلغ السابعة عشرة، إذن فهو كبير مثل أخيـه مـأمون، وأصدقائه الصّغار في دار الرّعاية الخاصّـة أمثـال لمـى، وجـواد، وذلـك الأشـقر الصّغير الذي ينسى اسمـه دائمـاً، إذن فلمـاذا يُعامـل معاملـة الأطفـال؟ ربما وجوده في المركز هو السّبب في ذلك.

في البيت هو محطّ اهتمام الكـلّ ورعـايتهم، يطعمونـه ويغسـلون جسـده، ويقومون بكلّ أموره، ويربتون عليه كقطٍّ سيأمّي مدلّل، وفي الشّارع تفرض أمّـه أو معلّمته أو مرافقة الباص الخاصّ الذي يستقلّه وصولاً إلى مدرسته وصاياتهم عليه، واهتمامها به، وفي المدرسـة كذلك هو نقطة المركـز؛ فـلا هـو يـدرس في صفٍّ تقليديّ، فيه طلبة ومقاعد ومعلّمة، بل وحـــده في مقعـد أزرق مـزركش، وفي غرفة وحده، ومع معلّمة متفرّغة له، فلا يسعد بلحظة مشاكسـة، أو حركـة فوضى أو تشتّت انتباه، وفي باحة المدرسة ترافقه معلّمة، تعدّل مشـيته، وترعـاه،

وتعدّ أنفاسه عليه، وكلّ ذلك سببه أنّه مهمّ ونقطة مركز حياة أمّه كما قالت له كلّما احتجَّ على حجرها على حريّته، وعلى قسره على لزومه البيت دون إخوته الذين يخرجون بحريّة، حتى أخته زينة التّي تصغره بسنوات، ويستطيع أن يحملها بيديه لساعات دون أن يتعب تحظّى بحريّة دونها حرّيّته.

ليته كان قادراً على أن يصوغ احتجاجه في كلمات، وليته كان قادراً على نطق كلماته بسهولة دون تأتأة، وتلعثم، واضطراب؛ إذن لقال للجميع: إنّه يكره نقطة المركز اللّعينة، ويكره أنّه طفل منغوليّ كما يلقّبه الأطفال في الشّارع كلّما أطلّ عليهم من شرفة منزله.

لابدّ أن كلمة منغوليّ تعني أنّه يعيش في المركز، لا تعني "ابني حبيبي" كما قالتْ له أمّه، التّي تكذبُ عليه كثيراً بما يخصّ أزمته مع نقطة المركز التّي يشغلها، وتبكي بحرقة، وهي تحضنه.

(٢)
أحزان خطّين متوازيين

عندما تعارفا كان خطّين متوازيين، لكن بانحراف نحو مركز واحد اسمه النّجاح والطّموح، كان من المؤكّد إنّها سيتقاطعان، أو يلتقيان في نقطة ما، أملا طويلاً أن تكون نقطة المركز، وفي وتيرة النّشاط والدّأب، وحمأة الإنجاز وُلدتْ ومضة بينهما جعلتَ الدّرب أجمل، والمسافة أقصر، وكان العشق بينهما.

كلّ منهما نشأ يبرز في حقله، وينجز الكثير، هو سار قدماً في تولّي المناصب، حتى أصبح وكيلاً لوزارة، وهي سارتْ قدماً حتى أدركتِ المجد الإبداعيّ المسرحيّ الذي نشَدتْ، واقتربتْ لحظة التقاء الخطّين في نقطة مركز،

وأعدّا العـدّة، واشتريا خاتميّ الزّواج، ووهبا وقتهما من أجل التّفاصيل الصّغيرة التّـي يحتاجـان إليهـا لإكمـال مراسـم زواجهمـا، وفي تلـك التّفاصـيل كمنـتْ عواصف الفرقة والشّقاق: هي اجتهدتْ، وتعبتْ؛ لذلك تريد مكاسب وغنـائم تناسب تضحياتها، وهو اجتهـد، وتعـب؛ لـذلك يريـد استسـلاماً وخنوعـاً لـه يناسبان رجولته وسطوته، هي عنيدة، وهو متشدّد، هي لا تقبل بالخسارة، وهـو لا يؤمن بالتّنازل، هي تخلع خاتم الخطوبة، وهو لا يبالي، كلاهما يـؤمن بموقفـه الذي لا يتغيّر، ويؤمن بأنّه مستقيم لا ينحني، ولا ينحرف قَيْـد أنملـة عـن شـأنه وموقفه، يسير كلّ منهما في طريقه، يغدوان خطّين متـوازيينِ لا يمكـن أن يلتقيـا أبداً مهما طال بهما الطّريق، ومهما تجاورا.

في البداية ما كان أحدهما يبالي بالآخر، فكـلٌّ منهمـا أشـاح بوجهـه عـن الآخر، وحثّا كلّ طاقتيهما على الرّكض والمزيد من الإنجاز، فطال بهما المشوار، إذ كان مشوار العمـر، وعنـدما لاحـتْ لهمـا نقطـة النّهايـة، محمّلـين بكبرهمـا وحرمانهما وذكرياتهما المكسورة، تنهّدا وتمنيا بصدق آسف محمّلٍ بالحسرة لو لم يكونا خطّين متوازيين، إذن لكانا التقيا منـذ زمـن، وسـعدا، ومـا عرفـا أحـزان التّنائي، وصقيع اللّوعة، لكن قدرهما كان التّجاور أبداً دون لحظة لقاء.

(٣)
أحزان مثّلث

القانون الهندسيّ يؤكّد أنّ زوايا المثّلث بنفس الانفراج أو الحدّة؛ لـذا فهـي صورة عن بعضها، ونسخة مكرّرة لثلاث مرات عن حالة واحدة، لكـن قـانون

الأحزان يؤكّد غير ذلك، فزوايا المثلّث عنده غير متكافئة، فبعضها منفرج على الآخرين، وبعضها الآخر ضامٌ على ألمه، في حين يلتزم بعضها الحياد.

أضلاعه كذلك غير متكافئة في الطّول، فبعضها طويل بألمه، وبعضها الآخر قصير بحسبه ونسبه، أمّا حزنها هي، فزاويته منفرجة على ألم الرّوح، وفي زاويتين أخريتين يقف اللّوم والموت اللّذان يعصرانها.

في زاوية الموت يسكن ابنها الوحيد بمساحاته الممتدّة على السّعادة والطّموح والصّحة، هو كلّ ثروتها من الحياة في وسط غابة من الأحزان والوحدة ورحيل الأحبّة، كان يريد أن يكرّس جسده كي يكون أشهر ملاكم عرفه تاريخ الملاكمة، لكن الموت أراد أن يستردّ روحه، فكان لجبروت إرادته الغلبة، فأكل روحه في حادث رياضيّ مريع، ولفظ جسده سليمًا معافىً ينبض بالحياة بعقل لا يعرف من تعويذة الحياة إلاّ وجيب قلب لا يتوقّف إلاّ بعد أيّام طويلة ومعاناة موصولة.

تقرّر الأم في لحظة انتحار مجازفّة أن تتبرّع بأعضاء ابنها الصّحيحة من قلب ورئة وكلىً وكبد وجلد وعظام وقرنيتين إلى مرضى في حاجة إليها؛ فهي تريد أن توزّع حياة ابنها الآفلة على أرواح أخرى، فيسعد المرضى بقرارها، وتبكي هي بحرقة كسيفة.

في زاوية ثالثة يصبّ المجتمع لومه على قلبها الذي أصبح مقبرة نديّة تضمّ رفات ابنها بحنان ولهفة، وينعى عليها أن تمزّق سكينة فقيدها الأعزّ، وتدفنه مسلوب الأعضاء، لتهبها لغرباء لا تعرفهم، ولا يعرفون شيئاً عن معاناتها أو عن رحيل ابنها.

لكنّها تضرب صفحاً عن لوم مجتمعها، وعن خرافات بخله المقيتة، وتهب أعضاء ابنها للمرضى السّبعة، فيشفون، وهي ما كان لها أن تشفى لولا أنّها نعمتْ بسماع قلب ابنها ينبض من جديد في صدر فتىً يافع، وبقرنيتي ابنها تبصران النّور في وجه طفلة صغيرة، وبلمس جلد ابنها يتمدّد على جسد طفل صغير، فامتلأت حنايا زواياها عزاء، وكادتْ تُقسم على أنّ ابنها ما يزال على قيد الحياة.

(٤)
أحزان مربّع

يجوز كذلك في عُرف الأحزان أن تتساوى زوايا الحزن، وأن تتماثل أطوال أضلاع الحسرة إذا كان هناك أربعة متحابيّن يفشلون في وضع صيغة وئام تتسع لهم معاً دون إقصاء لزاوية أو كسر لضلع آدميّ أو هندسيّ، هما وحيدا أمّيهما، وهما يتيمان دون أبوين، وصدفة الزّواج التّقليديّ هي التّي جمعتْ بين ذاتيّهما التّي تذوّقتْ بأنسهما أوّل رشفات العسّل النّقيّ المصفّى، فوجدتها حلوة سائغة، فما عرفتْ شبعاً منها ولا اكتفاء.

كان من الممكن أن يعيشا في نعيم الزّواج لولا أنّ لكلّ منهما أم تعدّ الابن مُلكاً من أملاكها، لا تقبل فيه منازعاً، حار الزّوجان طويلاً في مربعهما الأسطوريّ الملعون، فكلّ فيه عاشق ومعشوق، لكن لا يمكن أن يُتبادل الحبّ فيه بين الزّوايا الأربع في آن، وإذا سعد اثنان، فعلى اثنين آخرين أن يتعسا بشدّة، وكان الفصل الأوّل من الهناء من حظّ الزّوجين العاشقين، ثم افترقا بأسىً بضغط وكيد من أمّيهما، فسعدتا، وشقي الزّوجان، وضاقا ذرعاً بالحياة،

وانكمشا في كائنين حزينين لا يرواحان مكانهما، ولا ينتظران مستقبلاً أو يشفقان على حاضرٍ أو حتى يحنّا إلى ماضٍ ولّى دون رجعه، فانتقلَ حزنهما إلى أميهما اللّتين أخفقتا في إصلاح ما أفسدتا، فغدوا جميعاً مربعاً حزيناً لا يعرف السّعادة؛ لأنّ زواياه أحبّتْ بغير ما يجب.

(٥)

أحزان دائرة

يكون الحزن أكبر عندما يكون دائريّاً لا يعرف نهاية أو توقّف، ويتجدّد من حيث يجب أن ينتهي، ويكون لعنة مقدّسة مغلقة لا تعويذة لفكّها عندما يسقط على قلبها ممن تحبّ دون أن يبغوا ذلك، طفلاها هما من أضاعا النّصف الأحلى والأبهج من شبابها وعنفوان أنوثتها، وما كان طِفْلا أحشائها، بل طِفْلا أمّها وأبيها، ولم يكن لهما معيلاً ومحبًّا وراعيًا ومنفقًا عليهما خلاها، ولما استبدلا ريشهما بزغب، وطارا، كانتْ قد احترفتِ الانتظار، وأعدّتِ الحقائب لتبحث عن شريك ليقاسمها ما تبقى من رمق رغبتها، لكنّ طفليها الآخرين كان عندها قد كُسرتْ أجنحتهم كبراً وعجزاً، واحتاجا إلى رعايتها وحبّها، هي لم تلدهما كذلك، بل هما من ولداها، فهما أبوها وأمّها، ومن جديد دخلتْ دائرة التّضحية الملعونة بقدسيتها، وراحتْ توفّي نذرها الذي ما اختارته، لتهب نصفها الحزين الأخير من عمرها لوالديها الطّفلين، وكذلك كان.

خرافات أمّي

عرفتُ دائماً أنّ أمّي تملك مواهب استثنائيّة، ولو لم تكن مطحونة في أسرة ذكوريّة متغطرسة، وسليلة الحرمان والضّنك، لكانتِ الآن على غير ما هي عليه، لابدّ أنّ أمّي تملك أكبر كنزٍ من الحكايات والقصص، ولو أُطلقت يداها في الماضي لملأت الدّنيا قصصاً وعجائب، لكن أمّي كان قدرها التّمنّي وأحافير الأحزان في يديها، وفي خطوط وجهها، فهي تاريخ صادق لا يُمحى يؤرّخ للشّقاء ولملامح الانكسار، وتوجدات حنايا الرّوح، كان من الممكن أن تكون أمّي أعظم روائيّة أو قاصّة في هذا القرن، لولا أنّها كانتْ أسيرة قطيع جفاة من الرّجال اسمهم جديّ وأخوالي وأبي؛ لذلك نفثتْ هبتها المقدّسة في صدري، وأسلمتْ نفسها للجنون والهذيان، وأطلقتْ جناحيها لدنيا الهلوسة، ووجدتْ راحتها أخيراً في غرفتها البيضاء كقلبها الحليبيّ في جناح هادئ في مستشفى الجبل حيث تنزل هناك بسرّيّة، في حين يظنّ أبي وشقيقاتي وأقاربنا أنّها تزورني في بلاد بعيدة حيث أسكن مع زوجي المغرم حدّ الجنون بما أكتب، إذ لم يكسر لي يوماً جناحاً، بل حلّق معي بعيداً بجناحي؛ فما كنت قطّ لأكسر صورة أمّي الرّزينة العاقلة في عيني أحد، وحسب أمّي أنّني معها لا أفارقها ليل نهار، وأنصتُ دون مللٍ أو كللٍ إلى قصصها التّي لا تفتر ترويها بسلاسة، كأنّها تتلقّفها من شلال منهمر، لا تتوقّف أبداً عن قصّها إلاّ إذا غلبها تعب أو نعاس، أو غلبني، فأتكوّر حينئذٍ نائمة على أريكتي بالقرب منها.

لا أعرف من أين لأمي بهذه الحكايات الأسطوريّة العجيبة، ولا أعرف لماذا نسيتْ كلّ شيء، حتى نسيتْ من أكون لها، لكنّها بقيتْ محتفظة ببئرها السّحريّ من القصص دون أن تغفلَ عنها أو تنساها، لعلّ قصصها هي ينبوع حياتها

الأوّل، وحقيقتها الوحيدة في دنيا الأكاذيب، ولعلّه صدى أحزانها التّي حـدّثتني وأخواتي عنها آلاف المرّات في صغرنا، فقـد كانـتْ حريصـة علـى أن لا تنـدثر قصص شقائها، وتبقى باقية في نفوس بناتها ثروتها الوحيدة في الحياة.

الخرافة الأولى (1)

قالتْ أمّي نقلاً عن الخرافة:

كان يخضور طيباً مثل دمعة، نقيّاً مثل مصـرع شمعـة، لا يملـك شـيئاً قـد يُحنق حاسد عليه بسببه، حتى إنّ عقله خلعه برضاً، وزهد بالدّنيا كلّها، وهام في الجبال، وسكن ضفاف البحيرات، وأنصتَ طـويلاً لصـوت الغـاب، ولتغريـد

---

١ – أمّي كانتْ طيبة مثل دمعة طفل، قانعة مثل غيمة، لم تحلم يوماً بثوب جديد، ولا بحذاء أنيق، ولا بدمية جميلة؛ لأنّ دخل العائلة بالكاد يكفي للأكل ولحاجات الحياة الأساسية بالمتبقّي من المـال بعد إرسال نفقات دراسة الأخ الكبير الذي يكابد قدراته الإدراكيّة المتواضعة وصـعوبات تعلّـم لغة جديدة في بلاد الصّقيع والبرد كي يعود بلقب مهندس، فتفخر الأمّ به، ويحمل عبء الأسرة الكبيرة عن كاهل والده المعنىّ.

لكن أمّي سمحتْ لنفسها بأن تحلم بسنّ ذهبيّة، يفترُّ عنها فمهـا القرمـزيّ الـدّائريّ مثـل خـاتم سحريّ، وقلما يسمح لها أخوها الثّاني بالتّرتيب أن تبتسم، إذ ابتسامتها تذكره قهـراً بضـحكات العاهرات اللّواتي يسافدهن بالسّرّ في ملهى المدينة.

أرادتْ أمّي أن تلبّس إحدى أسنانها بقشرة من ذهب، ونجحتْ بأن تقنـع والـدها بأمنيتهـا التّـي تحقّقتْ على يدي أوّل غجريّ مرَّ بالحيّ، فدفع والدها بعض المال له، وتحّملتْ هـي ألمـاً جبّـاراً، وحصلتْ أخيراً على سِنّها الذّهبيّة، واختالتْ بها، قبل أن يقبض أخوها عليها بجريمـة الابتسـام، فيضربها، ويكسر سنّها الذّهبيّة، ويغرّمها ثلاث أسنان أخرى عقاباً على فرحتها.

حزنتْ أمّي طويلاً، وما عادتْ تحلم قطّ، وإن كانتْ تسـعدْ سـرّاً بمراقبـة أسـنان أخيهـا تتسـاقط الواحدة تلو الأخرى بسبب مرض عجيب أصابها، فيهزلُ من قلّة الأكل الذي بكاد يقـدر علـى ابتلاعه، ويحرّم على نفسه الابتسام كي لا يكشفْ عن غور فمه الأجرد.

الطّيور، ولسقسقة العصافير، فأتقن أصواتها، فوهبته الأجمة مزماراً خشبيّاً، يعزف عليه، ويطربها بموسيقاه التّي جعلته أكثر طيبة، وأكثر حبّاً للنّاس والحيوانات والكائنات.

لكنّ الشّرّ تربّص بيخضور، وحسده على مزماره العجيب، وتسلّل إلى نومه، وسرق المزمار، وكسره، وهرب، عندما استيقظ يخضور، ورآى مزماره مكسوراً، وأدرك أنّ لا جبر له، حزن بشدّة، وملأ الحقد والغضب نفسه لأوّل مرّة في حياته، وأصبح من يومها شرّيراً لا يسعده أن يسمع صوت الغاب يردّد متمنيّاً أن يسمع صوت ألحان مزماره العجيب.

الخرافة الثّانية(١)

قالتْ أمي نقلاً عن الخرافة:

عاشتْ جبينة التّي هي ببياض الجبن، ولها عينان بخضرة النّعناع البريّ، سعيدة بين أخوتها السّبعة، الذين نذروا أنفسهم لحماية أختهم الجميلة من غيرة

١ - أمّي كانت ببشرة بيضاء كدّها الشّقاء، وبعينين خضراوين خائفتين دائماً من ركلة أو صفعة من أحد أخوتها الأربعة المتجبرّين، لذلك عاشتْ خائفة كضفدعةٍ في مستنقع قذر زلق، حسبها حنان أم مغلوبة على أمرها، باعها أهلها لزوجها منذ كانتْ في الرّابعة عشرة من عمرها، فقطعتْ سني العمر القائمة مزارعة بالسّخرة في أرض زوجها في الصّباح، وخادمة في بيتها في المساء، وجارية في فراش زوجها في تقاسيم اللّيل، وما كانتْ تشتكي، ومن كان سيسمعها أو يرفق بها لو فعلت خلا أمّي التّي ورثتْ مجبرة شقاء والدتها بعد موتها المفاجئ. فأصبحت خادمة الجميع، وعدّوة زوجة أبيها ذات الوجه الفضفاض المفلطح كرغيف خبز بلدي غير خامر مخبوز على عجل، وجارية لنساء إخوانها، ولمّا ذاقتْ ذرعاً باستعبادها، ثارتْ ثورة بيضاء سرّيّة، لم يعلم بها أحد، وتزوّجتْ من أبي السّوداوي كطاعون مقرف، واحترقتْ في أتون حياته، وما بالى بها أبٌ أو أخٌ؛ إذ ما كان تُسمح لهم نساؤهم بزيارتها إلاّ في عيدي الفطر والأضحى على عجل حفاظاً على صورتهم الاجتماعيّة أمام الأقارب والأنسباء، فيدسّون في يدها أوراقهم النّقديّة الهزيلة والقليلة على عجل، ثم يغيبون لسنة ضوئيّة أخرى، ويتركون أمّي تتنعمّ في شقائها، وفي كيد حميها، وفي أحمالها الكثيرة والمتكرّرة.

ساحرة الجبل، التّي تزوّجتْ أباهم السّلطان، وغارتْ من جمال ابنته الذي يفوق الحدّ، فحوّلتها إلى يمامة مسحورة، تطير في السّماء، ولا تعرف الرّاحة.

طفق أخوتها المحبّون يبحثون عنها في مناكب الدّنيا كلّها، إلى أن وجدوها، وحرّروها من سحرها بسبع نقاط من دمائهم مجتمعين، ثم عادوا إلى قصر أبيهم، فوجدوا أباهم قد مات، حزنوا عليه كثيراً، ثم طردوا السّاحرة الشّرّيرة من حياتهم، وزوّجوا أختهم من أجمل أمير في الدّنيا، وتزوّجوا من أميرات سبع من الممّالك التّي تحيط بمملكتهم، وعاشوا جميعاً سعداء متحابين، وأختهم جبينة بينهم ترفل في الحرير والجواهر، وتتمّتع بالحبّ والاحترام والأمن، إلى أن جاء هادم اللّذات ومفرّق الجماعات.

الخرافة الثّالثة [1]

قالتْ أمّي نقلاً عن الخرافة:

عاشتْ في قديم الزّمان فتاة جميلة تُسمّى كهرمان، الأمراء كلّهم تنافسوا على قلبها، لكن قلبها كان مُلكاً لفارس جميل اسمه همّام، وكي يظفر بها، وتظفر به، اشترطتْ على من يرغب في الزّواج منها أن يهديها نجمة من السّماء، حاول الفرسان أن يحققّوا شرطها؛ ليظفروا بقلبها، لكنّ الفشل كان حليفهم في كلّ مرّة، إلى أن صارع همّام المارد الذي يحرس قبّة السّماء، وسرق منه نجمة لّماعة عملاقة، وعاد بها إلى قصر حبيبته كهرمان، فمهرها النّجمة، وأهداها في

١ - أمّي خادمة الأسرة، وجارية الأخوة لم يكن يُسمح لها بأن تحبّ أو تحلم أو تشترط؛ لذلك تزوّجتْ أبي بترتيب عائليّ دون شروط أو رغبات، وزفّتْ إلى بيته كأسيرة، وإن نسيتْ أنّها جارية، كان والديّ يعرّيها من ملابسها دون اشتهاء، ويضربها بسوطه حتى يدميها، فتشهد أنّها أمته لا زوجته، فيغتصبها عشرات المرّات، ثم ينام كبعير، وتسهر ليلها تعالج جراحها، وتبكي بصمت كي لا تعكّر صفو نوم أبي البغل، فمشاعره مرهفة جدّاً، لا سيما فيما يخصّ النّوم!

يوم زفافها صندوقاً سماويّاً أزرق، فيه من الجوهر ما لم تره عين، أو تسمع به أذن، وكان يهديها كلّ ليلة ثوباً شفّافاً خاطه من أردية السّماء التّي سرقها من المارد الجبّار، وعاش معها في سعادة وهناء، وأنجب صبيّان وبنات، إلى أن زارهم هادم اللّذّات ومفرّق الجماعات.

الخرافة الرّابعة[(١)]

قالتْ أمّي نقلاً عن الخرافة:

عاشتْ في قديم الزّمان امرأة مباركة تحبّ الخير، ولا تنطق إلاّ خيراً، تحبّ النّاس، وتحسن إليهم، وتعيش معتكفة في كوخ في الجبال تعبد الله، ويقوم ابنان لها على خدمتها، وفي يوم اشتهتْ فاكهة خياليّة رأتها في أحد أحلامها، فحدّثت ابنيها البارّين عنها، فقرّرا أن يسافرا، ويجوبا الدّنيا كلّها، حتى يعودا

١- أمّي سيّدة تعيشُ في أوهامها وحرمانها، ولا تستطيع أبداً أن تخرج من إسارهما، تكره المستشفيات والأحذية البلاستيكيّة والتفاح الأحمر كلّ الكره، وتعدّ الموت فيهما، وقد اجتهدتُ أن أقصيها عن الأحذية البلاستيكيّة والتّفاح الأحمر، لكن المرض والخيالات أرغماها على لزوم المستشفى، وأعفاها من أن تتذكّر بأسىً ذلك اليوم الذي خرجتْ فيه أمّها من مستشفى في بلدتها الصّغيرة محمولة على الأكتاف ميّتة، بعد أن أصيبتْ بجلطة قاتلة عندما علمتْ أنّ ابنها الكبير الذي أنفقتْ عليه سنوات العمر، وراهنتْ عليه بسنين الشّقاء قد عاد بعد عقدٍ من الغياب دون لقب مهندس، وهو يتأبّط الفشل وزوجة شقراء كصفرة الموت.

لم يحتمل قلبها حزن الخيبة، ووجدتْ في الموت طاقة على الفرج، فقصدته، وهي لا تزال تحلم باليوم الذي ستصبح فيه أمّ المهندس، فيلبسها ثوباً من الحبّر، ويشتري لها حذاءً جلديّاً بدلا من حذائها البلاستيكي الذي بَرَدَ قدميها الصّغيرتين، ويطعمها كلّ يوم تفّاحاً أحمر كالذي تغضُّ الطّرف عنه كلّما مرّت به في السّوق.

رحلتْ جدّتي وتركتْ في نفس أمّي أحزاناً بلاستيكية حمراء، وأحلاماً صغيرة لا تتحقّق، إذ يغلق القدر أذنيه دونها لصغرها.

بالفاكهة الحلم، وانطلقا في رحلتهما، أحدهما اتّجه شرقاً والآخر غرباً، وطالتْ رحلة الأخوين، حتى التقيا صدفة أمام بستان يحرسه وحشٌ بألف أُذن وألف فمّ، ودون عيون.

استرق الأخوان نظرة على حديقته، فوقعت أعينهم للتّو على ثمرة غريبة لم يريا مثلها من قبل، فأدركا أنّها ما تشتهي والدتهم، وعرضا على الوحش أن يشترياها، فاشترط الوحش أن يهبهما كلّ واحد منهما عيناً من عينيه ثمناً للفاكهة، وأصرّ على طلبه، فهو في حاجة إلى عينين كي يستطيع أن يحرس بستانه الكبير، فكرّ الأخوان قليلاً، ثم وافقا بحزنٍ على طلب الوحش، ووهبه كلٌّ منهما عيناً من عينيه للوحش، وأخذا الفاكهة، وعادا إلى والدتهما بها، فأكلتْ منها حتى شبعتْ ثم دعتْ لهما، فأبدلهما الله عينين بعينيهما، وبارك لهما في عمرهما، وفي رزقهما، ووهبهما بركة رؤية الشّرّ ونبذه، ورؤية الخير وقصده، وكلّ ذلك ببركة برّهما بوالدتهما العجوز.

الخرافة الخامسة [١]

قالتْ أمّي نقلاً عن الخرافة:

كان في قديم الزّمان فتاة عجيبة، منذ وُلدتْ لا تنام ولا تأكل ولا تشرب، فتطيّر النّاس منها، وخافوا الاقتراب منها، وعدّوها شرًّا يخشونه؛ لذلك سجنوها

١- أمّي أُجبرتْ على هجر كتبها وصفّها ومدرستها بعد موت أمّها لتعتني بالأخوة والبيت، وترعى الأحزان، لكنّها لم تهجر قلمها قطّ، وبقيت تكتب في دفترها المهترئ القديم آلاف القصص، وتحلم بأن تدبّ فيها الحياة، وتصبح حقيقة، لكنّها لم تفعل، وماتت محروقة في موقد البيت على يدي الأخوة الذين رأوا في احتراف أختهم الكتابة عاراً لا يُمحى، فأُخرسَ قلم أمّي ثم كُسر، وما كُسرتْ قصصها في قلبها، ونفثتْ بها في قلبي، فكانتْ وهمي وقلمي، وحقيقتي، وكانتْ خرافاتها التّي لا تغادرها، ولو غادرتها الدّنيا كاملة.

في قلعة في الجبال، وأقاموا عليها الحرس والجدران، فعاشت الفتاة في سجنها وحيدة حزينة.

في يوم ممطر هاجم الأعداء البلاد، ودكّوا الأسوار، وفتكوا بالزّرع والنّساء والذراري، فكتبت الفتاة السّجينة قصّة عن جيشٌ وطنيّ جرّار، يسحق الأعداء، ويحقّق الآمال، فدبّت الحياة في الأبطال الأوراق، وأصبحوا جيشاً قهر الأعداء، حرّر البلاد، ثم كتبتْ قصّة عن هناء يعمر البلاد، وشفاءٍ يدرك المرضى فيشفيهم، وخير وبركة تحلّ على العباد، فدبّت الحياة في كلماتها، وغدتْ حقيقة.

عندها عرف النّاس قيمة الفتاة اللّغز، وأنزلوها منزلة التّقدير، وأدركوا سبب استثنائيّتها وغرابتها وعدم نومها؛ إذ لا يجوز لكلمة الحقّ أن تنام.

نفسٌ أمّارةٌ بالعشق [1]

لي نفس أمّارة بالعشق، ولي قلب لايَبْرَم بضعفه الآسر، ولـي ربٌّ وحـدَه يغفر خطايا العاشقين، ويبدلهم بسيئاتهم حسنات، ويدخلهم جنات ونعيماً، ولي سيرة هلاليّة يحفظها كلّ من ركب سَرْجَ قلبه، وشنّ حرباً دامية على كـائن آخـر اسمه حبيبه، وسيرتي يختزلها كلّ المؤرخين والمخلوعين في حرفي حاءٍ وباءٍ، وبـين منحنيات حروفهما وانزلاقاتها تسكن اللّعنة كلّها، لعنة العشق التّي توهب مجاناً لكلّ من يملك نفساً مثل نفسي.

أنا صاحبة أسعد قلب في الدّنيا، وصاحبة الحقيقة المطلقة، ونبيّـة الكلمـة، أنا الملعونة بلحظاتي، المتمرّدة على السّكون، أنا وريثة كـلّ الافتقـاد والاحتيـاج والجوع والشّهوة والارتواء والتّنهدات والخلجات والارتعاشات والدّوار اللّذيذ المسحور، أنا القائمة بأمر الله في الأرض، والموكلة بالقلوب كلّها خلا قلـبي؛ لـذا حُقّ لي ما لا يحقّ لغيري من حضور لحظة خلقي، كانتْ لحظة تختصر حكايـات العشق كلّها، وما أكثرها من حكايات! لم أكن وليدة لحظة اجتماع رجل وامـرأة بل وليدة لحظة اختيار وامتزاج روح بأخرى، أنا صنيعة ضَعْف وانتقاء، مِنْ بـين ملايين الخيارات في لحظة كنتُ أنا.

وُلدتُ منذورةً للعشق، ومن له أن يردّ قدره، ويبدِّل نذره؟! كانـتْ عنـد والـدي خطّـة آثمـةُ تُختـزل في أن يهبـاني أجمـل مـا يملكـان مـن صـفات وكروموسومات؛ لأكون مادّة للفتنة ولفخار القبيلة ولجموح الرّجـال الآسـرين

١- حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة أدب العشق لوكالة سفنكس للتّرجمة والنّشر في حقل القصّة القصيرة في العام ٢٠٠٩، وكالة سفنكس للتّرجمة والنّشر، القاهرة، مصر.

المسجونين في الكلمة، فشغلتهما لحظة العشق عن مؤامرتهما الحلوة، فخرجت سليلة القبح المتعاظم على انكساره، فمن والدتي أخذتُ الشّعر الأجعد المنحول، ومن أبي أخذتُ الجسد الضّئيل حدّ الانكماش، ومن جديّ لوالدتي أخذتُ العيون الحلزونية الخاشعة كجبن أرنب، ومن زوجته أخذتُ الأنف المعقوف كأنف صقر كاسر، ومن جدتي لأبي أخذتُ المشية الطّاووسيّة، ومن زوجها أخذتُ البشرة الكابية كحزن، ومن جموع المورثين أخذتُ الفمّ الكبير والشّفاه الغليظة والأذنين الملتحمتين بأطراف شعر الرّأس والخصر المهصور كأرنب مسلوخ، والأطراف الوزغة، والأعضاء القاصرة، ومن الرّيح أخذتُ صوتي، ومن الشّيطان الرّجيم أخذتُ نفسي المعنّاة بتمرّدها، ومن الله أخذتُ نفسي الأمّارة بالعشق.

خيوط الشّمس أوّل من عشقتُ، لبريقها يدان تحتضنان النّماء والحياة، لوهجها إرادة آسرة، لاعتلائها كَبِد السّماء سطوة خالدة، لدفئها قدسيّة دمعة يتيم، أدمنتُ على أن أدفنها في عميق عيني، لاحقتها بنظراتي الفضوليّة التّي لا تعرف الملل ليل نهار، وعندما أصاب حريقها عيني بالمرض، منعوني عنها بقوتهم المفروضة على طفولتي الرّضيعة في المهد، ومنعوني الشّمس، وأسكنوني الظّلّ، كان عمري وقتها أيّاماً، فكان الحرمان والفقد هما أوّل ما ذقت من الهوى، أضربتُ بإصرار عن الرّضاع، وأعلنت ثورة على الحليب، وعندما غلبني الجوع، وهزمنيّ العيّ، استسلمتُ ليدي الجدّة الدّاية ذات الشّامة الخضراء، وقبلتُ ذليلة بمنقوع اليانسون والنّعناع بديلاً من الحليب الذي أضربت عنه للأبد تخليداً لذكرى حي الشّمس الذي قُتل في مهده.

عاهدتُ نفسي يومها على كبتْ نفسي الأمّارة بالعشق، وعلى كبح جماحها، وبررتُ بعهدي المقدّس في عرف طهارة الأطفال لأيّام أسطوريّة فلكيّة

كريهة ثقيلة الخطى، فأصعب ماعلى النّفس أن تعلن حرباً على ذاتها، ونجحتُ في حربي على الرّغم من كثرة القتلى ومواجع الإعدامات والنّفي والاضطهاد في وجداني.

أعلنتُ التوبة عن إثمي الأوّل في الأرض، لكنّني من جديد اشتهيتُ الخطيئة والمعصية واللّعنة، ووقعتُ في حبّ كلّ شيء جميل، وما أكثر الأشياء الجميلة في عينين هما نافذتان على روح تضجّ بالتّفاصيل والألوان والرّوائح واللّمسات والحاجّات والأمنيات المؤجّلة والأفراح المسروقة من جنّة الخلد حيث كان مسكنها الأوّل في غامض العدم!

عشقتُ الفراشات الملوّنة، وزرقة السّماء، وثورة البحار، وصخب المحيطات، وسكون قيعان النّفوس، أخلصت في مشاعري وبرّي لوجوه الأمهات وأيادي الجدّات.

يا اللهُ، يا جبارُ، ياخالقَ الحبّ، كم كانتْ طويلة قائمة من عشقتُ، أنتَ من وهبني قلباً عملاقاً، فهبني عمراً فيه الأعمار كلّها حتى أكون كاهنة الهُيام الخالدة التّي أنّى كانتْ حضرتْ كلّ وجوه عشّاق الأرض والوطن والسّماء والخبز غير المغموس بدم الأبرياء، والآلاف من وجوه الأيتام والمعذبين والمحرومين، ووجوه المستضعفين المنكودين، ووجوه الأيتام، وكلّ أرغفة الجائعين.

في كلّ ليلة احترفت تعاطي الممنوع المهرب من الرّائق الخالص من المشاعر لعشاقي الذين لا يحصيهم عدداً إلاّ الرّبّ في عليائه، أحببتُ كلّ مَنْ قالوا: لا، و كلّ مَنْ قالوا: نعم تومىء إلى لا، أحببتُ علياً ولمبا وجيفارا وماو وصلاح الدّين وشجرة الدّر والحلاج وجميلة بوحيرد ومصطفى كامل وعلي الزّيبق ومسرور السّياف ومعروف الإسكافيّ وجعفر الطّيار وابن عربيّ وديك الجنّ

الحمصيّ وفارس عودة وجان دارك وهانبيال وإليسار والمتنبي وأبا العتاهية وهوميروس والظّاهر بيبرس وفراس العجلونيّ والشّريف الرّضيّ ونزار قبّانيّ وعمر أبو ريشة وفيكتور هيجو وكلّ الثّائرين المبتغين الشّمس، وأحببتُ كذلك صبر أمّي وأبي؛ فقد كانا وريثي زمن الجوع والانتظار، ووهبتُ دموعي لعروس البحر، ولسندريلا صاحبة الحذاء المفقود، وسكنتُ أجساد كلّ محبوبات رجال الأرض، ودوختُ بكلمات كلّ الشّعراء، وحظّيتُ بقُبَل المقبّلين جميعها، ولمسات أكفّ المشتهين، ولعنات الفاعلين وآثامهم كلّها، ثم استغفرتُ الله، فغفر لي، أليس هو أرحم الراحمين؟

ونسيتُ أسماء عشاقي كلّهم؛ إذ خاط لي ساحر مغربيّ يهوديّ آثم حجاب نسيان، فعلّقته في رقبتي ليل نهار بخيط قنّب، فنسيتُ أثامي وسعاداتي كلّها، إلاّ مجيّداً الأبكم؛ فقد كان حبّ طفولتي الأوّل.

كان قذر الملابس والجسد شأنه شأن المعدمين المنكودين جميعهم، حَرَمَه النّصيب، فأضاع فمه وأذنيه، كان ألعوبة أشقياء الحارّة القديمة حيث أسكن مزروعة بين أشتال أمي، حين أشفقتُ على عجزه، فأشفق على دمامتي، وعلى أنوثتي المكسورة المأسورة في جسدي المزدرى، فكانتْ له دون العالمين قبلتي الأولى، لم يكن ممن يحفظون فطرياً أبجديّة الإسعاد ولغة الجسد، لكن كان عنده أبلغُ صمت، وأحرّ دمعة، وأنا أحبّ الدّموع، أجمعها في قوارير شفّافة، وأصنعُ منها ترانيم الفرح.

أحببتُ مجيّداً حتى أحتلّ جارنا ذو العضلات المفتولة والشّعر الخيليّ مكانه في قلبي، كان يصطحبني معه إلى السّينما مع بناته الخمس المنحوتات بعناية إلهيّة واضحة على هيئة دمى جميلة، كان يعدّني ابنتَه، ويشفق على استحياء على أنوثتي القردة، كان كلّما حملني بيديه القويّتين، ووضعني في مقعد قاعة العرض في

السّينما الذي لا تصل قدماي إلى قاعدته، فيتمرجح نعلي البلاستيكيّ البرتقاليّ القديم في الهواء، أحلم بأن أملكه روحاً وقلباً، وأعد بإخلاص خصلَ شعره الذّهبيّة بقصائد خالدة، لكنّه ما كان ليبالي بصغيرة بنعل برتقاليّ بلاستيكيّ وإن أهدته قصيدة.

أمّا جابر فكان معنيّاً بالقصائد والكلمات، ولها دفع عمره، أنا أحببتُ جابراً، لكنّه أحبّ الكلمات أكثر منّي، وكتبَ القصائد، وثوّر السّاكنين والمتخاذلين، وحمل السّلاح، ومات مشبوحاً على دكّة التّعذيب، وما قال: لا، فتوحّمتْ به النّساء الحبّالى كلّهنّ، وحملتْ منه العذارى بالثّائرين دون أن يلمسهن، فغدا لي جيش من الضّرائر والمنافسات، وأنا كمِسلّة في كفٍّ قتيل، لا أحبّ الشّرّكاء، فلتحبّ النّساء كلّهنّ جابراً، وليحبّه الوطن، أمّا أنا فلي أن أعانق الفَقْد.

للحقّ سرعان ما غار اسم حامد بين حشد أسماء قائمتي الحاضرة الغائبة، حيث حسّان الهبيلة، وجبر أبو ريحة، وسلمان أبو بربور، وعباس اللّص، وكايد اللّقيط الذي يعيش في دار الأيتام، ولا يعرف له ماضياً أو حاضراً أو مستقبلاً، وحسين الذي يعيش في علبة كرتون بجوار كلبه الأعور، ومخلد الألثغ الذي يقلب الرّاء غيناً، وناصر ابن الوالي الذي يصلّي دون وضوء، ويعاشر بنات الهوى في حوزة أبيه العلميّة، وكيمو المخنّث الممزّق بين عالمي الأنوثة والرّجولة، وسليمان الغجريّ الذي يحبّ قرده وموسيقاه ورحيله المتّصل أكثر مني، وطارق الذي يعيش مع دزينة أخوة صغار في غرفة صغيرة في مخيم نسيه النّسيان، وعدد كبير من أولاد الجيران والمدينة والدّراسة الذين ماعدتُ أحفظ أسماءهم، أو أتذكّر وجوههم، ولا سوء في ذلك؛ فللعشّاق جميعاً وجه واحد واسم واحد، ومن حفظ اسماً واحداً منها، فقد حفظ الأسماء كلّها.

وبقي اسم حبيبي الخالد الـذي يجـيء، ولا يجـيء مرقومـاً في المجهـول، وفي انتظاره اجتهدتُ أن أتعلّم مهنة الخياطة كي أطرح على مـن أحـبّ عبـاءة مـن صنعي، أشكّ فيها سيلاً من النّجوم والكواكب والمجرّات.

سريعاً أتقنتُ الخياطة؛ فقد كنتُ أتمثّـل في تعلّمـي لهـا حكمـة: "مـن يـدرز ينجح"، ونجحتُ؛ لأنّني درزتُ دون توقف ليل نهار، وصنعتُ بعد سنين عجاف عباءة الغائب المتأخر.

طويتها على غير هون، ومسّدتُ عليها بعطفـي الخفـيّ، وغلّفتهـا بتعويـذة أثيرة، وانتظرتُ أن يأتي الحبيب، ومرّ العمر، وشاب الشّـعر الأجعـد، وتقـبّض الأديم، وتقوّس الجسد الهزيل ذو المشية الطّاووسيّة المزعومة، وغـادرني ضـيف لذيذ حلو اسمه الشّباب.

اعترافاً بريادتي وتمرّدي، فقد عُيّنتُ رئيسة فخريّة لحـزب الحـبّ، ولرابطـة المشاعر الجيّاشة، ولدارة العواطف، ورئيسة تحرير لمجلّة السّـعداء، ومستشـارة في محطة المحظوظين الفضائيّة، فضلاً عن تأليف كتاب موسوعيّ عن العشق وطرائقه وأبوابه ومنافذه، وبات شعار مريدي في الحياة قول الشّاعر:

ما تُبْتُ عن عشقي ولا استغفرتهما أسخفَ العشّاقَ إنْ همُ تابوا!

لكنّني كنتُ أجزم بأنّ الله سيغفر لي، نعم سيغفر؛ لأنّني على الـرّغم مـن قصص عشقي كلّها لم أعشق قطُّ، فأنـا امـرأة تملـك الحكايـات كلّهـا وعبـاءات الانتظار، لكنّها أبداً لا تملك حكاية لها مع حبيب غير ورقيّ، وهذا قدر الأنفس الأمّارة بالعشق والمولعة بكتابة الرّجال الذين لا يأتون حقيقة إلاّ علـى الـورق، ولا شيءَ غيرَ الورقِ؛ فنفسي أمّارة بالكتابة أيضاً!

مليون قصّة للحزن

يستطيع أن يلخّص حزنه المقيت المقيم في قصر إرادته في مليون سبب، لكن لأنّه مؤمن بأن لا وقت عند أحد ليسمع أحزان رجل غيماته كلّها غير ماطرة بل مرعدة ومزبدة ومجلجلة وحسب، ولأنّ حياته أقصر من قصّة، ولأنّه معنيٌّ بألم غيره أكثر من ألم نفسه المضناة؛ فقد قرّر أن يجعل الحزن هو مشروع حياته، ما دام قد وُلد ليجده توأمه المقيت، راهن نفسه التّي تكاد لا تملك أيّ رهان، على أن ينذر نفسه لتدوين مليون قصّة للحزن، يقيّدها بقلمه الرّشيق ولغته السّاحرة، ونفسه المكسورة على أحزانه، لعلّه بعمله الغريب هذا يحبس الآهات في كلماته، ويجعل لها سِفراً دونه لعنة السّماء، ويثبت له طاقة إنجاز في هذا العالم الذي بالكاد يعترف بوجوده الخامل على الرّغم من موهبته الشّمس، وطاقاته الإبداعيّة الفذّة.

يحدّث نفسه دائماً بأنّ مشروعه غريب، لكنّه يعزّي نفسه أيّان غزته هذه الفكرة بأنّها لا تقلّ غرابة عن هذا العالم المجنون الذي يعيشه، لا يجد الكثير ممن يرثون لمصيره في هذا المشروع، كما لا يجد الكثير ليحتجّ عليه، فمن هو الذي سيعنيه أن يتوقّف عند رجل وحيد يملك قطيعاً من الأحزان وغابة من الغيمات غير الماطرة؟!

قليلة هي الأشياء التّي حزمها لترافقه في رحلته الهدف، فمن يملك الأحزان، وينذر نفسه لها، لا يحتاج إلى الكثير من الرفاهية أو المتع أو الرّفاق، وهو منذور لأحزانه التّي جعلته يطوّف الدّنيا يسمع الحكايات، ويمسّد على الآلام، ويربت على الجراح، حتى غدا يملك مهارة عجيبة تجعله دون منازع

ملك الاعترافات، فقد حفـظ عـن ظهـر قلـب مجـاري الألم، وأشـكال اللوعـة، ورائحة الحرمان، ونكهة الاشتياق، ومرارة الظّلم، وملمـس الضّـغينة، وهمـس الحبّ المكسور، وأريج التّمنّي، وعبق الشّهوة، حتى ماعادتْ نفسه تصمد أمامـه أكثر من دقائق قبل أن تشـرع تحمّلـه أحزانهـا، وتبـوح لـه بأسـرارها، وتناجيـه بمكتومها، فيشرع يخلّدها بكلماته، ويحوّل عدمها إلى قصّة خالدة في سفره العظيم ثم يرحل من جديد نحو مبتغاه الحـزن، الـذي أنّـى توجّـه وجـده، فهـو أسـهل مطلب، وأسرع موجود، فليس هناك أقرب من حزن.

خمسون عاماً قطعها يرتحل ويدوّن في سفره العظيم قصصه المضمّخة بمعاناة أهلها، حتى عرف به القاصي والـدّاني، وغـدا كتابـه مضـرب الأمثـال، ورأس الشّؤوم، وطلسم الأسحار، وآمن النّاس خبط عشواء بأنّ من يكتب قصّة حزنه في هذا السّفر يخلع نحسها عنه، ولذلك قصده النّاس من كلّ صوب، ورافقوه في تطوافه أملاً في أن يكتب قصصهم في سفره، وقد طاب له أن يؤمن النّاس بهـذا الشّكل السّاذج كي يخلو له وجه الكتابة.

اكتمل كتابه أو كاد إلاّ إنّه ظلّ ينقصه قصّة واحـدة ولا غـير، فـتّش عنهـا دون جدوى، وبدأ الموت يدقّ بابه بإلحاح وقد بلغ من العمر عتيّاً، وشرع جسده يخونه، وصحته تخذله، وهو مأسور لفكرة أن ينهي كتابه، وينتصر في رهانه علـى نفسه، لكن هيهات أن يحدث ذلك، وهو لم يجد بعد القصّة رقـم مليـون، سـكنه ألف ألم جديد، وشرع جسده في المزيد من الخيانات التّي تسـقط أمـام جـبروت الموت، وماوجد قصته الأخيرة ليفوز برهانه، فكّر في أن يكرّر أيّ قصّة تتشابه في تفاصيلها مع قصّة أخرى في كتابه، لكنّ فكرة الإخلاص في عمله، والشّـرّف في الفوز ألحّت على عيّه، فانتصرتْ على احتياله.

رقد لأيّام طويلة في سريره يتمنّى أن يجد قصته المليون، ويؤمّـل الـنّفس في رحيل جديد وراء قصته الأخيرة المنشودة، وعندما أسدل جفنيه على آخر مشهد يرقبه في حياته قبل رحيله الأبديّ الأخير كـان مـا يـزال يجهـل أنّ قصّـة حياتـه المختزلة في جمع أحزان النّاس، وتدوينها هي القصّة المليون لرحلته المثقلـة بـالهمّ والضّنك والحرمان الذي تمثّل في أن لا يعرف أنّه قد أدرك غايتـه ورهانـه حتـى وإن جهل ذلك.

(٦)

المجموعة القصصيّة "أرض الحكايا" [١]

١- صدرت المجموعة القصصيّة "أرض الحكايا" في طبعتها الأولى عن نادي الجسرة الثقافيّ والاجتماعيّ، الدّوحة، قطر، ٢٠٠٦، وقد صدرت هذه المجموعة ذاتها في طبعة سابقة باسم "الجدار الزّجاجيّ" عن عمادة البحث العلميّ، الجامعة الأردنيّة، عمّان، الأردن، ٢٠٠٥، وحازت على جائزة النّاصر صلاح الدّين الأيوبيّ في دورتها الثّانية في حقل القصّة القصيرة في العام ٢٠٠٥، بلديّة الكرك، الكرك، الأردن.

لقد صدرت هذه المجموعة القصصيّة في طبعة سابقة باسم "الجدار الزّجاجيّ" عن عمادة البحث العلميّ، الجامعة الأردنيّة، عمان، الأردن، ٢٠٠٥، وصدرت بعض قصصها في مجموعة قصصيّة تحمل اسم "رسالة إلى الإله" عن دار الآداب اللّبنانيّة بدعم من مؤسّسة عبد المحسن قطّان، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩، كما صدرت بعض قصصها كذلك في مجموعة قصصيّة اسمها "عام النّمل" صادرة عن جائزة مجلّة ملامح ثقافية في حقل المجموعة القصصيّة المخطوطة، مكتبة سلمى الثّقافيّة، الإصدار (٣٥) من سلسلة إبداعات، تطوان، المغرب، ٢٠٠٨؛ لذلك كلّه، ومنعاً لتكرار القصص ذاتها في هذا الكتاب الجامع لم نورد المجموعات القصصيّة "الجدار الزّجاجيّ" و"رسالة إلى الإله" و"عام النّمل" في هذا الكتاب، واكتفينا بإدارج مجموعة "أرض الحكايا" التي تضمّ القصص كلّها دون نقص.

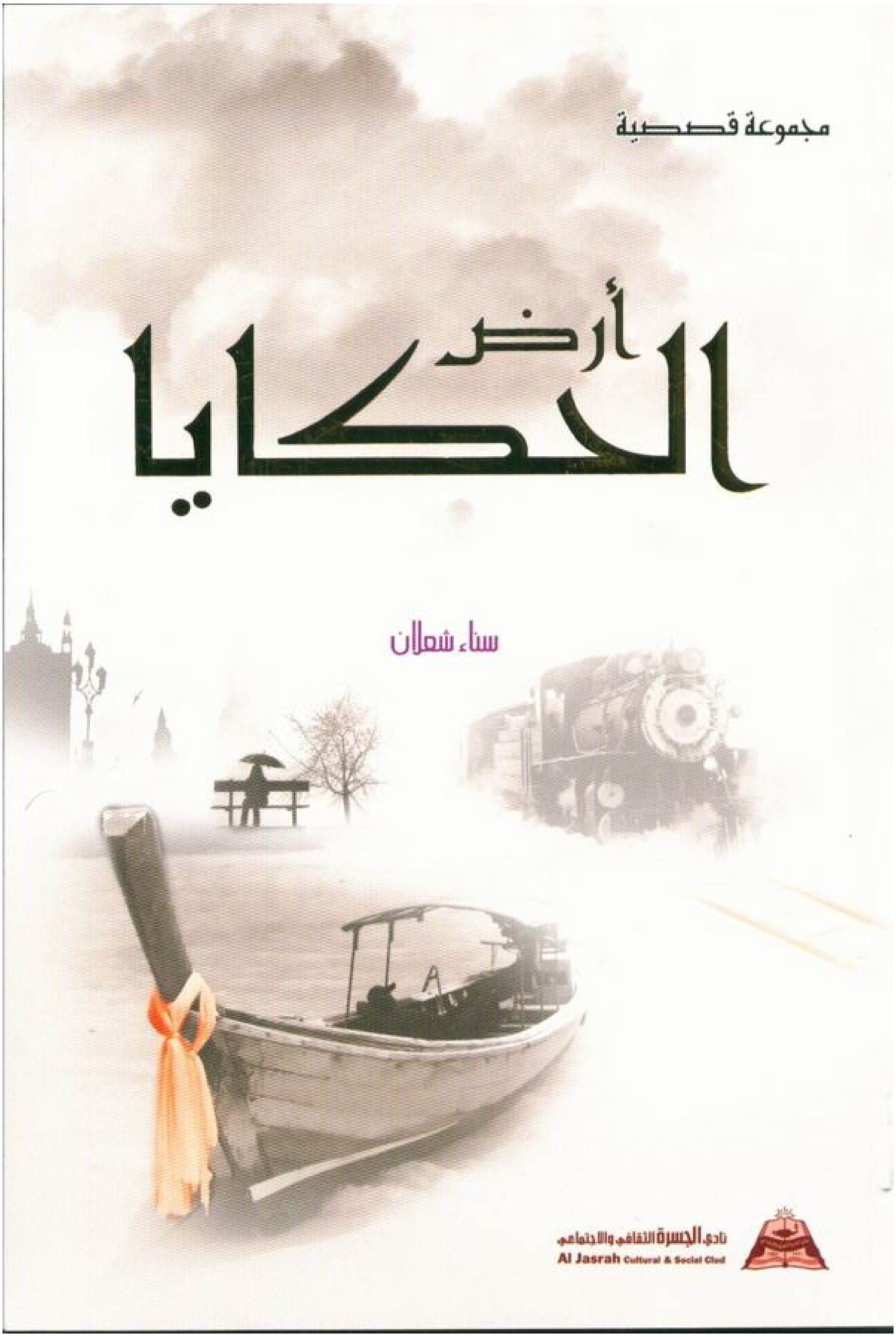

مجموعة قصصية
أرض الحكايا
سناء شعلان
نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي
Al Jasrah Cultural & Social Clud

سداسيّة الحرمان ([1])

(١)

المتوحّش

يعيش متأبّداً متوحّشاً على هذه الجزيرة الجرداء القاحلة إلاّ من صخورها ذات النّتوءات الحادّة، والنّوارس الحزينة، والأسماك التّي يقتاتها نيّئةً فيها أثر روح، لا يعرف إن كان متوحّشاً من الزّمن الحجريّ، أم وليد قوم غرقوا في البحر الذي لفظه وحيداً على هذه الجزيرة، أم أنّه منفيٌّ عن البشريّة لأمر ما، يقطع السّنين وحيداً، ويعدُّ الأيّام متشابهة، من قال إنّه يفكّر أصلاً فيمن يكون؟ أو يفكّر إلى أيّ الأزمان والعصور ينتمي؛ ففكرة الزّمن عنده فكرة معلّقة ومفرَّغة من أبعادها النّفسيّة والفسيولوجيّة، والزّمن عنده لا يساوي إلاّ بمقدار جوعه، ولا يُدركه إلاّ بأفول ليل، ومجيء آخر.

لا يشعر بملل ولا بأيّ شيء آخر قد يكون نقيضاً للملل، لأنّه بكلّ بساطة لا يعرف نفوراً من التّكرار والرّوتين اللّذين يتلخّصان عنده في الأكل والشّرب، وفي ذرع الجزيرة ذهاباً وإياباً دون هدف محدّد، لكنّه يعرف تماماً قيمة الرّوائح والأصوات، كما يعرف قيمة ذلك الحجر المدبّب الرّأس المثبت إلى طرف عصا طويلة قويّة قطعها من أحد الأشجار البريّة المعمّرة في الجزيرة، فبمعرفة الرّوائح والأصوات يُدرك اقتراب العدوّ الحيوانيّ منه، ويُحدّد مكانه، وبحجره الحادّ

١ - حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة أدباء المستقبل في حقل القصّة القصيرة في العام ٢٠٠٥، رابطة أدباء المستقبل، عمّان، الأردن.

يستطيع أن يدافع عن نفسه، فضلاً عن أنّه يستطيع بوساطته أن يصطاد الأسماك التّي تسبح قريباً من الشّاطىء بسهولة ويسر، ليقتاتها إلى حدّ الشّبع.

لقد ألف الرّوائح كلّها والأصوات جميعها حتّى باتتْ من أبجديّات بيئته الطّبيعيّة، لكنّ تلك الرّائحة التّي داهمته ذات صباح قد أرعبته، وكادت تصيبه بحالة ذعر شديدة تنتهي بالصّراخ والدّقّ على الطّبول، كانت رائحة مثيرة لم يعرفها من قبل، صمّم على أن يعرف مصدرها، تسلّح بحربته ذات النّصل الحجريّ، ولباسه الجلديّ الذي سلخه عن جسد أحد أعدائه الحيوانيين، وتابع مصدر الرّائحة، وسرعان ما وجد عدوّه، كان حيواناً كما توقّع، لكنّه حيوانٌ لم يره من قبل، له نفس قامته وطوله، شعره أطول، وأعضاؤه أدقّ، وله بروز غريب في الصّدر، لعلّه مصاب بمرض ما، دعى الحيوان الجديد بصراخه ونظراته المتحدّية إلى صراع حتّى الموت، وتحفّز لذلك مُستفزّاً من رائحته الغريبة.

لكن الحيوان الغريب لم يستجب، وضحك مليّاً، ووجد نفسه مدفوعاً بفضول غريب إلى تحسّسه لا سيما تلك الكرتين المتكوّرتين عند الصّدر، وجد في نفسه لذّة غريبة إثر هذا التّحسّس الذي كرّره مرّة أخرى، وشعر برعدة غريبة تسري في جسده لا يعرف معناها، أو مصدرها، ولا يدري كيف وقعت في نفسه، وكيف السّبيل إلى التّخلّص منها، وانقضّ على الحيوان ينوي أن يعضّه ليتخلّص من رغبته الغريبة، لكنّه اكتفى بلمسه بشفتيه ولعقهما بشهوة غريبة.

غدا الحيوان صديقه المفضّل الذي يقاسمه كلَّ شيء، وبدأ يعتاد عليه، وعلى تكوّر بطنه الذي يفرز حيوانات صغيرة لزجة كسمكة مهروسة، كان ينوي أن يأكل تلك الحيوانات، لكنّه وجد نفسه يحبّها بشدّة، ويدافع عنها إذا ما تعرّضت لأيّ هجوم من حيوانات الجزيرة، كما وجد نفسه يعامل الحيوان

الكبير برقّة، ويألف جسده الغريب ذا الأعضاء الغريبة، ويعطف عليه، ويحضنه ليلاً بكلّ شغف.

تعلّم بعض الكلمات من الحيوان الذي لم يعرف من أين جاء أبداً، فعرف أنّ اسمه رجل، وأنّ اسمها امرأه وأحياناً كيلا، وأنّ اسم الحيوانيّن الصّغيرين كيكو وهوهو، ثم بات يشعر بشيء يسمّى زمناً طويلاً، إذا ما غابت كيلا، ويشتاق بشدّة إلى كيكو وهوهو، كما كان متلهّفاً ليعرف المزيد عن كيلا وعن نفسه، وعمّا وراء البحر هناك في الأفق المائيّ، الذي بات من عادته وكيلا أن يراقبا سقوط الشّمس فيه كلّ مساء، لعّله يخترع كلمةً تعبّر لكيلا عن أشواقه، وعن فرحته بها، وعن اعتياده على رائحتها، وولعه بأعضائها الغريبة، وارتياحه لمرآها، لكنّ ذلك لم يكن، فقد جاء رجال كُثرٌ بملابس غريبة، وأسلحة حادّة، اصطادوا الكثير من حيوانات الجزيرة، وأقاموا حفلةً غريبة، ثمّ اختطفوا كيلا والطّفلين، وتركوه وحيداً بعد معركة طويلة خاسرة، كان مثخناً بجراحه، لكنّ حزنه على كيلا كان أعظم، لزمن طويل فكّر في الكلمة التّي كان من المناسب أن يخترعها لكي يقولها لكيلا، ثم انقطع عن بحثه الحزين؛ إذ لم يكن هناك حاجة لأيّ كلمات بعد غياب كيلا.

(٢)

المارد

في الألفيّة الأولى له تمنّى وهو في قمقمه أن يخرج ولو لدقائق من سجنه الضّيق، في الألفيّة الثّانية توعّد البشر بالهلاك والعذاب، لكنّه في الألفيّة الثّالثة

بات يحلم بجنيّة يعشقها، ويشتم رائحة دخّانها الجهنّميّ باشتهاء عظيم، لكنّ حلمه طال، طال لألفيّة رابعة.

كاد ينسى حلمه، عندما فُتح قمقمه النحاسيّ، لم يصدّق أنّه يرى النّور لأوّل مرّة منذ أربعة آلاف سنة، فتح عينيه بتثاقل، زفر بشدّة، فثار الغبار في رئتيه، اضطرب بقوّة، خرج من القمقم بنزق على شكل دخّان جهنّميّ، ثمّ استوى مارداً عظيماً.

توقّع أن يكون خادماً مطيعاً لساحر شرير، أو لملك ظالم، أو لشابّ طامح، لكنّه ما توقّع أن يكون خادماً لعذراء أنسيّة، كانت جميلة بمقدار جمال الحرّيّة، مثيرة بقوّة سني الحرمان، شعر بقلبه يزيغ نحوها، تمنّى لو أنّها ترضى بالدّنيا يضعها عند قدميها، ليرى في عينيها لحظة رضا واحدة، انحنى بجبروته وهيبته، فاهتزّت الأرض لحركته، قبّل قدميها الصّغيرتين كما عيني ديك، احتواها بيديه، كانت بمقدار حفنة يده، لكنّها أشعلت فيه أشواق الدّنيا، وذكّرته بشيء كاد ينساه، ذكّرته بأنّه رجلٌ جنيّ يحتاج إلى امرأة.

في لحظة جعلها ملكة الدّنيا، دانت لها ممّالك الأرض جميعها، وجاءها رجال الدّنيا صاغرين، كانت سيّدتهم جميعاً، وسيّدته هو بالذّات، إلاّ ذلك الفتى الذي جاء من أبعد ممّالك الدّنيا، فقد أعياها تمرّداً، وأتعبها صدّاً، منذ أن جاء باتتْ تسهر لياليها باكية، في حين يسهر المارد إلى جانبها حائراً، عرض عليها أن يسحقه بقدميه، فيزول، ويزول معه السّهر والبكاء، لكنّها رفضت، وأمرته بحراسته من كلّ مكروه.

كان اللّقاء بين أميرته وفتاها، الذي فاوضها على ملكها، فتنازلت له عنه، أمرها أن تلزم قصرها، فصغرتْ، نظر شمالاً ويميناً، وقال لها: "ماذا عنه؟"

سألت بولهٍ: "هو من؟"

- "مارد القمقم".

سألت بقلق: "ما باله؟"

- "أنا لا أطيق أن يشاركني بكِ أحدٌ ولو كان مارد القمقم..."

قالت، وهي تحبس دمعة صغيرة: "أنا طوع أمركَ".

قال بجزم: "تخلّصي منه إلى الأبد".

قالتْ بانسحاق: "لكنّني أحبّه، هو صديقي المفضّل، وملاكي الحارس".

- لذلك أريد أن تتخلّصي منه".

بكلمة واحدة منها عاد المارد إلى قمقمه، أغلقت القمقم بحزن من يشيّع جنازة، وأعطته إلى الحبيب الغيور، الذي طوّح بالقمقم بعيداً في البحر، أحدٌ بعد ذلك لم يرَ المارد، إلى أن نعاه البحر لأمواجه، لكنّ أسماك البحر سمعت صوت سكرات موته، فقد تحطّم قلبه العاشق، وغدا ألف شظيّة على يدي الإنسية الجميلة.

(٣)

الخصي

في قصر فخامته كبر ونشأ، لا يذكر من رجولته الميّتة إلاّ لحظة الخصي، ورائحة الدّم، ولمعان النّصل في يدي ذلك المجرم اليهوديّ الذي خصاه في دنيا البحيرات وأشجار البلّوط، وأرسله في رحلة طويلة ليصل إلى هذا المكان،

وليتربّع في حضن محظيّات القصر، ونساء فخامته اللّواتي دون الوصول إليهنّ الموت ورجولته المشلولة.

غيره من الخصيان يكتفون بالنّظر تعزية لرجولتهم المغادرة، أمّا هو فيرى في جسد الجميلات تحدّياً له، أمام كلّ محظيّة أو جارية أو شريفة من شريفات القصر يرى دم رجولته مسفوكاً دون رحمة، يرى في تكليفه بحراسة نساء القصر وحمايتهنّ استفزازاً لكرامته، فقد حُرم أن يكون ذاته؛ لكي يكون أميناً على نساء القصر، حُرم رجولته؛ ليهنأ آخر اسمه السّلطان برجولته، حُرم من أن يمارس ذاته؛ ليحرس مخدع آخر يمارس نفسه بكلّ اشتهاء وشهوة.

كثيراً ما سمع خصيان القصر يتندّرون بوصف نساء جميلات، ويتبارون في لعق التّمنّيات الجميلة عن جدران مخيّلاتهم، يتخيّلون أنفسهم بأعضاء كبيرة نشطة، تستبيح جميلات القصر جميعهنّ، ثمّ ينخرطون في مزاح يشكّكون فيه في تصنيفهم الجنسيّ، ليروا أنفسهم في النّهاية مسخاً حزيناً لرجل وامرأة، مسخاً ليس له إلاّ أن يتمنّى، ويتمنّى، ولا شيء أكثر، أمّا هو فينتبذ ركناً قصيّاً حيث لا يراه الحرس الرّجال الذين يفوقهم قوّة ونخوة وشهامة ليبكي حدّ الإزهاق.

لا يستطيع أن يمارس رجولته، لكنّه يشعر بها تمور في داخله منذ أن جاءت تلك الجارية الخزريّة، اشتراها السّلطان بألف ألف درهم، واشترى لها جوهراً يُثقل عاتقها الصّغير بألف ألف درهم، شُغل القصر بجمالها لأيّام، وشُغلتْ الإماء بتطييبها وتجهيز مخدعها لأيّام أخر، واعتزل السّلطان لأسبوعٍ عن نسائه ومحظّيّاته؛ ليكون لها في ليلة اكتمال البدر، وليفترعها بشوق المحروم.

لكنّ حزناً ما بقي في عينيها، حزناً يشبه أحزانه وحرمانه، راودته أحلامه كي يشتملها، ويقبّل فاها ولو لمرّة واحدة، لكنّه حبس نفسه دون ذلك عندما

باحتْ له بسرّها العجيب، كانت عاشقة لفتىً ما، وقد حالت الأسوار ما بينهما، كلماتها داست على آخر بقايا رجولته، رجته أن يساعدها، فوافق مكلوماً، كان سفيراً بين عالم أنوثتها، وعالم رجولة فتاها، وعلى أعتاب العالمين، طويلاً ما توقّف ليبكي رجولته، التّي ما استطاع أن يكونها، وما قدر على أن ينساها منذ أن اشتعلتْ أمنياته بمرأى جارية السّلطان.

في اللّيلة المشهودة التّي أرادها السّلطان مع جاريته، كان قد دبّر أمر فرارها لتكون مع فتاها الحبيب، ثارت ثائرة السّلطان الذي يغضب بشدّة إن حُرم متعة الفراش مع امرأة يشتهيها، أزبد، وأرعد، وتوعّد الجميع بالعذاب، وعندما وصلت جاريته الآبقة إلى ما بعد الحدود مع فتاها كان رأس الخصي قد عُلّقَ على بوّابة القصر انتقاماً من خيانته، وتأديباً لغيره من الخصيان.

(٤)

إكليل العرس

أنامله ذهبيّة، بهاتين الكلمتين تصف النّساء وقع أنامله على شعورهنّ، تقف قبالته كلّ امرأة تدخل إلى صالون التّجميل الذي يعمل فيه، يتأمّل مواطن أنوثتها، يداعب بشرتها، يتفرّس مساماتها، يعاين شعرها، ثمّ يدير قرص آلة التّسجيل، فيعُجُّ المكان بصوت إحدى روائع سمفونيّات بيتهوفن، لا يسمح بأيّ ملاحظة أو سؤال أو توجيه من أيّ أحد، حتّى ولا من الزّبونة نفسها، تتناغم يداه مع موسيقى السّمفونيّات، يعزف بيديه على أنوثة الزّبونة، كما يعزف الموسيقار على آلته الأثيرة، يتخيّل الزّبونة امرأته هو بالذّات، يحاكي بألوانه قسماتها، يداعب بأنامله شعرها، يخلق وجلاتها وألوانها كما يشتهي هو

بالذّات، ومع انتهاء معزوفة السّمفونيّة، ينتهي من الزّبونة، يتركها آلهة للجمال، تطير الزّبونة فرحاً ورضا بما فعل، وتنقده إكراميّة سخيّة، وتغادر الصّالون لتطير إلى حضن رجلٍ ما، ويبقى في فوضى أنوثتها المغادرة.

اسمه شأس، لكنّه مشهورٌ باسم شوشو أنامل ذهبيّة، جسده الصّغير وقدمه العرجاء جعلاه دون أعين النّساء، وبعيداً عن مطمح أيّ امرأة، لكنّ أنامله السّاحرة غرزته وبقوّة في عالم النّساء، وحلّلتْ له لمس أجسادهنّ، وصنع جمالهنّ، وخلق ألوانهنّ وزينتهنّ.

بدأ رحلته عامل نظافة في هذا الصّالون المشهور الذي ترتاده ثريّات العاصمة، ثمّ أتقن المهنة بفضل موهبته الغريزيّة في التّصدّي لجمال المرأة، وإبراز مفاتنها، وسريعاً ما نسي الكلّ شأس عامل النّظافة، وغدا شوشو أنامل ذهبيّة الذي يُبرز جمال النّساء، ويُطلق سحرهنّ.

يسعده أن يعمل دون انقطاع، لكنّ تجميل العرائس يدخل إلى قلبه الحزين متعة وفرحة خاصّة تتناسب مع فرحة الثّوب الأبيض.

تأتي العروس إليه مزهوة بأطياف ليلتها المتمنّاة، مأخوذة بسحر أنوثتها التّي ستتفجّر بعد ساعات على يدي رجل، تزخر بالأحلام والسّعادة، مسكونة بليلتها المقبلة، يداعب رقبتها ووجهها وكفّي يديها بحركاته اللّطيفة كي يهب جسدها المرونة والاسترخاء اللّازمين، ثمّ يبدأ بتأمّل القسمات، يراقب الجسد والوجه من أكثر من زاوية، يفكّ أسرار أنوثة الزّبونة، ويهزّ رأسه بعد أن يعرف مواطن التّقصير، يدير قرص المسجّل الكهربائيّ، فتنبعث موسيقى السّمفونيّات، في فلك حركته البطيئة العرجاء حول مقعد العروس تدور أكثر من مساعدة صامتة، يناولنه الأدوات المطلوبة دون النّبس ببنت شفة، يجذب شعر العروس

إلى جسده، يغرق كفّيه في شعرها، ثمّ ينضوه بشغفٍ، ليصفّفه كأنّ هبّة من نسيم الغابة قذفت به بعيداً، يزيّنه بحبّات اللّؤلؤ وصغار الزّهور البيضاء، يدهن الأظافر بطلاء ورديّ جميل بعد أن يهذّبها، ويُطلقها بانسيابيّة زهرة لوتس على صفحة ماء، ثمّ يأتي دور الوجه، يناغيه طويلاً، ويعطيه من ألوان الطّبيعة، فيبرز محجريّ العينين، ومبسم الفمّ، وألق الوجنتين، وطول الرّموش، وانسيابيّة الحاجبين، يلقي نظرة أخيرة، فيدرك أنّه قد انتهى من إفراز رجولته في قسمات أنثاه العروس، يعطّرها من العطر الذي يعتقد أنّه يناسبها، ثمّ تأتي الخطوة الأخيرة، يمسك بالإكليل المحمول إليه بحذر واهتمام، يقرّبه من العروس المنتشية بجمالها، يثبّته كما يجب، تغدو العروس بجمال أردية القمر، يبتسم لها، فترى ابتسامته مطبوعةً أمامها في المرآة، تصفّق المساعدات كعادتهنّ قائلات له: "برافو، إبداع يا شوشو".

يقترب باسماً من خدّ العروس قائلاً كعادته كلّما انتهى من تجميل عروس: "ألن تكون لي القبلة الأولى؟" تطبع العروس السّعيدة قبلة عجلى مشوّشة على خدّ شوشو الذي يُعامل على أنّه الأخت الكبيرة للنّساء جميعهنّ، وتخرج بثوبها الأبيض وإكليلها السّاحر، تتوجّه إلى السيّارة المنتظرة لجلالة جمالها الأنثويّ لتكون في حضن عريسها، بعد أن تدسّ إكراميّة كبيرة في جيب شوشو الذي ليس له من عالم نسائه ذوات الأردية البيضاء السّاحرة إلاّ أن يُزيّن وأن يودّع، يبتسم شوشو ابتسامةً ميكانيكيّة اعتادها، يعلك علكة في فمه بطريقة استعراضيّة خليعة، ثمّ يقول: "إليَّ بالعروس التّالية..."

(٥)

فتى الزّهور

أراد عملاً قصيراً ونظيفاً بناء على توصيات أمّه وله دخل مقبول ليشارك به في نفقات دراسته الجامعيّة المتعثرة بسبب انقطاعه عنها ليعمل في أعمال تكسبه شيئاً من المال الذي يحتاجه لدفع الأقساط الدّراسيّة، فتوسّط له العمّ موسى ليعمل في محلّ الزّهور الذي يقع ضمن المجمّع التّجاريّ داخل الفندق الفخم الذي يعمل حارساً ليليّاً فيه، وقُبل في العمل نظراً لطلّته الجميلة، وهندامه المرتّب النّظيف، ومن يومها بات فتى الزّهور، الذي يوصل الزّهور إلى من يطلبها بالهاتف، أو لمن تُرسل إليهم في مناسباتهم وأعيادهم، يقرع جرس البيت أو الشّركة، يقدّم الزّهور، فتتناولها الأيدي بين نظرات الدّهشة والسّعادة، تُقرأ البطاقات، ثمّ تدسُّ في جيبه إكراميّة ما، يشكر مقدّمها أو مقدّمتها مبتسماً، ثمّ يُغادر على عجل، لينطلق في مهمّة إرسال زهورٍ أخرى.

يعترف بأنّه لا يحبّ الزّهور، ونظراً لفقره وارتفاع ثمنها، فإنّه مجبرٌ على أن يظلَّ غير محبّ لها، لكنّه يلفي نفسه على حين غرّة معجباً بالزّهور، متقناً للغتها، فاكّاً لأبجديّة لغتها، يعرف اسم كلّ زهرة، ويدرك معنى كلّ لون، يستطيع أن ينسّق الألوان والأشكال وفق المناسبة وبناءً على طبيعة العلاقة، ثمّ يحملها، وينطلق بها.

يشعر بلذّة كبيرة لا يعرفها إلاّ من أتقن قراءة الوجوه، وفكّ معاني النّظرات والخلجات، عندما يراقب ردود أفعال النّاس تجاه الزّهور المهداة إليهم، يداعب الغرورُ قلبه، عندما ترتسم ابتسامة على ثغر المتلقّي أو المتلقّية، وتداعب

الأنامل الزّهور مداعبة استقبال وإكرام، يشعر عندها بأنّه ملك الزّهور التّي يُحسن اختيارها، كما يُحسن تلقينها الكلمات التّي عليها أن تقولها.

لكنّ زهور الحبّ بالذّات تهزّ قلبه الذي يخفق بشدّة عندما يطالع الوجوه وهي تحمرّ مشحونة بمشاعر الاضطراب والحبّ عند تلقّي الزّهور العاشقة، الأنامل التّي تداعب الزّهور تعزف على أوتار قلبه الدّامي، يتنهّد عميقاً، ويتمنّى لو أنّ قلباً ما يُهديه زهرة حبّ، يأخذ الإكراميّة، وينطلق بعيداً.

انتظر طويلاً أن تأتيه زهرة، زهرة واحدة عاشقة، لكنّ ذلك لم يحدث، وأوشك هزيع الصّيف على الانتهاء، وكاد موسم الزّهور ينقضي، والفصل الدّراسيّ الجديد كان على الأبواب، دسّ صاحب متجر الزّهور في جيبه مظروفاً فيه أُجرّة الشّهر الأخير الذي عمل به، وأخبره برغبته في أن يعود للعمل عنده في العطلة الصيفيّة القادمة، هزّ الفتى رأسه شاكراً، وابتعد ويده في جيبه تقبض بحذر واهتمام على الظّرف الذي فيه أجرّة الشّهر.

في الطّريق توقّف أكثر من مرّة أمام أكثر من محلّ زهور، كان يقاوم رغبة جارفة ألحّت عليه طوال الصّيف.

في المساء كان جالساً في بيته في وسط غابة من طاقات الزّهور التّي حملها العشرات من فتيان الزّهور الذين جاؤوا من أنحاء متعدّدة يحملون له باقات زّهور، ليس على أيّ منها أيّ بطاقة تعريفيّة.

كان يبتسم بقوّة وبدهشة غريبة كلّما استلم باقة جديدة، هو حقيقةً في انتظارها، وإن كان يبذل جهداً لتمثيل دور المتفاجيء بطاقة الزّهور التّي من المفترض إنّها جاءت على حين غِرّة، ثمّ يدسّ إكراميّة سخيّة في جيب فتى الزّهور الذي يغادر المكان مبتهجاً فرحاً، كان يشعر بسعادة غامرة، وإن عكّرها

صوت بكاء أمّه التّي عرفت أنّ ابنها قد اشترى براتبه كلّه زهوراً حُمراً، بدل أن يدفع قسط دراسته الجامعيّة.

(٦)
الثّورة

كانوا أصدقاء جمعتهم الحياة بضنكها وقسوتها، وربطت الصّداقة بين قلوبهم الطّيّبة، وألّف الحرمان بين وشائجها، فكانوا راحةً لبعضهم في أرض الضّياع والاستحواذ والافتقاد، يتقاسمون فاتورة الغداء أو العشاء، يحملون قصصهم وتجاربهم ومواقفهم اليوميّة إلى حضرة الطّعام، يبثّون لواعج أنفسهم، ويشكون حوادث أيّامهم، يخلعون أحزانهم، يسمح كلٌّ منهم للآخر بأن يمدّ يداً حانية تمسّد على عري تعبه وحاجاته، لتهبها لحظة حنان، وإيماءة دعمٍ وتعاطف، يختمون لقاءَهم اليوميّ بشرب عصير الجزر، ليس لأنّه الألذ، لكن لأنّه الأرخص، ويتوافق مع ميزانيّاتهم التّي تعاني من العجز الدّائم، ثمّ يفترقون، وقد غسل اللّقاء شكوى قلوبهم.

كانوا أصدقاء يتوزّعون على مدرج العمر من أوّل الشّباب حتّى آخره، كما كانوا يتوزّعون على عروق شتّى، ومنابت مختلفة، وظروف متباينة، لكنّ الطّموح والحلم جمعهم، ووحّد حالهم.

ثمّ ظهرت هي، كانت بمثل ظروفهم، وتفوقُهم طموحاً ورغبةً وحبّاً للحياة، كانت قادرة على استيعابهم جميعاً، قادرةً على رسم مشاعرها بالألوان، قادرة على تحريض مشاعرهم، وطموحاتهم، أيقظت فيهم جميعاً شيئاً اسمه الحياة

والرّغبة، كلٌّ منهم أحبّها لسبب ما، لكنّهم اجتمعوا جميعاً على حبّها، كلٌّ منهم كان لديه مخطّط مشرق هي من أركانه، وأوّل أمنياته.

لكنّها لم تحبّ أحداً منهم، مع أنّها أحبّتهم جميعاً، أحبّتهم أرواحاً، فأحبّوها جسداً، أحبّتهم أصدقاء فأحبّوها امرأة، أرادتهم داعمين، فأرادوها حبيبة.

افترقت الطّرق، وتقاطعت الرّغبات، ورحلوا عنها، بل رحلت عنهم، ولم تعد حبيبتهم، ولم يعودوا أصدقاءها، للدّقة لم يعودوا أصدقاء أبداً، كلٌّ منهم اتّخذ له رهطاً آخرين، لكنّهم جميعاً ظلّوا يحنّون إلى الماضي الذي يلمسون فيه حناناً يشفقون على ضياعه، وصفاء غاب في كدر الحياة.

التقوا جميعاً إلاّ هي، كان لقاء صدفة، أو لعلّه لم يكن كذلك، لكنّهم التقوا جميعاً، تحدّثوا بتحفّظ ابتداءً، ثمّ بعتاب، ثمّ بتصافٍ، كلٌّ منهم تحدّث عن ألمه من الصّدّ، وعن آماله التّي تهدّمت على أعتاب حوّاء التّي أدارت ظهر المجن للكلّ، أحدهم اتّهم الصّديقة بالخيانة، الكلّ وافقه دون مناقشة تفاصيل تلك الخيانة.

اتّفق الجميع على تأسيس جمعيّة لمناهضة هي، كما قرّروا أن يعلنوا عن ثورة مقدّسة ضدّ (هي) وقرّر زعيمهم الرّوحيّ، وهو أكثر من أظهر توجداً على (هي) أن تكون الرّصاصة الأولى من فمه هو أمام بيتها.

اجتمع الأصدقاء حول منزلها، وأعلنوا عن ثورة مقدّسة لمناهضتها، بدأوا يهتفون مندّدين بها، داعين بسقوط قلبها، لم تكن موجودة لتحضر بداية ثورتهم؛ لأنّها كانت في عملها الذي يستنزف شبابها لتطعم أخوتها الأيتام، عادت متدثّرة بمعطفها القديم، تحمل كيس فاكهة في يد، وفي يد أخرى حقيبة يدها، وتدسّ تحت إبطها لوحة رسمتها، وتبحث لها عن مشترٍ ما.

أدهشها اجتماع الأصدقاء حول بيتها، وعرفت من الجيران أنّ الأصدقاء قد أعلنوا عن ثورة ضدّ طاغيةً ما، أعجبتها الفكرة، وانطلاقاً من إيمانها بأصدقائها وبعدالة قضيّتهم، تركت ما تحمل جانباً، وأخذت تهتف عالياً مطالبة بإسقاط الطّاغية التّي يطالب الأصدقاء بإسقاطها، مع أنّها كانت تعرف تماماً أين ينتهي الثّوار بعد كلّ نداء إسقاط لقوى الظّلم وأعلام الاستبداد، كان هتافها عالياً، وتنديدها صادقاً، خجل الأصدقاء من أنفسهم، وأخذوا يهتفون بفتور، وكلّ منهم يطالع وجه الآخر بحيرة وخجل.

هي خطبت مطوّلاً في جمهور الأصدقاء الذي انضمّ إليه الكثير من المارّة والجيران، وحرّضت بخطاب ساخن رسمته بالكلمات وبألوان كابية على الثّورة وعلى الرّفض، ونادت بإسقاط قوى الظّلم والاستبداد، تحمّس الأصدقاء، ونسوا تماماً جمعيّة مناهضة هي، ونادوا بصدق بسقوط الفقر والظّلم والحرمان، جابت الثّورة البلاد كلّها، وهتف الكلّ باسم الثّورة، في المساء كانت هي والأصدقاء حيث يكون الثّائرين كلّهم، كانت مؤمنة بعدالة قضيّتها على الرّغم من وقع السّياط المؤلم، أمّا هم فكانوا يلعنون (هي) التّي أوصلتهم إلى هذا المكان، وفي هدأة اللّيل وضعوا البنود الرّئيسة لجمعيّة مناهضة (هي)، كما قسّموا حقائب الجمعيّة، وسمّوا الأعضاء الدّائمين فيها.

أكاذيب البحر

"الويل لمن يصدّق أكاذيب البحر"

(١)
أُكذوبة الجَزر

يتجشّأ البحـر، وهـو ينسـحب في الجـزر، فيبتلـع نفسـه، وتعلـوه رائحـة الأسماك، فتبرز سارية السّفينة الغارقة منذ مئات السّنين قُبالـة قريتـه الصّـغيرة، ومن بين أرض الشّاطىء الرطبة المنكشفة التّـي عرّاهـا البحـر تـبرز هـي، تأتيـه راكضة بسرعة موجة، وبأسرار غيمة، تكتسـي بأرديـة مـن زُرقـة البحـر، تلـك الأردية التّي اشتهاها لسنوات ثلاث، يرهف مشاعره وعينه متأمّلاً ورودها الذي يؤنس رجولته.

يفتح ذراعيه، ويصدّر صدره العاري لاستقبالها، ترتمي بكـلّ زرقتهـا بـين يديه، تتمنّى أن تجد متّسعاً من الوقت لتقول له كم تعشقه، يتمنّى لو يجـد جـرأة في نفسه ليقول لها كم انتظرها، لكن لا وقتاً ولا جرأة يتوفران ليقولا ما يحلمـان به.

يطوّقها بيديه العاجيتين بكلّ ما أُوتي به من قوّة وشوق وحرمان، تقول لـه ضاحكة كعادتها: "ضمّني بقوّة، ضمني بقوّة أكبر يا رجل الجزيرة النّاسك". يقـول لها بصوته الرخيم الذي يستوطنه إيمان ناسـك، وتعلـوه رهبـة المسـاجد ونسـيم المآذن: "أهلنون وسهلنون حبيبتي."

تهمس في أذنه اليمنى بضحكة مائيّة صاخبة: "أحبك"، فيردّ عليها محاكياً نبرة صوتها: "أحبّكِ حدّ الموت"، تقول له وهي تراقب جزر البحر في عينيـه: "إذن هـذا هو البحر؟ بحرك".

- "ألم تري البحر من قبل؟"

- "هذه هي المرّة الأولى التّي أرى بحرك فيها".

- "لكنّك تأتين في كلّ جزر". يقول بحيرة وقلق.

- "قلتُ لك إنّ هذه هي المرّة الأولى التّي آتـي فيهـا إلى هـذا المكـان". ردّت بنزق وعصبيّة لا تحاول أن تخفيهما.

- "البحر مليء بالحكايات، ستحبيّن حكاياته".

- "البحر مليء بالأكاذيب، ستحبّ أكاذيبه".

- "البحر يزخر بحكايات من انتحـروا لأجلـه". قـال وهـو يحـدّق في سـارية السّفينة الغارقة قُبالة السّاحل.

- "البحر يزخر بحكايات من قتلهم". قالت، وهـي تحـدّق في صـفحة وجهـه الغارق في نور الشّمس المنعكسة عن وجه البحر.

استدار بطفوليّة قرّر منذ زمن أن يحاربها، وقال: "إنّي أحبّ البحـر إلى حـدّ أنّي ضحّيت لأجله بالعمامة السّوداء".

- "ما هي العمامة السّوداء؟" سألتْ، وهي تنزلق إلى جانبه، وتسـند ظهرهـا إلى الصّخرة التّي يسند ظهره إليها.

- "تعني إمامة الطّائفة من بعد والدي أطال الله في عمره".

- "هل من يلبسون العمامات السّوداء يُحرمون من البحر؟!"

- "يُحرمون من أشياء كثيرة". قال وأصابع يديه تتحرّش دون وجل هو من طبعه بخصلات شعرها العسليّ الطّويل.

- "أنا أحبّ البحر؛ لأنك تحبّه، لأنّك تشبيهنه، لقد كتبتُ عنه ألف قصيدة، وحفظت أساطيره كلّها".

- "ماذا كتبتِ يا ألذ حوّاء على وجه الكرة الأرضيّ ؟"

- "كتبتُ أكاذيب البحر كلّها".

قال بتعجّب الأطفال الذين تشبه قسماته قسماتهم، ويداني طهره طهرهم: "كلّها؟"

- "كلّها". أجابتْ، وهي ترتعد برداً من رطوبة الأرض اللّزجة والصّخرة البارز الأوّل من الأرض عند كلّ جزر، إذ تتعرّى دون خجل بعد أن ينحسر البحر بترنّج سكّير عجوز، التصقت بناسك البحر، وتكوّرت بجانبه تبغي دفء جسده، كان عارياً إلاّ من إزار الصّيادين المحليين.

- "ماذا عني؟" سأل بابتسامة هادئة.

- "أنت أكذوبة البحر الكبرى".

- "أيّ بحر؟".

- "بحر قلبي".

- "إذن أنا أكذوبة؟".

- "دعنا من الأكاذيب. عندي لك مفاجأة".

- "ما هي هذه المفاجأة؟"

- "خمّن..."

- "انتهت توقّعاتي، فأنتِ بحرٌ أعجز عن السّباحة فيه".

- "انظر ماذا وجدت على الشّاطىء".

تفتح كفيّ يديها، فيلقي نظرة فضوليّة عذبة على ذلك العشب البحريّ الأخضر الذي تحمله، يفركه بقوّة يمنه ويسره، يتوهّج العشب الأخضر بوهج ذهبيّ، ثم يفتر الوهج، ويختفي تماماً، تفركه من جديد محاولة تهيج لمعانه، لكن دون فائدة، يقول لها بنبرة من يكلّم طفلاً صغيراً: "يا حبّي هذه الأعشاب البحريّة تتوهّج مرة واحدة فقط".

- "ماذا بعد هذه المرّة الواحدة؟".

- "لا تعود للتّوهّج".

- "لماذا؟"

- "لأنّ هذا قدرها".

- "أقدرها أن لا تتوهّج إلا مرّة واحدة ؟".

- "هكذا هي الأشياء الجميلة تأتي مرة واحدة فقط".

- "إذن عشقي لك مثل هذا العشب البحريّ الأخضر".

يقهقه بضحكات تشبه تكسّر أمواج على صخور صلده، يتنهّد قائلاً: "يا لك من امرأة طفلة! لو كنتُ عرفتكِ منذ زمن لما نال الشّيب منّي".

- "ماذا عن الآن؟"

- "الآن ؟! أنا أدمنتك يا سيّدتي، إدمان الشّمس على الشّروق، إدمان النّحل على رحيق الأزهار، إدمان البحر على الشّواطىء، إدمان البلابل على التّغريد".

- "أيعني هذا الكلام أنّك تحبّني؟"

- "أنا لم أقل إنّي أحبّكِ".

- "لكنكَ قلتَ ذلك قبل قليل".

- "متى؟"

- "في لحظة الجزر".

- "هذه أكذوبة الجزر، إيّاك أن تصدقي أكاذيب الجزر".

- "لكنّني أعشقكَ".

- "الويل لقلب عشق أكذوبة الجزر".

- "لكنّني أعشقكَ".

- "هيا لنغادر المكان، فبعد قليل سيمتدّ البحر من جديد، ليغمر المكان بمائه".

- "أتخشى البحر وأنتَ صيّاد؟"

- "أنا لست صيّاداً، بل صانع كلمات، أفنيت العمر في دراسة الكلمات، ولا شيء غير الكلمات".

- "لكنّك قلت لي إنّك صانع كلمات!"

- "متى كان ذلك؟"

- "في ساعة أُكذوبة الجزر".

- "كلّ ما يُقال في زمن الجزر هو كذب".

- "لكنّني أعشقكَ".

- "أنا أعشقكِ، أقسم على ذلك".

(٢)
أُكذوبة اللّؤلؤ

عرفها منذ سنوات، قابلها في لحظة من لحظات نوم القدر، أعجب بها بشدّة، ورغب بقوّة في أن يقول لها: "اشتهيك بشدّة، اشتهي أن أسمع صهيلك يضجّ في أذني، أشتهي أن ابتلع تنهداتك بقبلي، أشتهي أن..." سحرته زرقة عينيها اللّتين تشبهان زرقة عيون عرائس البحر اللّواتي أعيينه بحثاً عنهن في بحر قريته، وإن كنّ موجوات بكثرة في ليالي ألف ليلة وليلة، التّي قرأها سراً عشرات المرّات.

عجب بشدّة أنّى لهذه الحوريّة أن تعيش في الصّحراء بعيداً عن الماء؟ تماماً كما عجبت هي أنّى لبلاده التّي تحرق شمسها الأشواق والأكباد أن تلد شيبه الفضّيّ السّاحر، وأن تهبه بكلّ السّخاء لشبابه الفاتن، ولرجولته الطّاغية والمتفلّتة بصعوبة من وقاره وصمته.

كادت تحدّثه، لكنّها خشيتْ من وقاره، كاد يحدّثها لكن كِبْره منعه، فهو سليل العمائم السّوداء، والوجوه البيضاء المتّشحة بالحمرة المتمرّدة على السّمرة، وحامل سِفْر الحرمان الأعظم، لا يضحك، لا يعشق، لا يبكي، لا يحبّ، لا يشتهي، لا يصرخ، لا يحتجّ على الحرمان؛ لأنّ ذلك كلّه محرمٌ عليه؛ لأنّه يحمل لقب سيّد، والأسياد في عرفه كالجياد العربيّة تموت عطشى في المضمار، ويمنعها كِبْرها من أن تشرب، والماء قيد أنملة من الاستسلام لقدرها المشؤوم.

لكنّه يشتهيها، يريد أن يذيقها ثمار رجولته دون نساء الدّنيا، والسّفر قريب لا يحتمل التأجيل، يريد أن يسمعها شعر العشق الذي اضنى طفولته وهو يحفظه، وفي النّفس حاجات لم تقضَ. في لحظة شجاعة قلّ أن يعرف قلبه الذي

يزجّ برجولته وشهواته خلف بابٍ من الصّمت مثلها اقترب منها وحشرجة ما تعشعش في حلقومه، تهاجم صمته، وتتمرّد عليه، انقضّ على لامبالاتها قائلاً دون أيّ مقدّمات: "يا حوريّة بحريّ، أترحلين معي؟ أنا أحبّك".

- "لكنّني أخاف البحر". ردّت كأنّها قد هيّأت الإجابة منذ ألف سنة.

ابتسم، وقال: "إذن تزوجيني الآن، تزوجيني زواج بحر".

- "كيف يكون زواج البحر؟"

- "يكون عنيفاً غريباً قاتلاً وسرعان ما يرحل يا خاتون".

- "ليس اسمي خاتون، هل نسيت اسمي ؟! أنا اسمي..."

- "بل أنت خاتون، خاتوني".

- "كيف ذلك؟"

- "كان والد جدّي لأبي صاحب أشهر عمامة سوداء في سلالة من العمائم السّوداء التّي يرجع نسبها إلى الرّسول محمد عليه الصّلاة والسّلام، أمّا والد جدتي لأبي فكان أشهر تاجر لؤلؤ في جزيرتي بل، وفي الخليج كلّه، وسيراً على سياسة تزاوج المال بالمال، تزّوج جدّي وجدّتي، وعاشا أجمل حياة، كان أبي البذرة الوحيدة لهذا الحبّ الذي دام عشرين سنة، وماتت جدتي، كان اسمها خاتون، منذ موتها ما انفكّ جدي يرى نساء الأرض جدتي، ويلحق اسم خاتون باسم كلّ واحدة منهن، كأنّه يأبى أن يلفظ اسم أيّ امرأة في الدّنيا دون أن يقترن باسم المرأة الوحيدة التّي أحبّ".

- "وبذا كانت خاتون أسطورة العشق الحقيقيّة التّي عرفتَ؟"

- "نعم، يـا خـاتون، وأنـتِ أسـطورة عشـقي التّـي أريـد أن أعـيش. هيّـا تزوّجيني، وكوني أسطورتي".

- "لكن ماذا سيبقى لي بعد سفرك؟".

- "سيبقى لك البحر وحبّي".

- "لكنّني أعيش في الصّحراء".

- "لهذا سأهبك البحر".

- "لا أريد البحر، أريدك أنت".

- "سأهبك ألف لؤلؤة".

- "لا أريد اللّؤلؤ، بل أريدك أنتَ".

- "هل تتزوّجيني الآن؟".

- "زواج بحر؟".

- "نعم، حيث لا شهود ولا عقد، ليس هناك إلاّ البحر".

- "لكن".

- "تزوّجيني، تزوجيني".

تزوّجا، لساعات، لأيّام فقط كانا زوجين، تسكعا في أرجاء مدينة القحـط، مارسا العشق في أرجائها كلّها، اختزلا في ساعات حبّهما مراحل وقصص الحبّ كلّها؛ إذ إنّ الفراق يقف منتظراً على الباب، وتذاكر السّفر تقبع في جيب قميصه البحريّ، وجفّ البحر في فراش عشـقهما؛ إذ كـان عشـقاً حـارّاً كافيـاً ليـذيب الجليد، وليحرق الماء.

سافر سليل الأساطير والعمامات السّوداء، ولم يعدْ بعد أن كتب على عجل على بوابة صحرائها: "كانت مدينة القحط طيلة سنوات ثلاث مدينة لا تُطاق، كنتُ أتمنّى الخلاص منها، وتركها في أسرع وقت، لكن عينيكِ صيرّتا القفر واحة يهوي القلب إليها، ليستريح فيها من عناء الدّنيا، فإليكِ يا من صيّرت الموت حياة أهدي حُبي".

لما طال الانتظار، ولم يعد في موسم المطر كما وعد، كتبتْ تحت كلماته بتريّث قاتل: "أنتَ لن تعود، أنتَ أُكذوبة اللّؤلؤ، وشقيّ هو من يصدّق الأكاذيب... أحبّك".

(٣)
أُكذوبة النّوارس

"حرام أن تعشق، حرام أن تشتهي"، هذا هو الدّرس الأوّل في أرض الحّر والرّطوبة والماء، وهذا هو الدّرس الأوّل الذي لقّنه لصبيّة الطّائفة عندما كان معلّماً طفلاً يلقّن الأجرمية للصبيّة، ويشرحها لهم بما تيسر له من علم وحفظ، وهذا ما رآه مسطوراً في كتب أبيه التّي كان القيّم الأمين عليها.

لكنّه على الرّغم من كلّ ذلك يعشق، ورغماً عنه يشتهي امرأة أرض القحط التّي بعث لها يوماً خطاباً سرّيّاً مع نوارس البحر التّي تعشق صمته وتواطئه مع أشواقها وحنينها، قال فيه: "يا عمري، لقد حدّثت الأصدقاء طويلاً عن سحر عينيك ورقتك وأنوثتك، كانوا يستمعون وهم بين مكذب للخبر، ومستغرب من جرأتي، وآخر يتمنّى لو يتاح له ما اتيح لي... أحبّك".

حملت الأمواج له شهقة خجلها، وهي تقول: "هل حدّثتهم بكلّ شيء؟". فبعث لها برسالة حملتها الأمواج بارتياح قال فيها:

"أنا يا عمري، لا أبوح لهم بكلّ شيء غيرة عليك، إنّما أحدّثهم بالكليّات، وعليهم أن يستنتجوا الجزئيّات.

ردّت عليه بكلمة واحدة حفظتها نوارس البحر، وهمست بها إلى العاشق، وبقيت تكرّر الكلمة حتى ضجّ البحر بها، وتبرّم منها بشدّة، فهو لا يحبّ أن يسمع كلمة "أحبّكَ" التّي تعلن التّمرد على صمته، وعلى جبروته.

حكم البحر على النّوارس بالحزن طوال عمرها، وفرض عليها الإقامة الجبريّة على الشواطىء، وقطع السّبل بين العاشقين؛ لأنّه على الرّغم من قوّته جبان يخشى الحروب، ويهوى الصّمت، وإن كان أحياناً يحاول أن يكفّر عن ذنبه بغسل شاهد قبر امرأة قيل إنّ اسمها خاتون، وأنّها لم تسطع أن تصمد على فراق رجل يحترف الفراق والوداع، فماتت بعد أن كتبتْ على شاهد قبرها:

"هجرتكِ حتى قيل لا يعرف الهوى

وزرتكِ حتى قيل ليس له صبرُ

فيا حبّها زدني جوىً كلّ ليلة

ويا سلوة الأيّام موعدك الحشرُ"

لكن البحر عاد لسخطه من جديد؛ لأنّه سمع من مصدر غير موثوق فيه أنّ القبر ليس إلاّ أكذوبة من أكاذيب النّوارس التّي اخترعتها لتديم نطق كلمة "أحبك"التّي فُتنت بموسيقى حروفها، وأدمنت تكرارها حتى وهي تنهش جسد امرأة قيل إنّ اسمها خاتون، كانت عارية تماماً إلاّ من خاتم زواج بحريّ مجهول

صاحبه كان في أصبع يدها، بعد أن ألقت بنفسها في البحر في أرض القحط حيث لا بحر.

(٤)
أُكذوبة الأمواج

اعتاد منذ صغره على أن يثق بالبحر وبأمواجه مع أنّه يعلم كم من الصّيادين والعاشقين والمستضعفين قد ابتلع البحر دون رحمة، لكنّه يقدّر سلوك البحر لمسوّغ لا يستطيع أن يصوغه بالكلمات، لكنّه يدركه بالإحساس، ولو وضعت خاتون يديها على قلبه، إذن لأدركتْ معناه تماماً، فهي دون بشر الدّنيا من تفكّ طلاسم صمته وحيرته، وهي من تفجّر فصاحة فحولته، وهي من يستطيع أن يبكي بين يديها دون خجل.

كما أنّ أمواج البحر قد كانت خير صديق مخلص له، فقد حفظت أسراره سنوات طويلة تعادل سنيّ عمره، دون أن تبوح بسرّ واحد منها، لذا فقد باح لها بسرّ حبّه لخاتون، وأودعها خطاباته كلّها التّي كان يبعث بها إليها، فحفظتها في بلورة من بلورات زبدها، وتركتها تتهادى على تعرّجاتها.

البارحة كتبَ لخاتون خطاباً أصفر، قال فيه: "الحرّ والرّطوبة هنا لا يحتملان، لكنّهما يهونان إذا ما قستهما بفراقك الذي ينغّص حياتي عليّ"، فحملتْ له أمواج البحر خطاباً منها كُتب فيه "أحبّك".

من جديد أرسل خطاباً أحمر كُتب فيه "أنا مشتاق إليك، أشتهي أن أضمّك ضمّة تختفي فيها أضلاعنا في بعضها، أريد أن ألقاكِ بقبلة تذوب شفاهنا فيها

حبّاً وغراماً، وأريد. . ". فأرسلت له خاتماً مصنوعاً من زبد البحر، وقالت له: "البس هذا الخاتم، ولا تخلعه أبداً، سأعرف أنّك تحبّني ما دمت تلبسه".

على عجل لبس خاتم الزّبد بمساعدة أمواج البحر، كان على مقاسه تماماً، فأرسل لها خطاباً أخضرَ يضجّ بعشقه قال فيه: "أنا لن أخلعه أبداً ما بقيت على قيد الحياة؛ لأنّ هناك أناس ينحتون في أعماقنا مشاعر رائعة لا تنسى" فحملت أمواج البحر له خطاباً منها كُتب فيه: "هناك رجل سيندسّ في القريب في فراشي اسمه زوج، لا أريد أن أكون قاسية عليك، فأجشّمك فوق طاقتك، لكن ما تراك فاعل؟ أحبك".

فبعث لها خطاباً أحمر حملته الأمواج على مضض واستحياء كُتب فيه: "ومتى كنتِ قاسية ؟! أنا أراكِ أرقّ من النّسيم، وأجمل من كلّ جميل".

فبعثت له صور زفافها، وصفحة من خبر نعيها في الصّحف، وعنوان المقبرة التّي دُفنت فيها، وكلمة "أحبك". حزن بشدّة، وبكاها كما لم يبكِ حبّاً لا سيما أنّ قلبه لم يعرف العشق من قبل، ثم رجا أمواج البحر أن تحفر على شاهد قبرها عبارة: "لم أذقْ السّعادة إلاّ بين يديك، أحبّك".

حملت الأمواج رجاءه وهي تشعر بغيظ غريب، وسرعان ما لفظته مع ذلك القيء المفاجئ الذي داهمها، وابتلعت في سورة غضبها عشرات من سفن الصّيادين؛ إذ إنّها غضبت لأنّها أكذوبة، وما خُلقت أبداً لتكون أكذوبة، بل لتكون قدراً على شكل ماء، وكذلك كانت...

(٥)

أُكذوبة المدّ والمرجان

كم هي حبيبته امرأة جاهلة ! حتى أنّها تجهل البحر وعالمه، ولا تفرّق بين اللّؤلؤ الحقيقيّ أو المزيّف، وعندما أخبرها آسفاً بعجزه عن شراء عقد اللّؤلؤ الذي تطلبه؛ لأنّه باهظ الثّمن، تبسّمتْ وفي عينيها هدوء غريب عن طبعها، وقالت له بدفء نبرة الأمهات: "إذن احضر لي عقداً من اللّؤلؤ المزيّف، وسأبدي به سعادة لا تقلّ عن سعادتي باللّؤلؤ الحقيقيّ".

- "لكنّه لؤلؤ مزيف، فكيف آتيك به؟ عليّ أن آتيك باللّؤلؤ الحقيقيّ".

- "هذا أفضل من أن تأتي دون تحقيق أمنيتي، ثم ما الفرق بين اللّؤلؤ المزّيف والحقيقيّ؟ بالمناسبة لماذا لا تحضر لي عقداً من المرجان؟ أهو رخيص الثّمن"؟

- "هو رخيص للغاية".

- "إذن أريد عقداً من المرجان".

من جديد استغرقت في ضحكها الذي يعشقه، واختالت فخراً بجيدها الذي لم يطوّقه عقد اللّؤلؤ، لكن طوّقته فقط قبلاته السّخينة.

لا يستطيع أن يهرب من ضحكاتها حتى بعد أن هجرها؛ لأنّه أحبّها كما لم يحبّ يوماً بشراً، لكن زوجة ضعيفة، وأبناء أربعة، وإرثاً من العقائد والمحرّمات والظّروف والموانع فرّقت بينهما، للدّقة سمح لها بأن تفرّق بينهما، فهجرها، وإن لم تهجرها نفسه، رجته الإياب، فلم يستجيب لرجائها، سبّته فلم يرد سبتها عليها، اتّهمته بأفظع التّهم فما نالت من صبره، ومن عزم قراره، عندما يئست غابت كأنّها لم تكن، لكنّها لم تغب يوماً عن قلبه وعن وجدانه.

مرت السّنون، وتذكّرته، وقد خال أنّها نسيته، إلى أن جاء طرد منها، كان الطّرد صندوقاً أحمرَ كبيراً، مكتوب عليه بخط يدها الذي ما زال عدم الوضوح والارتجاج يميّزانه، وفي الصّندوق كان هناك ألف رسالة كتبتها عبر سنين من الحرمان والقطيعة، قالت إنّها كتبتها كي لا تصاب بالجنون.

إلى صخرته المعتادة أسند ظهره المعنّى بثقل عشق ألف رسالة، كان الجزر قد انسحب بمقدار عظيم من البحر، كانت الأرض رطبة باردة شأنها في ذلك شأن شتاء البحر القارص، لكنّه ما بالى بذلك، دسّ سماعتي جهاز التّسجيل في أذنيه، وأرهف السّمع لموسيقى المونامور "monmour" التّي يحبّها بشدّة.

كان ديوان شعرها الأوّل هو أبرز ما طالعه في الصّندوق الأحمر، قلّبه على غير عجل، ثم قرأ قصائده، إذ رأى نفسه يتربّع في الكلمات كلّها، وإن كان يبرز باختيال وبألوان برّاقة في خاتمة ديوانها إذ كتبت بنوح نسائيّ مكابر: "قال إنّه سيكتب لي كلمات مائيّة، تسبح فيها أسماك أسطوريّة ملوّنة، وتغرق فيها مدن من الأحلام والأوهام، وترسو فيها سفينة العمر، قال لي إنّه سيكتب لي كلمات بخيوط الشّمس، وبجموح السّرّاب، قال لي إنّه سيهديني كلمة الحبّ العظمى، وصدّقته، ثم غاب، وما غاب انتظاري له، ولا غاب انتظاري لكلماته المشتهاة، وما أكثرها من كلمات كانت! ليته عاد، وغابتْ الدّنيا".

كلمات خاتمتها ذكّرته بوعد كان قد قطعه للشّاعرة في زمن الحبّ الغابر، كان قد وعدها بأن يكتب خاتمة لديوانها، لكنّه أخلف وعده الصّغير وفق عادته معها، شعر بخجل؛ لأنّه أخلف وعده للمرأة التّي عشقته.

صمت زمناً وموسيقى مسجلّه تحفر أحزاناً في روحه، تذكّر وإن لم يكن ناسياً كم كانت تلك الشّاعرة العاشقة تعشق هذه الموسيقى التّي أحلّ لنفسه أن

يسمعها في حين حرّم عليها أيّ أغانٍ أو موسيقى أخرى، ولاح في أذنيه صوتها وهي تضحك من رجل لم يسمع في حياته قط صوت أم كلثوم أو فيروز أو عبد الحليم حافظ، وشرع يقرأ رسائلها الألف، الواحدة تلو الأخرى، كانت سِفْراً من الحبّ أو الحقد أو الغضب أو مزيجاً من ذلك كلّه.

استغرق ساعات طويلة في قراءة الرّسائل، عندما انتهى كانت نفسه مشروخة حدّ الاتّساع لابتلاع ماء البحر الذي عاد من الجزر مداً، وغمر جسده حتى الرّكبتين، مزّق الرّسائل، فغدت حمائم بيضاء تتهادى على صفحة البحر السّاكن على غير عادة، طالع خاتم الزّبد الذي يلبسه منذ أن عشقها، ولم يخلعه أبداً، ثم أخذ نفساً عميقاً، وانسرب سمكة في الأعماق ليجلب لحبيبته الشّاعرة لؤلؤاً ومرجاناً، فحبيبته جاهلة بالبحر، لكنّها حَبْر العشق الأكبر.

(٦)
أُكذوبة الأصداف

كلّ صدفة تحمل أكذوبة، ومن يجيد تخير الأصداف، ويحسن إرهاف السّمع لها، يستطيع أن يسلّي نفسه بأكاذيب البحر. لكن الويل لمن يصدّق أكاذيب الأصداف.(١)

أكذوبة صدفة (١١): الجزر يخاف من البحر.

أكذوبة صدفة (٥): لا أحد يتزوج بعُرف البحر.

أكذوبة صدفة (٦٩): النّوارس تكره كلمة "أحبّك".

١- هذا ماورد ذكره في ألف رسالة عشق أرسلتها امرأة يائسة.

أكذوبة صدفة (٢١): خاتون لم تبعث ألف رسالة عشق.

أكذوبة صدفة (٥): اللّؤلؤ يعشق الأحزان.

أكذوبة صدفة (٧٧): الأصداف ليس لها أكاذيب، البشر فقط من لهم أكاذيب.

الباب المفتوح

كان صوته يجلجل ملء قصره المنيف الخرافيّ ذي الأبواب الماسّية، في قصره ألف جارية، وألف غلام، وفي سجنه المنيع ألف سجين، لكنّهم ينعمون بالسّعادة؛ لأنّه أعدّ لهم أسرّةً من ماس، وطرائف وحشايا من ريش النّعام أسوة بما في قصره، يقع قصره في منتصف السّلطنة، بل السّلطنة تقع في منتصف قصره الذي يقع في أرض ما، في زمان ما ، قصته قصّة قديمة تمزقّ عنوانها، وأرقام صفحاتها، ولم يبقَ منها إلاّ هو وشعبه السّعيد، هكذا تقول القصّة، والويل للرّعية إنّ لم تقل ما تقوله القصّة.

منذ سنوات لم يسر على قدميه فقد اعتاد على أنّ يحمله العبيد على محفّته الذّهبيّة التّي أُعدت لتنقّلاته، حتى عندما خرج في حملة إحسان لجمع التّبرّعات لفقراء السّلطنة وأيتامها، وما أكثرهم!

اعتلى المحفّة التّي أمرّ أنّ يُكتب عليها بالذّهب: "هذا من فضل ربي"، وفي عينيه كانت تتلألأ دموع الرّحمة المصطنعة، وهو يرقب المواطنين الحفاة شبه العراة الذين يحيطون بمحفّته المقدّسة.

كان يقرأ قصّة قيل إنّها لم تحدث، وقيل إنّها حدثتْ من ألف عام، مصدر مسؤول صرّح إنّها ستحدث بعد ألف عام، بعضهم همس، وقال إنّ هذا القصّة حدثتّ لأنّ السّلطان أراد ذلك، وطاعة الله من طاعة السّلطان، الذي يصلّي الفرائض في المسجد، كثيراً ما ينسى أنّ يتوضأ، لكن العبرة في القلب، وقلبه عامر بالحبّ والرّحمة، وقيل إنّ نسبه الطّيّب يمتدّ إلى زوجة يوسف عليه السّلام،

بالتّحدّيد إلى نسب مولاها الخصيّ الذي لا تذكر التّواريخ أيّ شيء عنه، الرّاوي همس في أُذن البعض من النّاس، وقال مبتسماً بخبث: "زليخة لم يكن لها أيّ عبد"، في اليوم الثّاني وجدوا لسانه يسعى مذعوراً بعد أن قُطع من غير سبب مُعلن.

سلطان الزّمان كان يرفس سعيداً بقدميه، وهو يقرأ عن سلطان في الزّمن الغابر قال له أحد رعاياه المسمّى سليمان الفارسيّ: "لا سمعاً ولا طاعة، لانسمع"؛ لأنّه خصّ نفسه بذراع إضافيّ من القماش دون رعيته، فلما ظهر عدله، وأثبت أنّه أخذ ذلك الذّراع من ولده عبدالله، قال له سليمان الفارسيّ: "الآن سمعاً وطاعة، قلْ، ونحن نسمع"، وعندما لام النّاس الرّجل على فعلته، قال لهم السّلطان الخرافيّ في عدله: "لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها".

أعجبه ذلك الرّجل العادل، وذكّره بشيء لا يعرفه، وبنكهة لم يذقها، انتفخت أوداجه سروراً، وكاد يهلّل في مكانه، بل أنّ ينزل عن تحت ملكه، لكنّ بطنه المتكوّم أمامه أعاق حركته، بل إنّه منعه من أن يرى بروز أعضائه التّناسليّة التّي عالجها طويلا، ودفع ربع ريع أراضي الشّعب لمشافي الواق واق حتى امتدت، وتضمخّت كما يجب، وذلك فقط ليقوم بمهامه الجنسيّة بشكل يرفع رأسه مع محظّيّاته الألف، وهو حريص على قضيّة الرّأس المرفوع؛ ولذلك يرفع رؤوس معارضيه على أعواد المشانق.

حدّق في وزيره، وقال له: "ما اسم ذلك الرّجل العادل؟".

قال وزير المدارك بثقة، وهو يتمطّى: "لا أعرف يا مولاي، لكن أعرف أنّه من أمر بإحراق أهل الأخدود".

قال السّلطان باهتمام: "ومن هم أهل الأخدود؟".

أجاب الوزير بلكنة الحكيم المثقل بعلمه: "أهل الأخدود من الشّعوب الهنديّة التّي ماتت في فيضان نهر بومباي في إيطاليا في عام مليون قبل الميلاد".

من جديد قرأ السّلطان القصّة على أسماع وزرائه، كان يوزّع نظراته بينهم وبين ما يقرأ، شعروا أنّ عليهم أنّ يبدوا سعادةً بما يقرأ السّلطان، وأن يثنوا على ذوقه الرّفيع في اختيار القصص.

فجأة قال لهم السّلطان بحماس لا يقلّ عن حماسه الحيوانيّ، وهو يتلظّى، ويذبّ لعابه المندلق أمام موائد طعامه التّي لا تعرف نهاية: "أريد باباً مفتوحاً".

قال الوزراء بصوت واحد: "باباً مفتوحاً!"

قال وزير الدّين الذي لطالما سمع السّلطان يضرط في الصّلاة، ولم يعلّق على ذلك بغير الدّعاء بتقبّل صلاته الطّاهرة: "ماذا تعني بالباب المفتوح يا مولاي، أعزك الله، وأدامك ذخراً لنا؟"

قال السّلطان: "هذه القصّة ذكّرتني بسلطان قرأت عنه في سِفْر العالم السّعيد، في مكان ما في الدّنيا، يفتح السّلطان باب قصره للشّعب، ولا يعيّن حاجباً على بابه، يكتب في قرطاس إلكترونيّ وبحروف كهربائيّة جدول أعماله في ذلك اليوم، ومن حقّ أيّ فرد من الرّعية مهما قلّ شأنه وخمل ذكره أنّ يقرأ ذلك الجدول، وأن يحاسبه إنّ رأى أنّ في برنامجه ما لا يخدم المصلحة العامّة، وذلك من خلال رسالة خطيّة يوجّهها إلى السّلطان الذي عليه أنّ يردّ على رسالة المواطن في موعد لا يتجاوز مسيرة يوم.

ذلك السّلطان أوعز إلى كاتب ديوانه أنّ يطلق على هذه السّياسة "سياسة الباب المفتوح"؛ لأنّ أبواب قصره لا تُغلق في وجه رعيته، وأنا أريد أنّ أطبّق هذه السّياسة مع الرّعية.

عجب الوزراء ممّا سمعوا، وشعروا بالقلق من هذه السّياسة، ولعنوا في دواخلهم ذلك الباب الذي سيتفح عليهم أبواب جهنم، ويغلق دونهم أبواب الجباية والحرب والاستعباد.

في اليوم الثّاني ركب وزير الأخبار حماراً أخضر، وحمل الطّبول لصبيّانه، وأعلن على الملأ أنّ السّلطان -أدام الله عدله- قد استحدث مشروعاً وطنيّاً أسماه "الباب المفتوح".

في اليوم الأوّل لم يخرج أحد من بيته خوفاً من عواقب هذا المشروع، أمّا في اليوم الثّاني فقد خرج فقط الأوباش وقاطعو الطّرق طمعاً في سرقة الباب؛ لأنّه مفتوح، بعد ذلك مرّ الكلّ من أمام الباب، ولم يجرأوا حتى على الاقتراب منه فضلاً عن قراءة جدول أعمال السّلطان؛ فهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك، كان يكفيهم أنّ يفتحوا الصّفحة السّابقة من قصّتنا هذه حتى يعرفوا برنامج السّلطان.

انتظر السّلطان طويلاً وطويلاً أنّ تأتيه رسالة من مواطن ما، وتخيّل كم سيستمتع بعبثه مع مرسلها، وطال انتظاره، ولم تصله أيّ رسالة، عندها غضب بشدّة، وأمر أنّ تُرسل له الرّسائل، وإلاّ سيغضب، ويخسف الأرض برعيّته، ويجعل ماءها غواراً، ويسقط سماءها قطعاً، سمعت الرّعية عن غضب السّلطان واشتد رعبها.

في تلك اللّيلة وصلت إلى السّلطان رسالة صغيرة، كُتبت بيدٍ فضوليّة، فضّ السّلطان الرّسالة على عجل وبفضول، وأمرّ كهرمانه أنّ يقرأها، قرأ الكهرمان الرّسالة بعينيه، ثم ابتسم، ثم شعر بقلق حيال ما سيقرأ، وللحظات شعر بأنّه سيكون أوّل ضحايا الباب المفتوح، قال السّلطان له: "ما بالك ؟ اقرأ..."

بلع الكهرمان ريقه، وبدأ يقرأ ما ورد في الرّسالة التّي كُتب فيها: "مـولاي، أنا ابن المزارع دهبور، عمري تسع سنوات، أريد أنّ أعرف لمـاذا منعـتَ الرّعيـة من شرب الحليب مع أنّه مفيد للصحّة، أحقّاً أنت تملك بحيرة من الحليب تسبح فيها محظيّاتك لينعمن ببشرة جميلة؟!

ضحك السّلطان طويلاً ممّا سمع، ثم صمت، ثم أزبد، وأرعـد، وأعلـن أنّ سياسة الباب المفتوح قد عُلّقتْ إلى الأبد؛ لأنّ الباب سيغلق، وعلى بابـه أُعـدم ألف طفل ثبت أنّهم يشربون الحليـب في الأحـلام، والمحتجّـون علـى اسـتحياء كبلّهم جنود السّلطان بأغلال وسلاسل من ذهب، ثم أرسلهم الى قصّـة أخـرى كان حريصـاً علـى أنّ يكـون فيهـا وحـوش كاسـرة وأرض دون لـبن، وقلـب الصّفحة...

سكت الرّاوي عن الكلام غير المباح، لكن الجدّات بقين يحدّثن الصّغار عن الأطفال الـذين أُعـدموا؛ لأنّهـم حلمـوا بالحليـب الـذي تسـتحم بـه جـواري السّلطان.

الجدار الزّجاجيّ

جدار زجاجيّ رقيق كما رقاقة كنافة هو أوّل من أذاقه الحرمان، وعرّفه لوعة التّنائي، ما زال يذكر للآن زجاج نافذة سيّارة الأجرّة التّي أقلّت أمّه بعيداً، ومنذ ذلك اليوم لم يرها أبداً، كانت طيّبة كالسّماء، طاهرة مثل دمعة، بنيتها صغيرة تصلح للدّلال والمداعبة، ملابسها قديمة، ومنديلٌ أصفر قديم يحيط برأسها، ويطوّق رقبتها، اعتاد أن يراها كسيرة تستمرئ الذّلّ بدمعة صاغرة، لم يسمعها يوماً تسبُّ أحداً، لم يسمعها يوماً تحلم بغدٍ جديد، لا يذكر من كلامها إلاّ جملة "الله يرضى عليك يا مّه يا شاهر"، شعرها الأسود النّاعم هو كلّ ما كان يرى من أنوثتها الكسيرة، مرّة واحدة رآها عارية تماماً، تتلوّى بانكسار تحت ضربات خرطوم الماء البلاستيكيّ الذي يملكه أبيه الذي اعتاد على أن يعرّيها من ملابسها، وأن يغلق باب البيت، ويضربها حتّى يدميها لأيّ هفوة تقوم بها، هفوتها في ذاك النّهار أنّها ادّخرت دون أن يعلم مقداراً قليلاً من المال من العيديّة الزّهيدة التّي يتذكّرها بها أخوها الوحيد في كلّ عام، يدسّها في يدها كالمعاقب، ويغيب لعام آخر، دون أن يفكّر في أن يقول لها ولو لمرّة واحدة: كيف هي أحوالكِ يا أختي الصّغيرة التّي سرقتها من طفولتها، ودفعتَ بها ولعبتها في حضن رجل في عمر أبيها بحجّة ورقة بالية اسمها عقد زواج؟

لأكثر من مرّة كسر خرطوم الماء الخاصّ بأبيه إصبعاً من أصابع أمّه التّي كانت بنحول وضعف وهشاشة حبّات خيار صغيرة، وأخيراً قرّر أن يلفظ كومة اللّحم المستكينة التّي تسمّى أمّه، جاء خاله بناءً على رغبة أبيه، مستقلاً سيّارة أجرّة قديمة، ودسّها فيها وهي تحمل كلّ ما تملك في الدّنيا، تحمل ملابسها القليلة

التّي جمعتها في منديل أخضر صغير، وصرّته بإحكام، لم يكن منديلها بل منـديل أخته عيشة التّي تكبره بسنوات، لم يأبه أبوه لرحيلها لدرجة أنّـه نسـي أن يمنعـه وأخته من الحزن، يومها بكى بشدّة، وأراد أن يقول لها إنّـي أحبّـكِ، لأوّل مـرّة علا صوته في حضور أبيه، تمنّى لو أنّه يمسك بأردان ثوبها ليرجوها البقـاء، كـان في عينيها حزن وانكسار من أُجبر على الرّحيل، قالت له بذلّ وبنبرة من يمـوت: "يمّه، يا شاهر، دير بالك على أختك"، وغاب صوتها، ابتلعته السيّارة التّـي أقفـل خاله آخر أبوابها المشرّعة، كان زجاج نافذة السيّارة هو الجدار الزّجـاجيّ الـذي فصلها عن دنياه، وعزل صوتها عن مسمعه، قالـت كلمـات لم يسـمعها بسـبب الجدار الزّجاجيّ الذي لا يقلّ قسوة عن قسوة أبيه وخاله، وقال كلمـات كـثيرة سمعها كلُّ الجيران إلاّ هي، وغادرت،

ولم تعد، ولم يسمع منها أو عنها أبداً، فقد ابتلعها الجدار الزّجـاجيّ للأبـد، وبقي هو وأخته عيشه التّي فقدت منديلها الأخضر الوحيد مخلّفاتٍ بائسـة غـير مرغوب فيها من عهد امرأة طلّقها أبوه كانت تُسمّى زوجته، ومُنِع وأخته في مـا بعد من أن يُسمّوها أمّي...

أُجبر على أن ينادي الخالة عايشة باسم أمّي، حتّى وهي تضربه بخرطوم الماء البلاستيكيّ الأزرق الذي برى طفولته، وأكل راقات من جلده، كـان عليـه أن يرجوها التّوقّف، وهو يقول: "يا مّه، بكفّـي، توبـة والله، مـا عـدت أعيـدها، يامّه، مشان الله توبة".

لكنّها ما كانـت تتوقّـف حتّـى يبـول علـى نفسـه وعلـى حشـيته القـذرة المخصّصة لنومه، فتزعق مناديـة عيشـة، منتفخـة الأوداج، مضـطربة الأنفـاس، فينتفخ صدرها الرّخو كما قربة، ويكـاد يحـول دون رؤيـة رقبتهـا الغليظـة ذات

الثّالول الكبير، وتأتي عيشه لتأخذ المقسوم من البربيش الأزرق، وتتولّى تنظيف وغسل الحشية البالية التّي أفسدها أخوها الملعون في سِفْر زوجة أبيها.

لطالما شاهد تعذيب عيشة التّي بقيت دون منديل منذ رحيل أمّها، تمنّى أن ينقذها، دعا الله أكثر من مرّة ليهبه قوّة جبّارة، ليقدّ زوجة أبيه إلى نصفين، ويتلف بأحشائها ودمائها وريحها أثاثها الفاخر كلّه الذي اشتراه أبوه صاغراً تحقيقاً لرغباتها، لكنّ الله لم يستجب له، ولو لمرّة واحدة، وبقي يشاهد تعذيب عيشة دون أن ينبس ببنت شفة، وبقي الجدار الزّجاجيّ فاصلاً بينه وبين عيشة كما كان فاصلاً بينه وبين أمّه.

كان يمضي ساعات طويلة يجلس القرفصاء عالقاً بين قضبان النّافذة وزجاجها، لقد اعتادت زوجة أبيه على أن تحبسه في هذا المكان الغريب، فقد تفتّق حقدها على أبناء زوجها عن هذه الزّنزانة الزّجاجيّة الرّهيبة، تحبسه في سنتمترات قليلة طوال النّهار، حيث لا مكان للوقوف ولا للجلوس، فيجلس القرفصاء حتّى تكاد عظام ركبته تخرق جلده الرّقيق الهزيل، وتنفر منه.

من خلف ذلك الجدار الزّجاجيّ رأى طفولة عيشه وطفولته تُسحق دون رحمة، ومن خلفه رأى كذلك أبناء أبيه والخالة عايشة يرتعون في خير أبيه المحدود الذي كان هو وأخته خارج دائرته تماماً.

كم كره الجدار الزّجاجيّ! وكم كره الزّجاج! كان يراقب أخوته من أبيه يشربون في كؤوس زجاجيّة شفّافة كما طلّ الصّباح، قدّرت طفولته المحرومة أن طعم الشّاي فيها ألذ، لكنّه لم يجرّب ذلك أبداً، فقد كان مُحرّماً عليه وعلى عيشه أن يشربا، أو أن يأكلا في الزّجاج، لأنّهما لا يستحقّان ذلك، لماذا لا يستحقّان؟ لا يعرف ومن يهمّه أن يعرف لماذا لا يستحقّان ذلك؟ ما كان أحدٌ يبالي بطفلين

يحلمان بأن يأكلا، وأن يشربا في أوانٍ زجاجيّة، بـدل أوانـيهم النحاسـيّة القـذرة المعوجّة الثّنايا، المنبعجة القيعان.

كان يُسمح له فقط في اللّيـل بمغـادرة حبسـه الانفـراديّ الزّجـاجيّ بـين قضبان النّافذة وزجاجها، ليندسَّ في فراشه البالي إلى جانب عيشة التّـي بـدأت تكتسي بجلدٍ خشن كما جلد وزغة من كثرة العمل والشّقاء، كانت تتكـوّر بـذلّ إلى جانبه، فيضمّ صباها المسكوب بدمعة رجل لا طفل، ويعدها بالخلاص، لكنّ الخلاص لم يأتِ، فقد كان يفصله عنه جدران الـدّنيا جميعـاء، ولا سـيما البـاب الزّجاجيّ الذي يفصل غرفته عن غرفة نوم أبيه وزوجته، كان يسمع مـن خلفـه شخيرهما ونهيقهما وأحياناً زفيرهما في حمأة لقاء جسديّ سخين، ينبتُ له أخوةً جدداً لا يعرف عنهم إلاّ أسماءهم، كان متعجّباً أنّى لأبيه أن يحتضن جسد أمّـه عايشة المتراخي بترهّل مثل عجين متخمّر قد فاض عـن وعائـه في ليلـة صـيف دبقه؟!

لكنّه لم يجد أبداً أجوبةً لأسئلته كما لم يجـد طريقـة يخـترق فيهـا الجـدار الزّجاجيّ ليوصل شكواه لأبيه الذي ما شكّ يوماً بإهماله له ولأخته، ولا في لا مبالاته بمصيرهما ما دام يستمرئ دفء جسد أمّه عايشة، وبقي الجدار الزّجاجيّ عملاقاً يحرمه من أبيه ومن أمّه ومن طفولته التّي تفرّ ببطء مشـحون بـالأحلام، في كلّ ليلة حلم بأنّه قد حطّم ذلك الحـائط الملعـون، وأنّـه تبـوّل بسـخاء علـى حطامه الذي حاصر عايشة وأغرقها.

كان يستيقظ سعيداً وآملاً في أن يجد تحت قدميـه حطـام الجـدار، لكـنّ أحلامه كانت تـذهب سـدىً وأضـغاث تمنيّـات، كـان يسـتيقظ ليجـد الجـدار الزّجاجيّ، وليجد نفسه غارقاً في تبوّله اللاّ إراديّ الذي عانى منه منذ أن رحلت أمّه، وتركته في عهد ضرّةٍ من جنس الكفرة.

كبر وحلمه ما كبر، بقي يحلم بتحطيم الجدار الزّجاجيّ، الذي حطّمه أمام وهيج النّار التّي أكلت عيشة حدّ القرمشة، دلقت عيشة الكاز على نفسها من الوابور النّفطيّ، أحرقت بجسدها جدران الدّنيا كلّها، وأطعمت نفسها للنّسيان، كان محبوساً بين الزّجاج والقضبان عندما حاصرتها النّار بشهيّة، حطّم الزّجاج بقبضته الهزيلة، وطفق يطفئها مع أبناء أبيه ومع الجيران الذين استنفرهم صراخها وعويلها، كانت كتلة صغيرة متفحّمة عندما اشتملها بعطفه، وضمّها إلى جسده.

من جديد فصله عنها جدار زجاجيّ آخر، قال الأطبّاء إنّ حالتها خطيرة، وإنّ عظامها المعرّاة دون جلدٍ إلاّ من مزق محترقة عرضة للجراثيم والبكتيريا، فوضعوها عارية في علبة زجاجيّة، كان يتمنّى لو أنه يستطيع أن يمسّد بيده على رأسها ذي الشّعر المتلبّد المتفحّم، حلم بأن يضمّها إلى جسده، لكنّ الجدار الزّجاجيّ حرمه أيضاً منها، ووقف سدّاً منيعاً يحصر آهاتها، ويأسر أحزانه، كانت في غيبوبة عميقة لا تتكلّم، ولا تبكي، ولا تتألّم بفضل المخدّر الذي يُعطى لها بسخاء، لكن تدندن بأغنية حميمة حفظتها من أمّها أيّام سُمح لها أن يكون لها أمّ، كانت أغنية فرحة اعتادت أمّه علي أن تهدهده وإيّاها بها، لم يكن يسمع صوتها بسبب الجدار الزّجاجيّ الفاصل، لكنّه كان يعرف من حركة شفتيها اللّتين تلبّدتا على شكل كتلتين محترقتين أيّ مقاطع الأغنية تردّد، كان يشاركها ترديد الأغنية، ويتخيّل أنّه يسمع صوتها الرّقيق؛ فقد كانت تحبُّ الغناء قبل أن تبتلع القطّة لسانها على حدِّ تعبير الخالة عايشة.

ردّد الأغنية مع عيشة عشرات المرّات، كان متأكّداً من أنّ عيشة تحلم بحضن أمّها التّي ابتلعها النّسيان، عندما توقّفت حركة شفتيها، أدرك أنّها قد ارتاحت

للأبد، وأنّ الجدار الزّجاجيّ قد كفّنها خلف صمته، وابتلعها كما ابتلع أمّه دون رجعة.

لم يحضر دفن عيشة؛ لأنّه كان يخشى جبروت الجدار، هام في الشّوارع، وهرب إلى أبعد مكانٍ تتصوّره طفولته، هرب إلى أبعد أحياء المدينة، كان يتخيّل في كلّ لحظة أنّ يداً عملاقة مشعوعرة تضع أوزارها على كتفه وتشدّه إلى البيت الذي هرب منه، طاردته اليد في كلّ مكان، لكن عندما أيقن أنّ اختفاءه أسعد مملكة أمّه عايشة، سبّها بقوّة، وبصق باستخفاف على الأرض، أشعل ناراً كبيرةً احتوت كلّ أخشاب وكرتون الحارّة في ملجئه الصّغير، ورقص حولها عاريّاً، ثمّ تبوّل عليها، ونام ملأ شوارده.

حصل على لقمة عيشه من العمل المضني عند نجّار طيّب في عمر زهرة، كان قد أشفق على ضياعه وجوعه وضمّه إلى عمّال منجرته، يعمل قليلاً، بقدر خبرته وطفولته، وما أقلّها من خبرة! وينقده من المال ما يقدّر أنّه يفي بحاجاته، ثمّ يلوذ وحيداً إلى بيته الذي اتّخذه تحت السّلّم الإسمنتيّ في إحدى المدارس القديمة، كان بيته لا يتجاوز المتر في مترين، لكنّه كان كافياً، ويرضيه للغاية، فقد كان يشعره بالطّمأنينة، وإن كان يجبره على التّكوّر على نفسه لينام داخله. وقد كان له الفضل في إطلاق عنانه وأمنياته، فما يكاد ينام حتّى يدلف دنيا من النّور والدّفء والحبّ حيث أمّه وعيشه ولا جدار زجاجيّ، ويستيقظ سعيداً، متفقّداً ثيابه الجافّة بفضول، ليتأكّد من أنّه قد انتصر تماماً على التّبوّل اللاّ إراديّ.

حلم برؤية الدّنيا، لكنّ الشّتاء الذي داهم المدينة مبكّراً أجّل أحلامه، كانت هذه اللّيلة من أبرد اللّيالي التّي شهدها في حياته، تربّع البرد في عظامه، ونخر عزمه الطّفوليّ البريء، فكّر في أن يلجأ إلى بيت النّجّار الطّيّب، الذي خدعه دائماً بإدعائه السّكنى في القريب مع أصدقاء في مثل ظروفه، وما أعلمه

أبداً أنّه يعيش ككلبٍ ضالٍّ تحت درج أحد المدارس، عقد النّيّة على أن يقضي اللّيلة في بيته، فالبرد أقسى ممّا يحتمل، وما يظنّه يمانع أو تمانع زوجته الجميلة في ذلك.

أطلق ساقيه النّحيلتين للرّيح الباردة، فكان بعد دقائق أمام بيت النجّار، بالتّحدّيد أمام الشّرّفة الزّجاجيّة التّي يُدلف من بابها إلى الدّاخل، استرق بعض النّظرات، كان النّور الخافت يسرج في الظّلام الذي خيّم على البيت، قدّر أنّ الكلّ نيامٌ في دفءٍ لذيذ، حاول أن يطرق الجدار الزّجاجيّ الجديد الذي يفصله عن الدّفء لكنّ قوّة ما أذابت عزمه، وأبرزت خجله، تكوّم بالقرب من الجدار، ذهب في إغفاءة لذيذة، تكوّر على نفسه حدّ الالتصاق بإعضائه، كان البرد في اشتداد، وبعض قطع الثّلج القطنيّة تهبط على رقبته التّي انكشفت بوضوح من تحت سترته الجلديّة القديمة التّي حصل عليها من النجّار، رأى في حلمه جدران الدّنيا كلّها وقد دُكّت شظايا وحطاماً، استيقظ من إغفاءته، كانت أطرافه متيبّسة باردة، بصق في يديه، لعلّه يهبهما دفعة دفءٍ منعشة، عزم على أن يتحدّى الجدار، وأن يقرعه طلباً للدّفء والمأوى، لكنّ أطرافه المتجمدّة قهرت إرادته، استسلم بذلّ للجدار الزّجاجيّ الذي رأى ابتسامة سخرية تندى من برودته الصّفيقة، وغاب في أحلامهالدّافئة.

في الصّباح كان المكان يزهو بثوب أبيض من الثّلج الجميل، وإلى جانب الشّرّفة الزّجاجيّة كتلة متجمدّة اسمها شاهر، الذي كُسي وجهه بالثّلج وبابتسامة عميقة غريبة تدلُّ على راحة أبديّة بعد طول شقاء.

ملك القلوب

البعض يقول إنّه مبروك، وإنّ له كرامات مع أنّهم لم يروا لـه يومـاً ولـو كرامةً واحدة، البعض همس إنّه لا يصلّي أصلاً لكي تكون لـه كرامـة الأوليـاء والصّالحين، همس فضوليون ضاحكون إنّه على ديـن عجيـب تـدين بـه مـردة الجان، بعض النّساء تستعيذ منه، وتعدّه ممسوساً أو على أفضل تقدير على علاقة خبيثة مع الجانّ، إحدى عواجيز البلدة زعمت مرّة بضحكة تنزّ عن سنّها الوحيد الذي نخرته السّوس دون رحمة أنّه من ذراري الغجر، وبقايا بني ساسان، أمّا هـو فلم يكن يصرّح بالكثير عن نفسه، بـل يجيـب عـن الأسـئلة الفضـوليّة بقهقهـة مجلجلة تبرز ترقوته، وتهزّ عطفيـه، وتـبرز شـفتيه الغليظـتين الغـارقتين في لحيـة شعثاء مثل غابة شوكيّة، فيردّد الكهف الذي يسكنه ضحكته، وجملتـه المعهـودة، "افتح كفّك اليمنى، وصفّي قلبك، وأظهر بياضك، وكلّه على ربّك".

لا أحد يذكر تماماً متى ظهر في هذا المكان، حقيقة لا أحـد معـنيٌّ بالتّـذكّر، فالكلّ ضائع مُضاع، حتّى أنّه كاد ينسى من أين له بهذه العباءة الحمراء المقصّـبة بالذّهب، ولا أيّ الأسواق دفعت له بهـذه القبّعـة العظيمـة التّـي تشبه قبّعـات ناسك من السّيخ، كلّ ما يذكره أنّه ملك القلوب، يأتيه الشّاب، وقد خـلا قلبـه من الحبّ فيعطيه تعويذة في قطعة جلديّة أو قماشيّة ملوّنة، ومـا يحـلّ المسـاء إلاّ ولذلك الشّاب حبيبة، تأتيـه النّسـاء بقطـع مـن ملابـس رجـالهنّ المهـاجرين أو الغائبين أو المعرضين، فيعطـيهنّ تمـائم سـحرّيّة، تعيـد الغائـب، وتـردّ المهـاجر، وتُسيل شهوة المُعْرِض.

بعض الحالات تستعصي على تمائمه السّحريّة، فيُعدّ لذلك الشّراب السّحريّ الذي يحضّره من منقوع أيّ شيء أحمر، فليست العبرة في المادّة التّي يحضّر المنقوع منها، بل العبرة في تمتماته السّحريّة، وتعاويذه التّي حفظها من سِفْر الحبّ الأعظم عندما كان يتَتَلْمذ على يدي ذلك السّاحر المغربيّ الذي يسكن تخوم جبل قاف.

لم يكن تلميذه الوحيد، لكنّه كان تلميذه المفضّل، لطالما استبشر أستاذه خيراً به، وقال إنّه سيكون خليفته على عرش السّحر الأسود الأعظم، لكنّه لم يكن يريد سحراً أسودَ، يُحزن القلوب، ويدمي الأنفس، ويُفرّق المحبّين، لقد كان يريد سحراً يستطيع أن يسرق السّعادة ليهبها لكلّ محتاج ومتمنٍّ، وبهذه الرّغبة بالذّات سوّغ لنفسه أن يخالف أوامر أستاذه، وأن يطّلع على سِفْر السّحر الأعظم، وأن يحفظ عن ظهر قلب تمائم الحبّ، وتعاويذ جلبه، عن ظهر قلب حفظ كلّ كلمة مكتوبة، شعر أنّ هذه الكلمات السّحريّة العذبة قد زُرعتْ في قرارة وجدانه للأبد، وأنّها أزهرت حبّاً وعشقاً يكفي الدّنيا كلّها، تشبّعت كلّ خليّة من خلاياه بوقع الكلمات السّحريّة، وامتلأت نفسه نشوة لم يعرفها من قبل، وكاد الأمر يمرّ دون أن يعرف السّاحر المغربيّ بسطوه على سِفْره العجيب، لولا أنّ أريج كلماته، وهسيس صوته قد نقل للمغربيّ وشايةَ سرقته، غضب السّاحر كما لم يغضب من قبل، وحاول أن يمتصّ بسحره الكلمات الخالدة التّي حفظها تلميذه الخائن، لكن دون فائدة، فالكلمات ذابت للأبد في وشائج السّاحر التّلميذ وفي روحه، كما اختفت للأبد من سِفْر السّحر الأعظم.

اللّيلة العاصفة كانت آخر ذكرى السّاحر التّلميذ المشتاق للحبّ عن قلعة المغربيّ التّي تلاشت بلحظات، كأنّها لم تكن، وتباعدت الأرض حتّى أصبح في ركن آخر من الدّنيا، لكنّه لم يبالِ بذلك؛ فقد كانت غنيمته تفوق غضب أستاذه،

وتفوق كذلك اللّعنة التّي سلّطها عليه، بالتّحدّيد كان واثقاً من أنّه سيستطيع أن يفكّ لعنة السّاحر المغربيّ عنه، لقد قال المغربيّ إنّه قد لعنه في قلبه الذي لن يعرف الحبّ يوماً، ولن يذوقه مع امرأة أبداً، خشي السّاحر التّلميذ اللّعنة للحظات، ثمّ هزّ كتفَيْه غير مبالٍ، وقال بزهوٍ وسعادة: "لكنّني الآن ملك القلوب، آمرها فتطيع، أمنعها فتنتهي، أنا ملك القلوب".

كان ملك القلوب بحقّ، الكلّ شهد له بذلك، والكلّ دفع المال له صاغراً من أجل ذلك، كان يملك كلّ القلوب إلاّ قلبه هو، فهو لم يملكه أبداً، كان يشعر أنّه غائر في مكان ما حدّ الانسحاق، وأنّه ملعونٌ أسود كما عباءة السّاحر المغربيّ، استثمر كلّ سحره، وتلا كلّ ما عرف وحفظ من ترنيمات وتعاويذ الحبّ من أجل قلبه لكن دون فائدة، بقي يقطع نهاراته في دفع التّعويذات والمساحيق والمراهم والمشاريب السّحريّة لكلّ طالب يدفع ثمناً لها، كان قِبْلَة المحبّين في هذه الدّنيا، امتلأت مغارته بالجوهر والمال حتّى أُتخمت، فكّر في أن يتمنّى بحراً في مغارته ليتّسع لهذا الجوهر كلّه، قدّر أنّه سيكون بحراً ساحراً، ماؤه الدّرّ، ولجّته الجوهر، وساحله الذّهب، بتعويذة واحدة، وضربة من صولجانه السّحريّ انشقّت أرض المغارة عن بحرٍ يهدر في أعماقها، كان بحراً ساحراً، يتّسع لجوهره كلّه، لكنّه بقي حزيناً؛ لأنّه يملك قلباً لا يعرف معنى الحبّ، وإن كانت نفسه تهدر بمعاني وجزيئات وتجلّيات الحبّ كلّها.

من آخر الدّنيا جاء إليه العاشقون والمحتارون، كلّهم عادوا سعيدين راضين، بل إنّ البعض عاد مرّة واثنتين وثلاثاً ليُبدّل قدر قلبه، ويحوّل عشقه، كان يستمع باهتمام إلى مطالبهم، ويهزّ رأسه متفهّماً لشكواهم، يلاعب بيديه المشعوعرتين لحيته الطّويلة، ويحرّك حاجبيه الكثيفين، ثمّ يعطيهم المطلوب

بالأجر نفسه، وإن كان البعض يُصرّ عليه لأخذ ما حملوه له من جوهر أو حتّى من قمح وزبيب وأجبان.

عندما كانت تخلو مغارته من الزّائرين، وقليلاً ما كانت تخلو، كان يجلس على عرشه الماسيّ، ويُعزّي نفسه قائلاً ردّاً على هواجسه وأحزانه: "لكنّني ملك القلوب".

فتقول نفسه بغير تردّد: "لكنّني أريد حبّاً، يا ملك القلوب، أنتَ في أمسّ الحاجة إلى قلب واحد، واحد فقط. أهذا كثير؟"

فيكرّر بيأس من جديد: "لكنّني ملك القلوب"، وينخرط في بكاء هادر يحرّك أمواج بحره الغائر في مغارته، ويحرّك كلمات العشق الذّائبة في دمه.

توقّع هذه المرّة أن يهدر ساعات بدموعه، لكنّ السّحابة السّوداء التّي لفّت مغارته، وأسكنت هدير بحره، أثارت دهشته، بل وخوفه، لا أحد يملك مثل هذه السّحابة الملعونة إلاّ رجل واحد، واحد فقط، ولا بدّ أن يكون ساحراً، بل وكبير السّحرة، نعم إنّه السّاحر المغربيّ، سكنه خوف كبير والسّحابة تغشى عينيه، وتنحّل في رجل مارد ما زال يحفظ قسماته على الرّغم من غيابه عنه لآلاف السّنين، لو أُعطي ألف خيار ضوئيّ لما استطاع أن يُقدّر سبب زيارة حَبْر السّحر الأعظم، انحنى ملك القلوب لأستاذه بكلّ أدب، وقال له: "إذن يا أستاذي الجليل، فقد التقينا بعد طول فراق".

حدّق السّاحر الأعظم في عيني ملك القلوب، طار خفّاشان من سويداء قعرهما، وقال بصوت أجشّ ملأ المكان برودةً وعفونة: "لم آتيك محبّاً ولا مشتاقاً، لكنّني جئتُ مضطرّاً، أنتَ تعرف أنّني ملك السّحر الأسود".

- قال ملك القلوب مقاطعاً بزهو وغرور وتفاخر: "إلاّ القلوب، فأنا ملكها".

- ردّ المغربيّ بانكسار وإقرار: "إلاّ القلوب، فأنتَ ملكها؛ لذلك جئتُ إليكَ، ابنتي بهجة هي دنياي كلّها، وُلدت بقلب شفّاف، فارغ من أيّ مشاعر، لا يعرف معنى سعادة أو هناءة، كانت على ما يرام، إلى أن كبُرتْ، ومنذ ذلك الوقت، غدا جمالها شاحباً، وبات المرض يبريها، أنا اعلم أنّ علّتها في قلبها، اصنعْ لها تعويذة تشفيها، وترُدّ قلبها إليها".

- قال ملك القلوب: "ماذا عن قلبي أنا؟ ألن تفُكّ اللّعنة التّي تسكنه".

صمت السّاحر الأكبر، وأُسقط في يديه، وأيقن أنّه في صدد مقايضة لا مفرّ منها، فقلب ابنته في الميزان مقابل قلب تلميذه الخائن، قال بغيظ: "عند أوّل دقّة قلب لقلب ابنتي، ستسمع وجيب قلبكَ يهدر في صدركَ اللّعين".

فرح ملك القلوب بهذه المقايضة التّي رتّبها له القدر بعد انتظار عمره آلاف السّنين، وقال بتكبّر: "يجب علي أن أرى ابنتكَ، وأُعاين حالتها بنفسي كي أتمتم في أُذنيها بالكلمات السّحريّة المناسبة".

أومأ السّاحر الأكبر برأسه موافقاً، وفي لحظات كان وتلميذه في رأس جبل قاف حيث تقبع قلعته الباردة، التّي يلفّها السّحر الأسود، كانت موحشة مظلمة تماماً كما تركها ملك القلوب قبل آلاف السّنوات، كانت مألوفة له تماماً، فقد كان يحفظ كلّ ركن فيها، لكنّ وجه بهجة كان شيئاً لم يألفه في حياته، كانت رقيقة مثل سحابة صيف، عروقها تبرز من تحت أديمها الشّاحب الذي أعياه المرض، وضع يدهالدّافئة على جدائل شعرها المتقصّف، فأزهرت زهوره ورديّة ربيعيّة، فتحت عينيها الذّابلتين، وقالت بصعوبة وإعياء: "أبي، هل عُدتَ؟"

- قال السّاحر الأعظم بحنوٍّ لم يألفه ملك القلوب فيه: "نعم لقد عدتُ يا بهجة".

سأل ملك القلوب السّاحر الأعظم بعزيف حزين: "منذ متى هي مريضة؟"

ردّ السّاحر الأعظم: "منذ ألف سنة!"

داعب ملك القلوب وجنتيها الدّابلتين وقال: "يا إلهي، لستُ متأكّداً من أنّ كلماتي قادرةٌ على مساعدتها بعد هذا الوقت كلّه من المرض الطّويل".

قال السّاحر الأعظم بذل وانكسار: "عليكَ أن تحاول".

بصعوبة بالغة أشاحت بهجة بوجهها، لتلقي نظرة على وجه الذي تسمع صوته، كان منتصباً أمامها مثل شجرة موسميّة غارقة في الأغصان والمطر، كانت عيناه كنجمتين في كبد السّماء، وكانت عيناها بحيرتين جميلتين تفوقان جمال بحره ذي اللّجّة الجوهر، والسّاحل الذّهبيّ. نظراتهما الحارّقة، أذابت جليد قلبه، وقهرت لعنة روحه، طفق قلبه يدقّ بقوّة ناقوس نحاسيّ كبير، كاد قلبه ينخلع من صدره، لم يُصدّق أنّه يسمع وجيب قلبه بعد آلاف السّنين من اللّعنة، وجيب قلبه طغى على صمت المكان، انتفضت بهجة لهذا الصّوت الذي تفتقد عزيفه منذ آلاف السّنين، وقالت: "أبي، إنّي أسمع وجيباً، وجيباً يخصّني أنا بالذّات".

قال السّاحر الأكبر بتوتّر وفزع: "لا بدّ أنّها تهذي، لعلّها تعاني سكرات الموت، هيّا يا ملك القلوب، اشفها بكلماتك، كي أفكّ لعنتك".

ابتسم ملك القلوب من جهل السّاحر الأكبر الذي لا يعرف أنّ لعنته فُكّتْ دون إرادة صانعها، اقترب من أذن الأميرة التّي شنّفت أذنيها لكلّ كلمة من ملك القلوب، وهمس بكلمتَيْن اثنتين لا ثالث لهما، فأشرق وجه بهجة، وفاض حيويّة ونضرة، وبدأ قلبها وجيباً لا يعرف نهاية.

اختفت بهجة وقلعتها، وفي لمح البصر وجد نفسه من جديد في كهفه، اختفى كلّ شيء إلاّ عرشه، وذكرى بهجة، لليال ردّد المكان وجيب قلبه، كان ملكاً للقلوب، لكن ليس لقلبه الذي أصبح ملكاً لبهجة، لزمن طويل لا يعرف مقداره انشغل في مشاكل القلوب، وفي تمائمها السّحريّة، وكان ينتظر دون توقّف، لكنّه لا يدري ماذا ينتظر بالتّحدّيد، لكنّه ينتظر بفارغ الصّبر والرّجاء.

جاءت السّحابة السّوداء، كان مُثاراً كأنّه ينتظرها، كان السّاحر الأكبر في قمّة غضبه، رمقه بنظرةٍ شزرى، قال: "هيّا معي".

حزم ملك القلوب كلّ ما يملك، وتهيّأ سريعاً كأنّه ينتظر هذا الأمر.

في لمح البصر، كان في قلعة قاف أمام بهجة المسجّاة على سرير بلّوريّ شفّاف، كانت في حالة من الضّمور والنّحول والشّحوب لا تختلف عمّا هو عليها، قال السّاحر الأكبر غاضباً، وهو يشير إلى بهجة: "انظر ماذا فعلت بها كلمتاك اللّعينتان، هيّا خذهما، وأعدها إلى سابق عهدها".

- قال ملك القلوب بتلعثم: "لكن".

- قال السّاحر الأكبر مقاطعاً بغضب شديد: "دون لكن، هيّا خذ كلمتَيْك، وإلاّ حوّلتُكَ إلى رمادٍ في مدفأة حقيرة".

حار ملك القلوب في ما عليه أن يفعل، اقترب خطوتين من سرير بهجة، سمع وجيب قلبها يتعالى ويقوى، مسح بظاهر يده دمعة تنزّت من عينها، وانحدرت على خدّها، فتحت عينيها بصعوبة، وقالت بفرح وراحة: "ها قد جئت؟"

هزّ ملك القلوب رأسه مؤكّداً ما ترى، قال السّاحر الأكبر بغضب: "الآن خذ كلمتَيْكَ اللّعينتَيْن".

اقترب ملك القلوب خطوةً أخرى وأخيرة من سرير بهجة، بات ملاصقاً لها تماماً، اقترب من أذنها، وكاد يهمس بكلمتيه، لكنّ السّاحر الأكبر قاطعه قائلاً: "قل كلمتَيْكَ اللّعينتَيْن بصوت مرتفع، ولا تهمس بهما همساً".

أدرك ملك القلوب من حدّة صوت السّاحر أنّه يعني كلّ كلمة يقولها، وأنّ ليس من الحكمة مخالفته أو إغضابه، قال بصوت عوان بين الهمس والتّصريح: "أنا أحبّكِ".

اشتاط السّاحر الأكبر قائلاً: "يا لعين، أهاتان هما كلمتاكَ اللّعينتان اللّتان أذابتا قلب وصحّة ابنتي؟"

لم يأبه ملك القلوب لكلمات السّاحر الغاضب، من جديد، قال بصوت أكثر وضوحاً ودقّة: "أنا أحبّكِ".

قالت بهجة التّي أورق شعرها زهوراً، ودبّت الحياة في أوصالها الميّتة: "وأنا أحبّكَ يا ملك القلوب".

ذاب قلب ملك القلوب سعادةً، وأَوْرَقَت القلوب عشقاً وسعادةً، وكُتب في سِفْر السّحر الأعظم كلمات حبٍّ سحريّة جديدة.

الطّيران على ارتفاع ١٠٠٠ دقّة قلب

تحبّ الطّيران، تحبّ أن تأخذ شهيقاً عميقاً، ثمّ تغمض عينيها، وتنزلق في الهواء، تنزلق فيه كسمكة منسربة بأجنحة من نور، تواجه الرّيح بجسدها المشروخ وعينيها المستكينَتَيْن، وابتسامتها الغارقة في الهواء، تفكّر كثيراً في أن تقابل الرّيح بنظرة متحدّية تشمل الفضاء والأرض وطيورهما، تتمنّى أن ترصد من علٍ تكوّر جسدها، واستسلام عضلاته للرّيح الخاضع لجبروت الجاذبيّة، تزداد دقّات قلبها، تعجز عن تحمّل فكرة التّحدّيق في جبين الأرض، ليته كان يمسك يديها، ليت نظراته المنكفئة في الكتاب تطالعه دون ملل تمتدّ أيدٍ تمسك بيديها، وتنطلق معها في الفضاء، ليته يفعل ذلك، ليته، وتسقط من أعلى قمّة، وتهوي بسرعة جنونيّة إلى الأرض، يتقلّص قلبها الصّغير، ويستسلم للانسحاق.

تستيقظ مرعوبة، غارقة في حبيبات العرق التّي تغزو جبينها النّاصع، وجسدها الصّغير، تطالع ما حولها برعب سرعان ما يتحوّل إلى ارتياح، تدرك أنّ حلم يقظتها ونومها ما زال يطاردها، ترتخي عضلاتها المتوثّبة، بالتّدريج يختفي وجيب قلبها من أذنيها، تنزلق في منامتها الورديّة بارتياح، تيقن أنّها الآن في مأمن من كابوسها اللّعين، تتمطّى على أمل أن تهب جسدها راحة ما، لكنّ تيبّس جسدها، وانشراخه دون هواها يعيق حتّى الاستلقاء المرجوّ، جسدها بجلّه ينحني بانكسار إلى اليمنة، مع تراخٍ وقصر واضحين لصالح الشّقّ الأيمن.

يرتكز جسدها النّحيل على قدمها اليُسرى دون اليمنى التّي تقصر دون أختها سنتيمترات كثيرة، وتبقى متدلية بتراخٍ في الهواء، لا يمكنها أن تسير إلاّ إذا

ضغطت بعزم كفّ يدها اليسرى عليها، فتدفعها إلى الأرض، مكوّنة انحناءة كسيرة نحو الأرض، تسير أو لنقل أنّها تحجل، يرهقها المشي كثيراً؛ لأنّ القليل منه يعني كيلو غرامات عديدة ترتكز على قدم واحدة، تتوازن بفضل عامود فقريّ يعاني الكثير من المشاكل في فقراته المنزلقة والمضغوطة في أكثر من مكان.

لكنّها ما تزال تحبّ الطّيران، وتحبّ خلجاته الهادئة العميقة، وتحبّ ذلك البيت الخشبيّ الصّغير الذي قصف سعادتها، وكوى جسدها الطّفوليّ دون رحمة، كانت طفلةً شقيّة، تحلم بالنّور والطّيران، ألحّت على أهلها أكثر من مرّة كي يدفعوا بها إلى أيّ نادٍ قد يمكّنها من التّحليق الشّراعيّ، لكنّ أمّها أصرّت على الرّفض؛ لخشيتها عليها، لقد كانت تذكّرها دائماً بالمصير المأساويّ الذي لاقاه الحالم الأسطوريّ بالطّيران عبّاس بن فرناس، كانت تمزح قائلة: "من يحلّق في السّماء تموت أمّه حزناً لتثنيها عن الطّيران، لكنّ الأجنحة الشّفافة ذات البريق السّماويّ بقيت تناديها دون فتور، واستجابت لها، تسلّقتْ أعلى شجرة في مزرعة بيتها، سارت بحذر شديد على إحدى أغصانها الوارفة، كادتْ تنزلق أكثر من مرّة، وأخيراً انتصبت على غصن يُطلّ على منحدر القرية، راودتها رغبة جارفة في أن تُطعم جسدها للرّيح، وأن تنزلق في طيّاته البلّوريّة، لكنّ صراخ أمّها وتوسّلات أبيها، وتحذيرات الجدّة، حوّلت رغبتها إلى زبد هوائيّ يغلّفه خوف طفوليّ لذيذ.

قالت لها الأمّ بتضرّع: "إيّاكِ يا حبيبتي أن تتحرّكي، الزمي مكانكِ".

قالت بنبرة طموحة متحدّية: "لكنّني أريد الطّيران".

قالت الأمّ بنبرة ترجٍّ مفعمة بشهقات وزفرات: "ليس الآن، في ما بعد"

قالت: "لكنّ الرّيح مناسبة الآن للطّيران".

قال الأبّ الذي طفق يتسلّق الشّجرة، وكرشه الصّغير يضطرب مرّة، ويلتصق مرّة أخرى بلحاء شجرة السّنديان العتيقة: "لا تتحرّكي، اثبتي في مكانك حتّى أنزلكِ".

ردّت وهي تهيّئ نفسها لدفعة بكاء طفوليّة سخيّة يعلوها عنادٌ وتململٌ: "لكنّني أريد الطّيران".

كان من المتوقّع أن تُرسل الشّجرة جسدها قطعاً مكسّرةً، لكنّ ذلك لم يحدث، وأُنزلتْ قسراً عن الشّجرة، وهي تبكي، ويداها لا تزالان مشرّعتين طوليّاً استعداداً للطّيران، وبعد تعنيف طويل، ونصائح أطول، استقرّت العائلة على تسوية ترضي الأطراف جميعها، فقد سُمح لها أن تراقب طيور السّماء دون أن تطير، واشترطتْ عليهم في سبيل الالتزام بذلك أن يبنوا لها كوخاً خشبيّاً صغيراً معلّقاً على أعلى شجرة سنديان، وبعد أخذٍ وردٍ، نزلت العائلة على رغبتها الطّفوليّة المشرّعة في أرض الأحلام.

كان الكوخ الخشبيّ الصّغير المعلّق في الهواء، بناه والدها بدقّة واهتمام لكي تكون ابنته في مأمن، وتحقّقت أمنيتها الصّغيرة، كانت طائرةً ليلَ نهار، وهي في كوخها تشعر بأنّها حرّة طليقة في السّماء، كان في جوارها الكثير من الجيران، فغصون السّنديانة الممتدّة الوارفة تزخر بأعشاش الطّيور، كانت تعرف جيرانها العصافير فرداً فرداً، وتعرف موعد فقص بيوضها، وتراقب سلوك فراخها، وتسمح لنفسها أحياناً بتقديم بعض الدّيدان وجبات إضافيّة للفراخ الصّغيرة، وقد لاحظت أنّ للفراخ سقسقة خاصّة في طلب طعامها، أصغت لها طويلاً، ثمّ قلّدتها ببراعة، وكادت تطير فرحاً عندما عرفت أمّها معنى هذه السّقسقة، وقدّمتْ الطّعام لها كلّما أقبلت عليها مسقسقة طامعة في الطّعام.

لكنّ الكوخ الخشبيّ كسرها، بل كسرتها شجرة السّنديان التّي استسلمت أغصانها، وهوت إلى الأرض حاملة معها الكوخ ونور، الكوخ سلِم إلاّ من كسور صغيرة، أمّا هي فقد تحطّمت إلى الأبد.

حلمت طويلاً أنّها تطير بسعادة وبخفّة، لكن عندما استيقظت من غيبوبتها، وتفرّست الأجهزة الطّبّيّة التّي تحاصرها في المستشفى، وبعد أن تحرّرت من الجبص والدّعائم عرفت أنّها قد تحطّمت إلى الأبد، وأيقنت أنّ السّير الطّبيعيّ بات أمنية ضائعة فضلاً عن الطّيران الذي بات محرّماً، وباتت قعيدة الفراش، أسيرة البيت، إلاّ من لحظات تسرقها من البيت الخشبيّ الذي انغرس من جديد بين أغصان السّنديانة بناءً على رغبتها التّي ما استطاع والدها أن يردّها لطفلته المهشّمة.

عاتبتْ طويلاً شجرة السّنديان التّي استسلمت للانكسار، وقدّمتها للعجز، وعندما طال صمت الشّجرة كرهتها، حتى أنّها فكّرت في قطعها انتقاماً منها، لكنّ جيرانها الطّيور كانوا خير شفيع لموطنهم الشّجرة، لا سيما أنّهم قدموا كذلك ضحايا من فراخهم في كارثة تحطّم أغصانها، وتحطّم الكوخ الخشبيّ.

كادتْ تنسى حلم الطّيران، كان يكفيها عبء تجنّب النّظرات الفضوليّة التّي ترقب سيرها الخرافيّ، كانت النّظرات الموزّعة بين السّخرية والشّفقة والفضول كافيةً لقتلها، لكنّها صمتت بشموخ بازٍ يسكن السوامق على الدّوام، لسنين طويلة جرّت شقّها الأيمن الموتور بعظامه، درستْ باجتهاد، فقد كان علمها موافقاً لحبّها لجيرانها القدامى، درست الهندسة الزّراعيّة، وتخصّصت بالإنتاج الحيوانيّ، وغرقت في عالم الطّيور الذي تحفظ عن ظهر قلب لغته وسقسقته اللّذيذة.

كادت تنسى كلام البشر، إلاّ من بعض المفردات، لكنّ ظهوره السّعيد في حياتها جعل عندها رغبةً ملحّةً لقول كلمة بعينها، كلمة واحدة تلخّص تاريخ البشريّة جمعاء، كلمة جامعة لكامل تاريخ التّمنّي والاشتهاء والرّغبة، كانت تريد أن تقول "أحبّك أنتَ بالذّات" فكّرت طويلاً في تهجئة هذه الكلمة بلغة العصافير، وما اهتدت لذلك.

كانت تمضي السّاعات قبالته على طاولة بعيدة عنه في مكتبة الجامعة، كان يأتي قبلها، ويبدو أنّه كان يغادر بعدها؛ لأنّها كانت تغادر قبله باستمرار، كان هادئاً كليلة تسبق عاصفة، في عينيه بريق لا يعرف معناه إلاّ من جرّب متعة الطّيران.

تعمّدت طوال أشهر عديدة أن تدخل من الباب الجانبيّ للقاعة، وهكذا تحرم الهادئ الذي يجلس بعيداً من إمكانيّةِ مراقبةِ جسدها الذي تجرّه على مهل، ثمّ تنزلق سريعاً في خطوة واحدة في أقرب كرسيّ، وبذلك تضمن أن لا تتأذّى ذكورته بمشهد أنوثتها المشروخة، تخيّلت اللّقاءات المتمنّاة جميعها، تصوّرت الكلمات التّي يقولها ذكرٌ لأنثى، نسجت في ذهنها الإجابات كلّها التّي تجيب أنثى ذكراً بها، لكنّها أبداً لم تفلح في وضع تصوّر لردّ فعله عندما يعرف حقيقة جسدها المهصور، لكن سرعان ما تلهي نفسها عن هذا القلق الملحّ بسقسقة سعيدة لحّنتها وَفْق كلمة: أحبّك.

كانت تكفيها متعة مراقبته طويلاً، لكنّه كان يريد أكثر من متعة المراقبة على ما يبدو، هذا ما فهمته من تلك الزّهرة الحمراء التّي وجدتها على المنضدة التّي اعتادت على الجلوس إليها، عندما أدنتها من أنفها لتشمّها لمحت ابتسامته وإيماءة عينيه، فأدركت أنّه صاحب الزّهرة العاشقة.

فكّرت طويلاً وهي تقلّب الوردة الحمراء لليالٍ طويلة في جسدها، وتخيّلت أنّه قد رسمها بقدٍّ يشبه جمال قدِّ الزّهرة، فاغتمّت وهي تتحسّس جسدها الضّامر الملتوي، ثم توقّفت عن التفكير، وإن لم تتوقّف عن التأوّه.

لكنّه قرّر أن يأخذ الخطوة الأولى وإن خشي أن تكون الأخيرة، اقترب منها، لم تشعر به إلاّ وهو يُلقي عليها تحيّةَ المساء بصوتٍ رخيمٍ حالم، كادت الفرحة تخنقها، لكنّ الدّهشة المشوبة بالوجل ألجمتها، لقد كان من نزلاء المقعد الرماديّ، لقد كان مُقْعَداً، بل أسيراً في مقعد متحرّك، قطع صمتها ورفيف دهشتها بقوله: "أنا مُقْعَد منذ سنوات بسبب حادث مؤسف، واحتمالات الشّفاء معدومة".

ابتسمت على وجل، وقالت له وعيناها مغروستان في الطّاولة التّي أمامها: "أتحبّ الطّيران؟"

مدّ يده ذات الأديم المشعوعر نحو ذقنها، ورفعه لتصبح عيناها قبالته تماماً، وقال: "أكثر ممّا تتخيّلين".

طالت القصّة، أو قصرت، بالتّحديد أصبحت بطول وقفتهما بالقرب من جرف عالٍ، استطاعتْ منه أن تريه سنديانتها القاسية، وأن يريها المستشفى الذي رقد فيه أشهر بعد أن أُقعد، حدّثها طويلاً، فحدّثته مدّة أطول، سمعها، وسمعته، وأحياناً لم يسمعها، وفي بعض المرّات لم تسمعه، كان قلب كلّ منهما يخفق بمعدّل ١٠٠٠ دقّة في الدّقيقة.

استند على كرسيه الرماديّ وعلى مساعدتها لينتصب بصعوبة، ثمّ تهالك في حضنها الصّغير، الذي كان أضعف من أن يحتمل جسديهما، انهارا ضاحكين

على الأرض، قرب الجرف تماماً، غرقا في عـيني بعضـهما، أومـأت بخجـل، ثـمّ سقسقت، وقالت: "أحبّكَ"، سقسق على منوال ما فعلت، وقال: "أحبّكِ".

انتصب من جديد بمساعدتها بصعوبة بالغة، أشـرعا يـديهما التّـي أنهكهـا التّعب ليطيرا، حدّقا في البعيد، حيث مسقط الشّـمس، تحـدّيا الجاذبيّـة والـرّيح، أخذا نفساً عميقاً، ملأ رئتيهما بشيء لذيذ اسمه الحبّ، وطارا، ثـمّ طـارا علـى ارتفاع ألف دقّة قلب.

صديقي العزيز

- "..."

- "لكنّك صديقي العزيز..."

- "سأبقى دائماً كذلك، هاكِ مفتاح بيتي، ثقي دائماً أنّ المكان سيكون بيتكِ أكنتُ فيه أم لم أكن".

- "أنا آسفة لأنّي لستُ بمثل روعتك، أنتَ تستحقّ قلبي ليبذل تحت قدميك، لكن الحقيقة إنّ القضيّة ملبسة قليلاً".

- "أنتِ لا تحبّيني أليس كذلك؟"

- "نعم، أقصد لا، ليست القضيّة هكذا، أنا أحبّكَ فقط صديقاً...، و..."

- "لا عليكِ، عُدّي أنّ شيئاً لم يكن".

- "لكن..."

- "لا تقلقي سأكون على ما يرام".

لكنّه صديقي العزيز، أنا أحبّه، نعم، أحبّه، لكن ليس بطريقته، للمرّة العاشرة أدارت قرص الهاتف لتتّصل به، لكنّها لم تجده، من طبعه أن يختفي هكذا دون سابق إنذار، ومن ثمّ يظهر مرّة أخرى أيضاً من دون سابق إنذار، أين يختفي؟ لا أحد يعرف، ماذا يفعل؟ لا أحد يعرف." لستُ أبالي! فله مطلق الحرّيّة في كلّ ما يفعل، لكنّني قلقة عليه؛ فهو صديقي العزيز". قالت في نفسها المشحونة بالقلق عليه.

"لسبب ما اختفى دون سابق إنذار، بالتّأكيد ليس لموقفي من مشاعره أيّ علاقة باختفائه، فهو قويّ، لا يُخشى عليه، لنقل إنّه أقوى رجل رأيته في حياتي، يستطيع أن يحتمل العذاب كلّه، دون أن ينبس ببنت شفة، أو تنهيدة احتجاج، يبتسم كأنّ شيئاً لم يكن، ودمعة سخيّة تتلألأ في عمق محجر عينيه، ولا مزيد، ثم يولّي قافلاً".

من جديد تقلّبتْ في فراشها، وقالت: "لكنّني أحتاج إليه، أحتاج إلى عونه، إلى مساعدته، أحتاج إلى كلماته تضع حلولاً لأشواقي، أحتاجه ليؤازرني وأنا استقبل حبّاً جديداً، احتاجه لينزل معي إلى الأسواق لأشتري هديّة لرجل ما أشتهي أن يدخل إلى عالمي، أحتاجه وأنا أودّع حبّي المأمول، هو الوحيد الذي يحتضنني باكياً لبكائي، حزيناً لأحزاني، يضمّني دون أن يوبّخني، دون أن يلومني، يداعب شعري، ويقول: "يا لكِ من صغيرة جاهلة..."

فأحتجّ بنبرتي المعهودة، التّي ما انفكّ يقلّدها ساخراً: "أنا لستُ صغيرة"، فيبتسم، ويقول: "بل صغيرتي أنا".

دَلفَتْ إلى شقّته، رائحة سكونها تقول إنّ أحداً لم يطأها منذ أيّام، لأوّل مرّة تدخل شقّته من دونه، لشقّته رائحة خاصّة، هي تؤمن أنّ للبيوت روائح خاصّة تماماً كما للأشخاصروائح خاصّة وفارقة، رائحة بيته تشبه رائحته تماماً، خليط من التّفاح البرّيّ، والعطر الفرنسيّ الفاخر، ورائحة الماء العذب، وخليط عجيب من النّظافة والتّعرّق، فهو من أشدّ النّاس هوساً بالنّظافة، وأكثرهم تعرّقاً، ابتسمتْ، وعجبت من أنّها تحفظ تفاصيل رائحته دون أن تدري بذلك.

لكن أين هو؟ جلستْ إلى أريكته المفضّلة، وشربت كأس عصير من النّوع الذي يفضّله، ثمّ قررت أن تغادر الشّقة، فكّرت للحظات في أن تكتب رسالة

تتركها له على طاولة مكتبه، تخبره فيها بحاجتها الماسّة إلى المال، وتطلب منه قرضاً صغيراً، إلى أن تصلها دفعة من تاجر العاصمة الذي تتعامل معه، لكنّها ضربت صفحاً عن ذلك، فعلى الرّغم من حاجتها الحقيقيّة إلى المال، إلاّ أنّها هذه المرّة بالذّات، ودون سابق إنذار، وبعيداً عن أنانيّتها المفرطة، وشذوذاً عن رغباتها كلّها التّي تدور حول حاجاتها ومصالحها فهي في حاجة إليه، دون الحاجة إلى مساعدته، لأنّها تشعر بأنّه في حاجة إليها، تريد أن تقف قبالته، ولا تعرف أيّ الكلمات ستقول له، لعلّها ستقول له كلماتها المعتادة التّي تقولها له مازحة كلّما شعرت أنّها أغضبته،"أتحبّني؟"، فيجيبها بنبرة ساخرة لا تنجح في إخفاء صدق مشاعر صاحبها: "أموت فيك".

أقفلت الشّقة بحزن من يشيّع جنازة، بدا مخرج العمارة بعيداً جدّاً، على مشارفه وقفت، وعدّت النّقود القليلة المتبقّية في جيب بنطالها الكتّانيّ، كانت قليلة، لكن تكفي لشراء شطيرة وبعض الحلوى، وللعودة بسيّارة مأجورة إلى بيتها، لكنّها تكفي كذلك لقطع تذكرة في القطار لجولة في ضواحي المدينة، وبذلك تستطيع أن تسرّي عن نفسها، وأن تزجي الوقت لحين ظهور الصّديق المختفي، عندها الكثير من الأصدقاء والمعارف بل والأعداء والأقارب والمشاريع والأماكن لتزجي الوقت فيها، لكن في هذه اللّحظة يلحّ على ذهنها سؤال واحد، ألا وهو: "أين هو صديقي العزيز؟" تهزّ كتفيها غير مبالية، "ليكن أينما أراد" قالت بتأفّف وضيق، لكنّ قلقاً تشرّب إلى نفسها، وقال: "لكن أين هو؟"

كانت تريد تذكرة للتّجوّل في المدينة، لكنّها وجدتْ نفسها وَفْقاً لطبيعتها المستهترة وغير المبالية، تقطع تذكرة إلى أقصى شمال الولاية، التّذكرة استنزفت كلّ ما معها من النّقود سوى بعض الفكّة التّي لا تكفي لشراء شيء خلا العلكة

الرّخيصة، والكعك المحلّى، فكّرت قليلاً في الورطة التّي وقعت فيها، لكن ذهنها كان مشغولاً بقضيّة واحدة لا غير.

"أين هو؟" قالت من جديد بتأفّفٍ وضجر.

كانت الرّاكبة الوحيدة في المقصورة، ثمّ انضمّ إليها عجوز مع حفيده الصّغير، كانت رحلة طويلة وطويلة وطويلة، هكذا ردّد الحفيد الصّغير متبرّماً ومحتجّاً أمام جدّه، أمّا هي فكانت تشعر أنّها وحيدة، لم تكن تعلم أنّ لصديقها هذا الحجم في حياتها، لا تنكر أنّه إنسانٌ رائع، ولا تستطيع أن تنسى أنّه هو من دعمّها ماديّاً ومعنويّاً وتوسّط لها بعلاقاته المحدودة لكي تقيم معرضها الأوّل، وهو أيضاً من قام بشكل أو بآخر بالتّوسّط لها عند أحد أكبر دور العرض في العاصمة لكي تعرض لوحاتها للبيع، وهو من كان إلى جانبها عندما كُسرت يدها في رحلة الجبل، كما أنّه من سدّد فاتورة إيجار شقّتها عندما ساءت ظروفها الماديّة، وهو من كان يحقّق لها الأمن الماديّ بمساعداته التّي لا تعرف حدوداً، صحيح أنّها تسدّد له ديونه كاملة عندما تتيسّر أمورها الماليّة، لكن ذلك لا ينفي أنّه ملاكها الحارس في الأوقات جميعها، وهو صديقها الذي لا تستغني عنه أبداً.

وقف القطار في أكثر من محطّة، في كلّ محطّة بين اليقظة والصّحوة، تمنّتْ أن يُطلّ بقامته الصّغيرة، وبيديهالدّافئتين، ليقفل باب المقصورة، وليضع سترته على كتفيها كعادته؛ لتشعر بشيء من الدّفء، لكنّه لم يُطلّ.

دلف أكثر من رجل من طوال القامة، وأقفلوا باب المقصورة خلفهم، وتابع القطار رحلته دون أن يأتي، هي تحبّ الرّجال أصحاب القامات الفارعة والمناكب العريضة، تريد رجلاً يشبه أبطال الأفلام، له ابتسامة سحرّيّة، وشعر مموّج كقطع الذّهب، تريد هذا النّمط من الرّجال مع أنّه نمط كسر قلبها المرّة تلو

الأخرى دون أدنى مبالاة، وليست معنيّة بالأجساد الهزيلة، والملامح التّي تخلو من سحر وإثارة، وإن كان صاحب تلك الملامح رجل يحبّها جدّاً، واسمه صديقها العزيز.

لكنّ صديقها يملك ابتسامة هادئة، "يجب علي أن أرسمه يوماً ما" قالت في نفسها. نظرت من نافذة المقصورة لم ترَ الكثير بسبب ظلام اللّيل وسرعة القطار، تعجّبتْ من أنّها لم ترسمه، مع أنّها تعرفه منذ سنوات طويلة، وعلى الرّغم من أنّها ترى في جُلّ كلماته رغبةً جارفة في أن تدعوه لرسمه، لقد رسمت الرّجال الفاتنين الذين عرفتهم في حياتها، لكنّها لم ترسمه هو بالذّات، حتّى ذلك المهاجر الأشقر رسمته في أوّل أسبوع من معرفته، وها هو قد هرب وسرق معه اللّوحة التّي رسمته فيها، بالتّأكيد أنّه لم يسرقها رغبة فيها، ولا نكاية بها، لكن لا بدّ أنّه فكّر في بيعها، لكنّها تحبّ تلك اللّوحة، وتكره أن تُسرق لوحاتها، لكن من يبالي؟ حتّى صديقها العزيز لم يبالِ بموضوع سرقة اللّوحة، لكن ماذا عساه يفعل في سبيل ذلك؟

"لا شيء بالتّأكيد". قالت، وهي تبرم شفتيها القرمزيّتين.

يا لذلك المهاجر اللّعين! لقد أحبّته فعلاً، لكن كالعادة خيّب آمالها، متى ستظفر برجل أحلامها الذي يعوّضها عن" انكساراتها كلّها وعن طويل انتظارها؟ لعلّه لن يأتي أبداً، وأين هو الحبّ الذي وُجِدَ ليعطي، ويحبّ، ويعشق دون حساب، لعلّه فقط في أذهان المراهقات.

يبدو أنّه عالم مجنون، لا سيما صديقها العزيز، لقد جُنّ -دون شكّ- ليتهجّم على شقّة المهاجر اللّعين، ويهدّده بالسّلاح ليختار بين أمرين: إمّا أن يُسعدني، وإمّا أن يختفي دون رجعة، وماذا اختار المهاجر؟ اختار بالطّبع أن

يختفي فهذا يتوافق أكثر مع خطّة اللاّ التزام التّي ينتهجها، لكن لماذا يفعل صديقي العزيز ذلك؟ "بالطّبع لأنّه صديقٌ مخلص" أجابت نفسها القلقة.

حركة أمعائها ذكّرتها بحاجتها للطّعام، لكنّ ما في جيبها لا يكفي لشراء شطيرة، ربما كان ينبغي عليها أن تقبل بأخذ قطعة من حلوى الجبن التّي قدمها الطّفل الصّغير إليها بناءً على إيعاز من جدّه.

"لو كان صديقي موجوداً لما هان عليه أن أبقى جائعةً، اعتدتُ على أن أطرق بابه عند كلّ حاجة، لأجده مبتسماً هادئاً قد حضّر لي ما جئتُ لطلبه، كأنّه كان في انتظاري، كان خطيباً لصديقتي المفضّلة، التّي اختارته في غمرة شقاوة المراهقة، ثمّ أورثتني إيّاه وآلامه عندما قرّرت أن تتزوّج رجلاً ثريّاً ملائماً لطموحاتها، ومنذ تلك اللّحظة غدا ملاكي الحارس، وصديقي الاستثنائيّ".

مدّ جامع التّذاكر يده إلى كتفها، ولكزها بلطف قائلاً: "لقد وصلنا يا سيّدتي إلى المحطّة الأخيرة، انتفضت بخجل، جمعت أشياءها القليلة بسرعة وهبطت على عجل، من جديد غادر القطار المحطّة، كانت وحيدة، في مكان لا تعرفه، خلا بعض المسافرين الغرباء عنها، تساءلت أنّى لها بنقود لتعود من حيث جاءت؟ سبّت في داخلها تهوّرها، وقراراتها غير المدروسة، استأذنت بعد تفكير مطوّل الشّرطيّ المناوب في المحطّة لتجري اتّصالاً واحداً لا غير، وافق على مضض، ثم بعد بضع رنّات، جاء صوت صديقها، فرحت به كفرحِ من وجد كنزاً، قالت له: "أين كنت مختفياً طوال الأيّام الماضية؟"

– قال بفخر فارسٍ أسطوريّ: "لقد اقتفيتُ آثار ذلك المهاجر اللّعين إلى أن اهتديتُ إليه".

- قالت بدهشة: "لكن لماذا؟"

- "كي استردّ منه اللّوحة التّي سرقها منكِ، وها قد أعدتها معي".

صمتتْ بتعب مهرٍ بريّ أنهكه الهرب، وقالت: "أنا مفلسة في محطّة ١٠٧، في شمال الولاية، هل يمكنكَ أن تأتي لاصطحابي؟"

- قال بحماس: "بالتّأكيد، انتظريني".

انقطع الخطّ، ردت السّماعة المجذوبة إليها عبر سلك طويل إلى شرطيّ المحطّة، كان يبدو من نظرة عينيه أنّه راغبٌ في ثرثرةٍ يقطع بها ساعات المناوبة الطّويلة، وكي لا يضيّع الفرصة قال مباشرة: "هل هو آتٍ؟"

فاجأها السّؤال، وأجابت تلقائيّاً: "نعم، هو آتٍ".

سأل بفضول: "أهو زوجك؟"

قالت، وهي تنزلق في الكرسي المجاور متعبةً جائعةً، لكن تملك يقيناً يقول إنّ الحبيب المنتظر هو صديقها: "لا، هو حبيبي، أقصد هو حبيبي العزيز، وهو آت في أسرع وقت ممكن".

اللّوحة اليتيمة

"إلى روح طارق العسّاف الذي ابتعله الماء، ويتّم لوحته"

ثُبتتْ على واجهة مخمليّة بارزة، الأضواء المُسلّطة عليها أبرزت أحزانها ووحدتها، كانت تقبع في صدر المعرض، تواجه تماماً عيني كلّ من يدلف إلى القاعة ذات البلاط الرّخاميّ والجدران المخمّرة بستائر مخمليّة خضراء، حصلت على الكثير من الصّور الفوتوغرافيّة من قبل مراسلي الصّحف والمجلّات، كانت تراقب جموع الحاضرين بحزن خاصّ يناسب خطوطها السّوداء التّي تحاصر بقعاً لونيّة صفراء يتيمة في حداد أسود.

كلّ لوحة من اللّوحات التّي كانت مصلوبة مثلها على واجهة مخمليّة نعمت بحشدٍ من الأصدقاء والمعارف، وبابتسامة عريضة على وجه راسمها إلاّ هي، فقد كانت وحيدة، تفتقد جموعاً تحمل ابتسامة فوز، وتفتقد بشكل خاصّ أنامل صغيرة رسمتها على عجل.

كانت لوحة تشكيليّة تحمل اسم "غوّار"، رسمها طارق العسّاف؛ ليكرّس بها أحلام الطّفولة، وليبرز فيها شخصيّة طفولته المفضّلة المتجسدة في غوّار، وليبث في ألوانها القاتمة خيالات حرمانه، وليزرع في بقعها الصّفراء أمل رجولته التّي تقف على أعتاب طفولته، لتدلف إلى جسده، فتكونه رجلاً أسمر بازغاً من شاب نحيل صغير، في عينيه العسجدتين آلاف الطّائرات الورقيّة ذات الأذيال المزركشة التّي تطير فوق سطح بيته، فيطاردها بعبثيّة وشقاوة هما أجمل ما في

طفولته البريئة، ثم يرسمها بألوان خرافيّة لا يملك أن يشتري أيّاً منهـا؛ لأنّـه لا يريد أن يكبّد أسرته المستورة الحال أيّ نفقات إضافيّة، ولو كانت نفقات زهيدة، ليرسم بها لوحة صغيرة تفتح طاقة على أحلامه، وعلى موهبته المتفتّحة كزهـرة بريّة.

لم يذهب إلى مدرسـة الفنـون، ولم يلتحـق بـأيّ نـادٍ للرّسـم، وقليلـة هـي حصص الرّسم التّي عرفها في مدرسته الحكوميّة القديمة، ذات الأسوار المهترئـة، لكن قلبه كان ينبوعاً للصّور والألوان، كـان يـتقن لغـة الصّـور، ويفـكّ رمـوز وطلاسم الألون، يكفيه أن يبتسم ابتسامته الخجولة السّمراء، ثـم ينتحـي زاويـة لدقائق أو لساعات، قد يقعد القرفصاء، ويسند اللّوحة إلى حضنه، وقد يركن بها إلى أيّ حائط قريب، ثم يشرع بكسي عريها بألوانه، خطوط تنبع من قلبه، ألوان تمتزج بمقدار ذوقه، ووفق غريزته التّي جُبلت بقدرة عجيبة على تذوّق الألـوان، واستجلاء جماليّاتها، واللّعب بظلالها ودرجاتها، دقائق من العمل الهادئ المنقطع على ذاته، ثم تكون اللّوحة، التّي يطير فرحاً بها، تفخر طفولته الولـود بلوحتـه المولود الجديد، يدور بها على أهل البيت، يعرض عليهم سحنتها الجميلة، يتبّرع بشرح معانيها، ثم تلاقي مصيرها، قد تكون هديّة لصـديق، أو واجبـاً مدرسـيّاً لمعلم الفنّ، أو مساعدة سخيّة لأحد أبناء الجـيران الـذين تقصّـر مـوهبتهم دون رسم لوحة تقتضيها حاجتهم في المدرسة أو في الجامعة أو حتى في مسابقة.

موهبته كانت كنزه الذي لا تمانع نفسه الطّاهرة في أن يتشاركه مع أيّ أحد، بل يسرّه أن يطلع أيّ أحد على وافر سـحره، وجلـي إبداعـه، وإن كانـت أمّـه ترجو أن يكون نصيبه من الدّراسة والاجتهاد والحياة والحـظّ بقـدر نصـيبه مـن ملكة الألوان، ومن سلطان حضورها، تتأمّل لوحاته، تقرّبها من صدرها، تبتسم له ابتسامة عريضة تتربّع في قسماتها الهادئة، ثم تقول مقيمة إيّاها: "رائعة".

فيبتسم طارق الذي يـرفض أن تضـمّه أمّـه إلى صـدرها، وأن تقبّلـه؛ لأنّـه رجل، والرّجال في عُرف طفولته لا تقبّلهم أمّهاتهم مثل الأطفال الصّغار.

يأخذ لوحته، ويطير بها إلى سرب الأصدقاء، وما أكثرهم كـانوا في ركـب المدرسة، وعرصات الحيّ وملعب كرة القدم التّرابيّ الممتدّ علـى طـول الشّـرّيط الغربيّ للحي الذي يسكنه!

كان مصروفه قد نَفِدَ تماماً إلا من قروش معدودة عنـدما عـرف مـن أحـد الأصدقاء القليليّن الذين يشترون الصّحيفة اليوميّة أنّ مسابقة إبداعيّـة للشّـباب على مستوى الدّولة تفتح أبوابها للشّباب الصّغار مثلـه للتّقـدّم لمسـابقة الرّسـم بلوحات من رسمهم، كان باب قبول اللّوحات يكاد يغلق بعد يوم، لكن المبلـغ المرصود للجائزة كان مبلغاً مستحيلاً وحلماً خياليّـاً لطفولتـه الجافّـة، قـدر أنّـه بهكذا مبلغ كبير يستطيع أن يجود بعشرات الهدايا على عائلتـه، ولا سـيما علـى أمّه الحنون التّي يجد حنان الدّنيا في حضنها، بل ويستطيع أن يشتري عدّة رسـم كاملة، ومن أجود الأنواع من محلّات الرّسم المتخصّصة في العاصمة، لكن عليـه قبل دراسة خطّة إنفاق الجائزة المـأمول فيهـا أن يرسـم اللّوحـة المناسـبة، وأن يوصلها بنفسه إلى المركز الثّقافيّ الملكيّ، حيث تسلّم اللّوحات المشاركة وَفْـق مـا هو مكتوب في الإعلان.

ليلة واحدة كانت أمامه لرسم لوحتـه، كانـت ذاكرتـه مخزنـاً يعـجّ بـآلاف الصّور والخطوط، لكن المشكلة كانت في الألـوان، وفي القمـاش الـذي يحتاجـه ليرسم عليه، ثم في الإطار الذي تشترط لجنة المسابقة الإبداع الشّـبابيّ أن يتـوّفر للوحة؛ ليعطيها الهيبة والشّكل المطلوبين، لكنّـه لم يكـن يملـك مـن الألـوان إلا الأسود والأصفر، ثم أنّ لا وقت عنده لتجهيز الإطار المطلوب، فضلاً عـن أنّ

مصروفه الشّهريّ كاد ينفد، ولا يستطيع أن يكبّد عائلته المزيد من النّفقات، "إذن ما العمل؟" حدثّ نفسه متسائلاً.

كانت عدّة رسمه تنحصر في الوقت الحاضر في لونين وقطعة قماش، وخلا ذلك لا شيء، حتى أنّه لم يكن يملك فرشاة رسم، ولم يكن هناك وقت لينتظر الصّباح؛ ليمر علىّ معلم الرّسم في المدرسة، ليستعير منه فرشاة رسم لحين إنجاز لوحته، ثم إنّه لن يذهب غداً إلى المدرسة، بل سيفرغ نفسه للذّهاب إلى العاصمة، وليدفع بلوحته المفترضة إلى لجنة مسابقة الإبداع الشّبابيّ، إذن الحلّ الوحيد هو أن يستعين بأنامله الصّغيرة التّي لوّحت الشّمس أديمها لرسم لوحته المبتغاة، وسيكون نجمه التّلفزيونيّ المفضل غوّار هو بطل لوحته.

في الصّباح كان طارق عساف يحتضن لوحته بحرص من يحمل إيقونه مقدّسة، ويعدّ الدّقائق في الباص الذي ما فتىء، يتوقّف، ويسير، يحمّل ركاباً وينزل آخرين ليسلم لوحته إلى لجنة المسابقة، مسّد عليها بحنان بأنامله الصّغيرة التّي ما زالت ملطّخة باللّونين: الأسود والأصفر، مع أنّه بذل جهداً كبيراً ليزيل أثرهما عن أنامله، لكن دون فائدة.

كانت لوحته مغلّفة بورق زينة الهدايا، وبدون إطار، مخالفة بذلك أحد الشّرّوط الرّئيسيّة لقبول اللّوحات الفنّية. لكن أمل الفوز كان رائده، دلف إلى المركز الثّقافيّ الذي يعجّ بمئات المتسابقين ممن هم في مثل سنّه أو دونه أو أكبر مع ذويهم؛ ليقدّموا أعمالهم الإبداعيّة في موعدها الأخير للجنة المسابقة، كان الدّور كبيراً، لكنّه انتظره مبتهجاً فخوراً بلوحته التّي تفوق بجمالها ودقتها اللّوحات جميعها التّي رآها في أيدي أصحابها.

كان صف تقديم اللّوحات قصيرا مقارنة بصفّ الإبداعات الأدبيّة، مثل القصّة والخاطرة والخطبة والقصيدة، تحفّز الأمل في نفسه بعد أن قبل موظّف

المركز أن يستقبل لوحته التّي تفتقر إلى أهمّ شروط المسابقة، ووعد بـأنّ يقدمّ إطاراً لها إن فازت.

"لعلّها تفوز" همس لنفسه التّي تضج بالإثارة والتوقّد، فهذه هي المرّة الأولى التّي يشارك فيها بمسابقة رفيعة المستوى كهذه، شرع يتخيّل الفرحة المنتظرة إن فاز بإحدى الجوائز الثلاث المخصّصة للرّسم، وإن كان يطمح للأولى منها، كم سيكون مهمّاً عندها؟! لا بد أنّه سيكون عندئذٍ محلّ فخر أسرته، ولا بد أنّ صورته ستغزو المجلّات والصّحف، ليته قدّم لهم صورة شخصيّة أجمل من تلك التّي قدّمها لهم.

"لكنّها تفي بالغرض" حدث نفسه قائلاً من جديد، لا بدّ أنّ مدير مدرسته سيكرّمه أمام طابور الصّباح، ومن يعلم قد يضع له معلم الرّسم الدّرجة النّهائيّة في الرّسم تقديراً لفوزه هذا.

"لا بدّ أنّي سأكون نجم المدرسة والحيّ إن فزتُ" أمّل نفسه قائلاً، وهو يصفق يداً بيد متحمساً، ويقطع الشّارع المقابل للمركز الثّقافيّ، ليستقلّ أوّل باص يعود به إلى بيته.

انتظر يوم إشهار النّتائج المعلن عنه في إعلان التّرشيح بفارغ الصّبر، لكن لجنة المسابقة فاجأته بدعوته للمثول أمامها قبل زمن إعلان النّتائج بأيّام، خفّ إليهم، يقدّم رجلاً، ويؤخّر أخرى، "أستراهم سيبلغونني برفض ترشيح لوحتي بسبب عدم وجود إطار؟" سأل نفسه، "هذا محتمل"، ردّت نفسه بقنوط، "لكن لماذا لم يستبعدوها دون إبلاغي بذلك؟ فذلك من حقهم"، سأل نفسه من جديد.

"نحن لم نستدعك لنبلغك بقرارنا باستبعاد لوحتك"، قال كبير لجنة تحكيم اللّوحات عندما سأله طارق عن سبب دعوته للقاء بهم.

- "إذن لماذا طلبتم مثولي أمامكم"، سأل طارق بفضول أحيا الأمل في قلبه.

- "كي نخبرك أنّ لوحتك قد فازت بالمركز الأوّل، وأنّ عليك أن تسارع بإحضار إطار لها قبل موعد إعلان النّتائج بشكل رسميّ".

- "هل تعني أنّي الفائز الأوّل في حقل الرّسم؟"

- هذا تماماً ما قلته".

- "إذن أنا الفائز بالمركز الأوّل في حفل الرّسم لهذا العام على مستوى المملكة؟"

- "بالطّبع يا بني"، قال المحكّم الأشيب ذو الابتسامة الواسعة، وهو يرقب طارق يكاد يطير فرحاً بجناحين ذهبيّين انبتتهما سعادة من لدن عالمها السّاحر.

غادر طارق المركز الثّقافيّ، وسعادة الدّنيا تحرسه، فكّر في أن يوقف كلّ مارٍ في الشّارع، ليخبره بأنّه الفائز بالمركز الأوّل في مسابقة الرّسم على مستوى الدّولة، حدّث نفسه باحتضان سائق الباص، وتقبيل مساعده الغليظ، والزّعق بأعلى صوته "أنا الفائز"، بصعوبة أحتوى فرحته، وسرّها لحين عودته إلى البيت.

كان ينوي أن يقسّم مدخراته المتواضعة بين رسوم رحلته المدرسيّة إلى الحّمة السّوريّة، وبين نفقاته الشّخصيّة في تلك الرّحلة، لكن نظراً للظّرف السّعيد الطّارئ، فقد بات من المؤكّد أنّ عليه أن يقسّم مدّخراته بين الرّحلة ونفقاته، وبين ثمن ابتياع إطار جميل ومناسب للوحة غوّار، التّي ستتبوأ المركز الأوّل في الحفل الذي سيقام الأسبوع القادم، وبهكذا تدبير سوف يحصل على الحسنيين: الرّحلة والجائزة.

إنّها المرّة الأولى التّي ينعم فيها بأمرين سعيدين في أسبوع واحد، وحال انتهائه من الرّحلة، سوف يهرول سريعاً بالإطار المطلوب إلى لجنة التحكيم.

هكذا كان مخطط طارق لجدولة نشاطات سعادته، لكن القدر كان قد جدول نشاطاته بطريقة مختلفة فيما يخصّه؛ إذ قدّمه لقمة سائغة للموت، فقد غرق طارق في رحلته المتمنّاة، غرق في الحّمة السّوريّة، كادت السّعادة تحمله على جناحين من نّور، لكنّها لم تقوَ على إنقاذه من الغرق، الماء طمح إلى احتواء روحه الموهوبة، لم يبال بفرحته، ولم يرحم انتظاره لحفل توزيع الجائزة، وتجاوز بجبروت عن أحزان لوحته، فيتّمها، واختطف راسمها، وأطعمه للموت، واحتواه بلجته دون أن يشعر بأثمه، ودون أن يؤنّبه ضميره على قسوته، أو على جبروت وجوده.

عاد الأصدقاء إلى بيوتهم بملابس مبلّلة، وبصدور معرّاة، ولم يعد طارق، الذي تنتظره لوحة يتيمة في بهو المعرض الذي أُعدّ لعرض اللّوحات المشاركة كلّها في المسابقة، الفائزة وغير الفائزة، لتشاركه فرحة الانتصار.

الوجوه كلّها حضرت إلا وجه راسم لوحة غوّار ، فقد غاب للأبد، دون أن تعلم اللّوحة المنتظرة لراسمها أنّها قد تيتمت منذ أيّام ، كادت تسأل أمّ طارق عن سبب غياب طارق عن الحضور، لكنّها خرست وَفْقَ قاعدة الجمادات التّي لا يّسمح لها بالكلام في حضرة الإنسان النّاطق الواحد، لكنّها بحثت عنه في الوجوه كلّها، تفرّست في وجوه الشّباب أصحاب البذلات الأنيقة، كانوا يتشحون بالأسود الأنيق ليبرز رجولتهم القادمة في هيئة رسميّة تناسب المناسبة السّعيدة التّي هم في صددها، عطورهم العبقة ملأت الجوّ، وأثارت رتابته، وأبعدت عن ذهنها صورة طارق المتّشح بأبيض الموت، والرّاكن باستسلام لرمس صغير احتواه منذ أيّام.

لم يطل انتظار اللّوحة لطارق، بل انتهى للأبد عندما أُعلن بحضور وزيرة الثّقافة عن موت طارق غرقاً، اختنق الجوّ بعبرات الحاضرين الذين شيّعوا لوحة

وصورة طارق بوافر الرّثاء والحسرة، ووقفوا جميعاً احتراماً لذكراه، قارئين الفاتحة على روحه الطّاهرة، حضنت وزيرة الثّقافة أمّ طارق التّي داهمتها موجة بكاء حارة كتمتها بصعوبة مذ حضرت إلى الحفل، تمنىّ جميع الحضور لو أنّ في إمكانهم حضن أم طارق؛ ليطوقوا بأسى أحزانها، وليحملوا منها قبساً من طارق.

الشّباب الموجودون في الحفل شعروا بخجل خاصّ من أجسادهم الغضّة التّي تتمايل تيهاً بالبذلات الأنيقة أمام نظري أمّ طارق الموتورة بابنها الغريق.

جموع كبيرة من المستعبرين التفت حول لوحة طارق، ترى فيها ما لم تره قبل دقائق، حُزْنُ الحشد هيّج مشاعر اللّوحة اليتيمة التّي تهشّ بصمتٍ لراسمها الرّاحل المتّشح بالأبيض، وتحنّ بشكل خاصّ إلى أن يدسّها تحت إبطه، وأن يغادر بها المكان شأنها في ذلك شأن اللّوحات الأخرى التّي سُلّمت لأصحابها في نهاية الحفل، بعد أن أُعلن عن تسمية هذه الدّورة الإبداعيّة بدورة طارق عسّاف، لكن أمنيتها لم تتحقّق، فقليلةٌ هي أمنيات اليتامى المتحققة.

استسلمت اللّوحة بانكسار ليدي أمّ طارق التّي ضمتها بانكسار إلى صدرها، وغادرت مبنى المركز الثّقافيّ لا تلوي على شيء، وتقفل يدها بحزن على جائزة طارق الماليّة التّي حلم أن يشتري بها علبة ألوان من النّوع الفاخر.

رجل محظوظ جدّاً!

لأنّه رجلٌ محظوظ جدّاً؛ فقد قرّر أن يشارك عصبة من المعارف في مشروعهم السّرّيّ، فلعلّ العصبة تتوزّع معه الحظّ الجيّد الذي يلاحقه دائماً، ويصبّ عليه جامّ مصائبه، مع أنه يخشى على الأصدقاء وعلى المشروع كذلك من سوء طالعه الذي يلاحقه منذ وُلِد؛ فقد ماتت أمّه في لحظة انزلاقه رخواً دبقاً إلى الحياة، وبحضوره الميمون يتّم أحد عشر شقيقاً وشقيقة.

زوجة أبيه المطلّقة رفضت أن تتكفّل برعايته؛ إذ وُلد ضعيف البنية، دائم العلّة يحتاج إلى وافر رعاية، فورثته العمّة العاقر الأرملة، التّي ربتّه كما تُربي دجاجة أو غنمة صغيرة، القليل من الطّعام، والأقلّ الأقلّ من العناية.

الأخوة لم يذق منهم سوى ذكرى مجاملات لطيفة، وأنس سرعان ما يتبخّر من نفسه كلّما زار بيت أحدهم، فيغادر دون أن يلفي في نفسه سوى امتنان الضّيّف لحسن الاستضافة للمضيف.

درس على حساب إحدى المنظّمات الخيرية، وإن لم يستطع أن يستكمل دراسته العليا؛ لأنّ حظّه العاثر على الدّوام جعل معدّله ينقص بمقدار عُشرٍ حقير عن المعدل المطلوب لإرساله في البعثة المتمنّاة.

في أوّل رحلة في القطار فقد رجله اليمنى في حادث إهمال قُيّد على إنّه قضاء وقدر؛ لذلك لم يستحقّ أيّ تعويض ماليّ عنها، فأنّى لتعويض أن يعيد قدمه التّي لاكها القطار، ولفظها على سكّته كتلة لحميّة فيها شوائب عظميّة مهروسة بشدّة.

من سوء الطّالع أنه كان أكثر رجال الدّنيا سوء طالع، فضلاً عن أنّـه كـان نفسه، ولم يكن أيّ أحد إلا ذاته عديمة الحظّ، المتعثرة دائماً بقدر يصمّ أذنيه دون دعائه، ويأتي على غير ما يشتهي، ويـذهب بـوداع غـير وامـق، فقـد اعتقـد أنّ قسمته التّي انطوت على حصوله على نفسه دون الـذوات الأخـرى ليسـت إلا شكلاً من أشكال سوء الطّالع، كم مرة فكّر في أن يحتال لنفسه فيبدّل نفسه بـأيّ نفس أخرى عندها حظّ ولو بمقدار حبة خردل.

لكن محاولته كلّها باءت بالفشل، وبقي حبيس نفسه، التّي تستحقّ كلّ رثاء، على الأقلّ من نفسه، إذ إنّ أحدٌ لم يكن معنيّاً بالرّثـاء لهـا كمـا يجـب، أو كمـا يعتقد أنّ أزمته تستوجب من الرّثاء.

الشّيء الوحيد الذي حالفه الحظّ به، هو هوايته الوحيـدة والمتاحـة، ضـمن قدراته العقليّة، وفي ضوء إعاقته التّي نزلت منذ سنين، وخلّفته متكئاً علـى قـدم خشبيّة خشنة، منحازاً في مشيته لصالح قدمه الخشبيّة التّي تقـرع الأرض قرعـاً، وتدمي المكان بحشرجة مقيتة، تجعله ضنيناً بالحركة كي لايثير اشمئزاز أو انزعاج الموجودين. الحاسوب كان هوايتـه العظمـى، التّـي تدفعـه إلـي عـوالم مـا كـان ليـدركها، وتجعلـه ضـمن نسـق عـالميّ ضـخم، وتثريـه بالمعـارف والأصـدقاء والصّلات.

له أصدقاء في أقطاب الدّنيا كاملة، مضطلع ّبكلّ ما يجري في أنحاء المعمورة، على اطّلاع دقيق على خطط الحروب، وعلى علم كذلك بالعلاقـات السّياسـيّة المريبة، يعرف أين صبّت آخـر الأسـلحة المُـتخلّص منهـا بعـد الحـرب الكونيّـة الأخيرة، وفي حافظته الإلكترونيّة أسماء أشهر أعـلام المـال والسّـلاح والجـنس وتجّار الموت في العالم، وهو قادر علـى اخـتراق أنظمـة الأمـن في أخطـر أمـاكن الدّنيا.

يحلو له أحياناً أن يمتدّ لحظة خفية في أروقة ومحافل سادة الدّنيا، يفكّ شفرات أجهزة التّجسّس، ليصبح ضيفاً سرّيّاً على أنظمة الحواسيب، يعرف أكثر ممّا يجب، بل وأكثر ممّا يشتهي، ينسحب كما دخل، أحدٌ لا يدري بوجوده، خلا بعض الخراب الذي يحدثه في الأنظمة بقصد الانتقام لنفسه التّي ستمضي أيّاماً متقزّزة، ومضربة عن يسير الطّعام الذي تتوافر عليه، انزعاجاً وقرفاً ممّا سمع وعرف، ثم يتشافى، ليعدو من جديد على أسرار وأنظمة غيره.

لديه يدان سحرّيتان قادرتان على حلّ أعقد الشّيفرات، وعلى فكّ أعتى الرّموز السّرّيّة، قدم تقارير تفصيليّة بقدراته الاستثنائيّة، وبموهبته العجيبة لكثير من الجهات، لكن أيّ جهة لم تبدِ رغبة في استقطابه، حتى تلك الجهات السّرّيّة المتناثرة في أصقاع المعمورة، التّي تجّرأ، وأطلعها على قدراته على اختراق أنظمتها، أعياها الرّد، وتجاهلته، وعدّته نكرة لا تستحقّ أن يُحرّك في سبيلها ساكناً، وما ظنّته خطراً يُحيق بها، فخلّت بينه وبين موهبته التّي تذهب سدىً دون طائل.

الجهة الوحيدة التّي بالت بعروضه، وطلبت مقابلته لم تكن معنيّة بشكل أو بآخر بموهبته، بل أبرقت له بإيعاز من دائرة تشغيل الحالات الخاصّة، على اعتبار أنّه معاق، ويحتاج إلى أيّ عمل ضمن قدراته، وفي ليلة وضحاها وجد نفسه مدفوناً تحت الأرض، في قاعة مبرّدة أكثر ممّا يجب، لحفظ مخطوطات هو القيّم على حفظها، وعلى تيسير مهمّة الاطّلاع عليها لكلّ طالب علم دون تصويرها أو اتلافها، وكثيراً ما يكون عالماً انحنى ظهره، وشاب شعر رأسه الذي انحسر حتى كاد يجدب من أشجاره، يتناوب على استخدام نظارتين، أحدهما لمعالجة القصر، والأخرى لتبديد معضلة طول النّظر؛ لكي يطالع باهتمام مسكون بالسّرّيّة مخطوطات ذات أسماء غريبة، لمؤلّفين ابتلعهم النّسيان.

عرف أنّ الكثير من المراجعين لمقرّ المخطوطات الوطنيّة يبذلون جهوداً جبارة ومضنية ودؤوبة لسنوات طويلة، وبدعم من جهات مختلفة، ونادراً بالاعتماد على تمويل ذاتيّ مقننّ، لإعادة قراءة تلك المخطوطات، والتّهميش عليها، ومن ثم تحقيقها، وبعثها من البلى في كتب قيّمة، لها وزنها وأهميّتها في ميدان تخصّصها.

تابع باهتمام تلك العلامات المكتوبة على المخطوطات، وأصبح قادراً على الحكم على أهميّة المخطوطة وقيمتها، كما كان قادراً على معرفة إن كانت المخطوطة بخطّ صاحبها، أم هي إملاء على أحد تلامذته، أم أنّها نسخة أحد النسّاخ، كان يعلم أنّ كثيراً من الهوامش التّي تبدو خطوطاً عبثيّة تزحم هوامش المخطوطة وجوانبها قد تكون كتاباً آخر مؤلّفاً عن هامش الكتاب الأوّل.

صنّف المخطوطات حسب أهميّتها، ثم أحصى نسخ المخطوطة الواحدة، حجل طويلاً حول المحقّقين، تابع ملاحظاتهم باهتمام، وسمح لنفسه بالتّدخل بالأسئلة التّي تفكّ رموز ما يكتبون، وتفسّر ما يفعلون، أسئلته الذّكيّة، وملاحظاته الطّريفة الجديرة بالإحكام، جعلت له مدخلاً حسناً، وتقبّلاً طيباً في أنفس المحقّقين الذين أجابوا طويلاً وبإسهاب على أسئلته كلّها، واستمتعوا بمناقشاته واستدراكاته وملاحظاته التّي ما وجدوا في أنفسهم حرجاً في تدوين بعضها، والتّوقّف كثيراً عند جُلّها.

غدا راهب المخطوطات الذي يلجأ إليه المحقّقون والباحثون، ويسترشدون بملاحظاته التّي لا يضنّ بها على أيّ زائر للمكان، إلا زائري ركن مخطوطات السّحر والشّعوذة، وإن كانوا قلّة، فقد كانوا متكتّمين أكثر ممّا يجب، يجيبون على الأسئلة باقتضاب وخبث، يتنحّون جانباً، ويطالعون المخطوطات بحرص من يبحث عن سرّ، يدونون ملاحظاتهم على أوراق صغيرة، يدسّونها في جيوبهم

بحرص، دون أن يعرف ماذا كتبوا فيها مهما اجتهد في معرفة ذلك، ثم يقفلون مغادرين، قد يعودون مرة أو اثنين بعد ذلك، وفي الغالب لا يعودون، هيئاتهم لا تشبه هيئات أهل العلم، يخامره إحساس مشوش تجاههم، يقتضي منه الحرص واليقظة.

الفضول وحده من قاده إلى الاطّلاع على تلك المخطوطات القليلة المنزوية على رفّ سفليّ في آخر القاعة بالقرب من جهاز التّبريد، طالعها طويلاً، معرفته بالمخطوطات لم تسوّغ له إلا معرفة القليل ممّا قرأ فيها، أما الباقي فقد بقي غامضاً لايفكّ كنهه إلى أن تعرّف إلى ذلك الشّاب الطّامح الذي شابه من سبقوه بزيارة المكان باللّباس الملفت، وإن خالفهم بالتّبسّط والأريحيّة في الكلام اللّتين ساقتهما سريعاً، ودون توقّع أو مقدّمات مطوّلة إلى الاتّفاق على البحث سويّاً ضمن فريق من الأصدقاء عن الذّهب في الصّحراء الشّماليّة، حيث لا حياة أو بشر، فقط ذكرى سكّة حديد قديمة، باتت مهجورة غير مستعملة منذ أن تبدّلت خارطة المواصلات في العقدين الآخرين.

كانت مهمّته تنحصر في استخلاص أهمّ مشاريع ومخطّطات آلات الكشف عن المعادن من شبكات التّصنيع والتّعدين ومواقع الهندسة الميكانيكيّة والإلكترونيّة على الانترنت؛ لتصميم جهاز كشف عن المعادن الذي سيقع عبء تنفيذه على عاتق بعض الأصدقاء أصحاب الاختصاص.

البحث كان طويلاً، والنّتيجة كانت أقل ممّا يتوقّع، لكنّها مقبولة على اعتبار أنّها خطوة أولى في تصميم الجهاز وتنفيذه ضمن ميزانيتهم الماديّة المحدودة.

تكاثف فريق العمل، وتعاضدّ أعضاؤه إلى أن حصلوا على الجهاز المطلوب، الذي خيّب آمالهم في رحلة عمله الأولى؛ فقد قصر مداه على متر أو

مترين يستطيع أن يكشف خلالهما عن وجود المعادن، وما تجاوز ذلك فقد كـان يقصّر دونه، لكن البحث بقي مستمرّاً.

تحـوّل إلى صـحراويّ مـن أوابـد الصّـحراء التّـي ابتلعتـه والأصـدقاء، واشتملتهم بهدوئها وسحرها، كان البحث شاقّاً، وتتبّع خـرائط الكنـوز عسـيراً ومضنياً، يلزمه أنفساً لا تعرف اليأس أو التّعب، ولا تشتكي أفاعي الصّحراء أو الشّمس المحرقة أو الحرارة التّي سلخت أبطيه، ومابين فخذيـه، وهيّجـت عقـدة اللّحم التّي بُترت ساقه من تحتهـا، لكـن بريـق الـذّهب المُرتجى، وأمـل الثّـراء المفاجئ كانا حافزين لا يعرفان فتوراً في أنفس الجماعة، ولا سيما في نفسه التّـي تخطّط أن تغتال بالذّهب حظّها العاثر، وأن تنفـق بعضـاً منـه علـى شـراء حـظّ جديد، يعوضه عن حرمان الماضي، ويسعف أيّامه القادمة.

أهمل عمله طويلاً، وسمح لنفسه باختلاس بعض الصّفحات الخطيرة مـن مخطوطاته الثّمينة، واستطاع بعد جهد عناء أن يفكّ طلاسم ومتغيرات كثيرة من الرّموز والخرائط التّي اصطلح عليها دافنـو الـذّهب، وجعلوهـا مفـاتيح سـرّيّة لمعرفة أماكن دفائنهم؛ لعلهم يعـودون يومـاً إلى اسـتخراجها، المـوت حـال بـين الكثير منهم وبينها في حـين بسـم الحـظّ للكـثير مـن الـذين وقعـوا علـى تلـك الدّفائن، فتبدّل فقرهم غنىً، وتعاستهم حظّاً، وافترّت الـدّنيا لهـم عـن ابتسـامة ذات أسنان ذهبيّة.

صورتا الجمل والجرّة هما الصّورتان الأحبّ لقلبه، وهما الصّورتان اللّتان بحث عنهما طويلاً مع الأصدقاء، فالجمل أو الجرّة يرمزان للكنز، بفارق بسـيط، فصورة الجمل أو الجرّة النّافرة تعني كنزاً مدفوناً على عميـق قليـل، أمّـا صـورة الجمل أو الجرّة الغائرة فتعنـى كنـزاً مـدفوناً علـى عمـق سـحيق، قـد يسـتلزم استخراجه شهوراً من الحفر، لكنّه مستعدٌ لبذل ذلك المجهود الخياليّ، لكـن أيـن

هما الصّورتان المحفورتان؟ بحث عنهما طويلاً بجهد مضني، أربك عاهته المزرية، وآلم ظهره دون جدوى.

حفظ الكثير من قصص الباحثين عن الذّهب التّي انتهت في معظمها بالتّمنّي والفشل، والموت، وفي النّادر بالذّهب والغني، فقصص الذّهب كانت ملطخة بدماء الأصدقاء الذين يغدون وحوشاً مصابة بالصّرع مع أول بريق ذهبيّ، تمنّى الذّهب دون الموت، بحث طويلاً عن شخص واحد وجد ذهباً، ليكون عزاءه في الصّمود، لكنّه لم يصدف ولو واحداً، فحكايات الذّهب والكنوز كثيرة، لكن من المستحيل أن تجد فماً واحداً يتشدّق متفاخراً سعيداً بلقيته الثّمينة، فالصّمت والسّرّيّة هما أفضل تدبيرين مع الذّهب، هكذا علمّه الأصدقاء، وهكذا علّمته قصص الذّهب.

تساءل طويلاً إن كان سيحظى يوماً بالذّهب، وتمنّى أن يحصلّه حياً لاجثة هامدة، تتناوشها طيور الصّحراء، وتتكالب عليها هوامها وضواريها، مع أنّ حظّه العاثر كان يوسوس له كثيراً بالسّوء، ويتمثّل أمامه سبباً متوقّعاً لكلّ البحث الفاشل الذي يُمنى فريقه به المرّة تلو الأخرى، ويلوّح له باليأس الذي تنعى نفسه الاستسلام له، وإن كان يحدّث نفسه طويلاً بأنّ الرّحيل بعيداً مع حظّه العاثر قد يفتح أبواب الكنز أمام الأصدقاء، لكن طمعه وتمنّيه للذهب ما كان ليحمله على النّزول على حديث نفسه، ولا يصيب في نفسه إذعاناً لشكوكه ولوساوسه، فكل عنائه وسني شقائه سبب كافٍ لأنّ يصمد، ولأنّ يستمر، وإن قصّر توقّعه دون أنّ يعرف أنّ الانتظار على وشك الأفول، وأنّ باب الكنز قيد أنملة أو أنملتين .

في قلب الصّحراء، في واحة جافة، تكدّست صخورها بعبثيّة طبيعيّة خلاّبة، وفي قلب صخرة عظيم، حيث كانت تنفجر أعينٌ جفّت منذ زمن، مخلّفة

نخلات سامقة، وأحجاراً ملساء براها الماء، وحفّها الهـواء، كانـت صـورة الجـرّة مرسومة بعناية، بأطراف نافرة.

أسعدته الصّورة كما لم يسعد يوماً، رعدةٌ سرت في معاول الأصـدقاء إثـر مشاهدة الصّورة، شرعوا في حفر نشط ممزوج بنشوى غريبة، لاتعرف توقفاً، ولا تأنس لراحة، المعاول كانت الحـيّ الوحيـد والنّشـط في خمـول المكـان، في حـين انحصر عمله في إعمال آلة كشف المعدن في المسح التّي مـا فتـئ رنينهـا المتعـالي الذي لا يعرف انقطاعاً يؤكّد أنّ الكنز بات أقرب من تعـبهم، ضـربة مـن أحـد المعاول اصطكّت بشيء معدنيّ، توقّف المعول صاحب الضّربة، واستنّت المعاول الأخرى سنته، تسمّر الجميع في أماكنهم بسعادة وترقّب وانقطاع انفـاس، كـانوا جميعاً ينتظرون الضّربة الأخيرة التّي ستظهر الكنز، لكن أيّاً مـنهم لم يجـرؤ علـى تلك الضّربة، فقد كان الحلم قيد ضربة معول، لا بـدّ أنّ الـرّؤوس كلـها كانـت مشحونة بفكرة مضطربة واحدة، لسان حال وجوهم الواجمة ينقلها ببلاغة، قدّر صاحب الحظّ العاثر أنّ الألسن جميعها تسأل: "ماذا بعـد ؟" لكـن أحـداً لم يجب، وتركّز الحفر والضّرب في مكان الضّربة المشهودة، وسـريعاً مـا بـرزت صـناديق الكنز، كانت صناديق سبعة صدئة، محكمة الإغلاق، متنحية بصمت، كعـذراء لم تفضّ، تنهدات الرّاحة انبعثت من الصّدور التّي أنهكها البحـث والحفـر، فمـن الواضح أنّ الكنز بكرٌ لم تمسّه يد بعد، وأنّهم سيكونون مفترعيه.

صاح صوت: "مرحى، لقد أصبحنا أغنياء أخـيراً"، ثـم تعاضـدّت الأيـدي، وتصدّت الصّدور فرحة لتحتضن الآخرين مباركة مهنئة، مؤكّـد عهـود الأمـان المبرمة في الماضي، وإن كانت الأنفس تحمل حـذراً لـيس لطـرده سـبيل في ظـلّ الثّروة المستلقية على الأرض.

سأل صوت آخر بتحمس ذكوريّ مشحون: "لكن صناديق الكنز سبعة، ونحن ثمانية رجال، فكيف ستكون القسمة؟" أطرق الكلّ، في حين قال آخر بحذر من يحاول أن يحلّ مشكلة مفترضة، قد تلوح في الأذهان المتوقدة باستفزاز لذيذ: "لا مشكلة، ليتقاسم ثمانيتنا الصّناديق السّبعة".

ارتفع صوت متوقّد آخر: "لكن قد تكون القسمة بهذا الشّكل غير عادلة.

- "لكن كيف ؟"

- "انظر هناك جرّة صغيرة أيضاً، فكيف سنقسم جرّة واحدة وسبعة صناديق على ثمانية رجال؟"

- "صحيح، عندنا مشكلة حقيقيّة".

- قال صوت متحدٍ بخبث: "لعلّ من المناسب أن نكون سبعة رجال لا غير".

خيّم صوت رهيب على المكان، حسبة سريعة وخطيرة كانت تتّقد في أذهان الصّامتين، وشبح الموت يلوّح بأجنحة سوداء تخيّم على الواحة الجافّة، أيقن الرّجل ذو الحظّ العاثر أن حظّه العاثر قد حضر الآن مدجّجاً بقوته اللّعينة، وخال أنّه جاء هذه المرّة واضعاً يده بيد ملك الموت، لابدّ أنّه الحلقة الأضعف، والحصان الأهزل في سباق الذّهب، إحدى الأعين التّي امتدّت بتلقائيّة إلى قدمه الخشبيّة أكّدت له توقّعاته؛ فلا بدّ أنّ التّخلّص من رجل بقدم واحدة سيكون أسهل الحلول، وأسلم التّسويات في هذا الخيار الجهنّميّ، لكنّه ما كان يريد الموت، وما كان في طاقته كذلك أن يتصدّى برجل واحدة لسبعة رجال أزاغ بريق الذّهب قلوبهم وأسماعهم وضمائرهم، كان عليه أن يجد حلا لنفسه في أجزاء من الدّقيقة.

خرق صمته الهدنة المريعة التّي يقطعها الكلّ في زمن رتيب جاثٍ على تحفّز النّفوس، وعلى فوضى الأفكار، ثم قال بجزم: "أنا لا أريد صندوقاً، تكفيني تلك الجرّة الصّغيرة، وتقاسموا أنتم الصّناديق جميعها".

"تسوية عادلة" صاح صوت مخترقاً الصّمت المخيف المخيّم على المكان، "أظن أنّه اقتراح مقبول" صاح صوت آخر بارتياح وتأيد.

اقترب الرّجل ذو الجسد العظيم والعضلات المفتولة الذي تتنزّى شهوة الذّهب من بين لعابه من الجرّة الصّغيرة، ودفعها في الهواء باتّجاه صاحب الحظّ العاثر، الذي بذل جهداً كبيراً ليكيّف جسده، وليـنحني نصف انحناءه جانبية، ليلتقط الجرّة الصّغيرة، ضمّها إلى صدره سريعاً لا يصدّق أنّه يكاد ينجو من الموت، كانت غنيمة مقبولة إلى جانب بقائه على قيد الحياة، خطا خطوة مبتعدة قلقة، وقال: "بهذه الجرّة أكون قد أخذت كامل حصتي"، لم يسمع جواباً، لكن صمت الجميع أراحه، انطلق في الصّحراء، يحمل غنيمته الصّغيرة، ويستعدي طاقته كاملة، لتسعفه أكثر ما يمكن في الابتعاد، كان صوت نقاش الأصدقاء م ازال يشحن صمت المكان، الصّراخ كان في تعالٍ، مع أنّه كان في ابتعاد، من الواضح أن خلافاً جديداً في القسمة قد ظهر، واشتد، أصوات الطّلقات النّاريّة أكدّت أنّ تسوية دمويّة تحدث في الواحة، ما كان ليبالي بها، حتى بعد أن توقّفت العيارات، وسوّيت الخلافات لصالح واحد لا غير، رآه من بعيد يركب سيارته الصّحراويّة، ويبتعد بعيداً بغنيمته العظيمة، وسحابة الرّمال المتطاير إثر عربته تشيّعه بجلبة مزعجة، لم يفكر أبداً في أن ينثني عن سيره.

ثم وصل إلى جرف صخريّ يعلوه شقّ صلد عظيم، اندسّ بين صخور الشّقّ، أخذ راحة كاد الموت يزهق روح صاحبها، الذي أعيته القدم الخشبيّة سقوطاً وانزلاقاً وعرجاً، جفاف الموت لفح حلقه، كان مستعداً لشراء شربة ماء

بكنزه العزيز الذي يضمّه بحنو إلى صدره المكسو بالقليل من اللّحم المزبد بالشّعر الأسود.

هدوء المكان وأنفاسه التّي كانت تجنح للانتظام أكداً لـه أنّـه قـد أصـبح في عهدة السّلامة، مسّد على جرّته، وتساءل أيّ الجوهر يسكنها؟ كان بين شـهوتي الاكتشاف والتّمنّي، اختار الشّـهوة الأولى؛ فقـد شـبع قسـراً طـوال حياتـه مـن الشّهوة الأولى، استعان بحجر صغير مدبّب لتهميش فوهة الجرّة الموصـدة، غبـار رماديّ غريب اندفع من الفوهة، للحظات انعدمت الرّؤيـة، ثـم اسـتوى الغبـار على شكل امرأة جميلة، بغلائل شفّافة، وقرون ذهبيّة صغيرة، وابتسامة جهنميّة، حضنته كما غولة تحضن عصفور صغير، كـادت تهصـره، ثـم أرسـلته بشـهوة، وقالت له: "ها قد التقينا، يا سلطان الزّمان".

سأل بخوف يكاد يقتله: "من أنتِ؟"

ردّت بتحمّس وغبطة: "أنا زيزفونة".

سأل بتوتّر وقلق: "من زيزفونة؟"

- "أنا جنيّة المتوفّى صاحب الكنز الذي حرّرتني من أسره".

- سأل بخوف: "أكان هذا الكنز لمتوفّىً ما؟"

- "بالطّبّع، هذا الكنز لرجل متوفّىً، ولو حفرتم بمقدار متر إلى شمال الكنـز لكنتم حظّيتم بهيكله العظميّ".

- "الحمدلله إذ حرمنا من مقابلة ذلك الهيكل."

- "هل عندك مستودع للسّر؟"

- ردّ بوجل وريبة: "بالتّأكيد".

دنت منه، فتضوّع أريجها، وسكن خيشومه، قالت بتؤدة: "حيث وجدتم الكنز هناك بحر من الكنوز، فهذا المكان مقبرة ملوكيّة قديمة، تحت رمال تلك الواحة بحر من الكنوز."

- "ماذا عنك؟"

- "ماذا بشأني؟"

- "أقصد ألن تعودي من حيث أتيت؟"

- "مستحيل، فأنا في انتظارك منذ ألف عام".

- "تنتظريني! لماذا؟"

- "انتظرك لأتلبّس جسدك، وأصبح وإياك واحداً".

- "لكنّني لا أريد ذلك".

- "من سيبالي برغبتك؟ أنا أحبّك".

- "منذ متى ياكاذبة؟ للتّو قابلتيني!"

- "سُرقت من أرض الجنّ، وسجنت في تعويذة سحرّيّة لأسكن جسد ملك البربر؟"

- "إذن اسكني جسده".

- "لكن جسده بلى، وتحلّل، وأنا ملك لمن يجدني، وأنت من وجدني، بل أنت من اختارني، ألا تذكر أنّك اخترتني، وتخليت في سبيل ذلك عن صناديق الكنز؛ لذلك سأسكن جسدك إلى الأبد".

قال بريبة ويأس من أُسقط في يديه: "لكن هذا سيفسد حياتي".

ابتسمت، وغمزته قائلة: "لا تقلق، فمن يدري قد تحبّني، وقد نتزوج، وقد ننجب أبناء خليطاً من جسد الإنس وروح الجنّ".

- "ابتعدي عني، أيّتها الملعونة".

- "لكنّني أحبّك".

حظّه العاثر كان هاجسه الوحيد، وهي تخترق جسده، وتنازع روحه المكان، وتضيق على أحشائه، كانت كرمح مسموم يندسّ بين اللّحم والعظم، يؤلم، ثم يقتل، كره الكنز، وحقد على حظّه العاثر الذي ملكّه لجنية عاتية سرعان ما تحوّلت إلى حبّ عظيم اجتاح نفسه البائسة، واكتنف جنباتها، وحاق بآلامه، وأشعل جذوه سعادة لاتخبو في وجدانه، وجعله يؤمن بحقّ أنّه رجلٌ محظوظ؛ إذ نجا من الموت الذي ابتلع أصدقاءه، فضلاً عن نجاته من حبل المشنقة الذي التفّ حول رقبة النّاجي الوحيد من رفاقه، ثم وهبه جنية ساحرة، سكنت الزّمن والجوهر، وتصدّت لحبّه، وملأت نفسه الحزينة سعادة، وجعلته بحقّ رجل محظوظ جدّاً.

دقلة النّور

من الواحة التّي تسكنها أو الغابة كما تُسمى حيث نهاية السّفر الطّويل للرّحل كلّها وسرّ حروف العشق والجمال تستطيع أن ترى خيام أولئك العرب الخليجين الأثرياء الذين جاؤوا من الخليج العربيّ؛ لينصبوا خيامهم المترفة فوق رمال الصّحراء الملتهبة بالحكايات والقصص والانتظار، هم جاؤوا من البعيد مدجّجين بمالهم وترفهم؛ لينصبوا الفخاخ والبنادق للطّيور المهاجرّة التّي تمرّ بصحراء توزر، وسكّان تلك المدينة الصّحراويّة الهاجعة في صمتها الحارّ لا سيما صغارها وشبّانها جاؤوا إلى المكان ذاته ليسترقوا النّظر إلى أصحاب الدّشاديش البيضاء ذوي الخدم، سمان الوجوه، نظيفي الملابس.

كان قدومهم شبه الموسميّ يثير البهجة والفضول في نفوس سكّان الواحة، لكنّ قدومهم هذه المرّة حمل الكثير من المتاعب والقلق، وحمل معهم ذلك الأسمر المديد القامة، ذا الملابس العصريّة الزّاهيّة، والنّظّارتين السّوداوتين اللّتين لا ينزعهما أبداً، حتّى ولو كان في غمرة تشجيع وفرح يدعم فيها ما يعاينه من الصّيد الوفير الذي حقّقه رفاقه في رحلتهم الصّحراويّة، فقد كان يكتفي بابتسامة عريضة تُظهر لامع أسنانه، وتبرز ذقنه المحدّد، وشاربه الأسود الدّقيق.

كانتْ تعنيها نخلاتها العفيَّة التّي تمتدّ على مدّ النّظر أكثر ممّا تعنيها متعة مراقبة المخيِّمين في قلب الواحة بالقرب من عين الماء، لكنّه أصبح صداعها المزعج منذ أن قابلته في سوق الواحة مقبلاً على تذوُّق تمور "دقْلة النّور"، هو ورفيقة الأوروبيّ ذو الشّعر الإسفنجيّ، والعيون الخرزيّة، والنّمش القبيح، كانا

مضطلعان بتذوّق التّمور، ومطالعة أديمها البلوريّ ونواتها الانسيابيّة، كانت تموراً أسطوريّة، كأنّها من ثمار الجنَّة، اسمها دقلة النّور، أيّ أصابع النّور كما أسماها المزارعون الأمازيغ، هي سحر صحراء توزر، فهي هبة صحرائها دون أراضي الدّنيا، وقد اكتسبت اسمها من شكل ثمرتها التّي يستطيع المرء أن يرى النّواة منها.

اسمها دقلْة النّور، لكنّ دقلة النّور الثّمرة هي من كانت مقصده بإيعاز من شركائه الأمريكيين، الذين كان يصبو وإيّاهم للسّيطرة على تمور الواحة؛ لذلك فقد أصبحت هي بحكم ملكها لكثير من أشجار هذه الواحة مقصداً له.

قابلها بعد رحلة طويلة في المكان، ومن بعيد من فوق إحدى تلال توزر الجرداء حيث اعتاد شاعر توزر أبو القاسم الشّابي أن يجلس لينظم أشعاره أشار إليها أحد سكّان الواحة ليعرفها، فترجّل عن صخور التّلّة، يقصدها هي بالذّات، كانت تزداد سمنة في عينيه كلّما اقترب منها، قبل أن يصلها همس الأمريكيّ بلغته الغربيّة التّي يستطيع أن يفكّ طلاسمها قائلاً: "يا لها من سمينة صغيرة!"، فابتسم لكلماته مؤيّداً، كانت سمينة بسمرة داكنة، ولها عينان تحملان إرثاً أمازيغيّاً طويلاً من التّمرد والعصيان والثّورة، سرّه أن يتابع فصول تاريخه في عينيها ذاتي اللّون التّمريّ، وإن لم يسرّه أن تردّ عرضه السّخيّ، وأن تسخر من مشروعه الذي يهدف إلى شراء الواحة، وامتلاك أشجارها السّحريّة ذات الثّمار الأسطوريّة، وصفته بالخيانة والتّآمر لصالح الغريب، وقدحته بتهمة التّنكّر للأصل والدّين، خلع نظارته، فأصبحت تماماً قبالة عينيها اللّتين تستعران بغضبِ تنينٍ ينفث النّار والوعيد، لأوّل مرّة ترتعد أمام نظرة رجلٍ ما، عرفت في حياتها الكثير من الرّجال والأغراب، لكنّ غضب عينيه كان له وقع انكسار أيقونه مقدّسة في نفس ناسك متعبّد.

طويلاً ما طاردها أملاً في أن ترضخ لرغبته، لكنّها ما رضخت بل كانت بمثل بُعْدِ سراب صحراويّ في مفازة ليس لها نهاية، حرّضت عليه سكّان الواحة كلّهم الذين باتوا حذرين منه، ومن ضيوفه، تمنّى أن يصفعها، وظنّ أنّ من الممتع أن يُذلّ أنوثتها السّمراء الموهوبة بسخاء لجسدها الغضّ الممتلئ بقوّة.

ابتداءً سخر من سمنتها، لكنّها ما بالت بذلك، ثمّ سخر من اسمها، فما بالت، ثمّ طاردها مصرّحاً بحبّه المرّة تلو الأخرى، وما استجابت، فحقد على أنوثتها السّمراء الممتلئة.

كان يقضي نهاره في شراء أشتال تمور "دقلة النّور"، وتكديسها، تحضيراً لإرسالها إلى أصدقائه في أمريكا لدراسة خصائصها، تمهيداً لزراعتها في مناخ مشابه لمناخ أرضها الأمّ في كاليفورنيا، أمّا ليله فيقطعه متفرّساً النّيران الموقدة بين الخيام التّي يُشعلها الخدم للسّمر ولشواء الخراف، ومنتهزاً أيَّ فرصة ليسترق أيّ معلومة ولو كانت صغيرة عن السّمراء السّمينة التّي أراد أن يقهر أنوثتها، فهزمته وسكنت أحلام يقظته.

طارد قصص الواحة، واستغفل ثرثرة النّساء، وراود الأطفال على الحلوى والسّكاكر ليعرف أنّ اسمها دقلة النّور، سُميّت بذلك تأكيداً على نسبها لامرأة مبروكة فقيرة كانت تسكن الواحة منذ مئات السّنين، وكانت أُمنيتها أن تذهب إلى الحجّ، وأن تزور قبر الرّسول الكريم، لكنّها ماتتْ قبل أن يتحقّق هذا الحلم، فدُفِنتْ في أرض الواحة، ودفنت معها مسبحتها القديمة المصنوعة من نوى التّمر، فرقّ الرّسول الكريم لحالها في قبره، فهبطت دموعه على المسبحة، عندها لم يتحوّل النّوى الجافّ إلى واحةٍ مليئةٍ بالنّخيل فقط، لكنّه أنتج نوعاً من التّمور لم يكن موجوداً من قبل، هو دقلة النّور.

كانت قصّة ترويها الألسن في الواحة، ويرفضها عقله الذي يدين لأحدث النّظريّات العلميّة الحديثة التّي اطّلع عليها في دراسته الطّويلة في الغرب، لكنّ هذه المزاعم الأسطوريّة كانت توافق بشكل أو بآخر هالة النّور التّي يراها تحيط بسمرائه السّمينة.

لا تعجبه السّمينات، لكنّ لجسدها الذي يضجّ بشيء سخين ودافئ وقع كبير على حواسّه التّي تنتفض كلّما مرّت به مزدرية محتقرة له، حاول أن يسترضيها أكثر من مرّة، لكن دون فائدة، وانتهى موسم الطّيور المهاجرّة، وأفلت متعة الصّيد، وشدّ الأصدقاء الرّحال قاصدين أصقاعاً شتّى في الدّنيا، وحزم اشتياقه مع ثمار دقلة النّذور، وسافر دون أن يراها، مع أنّه بذل جهداً حقيقيّاً لكي يراها أثناء جولة طويلة في سوق الواحة، لكنّ ذلك لم يحدث، كأنّها تعمّدت أن تغيب في لحظة الغياب.

مع أفول المساء كان الأفق يودّع عربات الأثرياء الذين يغادرون المكان، ويغيبون عنه، لكن لا يغيبون عن ذكرى دقلة النّور التّي ودّعت المسافرين بحزن غريب، وتنفّست الصّعداء بعد رحيل متعة الصّدّ والرّغبة.

عادت إلى الاعتناء بأشجارها المقدّسة، وما عادت تذكر ذلك الأسمر البغيض الذي نغّص عليها موسم الصّيد الماضي، وإن كانت من وقت إلى آخر تلقي القبض على نفسها، وهي تعدّ الأشهر والأيّام في انتظار موسم الصّيد القادم، وتساءل نفسها باستنكار وعتابٍ إن كان يجوز لامرأة تحمل اسم دقلة النّور أن تكون بمثل هذا الامتلاء والاكتناز، فتجيب نفسها بدلال مصطنع، وهي تهزُّ كتفَيْها دون مبالاة مصطنعة: "ولِمَ لا"؟

عاد موسم الصّيد بطيئاً رتيباً ينتضي وجوهاً جديدة، لم تجد فيها وجه الأسمر الغليظ الذي بحثتْ عنه بفضول وجل قلق، شعرت بخيبة أمل ضائع في الصّحراء، وعاهدتْ نفسها على عدم الانتظار، لكنّها عادتْ رغم إرادتها إلى الانتظار.

مع موسم جدّ التّمور ظهر الأسمر دون توقّع، كاد قلبها ينخلع سعادة، لكنّها تبرّمت بصورة اصطناعيّة ميكانيكيّة، وضنّتْ عليه حتّى بابتسامة، وبالكاد صافحته بعد أن مدّ إليها كفّاً كبيرة بأديم أسمر شابّ، لا يخفي النّعيم عليه، بعكس أديم كفّها التّي أضناها التّعب والشّقاء والعمل المتّصل، وقال لها بتندّر شهيّ: "ها قد أصبحتِ أنحف يا دقلة النّور، لكنّكِ –للأسف– ما تزالين في عداد السّمينات".

تمنّتْ لو أنها تصفعه، لكنّه ابتعد غير مبالٍ بغضبها وشماتتها به عندما علمتْ أنّ محاولاته والأمريكيين قد فشلت جميعها في زراعة دقلة النّور في كاليفورنيا، وقبل أن تعبّر عن اشتياقها، وقبل أن تجود عليه ولو بابتسامة واحدة كان قد غادر الواحة نحو أمريكا بعد أن أخذ معه عدداً كبيراً من شتلات نخيل دقّة النّور وعمّال من دوز وتوزر؛ ليقوموا على رعاية النّخيل المراد استولاده في كاليفورنيا.

من جديد غاب، وما عادتْ تنتظره؛ لأنّها أدركت أنّه معنيٌّ بدقلة النّور الثّمرة أكثر من دقلة النّور الإنسانة، لكنّه عاد، كسر توقّعها وعاد، عاد في غير موسم الصّيد، وفي غير موسم جدّ التّمور، لم يبحث من جديد عن شتلات دقلة النّور، ولم يعنّ نفسهَ بالسّؤال عن أفضل المزارعين المهرة في الاعتناء بأشجار النّخيل، بل جاء إليها شبه مهرول، معرورق القسمات، كانت كعادتها في كلّ ظهيرة بالقرب من عين الماء تراقب النّساء والأطفال المتبرّدين بماء الواحة، حدّق

فيها، كانتْ صامتة، لم له تبدِ دهشة من قابلتْ شخصاً دون توقّع، لكنّها أبدت فرحة من ألفت من تنتظره من زمن أمامها، مدّ يده ليصافحها، وقال باسماً بتندّره المعهود: "ها قد أصبحت أنحف من آخر مرّة رأيتُكِ فيها، لكنّكِ ما تزالين سمينة".

حرّضتْ نفسها على الغضب، لكنّها لم تستطع، وفرّتْ منها ابتسامة عريضة، تلتها قهقهة عذبة حاكتْ صوت خرير مياه الواحة، سألته بشماتة يخالطها الفضول: "هل نجحتْ زراعة دقلة النّور في كاليفورنيا؟"

قال ضاحكاً غير مبالٍ: "لا، لم تنجح، يبدو أنّ دقلة النّور لا تريد أن تغادر موطنها الأصليّ".

سألته من جديد بدلال وخبث: "إذن لمَ عدتَ إلى هنا؟"

قال، وهو ينزع نظّارته السّوداء، ويحدّق في عينيها الأمازيغيتين السّاحرتين: "جئتُ من أجل دقلة النّور".

الصّورة

توقّع حدوث أيّ طارئ معيق، وفي سبيل ذلك أخذ الاحتياطات كلّها في رحلته الطّويلة في الأرياف الشّماليّة، إلاّ أن يهاجمه ألم الأسنان من جديد الذي اعتاد أن يداهمه في السّنين الأخيرة دون سابق، والذي اتّخذ في سبيل ردّ عدوانه الآثم، وفي سبيل وضع حدّ له آليّة طويلةً من الحلول، ابتدأها بالعلاجات الطّويلة التّي أنفق فيها جُلّ ما ادّخره بصعوبة دون أبحاثه على حشرات الفاكهة، ثمّ أنهاها بخلع بعض الأسنان والأضراس التّي أعيته ألماً وعلاجاً بعد أن آمن أنّ الخلع آخر العلاج، وبهذا التّرتيب الأخير أعدم الآلام التّي حاصرته طويلاً، ومنعته من متابعة أبحاثه زمناً طويلاً، وإن كان يسوءه أن يرى وجهه الشّاب الوسيم يفتّر عن ابتسامة شبه شوهاء تفتقد الكثير من الأسنان والأضراس، لكنّ عزاء توقّف الألم، وتأجيل أمر زراعة أسنان جديدة إلى حين تحسّن أحواله الماديّة، عقب انتهائه من أبحاثه التّي يعوّل الكثير على نتائجها خفّف من وطأة انزعاجه، وكان في اعتماده ابتسامة ترتسم دون أن تكشف عن الأسنان تدبيراً مقبولاً لمشكلة أسنانه وأضراسه المفقودة.

سبق أن داهمته بعض النّوبات القصيرة من ألم الأسنان التّي لم تتجاوز دقائق معدودة؛ لذلك لم يعرها أيّ اهتمام، لكنّ النّوبة هذه المرّة جاءت طويلة ومتمطّية بوحشيّة، لا تفارقه ولو للحظة، جاءت تماماً مع أوّل بارقة إشعاع لشمس الصّباح، جاءت دفعة واحدة قويّة، كأنّها موجة عاتية محبوسة خلف سدّ تهاوى، شعر أنّ لطمة ما صكّت وجهه المرهق إثر ليالٍ طويلة من الدّراسة والبحث، ثمّ حلّ الألم، مارداً عظيماً، لا يرحم ولا يرحل، كان كامل فكره

المضطرب موزّعاً بين فكرتين لا ثالث لهما، الأولى وكانت الأضعف في اجتذابه، وهي أنّى للألم أن يعود ليغزو أضراسه وأسنانه السّليمة بعد رحلة علاج طويلة ومريرة، أكّد طبيبه بعدها أنّ الألم قد رحل للأبد؟! والثّانية وكانت الأقوى في تملّكه؛ بفعل الألم الذي أضنى جسده في أوّل لحظات هبوطه وهي البحث عن السّبيل المثلى والأقرب والأسرع لوضع حدّ لهذا الألم المعذّب له، ولو كان ذلك لفترة محدودة، حتّى يتسنّى له أن يضع حدّاً جديداً للألم الذي يعتصر فكّيه.

جلس في سريره بعد جولة سريعة ومضطربة في الكوخ الصّغير الذي استأجره بمبلغ زهيد، كانت محصّلتها ازدياد الألم حتّى شتّى عظام جمجمته، وضعف حيلته، فلا أقراص مهدّئة معه أو في الكوخ، ولا سيّارة قريبة في المكان يمكنها أن تنقله إلى العاصمة ليتلقّى العلاج، ولا هاتف في كوخه أو في الجوار يمكّنه من الاتّصال لطلب المساعدة أو حتّى المشورة الطّبّيّة.

فكّر في أن يطلب المساعدة من صاحب الكوخ الذي يسكنه، لكنّه يقيم على بعد ثلاثة كيلومترات على أقلّ تقدير، فلا أحد يرغب في السُّكنى فرداً وحيداً وسط بساتين الفواكه، إلاّ من كان هارباً من شيء ما، أو جاء لأمر ما في نفسه، كأن يكون مثلاً معنيّاً بدراسة حشرات الفاكهة عن قرب ومتابعة سلوكها عن كثب، لا سيما أن المعهد الذي يتبنّى دراسته قد وهبه منحة ليست بالسّخيّة، لكنّها تتوافق مع إمكاناته الماديّة المتواضعة، ومع حاجاته الأساسيّة لا غير.

بحسبة سريعة يائسة قدّر أنّ رحلة العودة إلى العاصمة، وتكاليف العلاج ستستنزف -دون شكّ- مال المنحة، بل وستتجاوزها لتبتلع جُلَّ مدخّراته المتواضعة، شعر بقنوط وتبرّم من حظّه العاثر إلى درجة زادت من وقع الألم على جسده، ومن جديد عاد إلى حمأة الألم والحيرة.

استقرّ رأيه بعد مشورة من حارس البستان المجاور لكوخه على أن يذهب إلى طبيب الأسنان الوحيد الموجود في الرّيف الشّماليّ كلّه، كان وفق ملاحظات الحارس يسكن في الجوارعلى بعد أربعة كيلو مترات، عليه أن يقطعها سيراً على الأقدام، أو على درّاجته الهوائيّة على أحسن تعديل، وبما أنّ يديه مشغولتان على التّناوب بحمل كأس الماء ذي الملح المذاب الذي يستخدمه للمضمضة المتكرّرة لتخدير الأسنان، وللتّخفيف من الألم، بناء على نصيحة الحارس، فقد كان من المتعذّر عليه أن يقود درّاجته، وعليه بالضّرورة بناء على ذلك أن يقطع البساتين سيراً، تحت وطأة ألمه، وبيدين مشغولتين بحمل كأس يتمضمض من مائه كلّ بضع دقائق.

ابتسامة الطّبيب الأشيب المكتنز الأعضاء، البشوش المحيّا، خفّفت من وطأة ألمه، ومن مشقّة رحلته الطّويلة، وكانت أوّل ما قابل بعد انتهاء رحلته المعنّاة، كانت يده اليمنى بشكل خاصّ متشنّجة من حملها للكأس لمسافات طويلة، وضع الكأس الزّجاجيّ الذي فرغ للتّو من مائه على أوّل طاولة وجدها، واستلقى بتمطٍّ منهك على كرسيّ العلاج، حتّى دون أن يومئ له الطّبيب بذلك، فألمه أنساه استراتيجيّات الذّوق واللّطف كلّها، بل حتّى أنّه قد شغله عن متابعة حشرات الفاكهة التّي مرَّ بها في أثناء رحلته عبر الحقّول والبساتين.

بدأت رحلة العلاج بالإجراء الأوّل الذي يفضّله، وينتظره منذ ساعات، أيّ بالمخدّر والتّسكين، حقنه الطّبيب الذي أخذ ملاحظات سريعة عن تاريخه المرضيّ من خلال جمل قصيرة ومتلاحقةٍ قالها ملخّصاً تاريخه المضني مع ألم الأسنان، وأنهاها بذكر اسم طبيبه، وأسماء الأدوية والمسكّنات التّي تواتر عليها أثناء علاجه السّابق وقبل السّابق، وبعد معاينة متفحّصة، راقب فيها عيني

الطّبيب الأشيب، المنزلقتين في تجويف فمه؛ بحثاً عن موطن الألم وسببه، استلّ الطّبيب حقنة مخدّر واثنتين وثلاث، وحقن لثّته بهنّ، وقليلاً قليلاً، بدأ الألم بالفتور، وأصبح من الممكن أن يتملّى في وجه طبيبه شبه المسنّ الذي أسند كفّي يديه على خاصرّتيه اللّتين تعلوان قدمين منفرجتين على الأرض بثبات، وهو ينتظر أن يسري المسكّن في سائر لثّته كي يبدأ طقوس العلاج والحفر والتّرميم، كما أصبح من الممكن أن يدير نظرة متفحّصة في العيادة الصّغيرة التّي تحتوي على القليل من الأدوات النّظيفة، والأثاث الرّيفيّ الأنيق الذي لا يخفي ذوق صاحبه.

وجّه الطّبيب البشوش بضعة أسئلة له، أجاب عنها باقتضاب وفتور وتراخٍ، بعد أن بدأ المخدّر رحلته بالتّسكين، شعر أنّ أطرافه تتراخى، وأنّ فمه قد تضخّم بمقدار عشرات المرّات، وشفته السّفلى تراخت حدّ التّدلّي، كاد يرى شفّته العليا المتضخّمة أسفل عينيه، وبات يُحسُّ كلّ أديم وجهه وشفتيه يمتدُّ لمسافة متر أمامه على الأقلّ، وبدأ بريق ما يلوح في عينيه، فيرى ومضات غريبة تحول دون رؤية وجه طبيبه المحاصر بقناع طبّيّ أبيض لا يسمح إلاّ برؤية عينين شهلاوتين، وفي سحيق الوميض، يرى عينيها اللّتين تنزرعان في وجهها الملائكيّ المقيّد في داخل إطار صورة فضيّ، مركون باهتمام على مكتب الطّبيب، سأل الطّبيب في سكرة المخدّر،"من تكون؟" أجاب الطّبيب بنبرة آليّة غير مبالية إلاّ بعمله وبجهازه الدّقيق الذي يُعمله في أحد الأضراس: "إنّها زوجتي".

إذن، هي زوجته، لكنّ عينيها هما العينان اللّتان حلم بهما طوال عمره، لهما الرّموش ذاتها، والصّمت ذاته، والنّظرة النّعسى ذاتها، بل وذات البريق الغارق في دموع لا تفارق عميق نظراتها، يا لها من نظرات تتسلّل إلى نفسه بين الألم وسكرة المخدّر! فتلهب أضلاعه، وترسل بريقاً يغرقه في وهج عينيها، يرى

عمره الفائت مكسوراً على بوّابة عينيها اللّتين تحرّرتا من الإطار الفضّيّ، وحامتا في سماء الغرفة، كان يترنّح مخموراً بشذاها الأنثويّ الذي خلقه في ذاته منذ أن تمنّاها، رأى الماضي والحاضر والمستقبل وأبحاثه كلّها غباراً منثوراً تحت وطأة قدميها اللّتين اشتهى تقبيل أديمهما الورديّ الرّقيق.

آهٍ كم انتظر وتمنّى هاتين العينين دون عيون نساء الدّنيا كلّها، رسمهما بتمعّن وقدسيّة من يرسم وجه ملاك، ثمّ حفرهما بتأنٍ في ذاكرته، وأطعم نفسه والتّمنّي للنّسيان وللعمل الدّؤوب الذي لا يعرف توقّفاً بعد أن يئس من أن يجدهما إثر مطالعة طويلة في وجوه النّساء كلّهنّ اللّواتي قابلهنّ في أصقاع عمره، وها قد أطلّتا من المستحيل من بين الألم والنّشوة أطلّتا، وغرق في نوم طويل.

عينا الطّبيب كانتا في انتظار استيقاظه، تمتم الطّبيب بكلمات لم يفهمها، لكنّه قدّر أنّها كلمات تشجيع لتخطّي الألم، ثمّ سمعه يقول بنبرة أبويّة عطوفة: "يبدو أنّ عيار المخدِّر قد كان قويّاً، لذا فقد رحتَ في نوم طويل".

هزَّ الرّجل رأسه متفهّماً لما حدث له، وبنظرة عجلى بحث عن عينيها، فوجدهما مستقرّتين في دعة في وجه ملائكيّ ما زال مسجوناً في إطار فضِّيّ، أبرقت العينان له ببريق سماويّ خاطف، صعق جسده من جديد، وعاد إلى نوم لذيذ لم يعد فيه أيّ أثر للألم.

تردّد أكثر من مرّة على عيادة الطّبيب بحجّة الاطمئنان على وضع أسنانه التي غادرها الألم تماماً بعد أن فقد سنّاً أخرى في سبيل ذلك، جلس طويلاً إلى الطّبيب اللّطيف الذي دعاه مرّة تلو الأخرى لمشاركته شاي الظّهيرة، ووقع في نفسيهما استلطاف متبادل، وإن كان في جُلّ أمره مشدوداً بعنف إلى صورة امرأة

لا يعرف منها إلاّ عينيها، اللّتين كانت تقـولان لـه بعشـق: "انظـر، أنـا هنـا، أنـا حقيقة، أقبل؛ لأنّي موجودة".

في كلّ مرّة وعد نفسه الزّائغة تحت وطـأة الشّـكّ والخـوف أن لا يعـود إلى العيادة، فكيف يمكن أن يكون أسير نظرات متجمـدّة في إطـار؟! أسـير نظـرات رسمها في الخيال، فسعد عندما وجدها حقيقة في مكان ما في هذه الـدّنيا، لكنّـه وجدهما أخيراً.

كانتا في انتظاره منذ دهر، أو كان في انتظارهما منذ دهر، لا يهـمّ مـن كـان منتظراً بالتّحدّيد، لكن المهمّ أنّها موجودة في القريب منه، قريبة إلى حدّ أنّه يمكنه أن يراها بمجرّد أن يقرّر أن يعرّج على بيت الطّبيب لأيّ حجّة يخترعها.

عندها يمكنه أن يقترب منها، وأن يراقب أديمها الفضّيّ الذي يظهـر أعـلاه بازغاً من ثوب لا يستر كتفَيْها العاجيّتَيْن، تماماً كما تبدو في صورتها، ليقول لها: "ها قد جئتُ"، ثمّ يغرق في وميض عينيهـا إلى الأبـد. هـو الآن يعشـق امـرأة في صورة، لكنّه لن يبقى أسير حبّ ضبابيّ، لن يسمح بأن تكون عينـا مـن يعشـق مصلوبتين في صورة إلى الأبد، سيكون صاحب الكلمة الأولى، سـيأخذ الخطـوة التّاريخيّة، سيقول لعينيها: "كوني"، فتكونان، سيتحدّى الصّـمت البـارد، ويشـعل فيهما نيران عشقه.

انتظر أن يدعوه الطّبيب إلى بيته، لكنّ ذلك لم يكـن، مـع أنّـه قـد دعـاه إلى كوخه المتواضع أكثر من مرّة على غداء أو على عشاء.

حارس البستان همس له قائلاً بصـوته المرتجـف ذي الزّعيـق المـزعج: "إنّـه رجل غيور، البعض يقول إنّه يحبس زوجته الجميلة في بيته، ويمنعها من الخروج، ويمنع أيّ أحد من زيارتها".

- "أ هي من بنات المنطقة؟"

- "لا، الطّبيب وزوجته كلاهما غريب عن المنطقة، جاءا منذ زمن بعيد إلى الرّيف، وأقاما دون أن نعرف عن تاريخهما شيئاً، الزّوجة يقال إنّها صغيرة وشابّة وجميلة مع أنّي لم أرها أبداً، والزّوج طبيب لطيف يقدّم خدمات أحياناً بالمجّان لمن يطلبها من فقراء الرِّيف".

- "ماذا عنها؟ أعني عن الزّوجة؟"

- "قلتُ لكَ يا سيّدي أنّي لم أرها من قبل".

إذن صاحبة العينين المتوهّجتَيْن ليست أسيرة إطار ذهبيّ، بل هي أسيرة زوج غيور؛ وبذلك أصبحت مهمّة مقابلتها أصعب، وتحتاج إلى المزيد من التّخطيط والحذر؛ فهو يريد أن ينزعها بهدوء ودون أوجاع أو مشاكل من دنياها، لتغدو زهرة حياته، فهو الوحيد الذي وعدته أحلامه بعينيها الأسطوريّتين ذاتي البريق السّاحر.

جاءت اللّحظة سريعاً، فقد قرّر الزّوج أن يسافر إلى العاصمة في شؤون يقضيها، كان يراقب سيّارة الأجرّة، وهي تبتعد به، من أعلى قمّة التّلّة المشجرة رَمَق السيّارة التّي تثير الغبار والأتربة، وهي تختفي به، انزلق مهرولاً إلى بيتها الذي يقع في سفح التّلّة، الأرض المنحدرة والزّلقة زادت من سرعة هرولته التّي غدت ركضاً سريعاً لا يسمع خلاله إلاّ وقع ضربات قدميه على الأرض، وصوت لهاثه، كانت مستديرة نحو حضن الشّرّوق تشيّع بنظراتها زوجها الذي غدا نقطة في الأفق، انتبهت إليه مفزوعة، أمسكَ يديها بحركة نزقة أخافتها، كانت كما تمنّاها تماماً، هادئة كبحيرة، بيضاء كنور الصّباح، شعرها الأسود

معقوف إلى الخلف، بعض الشّيب غزا برقّة وسحر ذؤابتيها، على فمها المستدير كما المتاهة ألف سؤال، أمّا عيناها فلهما البريق المستحيل الذي عشقه.

قال لها باضطراب شديد: "ها قد جئت، أنا أحبّكِ. هل تأتين معي؟"

- "أنت مجنون دون شكّ".

- "لكنّني أحبّكِ".

- "ابتعد عنّي، لا بدَّ أنّكَ مجنون".

انساحت في موجة بكاء، وطردته مفزوعة ممّا تسمع، أمضى يومه عارياً إلاّ من سروال صغير في سريره، لا يصدّق أنّه قد وجدها، وأنّها بعد هذا العناء كلّه قد رفضته، بل وطردته، تابع لساعات طويلة دوائر الدّخان المتصاعد الذي ينفثه من سجائره التّي تحترق بمثل احتراقه، فكّر بألف خطّة وخطّة لخطفها، ثمّ انخرط في بكاء مرير، ومن جديد بدأ ألم أسنانه، لكنّه كان مصمّماً هذه المرّة بالذّات على أن يهمله، وأن يقهره، وأن يفعل أيّ شيء إلاّ أن يستجيب بذلّ لجبروته، أخذ جرعة مضاعفة من المسكّن الذي استغنى عنه منذ زمن، وغاب في دنيا النّوم، وجاءت بابتسامة ساحرة، كان جسدها زلقاً بطريقة مشهيّة، انساحتْ في فراشه، كانت عارية كبجعة مسحورة، في بحيرة لازورديّةٍ محاطةٍ بالأحلام والبجعات المتوّجة، غرق وإيّاها هناك، قبّلت عنقه باشتهاء، فتبخّر ألم الأسنان إلى الأبد، تنفّس هواء فمها، وفي لحظات تحوّل ببريق عينيها إلى أمواج ملوّنة تداعب بحيرة صيفيّة هادئة، زرقة عينيها انساحت أنهاراً تحاصر جسده المنتشي، وغاب وإيّاها في دنيا من الأطياف الملوّنة، حيث تشظّيا ليغدوا رذاذاً سعيداً يطوّق فراشه العتيق.

كان قرع الباب قويّاً، تنبّه وعيه عليه، ثمّ استيقظ تماماً عندما دفع أحدهم الباب بقدمه القويّة فكسره، في لحظة أحاط به وبفراشه وبجسده حشد من رجال الشّرطة بأزواج عيون كثيرة لم يستطع أن يعدّها، البعض وجَّه له فوّهات بنادق متحدّية، عينا الطّبيب هما العينان الوحيدتان اللّتان ميّزهما من بين العيون المتّهمة الحادّة كما عيني صقر.

قال الزّوج له بقسوة: "يا لكَ من مجرم غادر!"

قال ضابط بحزم: "أنتَ متَّهمٌ بالخطف والاغتصاب والقتل".

بذل جهداً عظيماً ليُحرّك جفاف حلقه، ولينطق بكلمة واحدة، لكنّه لم يستطع، فقد كان ذاهلاً، وهو يتابع جثّتها العارية مذبوحة مضرّجة في دمائها، كان مرعوباً من فكرة وجوده عارياً مع جثّةٍ مذبوحة أكثر من فكرة أنّه متّهمٌ بالقتل، قال بصوت مسلوب يتناوب عليه الخوف والفتور: "لكنّني لم أقتلها، أنا أحبّها، أنا لم أخطفها هي جاءت من تلقاء نفسها".

قال الزّوج بانفعال: "يا لكَ من عربيد قذر!"

قال الرّجل: "أنا أحبّها، أنا لم أقتلها، صدّقوني. يا ذات العينين المتوهّجتين، قولي لهم أنّني لم أقتلكِ، أنا أحبّكِ. قولي لهم إنّك جئت من تلقاء نفسك؛ لأنّك تعشقينني".

قال الزّوج مُثاراً كما ثور في حلبة: "يا لكَ من وغد! أتريد أن تلطّخ شرفها، وتلحق العار بها حتّى بعد موتها؟"

كرّر الرّجل بعته: "لكنّني لم أقتلها، أنا أحبّها، وهي تحبّني، قولي لهم إنّكِ تحبينني، يا ذات العينين المتوهّجتين".

لكنّ الجثّة الهامدة المدرّجة في الدّماء لم تنبس ببنت شفة، كان يتـابع الجنـود بذهول ودهشة، وهم يلفّونها بملاءة السّرير، ويدسّونها في السيّارة العسكريّة.

هي دفنت في سفح القرية بين أشجار الفاكهة، وهو سجن حينـاً، ثـمّ أودع مستشفى المجانين حيناً آخر، لكنّه لم يشتكِ أبداً من ألم أسنانه، فقد كان يـزعم أنّ حبيبته ذات العينين المتوهّجتين قـد شـفتهما بقبلتهـا المشـتهاة، أمّـا الـزّوج فقـد اختفى للأبد، البعض زعم أنّه مات حزناً، آخرون قالوا إنّه هو من قتـل زوجتـه الخائنة، كثيرون أكّدوا أنّه يعيش في قرية بعيدة مع زوجة جميلة، يحبسـها في بيتـه، ويمنعها من الخروج.

لكنّ العاشق المجنون بقي يبحث عن حبيبتـه الجميلـة، يرتـع بـين الوديـان عارياً بشعر أشعث وجلد مزّقه البرد، يبحث عـن امرأتـه الجميلـة ذات العيـنين المتوّهجتين، صارخاً بقهر، لتردّد الوديان كلماته التّي تذهب سدىً دون مجيـب: "لكنّني لم أقتلها، أنا أحبّها، أنا لم أغتصبها، هي أسلمتني نفسها طائعة، أنـا أحبّهـا، يا ذات العينين الجميلتين، ها قد جئت، أنا في انتظاركِ، هل تذهبين معـي؟ هـا؟ أجيبي هل تذهبين معي؟ ها؟ اجيبيني. هل تذهبين معي؟"

الذي سقط من السّماء

قال له زميله الذي اعتادوا على أنّ يسموه الذّيل لشدة نفاقه، وهو متبرّم بوجهه المكسو بالشماتة: "أنت يا رجل، والله ساقط من السّماء، ولست من الأرض، أرأيت آخر عنادك؟ الآن ليس لك إلا أن تسفّ التّراب مع بنيك، أو أن تعود إلى السّماء من حيث سقطت، فنحن البشر لا نشبهك، أشباهك فقط في السّماء، أمّا هنا على الأرض فالسكّان مختلفون تماماً، وتذكّر دائماً يا صديقي أنّ من يسقط من السّماء تندّق عنقه بالذّات إن كانت تحمل رأساً عنيدة مثل رأسك"، وعلت ضحكاته، وابتعد وهو يتصنّع التّمايل كمومسات العاصمة.

"هل أنا ساقط حقّاً من السّماء؟" سأل نفسه المثقلة بالهمّ، عاد، وقال لنفسه "لكن الطّيّبين فقط هم من يسقطون من السّماء، هكذا قالت لي جدتي، وجدتي لا تكذب".

أيّاً كانت الإجابة فعليه أنّ يرحل عن عمله، وهو يحمل الخزي والعار، هو الرّجل الشّرّيف المخلص الذي أمضى حياته يحارب الفساد، سيُطرد بتهمة السّرّقة، وسيُعيّر أبناؤه به، ويصبحون أبناء اللّص، شعر بغصّة تكاد تقتلع روحه، ابتسم بقهر، وهو يغالب الدّموع، كان يعلم أنّها مؤامرة؟ لكن من سيكذّب أولئك الوحوش الذين حاكوا المؤامرة ضدّه لإقصائه عن عمله الحسّاس في قسم الحسابات، ويصدّق رجلاً قالت جدته له ذات يوم: "إنّه قد سقط من السّماء".

قالت له ذلك في ليلة لن ينساها ما بقي في إسار الحياة، كانت صرخات حادّة تتشقّق عن نفس أضناها الألم، وتكاد تتساقط أنفساً قبل أن تدفع إلى الحياة

الطّفل الذي في جعبتها، كانت صرخات الجارة أمّ إدريس التّي اعتادت سنونه التّي تحصى على أصابع يديه الاثنتين أنّ تسمع صراخها في كلّ عام، وبعد ساعات تطول أو تقصر من العويل والاستنجاد وسبّ الدّاية يسمع الزّغاريد، تُقدّم له ولأطفال الحارّة بعض السّكاكر الرّخيصة، ويسمعهم يقولون: "الله بعث عريس، أو الله بعث عروس".

لكن ذلك الصّراخ اللّيليّ بدا أطول من الصّراخ الذي اعتاده في السّنوات السّابقة من عمره اليافع. الدّاية وبعض نساء الحيّ وزوجة أبيه أمّ حمدان كُن في حضرة الولادة، ليلتها انسلّ من فراشه كالمضبوع بهذا الصّراخ الذي يبدو أنّ لا نهاية له، ودلف دون استئذان إلي بيت الجارة المتّقد بالصّراخ.

أراد أنّ يكتشف منبع الألم، كان جسده الصّغير ينساب بسهولة بين النّساء المشغولات عنه بأمّ إدريس يساعدنها ما استطعنَ إلى ذلك سبيلاً، دفع برأسه من باب الحجرة، وأصبح الرّأس وحده دون الجسد في الحجرة الصّغيرة التّي تضجّ بالحرارة والألم، بحث بعينيه عن أمّ إدريس، كانت مسجّاة بين يدي الدّاية، هناك سمع آخر الصّرخات وأصعبها، ثم انشقّ الجسد الذي كان يتابعه بذهول عن كتلة ملطخة بالدّماء والأوساخ، تلقتها سريعاً يدا الدّاية، كانت كتلة لحميّة تنزلق في زلالها اللّزج كالبزّاق، وانقطع الصّراخ الأوّل، وبدأ صراخ صغير عاجز، جزم أنّ مصدره قطعة اللّحم الورديّة التّي انشقّ عنها جسد أم إدريس.

لم يحدّث أطفال الحارّة عن سرّه الخطير الذي حظّي به على غير عادته، تلك ليلة لم ينسها أبداً، وحفرت في ذاكرته، كان الوحيد من أطفال الحارّة على حد علمّه الذي يدري من أين جاءت قطعة اللّحم الورديّة التّي أسموها صباح، ظلّ يتساءل في نفسه بدهشة الطّفولة البريئة كيف تستطيع أمّ إدريس أنّ تسير بهذه الأريحيّة، وهي تملك ذلك الجرح العظيم الذي رآه في تلك اللّيلة؟!

لأيّام طويلة كان يراقبها بفضول، ويتوقّع أنّ تنزلق أحشاؤها أرضاً من ذلك الجرح، لكن ذلك لم يحدث، بل عاد بطنها ليتكوّر من جديد، ومرة أخرى سمعهم يقولون: "أمّ إدريس تتوحّم".

مراقبته الطّويلة والفضوليّة لأمّ إدريس جعلته يدرك أنّ النّساء تحبّ تلك القطع اللّحميّة التّي تتقدّد أجسادهن عنها، كثيراً ما راقب أمّ إدريس وهي تدُسّ ثديها الكبير في فمّ الرّضيعة صباح، وتداعب خصلات شعرها، وتغضب أشدّ الغضب إذا حاول أحد أطفالها مقاطعة تلك العمليّة الهانئة التّي تسمى الإرضاع، اعتاد على أن يراقبها من فوق سور بيتهم القديم المطلّ على فناء بيتها، ومن ثم طفق يراقب تلك الحركاتالدّافئة والحميمة التّي تربط نساء الحارّة بأبنائهنّ وبناتهنّ في نغمة وجوديّة خالدة، لم يعزف يوماً عزيفها، ولم يشارك في سجع ودادها، وبات يرثي لنفسه المعرّاة من هذا الحنان، كم تمنّى لو أنّ له أمّاً مثل أمّ إدريس؛ كي تحضنه كما تحضن صباح، أو كي تفلّيه كما تفعل زوجة عمّه صبحية مع ابنها رزق، أو كي تخصّه بالبيض البلديّ كما تفعل أمّ حمدان مع بنيها التّي اعتاد على أن يدعوها أمّي كلّما أراد أنّ يخاطبها نزولاً على رغبة والده وأعمامه.

لمدّة يومين لم يعد إلى البيت إلاّ في المساء، توقّع أنّ يُضرب بشدّة بحزام والده الجلديّ بسبب تأخرّه، لكن أباه اكتفى بيسير الصّراخ عليه ثم تجاهله، كان يشعر بالجوع والإعياء، فهو لم يأكل منذ يومين، ولم يعنّ أحدٌ نفسه بالسّؤال إنّ كان قد أكل أم لا؛ فالأمهات هنّ المعنيات بالقطع اللّحميّة التّي يتفتّقن عنها، في تلك اللّيلة بكى؛ لأنّه ليس قطعة لحميّة تخصّ امرأةٌ بعينها.

عندما حضنته الجدّة ميمونة إلى صدرها الكبير المتهدّل الدافيء شعر بشيء من الطّمأنينة، لكن حنينه بقي إلى امرأة قد تفتّقت عنه، ألقمته الجدّة قطعة

حلوى "الحلقوم" التّي ادّخرتها له خِلسة عن صغار البيت، أكلها وهو يتنشّق دموعه، ويكفكفها مع سيل مخاطه، دثّرته الجدّة بطرف ثوبها، واشتملت سنينه الخمس بعطفها، سألته عن أحوال أصدقائه في الحارّة، لكنّه لم يجب، تجرّع دموعه من جديد، وقال لها: "جدتي، لماذا ليس لي أمّ؟"

طبعت الجدّة قبلة سخينة ملؤها الحبّ والشّفقة على جبهته المتعرّقة، ونحّت عقارب شعره التّي تتدلّى على عينيه دون نظام، وقالت له بجهد من يبحث عن نجمة في السّماء: "أمك في السّماء؟"

قال لها الطّفل بدهشة بريئة: "ماذا تفعل في السّماء؟"

- "هي عند الله".

- "لماذا هي ليست هنا مثل باقي نساء الحي؟"

- "لأنّها مرضت، ثم ماتت".

قال بنبرة معاتبة متهمة: "لماذا لم تعالجوها كما عالجتم أمّ إدريس؟"

قالت الجدّة بحزن تستره بجهد واضح: "عالجناها طويلاً، لكنّها ماتت في النّهاية".

- "هل أحبّتني قبل أن تذهب إلى السّماء؟"

- "نعم، بكلّ تأكيد".

- "لماذا لم تأخذني معها؟ ألم تقولي أنّها أحبّتني؟"

- "لقد أخذتك معها".

- "كيف عدتُ إلى هنا؟"

- "سقطتَ منها، فتلقفتكَ، ومن ذلك اليوم أصبحت حفيدي".

- "لماذا سقطتُ منها؟"

برمت الجدّة شفتيها، وقالت بهدوء إيقونة عمرها ألف سنة: "الطّيّبون فقط هم من يسقطون من السّماء".

- "يا جدتي، ألا يسقط الأشرار من السّماء؟"

- " يا بني، الأشرار لا يكونون في السّماء، هم هائمون في الأرض".

- قال الطّفل بغبطة واعتزاز ظاهر: "هل أنا طيب، يا جدتي؟"

- " يا ولدي، الذين يسقطون من السّماء كلّهم طيبون".

فجأة توقّف هدير أسئلة الطّفل، شفط بشهيقه سيل مخاطه الذي يخترق عرض وجهه البيضويّ، فارتدّ معظمه إلى أنفه، ومسح دموعه، وقال بنشوة من وجد كنزاً: "جدتي، أنا إذن ساقط من السّماء؟"

قالت الجدّة براحة من توقفوا عن جلده: "نعم، يا بني الصّغير، أنت ساقط من السّماء".

كان يعلم أنّه لم يسقط من السّماء، وكان يعرف أنّ جرحاً ما قد تفتّق عنه، دائماً كان يرى نفسه في المنام قطعة لحم يلثمها فمّ دافيء حنون كالسّكر يُسمى أمّ.

عندما كبر أخذ يصارع الفساد في كلّ مكان ولا سيما في عمله، نعته أحدهم ساخراً: "بأنّه من سكّان الفضاء" فقط لأنّه أمين ومخلص.

فيما بعد قيل له إنّه لص، لم يُدهشه أن يُنعت بنعت لص، بقدر ما أدهشه أنّه آخر من يعلم بذلك، لكن عندما تحسّس جيبه، وتذكّر أنهّ لا يحوي إلا بضعة قروش شعر بشهوة غريبة للبكاء.

عندما سأل عن مصدر الثّراء المفاجيء الذي نزل علـى مـديره في العمـل بعد أن تولّى مقاليد منصبه الجديد، قيل له: "إنّ ثروته هبطت من السّماء"، حينهـا تردّدَ في سمعه صدى سنوات طويلة تحمل صراخ أمّ إدريس، تمنّى لو أنّ له أمـاً يبكي في حضنها، وأيقن أنّ الطّيّبين فقط هم من يسقطون من السّماء، لكن ليس في أحضان جدّاًتهم الطّيّبات، وإنّما على الأرض الصّـلدة لتـدقّ أعنـاقهم دون رحمة، أمّا الأشرار فيعيشون فساداً في الأرض دون أيّ سقوط أو ألم أو توجّع.

أرض الحكايا

عندما كنتُ صغيراً كنتُ أحسب أنّ هناك أرضاً للحكايا نستطيع أن نحصد الحكايا منها أنّى شئنا، لكن عندما كبرتُ أدركت أنّ لا أرض للحكايا، وعندما احترفت فنّ كتابة القصّة جزمت بعناد الأطفال أنّ هناك أرضاً للحكايا، لكن طوبى لمن يستطيع أن يدلف إلى تخومها، ويعرف السّبيل إليها.

منذ أشهر لم أستطع أن أقرن كلمة إلى أخرى، وكدت أظنّ أنّ النّفح الذي يسكنني من تلك الأرض قد رحل سحره من نفسي إلى الأبد، وما كنت لأبالي بذلك؛ لأنّ عندي من المهام والمسؤوليّات ما يجعلني لا أعير قلقاً أكثر من لحظات يوميّاً لهذا العجز المفاجىء.

المهندس كرم هو صديقي العزيز، لكنّه كاذب كما اعتدت عليه، والحقيقة أنّي استلذّ كذبه وألاعيبه، لكنّني أمقت كذبه هذه المرّة بالذّات، وأتمنّى لو أنّني عملاق جبار يطوي المسافات العظام في دقائق؛ لأمسك برقبته، وأفصلها عن جسده عقاباً على هذه الغرفة القذرة، قال لي عندما قرّرت أن انتقل لمدّة شهرين إلى فرع الشّركة البحريّ إنّه يملك شقّة تطلّ على البحر، ويستطيع أن يعيرني إيّاها، لكنّني لم أجد سوى جحراً خشبيّاً قذراً، يطلّ على الشّاطىء لكن من بعيد، يزحمه صوت البحر وحركة الحافلات والسّيارات والمشاة؛ إذ إنّه يقع قبالة أحد مواقف الحافلات، ليس له شرفه بالمعنى الدّقيق، بل نافذة خشبيّة قديمة بزجاج مكسور، وليس فيها أيّ وسيلة من وسائل التّرفيه.

أمضيتُ اليوم الأوّل في السّرير أتأفّف من صوت الزّحام، أمّا اليوم الثّاني والثّالث فلا أذكر منهما الكثير عن علاقتي بالغرفة؛ لأنّني كنت أعود من عملي متعباً بالكاد أتلمّس فيها طريقي إلى السّرير.

أمّا اليوم الرّابع فقد صادف يوم عطلة، فكّرت في أن أقوم بجولة في المدينة، لكن الكسل غلبني، فقرّرتُ أن أقضي اليوم أمام النّافذة اختلس النّظرات إلى البحر والمشاة وقاصدي الموقف، وأحرق السّجائر خلال هذه المتعة المتواضعة.

اللّحظات الأولى كانت مملّة، لكن ذلك السّلّم المؤدّي إلى السّاحل الممتد حتى المنارة والشّاطىء الشّرّقيّ لفت نظري، فقد كانت الحركة رتيبة وكسولة فيه، وقليلاً ما كان يلفظ بعض أولئك الذين غادروا الشّاطىء الشّرّقيّ حيث لا شيء غير الوحدة والانعزال والصّخور والمنارة والوقوف في أعلى السّلّم قريباً من الموقف في انتظار حافلة تقلّ إلى مكان ما.

راقبت ذلك السّلّم المؤدّي إلى المنارة طويلاً، عامل المنارة هو أكثر من لفت نظري، كنت قد عرفتُ من قبل أنّه عامل المنارة عندما أشار إليه أحد زملائي في العمل، وقال: "إنّه رجل مجنون، يسكن المنارة المعطّلة منذ سنوات، ويقضي ليله في السّير على الشّاطىء ممسكاً مصباحاً يدويّاً، أمّا نهاره فيقضيه متنقّلاً بين صخور الشّاطىء الشّرّقيّ كأنّه يبحث عن شيء ما، قلّما يغادر ساحل المنارة، وقلّما يحدّث أحداً".

لكنّني لاحظت -بخلاف ما قال زميلي- أنّه كثيراً ما كان يرافق زوّار شاطىء المنارة النّادرين إلى أعلى السّلّم الحجريّ حيث الموقف، لا أراه يتكلّم، لكن من بعيد أقدّر أنّه يسمعهم باهتمام، يومىء لهم برأسه، يحدّثونه طويلاً، ومن ثم يعود عامل المنارة العجوز المنحني القامة إلى منارته عبر طريق صعب بين

الصّخور الكبيرة التّي يضرب البحر بعضاً منها، كأنّ أحداً لم يزره في هذا المكـان من قبل.

منذ ذلك اليوم اعتدتُ على مراقبة السّلّم الحجـريّ مـن نافـذتي القديمـة، كثيراً ما حاولتُ أن أسمع ما يقول الزّوّار له، لكنّ صوت البحر وجلبـة المـارّة، وفوضى الحافلات جعلت ذلك مستحيلاً، واكتشفت اكتشافاً أثار اهتمالي، فقد كان زوّار شاطىء المنارة زوّاراً غير متوقّعين عند عامل المنارة، فكثيراً ما لاحظت في أيّام العطل وفي الصّباح الباكر أنّ أولئك الزّوّار عادة ما يأتون فُرادى، طريقة مشيتهم وتخبّطهم تدلاّن على أنّهم يـزورون المنطقـة لأوّل مـرة، يجلسـون علـى الصّخور وحيدين، وأخيراً يُطلّ عامل المنارة عليهم، يجلس غالبـاً إلى جـانبهم، فتقابلني ظهورهم التّي يواجه باطنها البحـر لسـاعات طويلـة، إذن الـزّوّار هـم أناس يلجأون إلى البحر هرباً من فوضى الحياة، وعامل المنارة هـو سـفير البحـر إليهم.

حاولتُ أن أعرف بعض المعلومات بدافع الفضول عن عامل المنارة، لكـن الجهل به كان الجواب، فضلاً عن نعته بالمجنون.

موظّف مسّنٌ في الميناء قال لي: "إنّ عامل المنارة له قصّة حزينة، فقـد أحـبّ فتاة من المنطقة دون أن تعلم بحبّه، لكنّها مـا لبثـت أن انتحـرت لسـبب مجهـول قريباً من صخور المنارة، منذ ذلك اليوم سكن المنارة، وطفق يبحث عن جسدها بين الصّخور ليلاً، ويناجي البحر لعلّه يلفظ جسـدها الـذي ابتلعـه، لكـن دون جدوى، هو رجل مجنون من دون شكّ، لكنّه مسالم".

فكّرت في أن أذهب إلى الصّخور كي أحدّث عامل المنـارة، لكـنّ المفاجـأة منعتني عن ذلك، فمنذ ذلك الحديث الذي دار بيني وبين العجوز في الميناء دلفت إلى أرض الحكايا، في كلّ ليلة كنت أكتب قصّة أو قصّتين أو أكثر، ذلـك يعتمـد أساساً على زوّار المنارة، أراقبهم دخولاً وخروجاً، أحفظ حركاتهم وصـفاتهم، أتابع انفعالاتهم ونظراتهم، أتابع حركة أفواههم وهـم يحـادثون عامـل المنـارة،

افترض حديثاً معيناً وَفْق صفاتهم وأشكالهم، وأعمارهم، أشيّعهم وهم يبتعدون في الحافلة نحو البلدة، بعد ذلك أسرع إلى القرطاس والقلم، وأكتب قصّة كاملة تدور حول زائر اليوم، وأحاول أن أخمّن أيّ الأحزان تسكنه، وأيّ الكلام أسرّ به إلى عامل المنارة، وأحصل أخيراً على قصّة رائعة.

بعد شهر كان عندي مجموعة قصصية رائعة أسميّتها "أرض الحكايا"، كلّها مستمدّة من القصص المفترضة لزوّار المنارة، خشيتُ أن اقترب من عامل المنارة فتغلق الأرض أمامي، وأعود من جديد إلى الجدب والقحط، في عطلة نهاية الشّهر لم أعد إلى العاصمة، فقد كان من الصّعب علي أن أترك نافذتي السّحريّة التّي تطّلّ على أرض الحكايا؛ فقد كنتُ مأخوذاً بفكرة الكتابة؛ إذ أصبحت صديقاً مجهولاً للزّوار، ودخلت دنيا أحزانهم دون استئذان منهم.

ذلك العجوز الذي زار البحر تخيّلته رجلاً قد خطف الموت زوجته الرّؤوم، ويحنّ إلى ابنته المسافرة،، تلك المرأة الوحيدة لعلّها تحنّ إلى رجل يدلف إلى حياتها، تلك الشّابة الصّغيرة تخيلتها تنتظر حبيباً سافر، ولم يعد، تلك المرأة المسنّة التّي تمسك بطفل صغير تحنو عليه، قد يكون صغير ابنها الذي أُستشهد في ساحة الجهاد المقدّس، وتناجي روحه الغارقة في البحر، تلك الحامل الحسناء خلتها تشكو فضيحتها إلى البحر، لعلّه يسبغ عليها بعضاً من طهره ورحمته، الصبيّ المراهق الذي هناك لعلّه ينتظر جميلته الصّغيرة على البحر، وذلك الرسّام يرسم لوحة للبحر، لعلّه سيرسلها إلى حبيبته المسجونة خلف أسوار غنى والدها، الآف الحكايات كانت في أرض الحكايا، أعني على صخور شاطىء المنارة.

المنارة أصبحت شهوة تغريني بالاقتراب منها، قاومتُ ذلك كثيراً، لكن في النّهاية انتصرت الشّهوة، وتسلّلت إلى الصّخور، أردت أن ألقي نظرة فضوليّة على المكان، ثم أقفل راجعاً دون أن أزعج عامل المنارة، لكن وجهه القاحل

الذي لوّحته الشّمس كان أوّل ما رأيتُ في المنارة، ارتبكتُ بشدّة، لم أعرف ماذا أقول، وبماذا أعلّل فضولي، لكن نظراته الهادئة وقسماته السّاكنة التّي تدلّ على أنّه قد اعتاد على الفضوليين هدّأتْ من روعي، قلتُ له بتردّد: "مرحباً، أرجو أنّني لا أزعجك".

لم يردّ على كلامي، مددّت يدي لمصافحته، وقلتُ له بنبرة أكثر جدية: "أنا المهندس محمود، تشرّفت بلقائك"، عندها مدّ يده النّحيلة، وصافحني، ثم أومأ لي بأنّه لا تتكلّم، ولا يسمع، يا الله كم كانت صدمتي كبيرة! الآن فقط عرفت سرّ لجوء الزّوّار إليه؛ لأنّه مثل البحر لا يسمع، ولا يتكلّم، لكنّه على الرّغم من ذلك حاضر بكلّ ما في الكلمة من معنى، يلقون إليه بأسرارهم، ويعودون متخّففين منها.

على غير ترتيب مسبق قضيتُ ظهيرة ذلك اليوم مع عامل المنارة على الصّخور، حدّثته عن حياتي وعن أحزاني، حدّثته بحديث لم أحدّث نفسي به من قبل، بقي إلى جانبي، سمعني طويلاً، أو على الأقلّ تخيّلتُ أنّه قد سمعني طويلاً، لأكثر من مرة غسلت أمواج البحر شيئاً من أقدامنا العارية، في المساء سرتُ وإيّاه حتى الموقف، من هناك نظرتُ بفضول إلى نافذة غرفتي، حاولتُ أن أراني، لكنّني لم أكن موجوداً على ما يبدو، لا بد أنّني الآن في أرض الحكايا، هذا غاية ما حلمت به، أن أكون حكاية من حكايات أرض الحكايا.

يالحمقي! كيف لم يخطر في بالي أنّني حكاية من أرض الحكايا؟! صافحت عامل الميناء بحرارة، واجتزت الشّارع، تساءلتُ طويلاً في نفسي وأنا في طريقي إلى البيت: "أيّ الحكايا كانت حكاية عامل الميناء الصّامت رغم أنفه؟" دلفتُ إلى البيت، جلست إلى الطّاولة، راقبت البحر من مكاني عبر النّافذة، وشرعتُ أكتبُ إحدى حكايات أرض الحكايا، وبدأت أكتب حكايتي...

مدينة الأحلام

فقط عندما تتوحّد الأحلام، وتتشابه تفاصيلها تصبح حقيقة، وبكلمة سحرّيّة قوامها التّمنّي والمناجاة الجماعيّة تلفظ البشريّة جمعاء طلسم الوجود، فينشقّ البحر رغم أنفه، ويتمخّض بقوّة، ويدفع من أحشائه الرّاكدة ومن زبده المستلقي في هشاشته مدينة الأحلام التّي تتهادى على صفحاته، وتستقرّ في بقعة ضوئيّة يكسوها ضوء القمر الصيفيّ بوافر نوره.

كانت ليلة لا تختلف عن أيّ ليلة من تلك اللّيالي التّي عرفتها البشريّة عبر تاريخها المديد الغابر، إلاّ أنّ البشريّة في تلك اللّيلة وفي لحظة واحدة وبفمٍ واحد ينقسم بين مليارات الأفواه والقلوب والأمنيات والأعراق والألوان تمنّتْ أن تتحقّق أحلامها، تمنّت أن تصدف أمانيها أمامها تماماً، لتذوق طعم ذلك البعيد الذي باتت تتحرّق إليه، وتصبو إلى ضمّه، وتعلّق السّعادة على وجوده، وتسميه أحلامنا.

عندما برزت مدينة الأحلام إلى حيّز الوجود المدرك، اختلفت نواميس الطّبيعة، ودبّت الفوضى في النّظام الكونيّ؛ كثير من الكواكب غادرت مكانها، بعض البحار غارت في قلب الأرض، وجبال أخرى برزت حيث لا يجب أن تكون، تقاربت مسافات الأرض، وانكمش أديمها، وبات الكون يتلخّص في مدينة الأحلام والبشر الذي يتدافعون نحو هذه المدينة التّي نودي في أهل الأرض إنّه قد آن لهم أن يدخلوا إلى هذه المدينة التّي تحوي أحلامهم، بعد أن فكّوا جميعاً وبلسان واحد طلسم بواباتها التّي ستُفتح لهم لأول مرة منذ الخليقة؛

ليحصلوا على أحلامهم، وليغادروها آمنين، وقد نالوا رغبتهم الأزليّة، أيّ أحلامهم.

في البدء لم يصدّق البشر نداء السّماء، وشعروا بتوجّس وريبة، بعض المحبطين والشّجعان ورجال الاستخبارات دخلوا تلك المدينة على مضض، كان الكلّ مدجّجاً بالخوف والطّمع.

في تلك المدينة كانت الأحلام تنتشر في كلّ مكان، منضدة في رخاوة محّار الأصداف، كم كانت الأحلام جميلة ودافئة ولها بريق مائيّ، وطعم حلو، وملمس حنون! كلّ حلم كان ينتظر صاحبه، والطّرق تتداخل، وتتباعد وتتقارب؛ لتوصل ضيف المدينة إلى حلمه بكلّ يسر.

خرج الرّواد الأوائل مبتهجين، يحملون أحلامهم، بعض منهم حملته أحلامه،"إذن فقد نالت البشريّة حلمها الأرضيّ"، ردّد البشر تلك الجملة المغمورة في أكسيد السّعادة واللّهجات والنّبرات والأصوات كلّها، وتدافعوا إلى مدينة الأحلام.

كانت المدينة صغيرة ذات أسوار بلورية، وقبة شفّافة تتراءى السّماء والقمر والنّجوم في أعلاها، لكنّها كانت تتسّع للبشر أجمعين كما اتّسعت طوال وجودها السّرّيّ لأحلامهم، وإن ابتلعتها دهراً طويلاً، وقلّما لفظت شيئاً منها مكرهة غالباً، راضية نادراً، كان البقاء فيها رائعاً، كانت تشبه مِزقة من الفردوس الذي سمعوا عنه طويلاً في كتبهم ومن أنبيائهم، لكن فرحة لقاء الأحلام كانت أعظم وأبلغ أثراً وأدعى لهم للخروج بها إلى الحياة.

خرج البشر من المدينة الحالمة، كلّ يحمل على عاتقه، حلمه المحفوظ في طاقة من زبد البحر، كانوا يشعرون أنّ للحياة طعماً آخر، ومن تلك اللّحظة بدأ

تاريخ جديد للبشريّة، بعض المؤرخين أسماه زمن الأحلام، وبدأت الأيّام تُحصى منذ ذلك اليوم.

بسرعة تقاسم البشر أحلامهم، وهجروا مدينة الأحلام، التّي بدت خالية من البشر، لكنّها ما تزال تمور بالأحلام التّي تتجدّد، ولا تعرف نهاية كما لا تعرف بداية.

بعض البشر عاد من جديد، وبحثوا عن أحلام جديدة، وحصلوا عليها، ثم عادوا مرة ثالثة ورابعة، بعضهم بدّل حلمه في طريق العودة، وعاد من جديد يبحث عن حلم آخر، وبقيت المدينة كريمة لا تبخل على أحد بدخولها، ولا تضّن على إنسان بحلمه.

في البداية غمرت السّعادة البشريّة التّي لطالما تنفّست المدينة زفير راحتهم وطمأنينتهم ورضاهم، وردّدت رجع صدى أحلامهم. لكن ماذا بعد؟ لم يعد تحقيق الحلم بمستحيل، ولا تجديده بممنوع، ولا استبداله بمرفوض، كلّ شيء كان موجوداً حتى المستحيل، لم يعد هناك معنىً للحياة ولا للزّمن ولا للعمل، بل لم يعد هناك معنى للوجود، وغرق الزّمن في رتابة لم يُعرف لها مثيل، ولا لسلطانها حدود، وغدا حلم البشريّة أن تجد حلماً لا يتحقّق؛ لكي تلهث وراءه باشتهاء.

أخيراً شعر البشر أنّ مدينة الأحلام قد حطّمت أحلامهم وحرمتهم من متعة ممارسة التّمنّي، ومن دبيب سعادة الجري وراء الأحلام، وفي صوت واحد ومن جديد تمنّى البشر أن تختفي مدينة الأحلام من الوجود.

من جديد فكّت البشريّة طلّسم الوجود، وابتلع البحر على هوادة مدينته السّحريّة، وغاب القمر عن صفحته اللّامعة، كان البشر يشهدون اختفاء المدينة، لكنّهم اكتشفوا لاحقاً أنّهم ما يزالون محبوسين مع أحلامهم، غابت مدينة

الأحلام، وخلّفت الأحلام وراءها، كان لأحلامهم سِحنٌ لم يلاحظوها من قبل، طاردتهم طويلاً، وأرهقت أجسادهم، وعـذّبت أرواحهـم، عرفـوا أنّ الأحـلام تغدو كوابيس بشعة إن حُبس الإنسان معها، وأصبح عبداً لها.

مرة أخرى تمنّى البشر من جديد بلسان واحد أن تظهر مدينة الأحلام بعد أن غابت في العدم؛ ليردّوا إليها الأحلام والأمنيات جميعهـا، لكـن البحـر صـمّ أذنيه عن أمنيتهم، ولم يسمعوا داعي السّـماء، وأدركـوا متـأخّرين أنّ الأمنيـات تتحقّق مرّة واحدة فقط.

البلّورة

وجدوه منتحراً، وعلى شفتيه ابتسامة غريبة، وإلى جانبه قصاصة كُتب عليها بخطّ واضح ومنمّق: "إنّنا محبوسون دون أن ندري"، وإلى تحت عبارته المثيرة رُسم وجه لرجل ضاحك، ابتسامته العريضة تشقّ وجهه كاملاً، وتمتدّ إلى أذنيه الكبيرتين.

برم الشّرّطيّ شفتيه عجباً ممّا قرأ، ومدّ القصاصة إلى الضّابط المسؤول الذي قرأ القصاصة بصوت مسموع، وقال وهو يطوي القصاصة نصف طيّة هازئاً ممّا قرأ فيها: "أتراه انتحر لأنّه عرف الحقيقة؟ أم احتجاجاً على عدم معرفته لها إلاّ متأخّراً؟"

قال الشّرّطيّ المصوّر الذي كان منهكاً بالتقاط صور لهيئة المنتحر ولمسرح الموت، ولعلّه يكون مسرح الجريمة كما قد يتبيّن فيما بعد: "لكن ماذا يقصد بكلمة "محبوسون"؟"

أجاب الضّابط الذي يبذل جهداً كبيراً لإشعال سيجارته من القدّاحة القديمة البالية الرّخيصة النّوع: "لا أعرف، عليكَ أن تسأله".

قال الشّرّطيّ المصوّر ببرود ضاحكاً كمن يصوّر عروساً لا ميّت: "لكنّه وضع حدّاً لحياته قبل أن يشرح لنا معنى عبارته هذه".

أجاب الضّابط الذي يتابع حلقات الدّخان التّي ينفثها تباعاً من فمه: "لهذا قد لا نعرف أبداً ماذا عنى بجملته العجيبة".

قال الشّرّطيّ بتحمّس شبابيّ كبير: "قد يكون منتحراً مجنوناً يا سيّدي، أو لعلّه انتحر في لحظة يأس، وقد يكون انتحاره مجرّد غطاء لجريمة مريبة ما".

"كلّ شيءٍ جائز" أجاب الضّابط دون مبالاة، وطفق يتفقّد الموجودات كلّها، ويتحرّى أيّ أدلّة قد تفكّ سرّ المنتحر.

استمرّ البحث في قضيّة المنتحر أيّاماً معدودة، وكادت القضيّة تُحفظ على أنّها قضيّة انتحار، في ضوء تقرير الطّبّ الشّرعيّ، وبناء على تفتيش مسرح الجريمة، لولا ظهور دليل جديد في القضيّة؛ فقد تقدّم صاحب المتجر الكبير الذي كان المنتحر يعمل به بشكوى ضدّ المنتحر يتّهمه فيها باختلاس مبلغ كبير من المال، وبتبديده، ويطالب بالتّحقيق في القضيّة، وإيقاف أيّ حصر لإرث المنتحر إلى حين البتّ بقضيّته، وردّ نقوده إليه.

بناء على هذا التّحوّل الجديد في القضيّة أُستأنف التّحقيق من جديد، وأسندت إليه مهمّة التّحقيق في القضيّة، فلعلّ وراء لغز اختلاس المال تفسيراً لكلّ ما يجري لا سيما قضيّة الانتحار إن لم تكن اغتيالاً مدبّراً ومدروساً.

بدأ الضّابط المحقّق بحثه –كالعادة– انطلاقاً من السّجلّ المدنيّ والقضائيّ والوظيفيّ للمنتحر، وأحصى كلّ معلومة عنه كبيرة كانت أم صغيرة؛ فقد تكون معلومة صغيرة هي مفتاح لغز كبير، كانت حياته عوان بين عاديّة واستثنائيّة، كان شابّاً في آخر الثّلاثينيّات مصاباً بعرج قوي "في قدمه اليمنى، الأوراق ذكرت أنّه عرج خلقيّ وُلد به، لكنّ التّحرّيات أكّدت أنّه عرج خرج به بعد قضاء فترة في معتقل "ق. ك" في بلد ما، قد يكون البلد الذي لفظه، درس العلوم السّياسيّة، ثمّ انقطع عنها بسبب مرض ألمّ به، هذا ما ورد في الأوراق الرّسميّة، إلاّ أنّ التّحرّيات أكّدت أنّه درس الأدب الإنجليزيّ الذي أحبّه دائماً، وانقطع عنه

بسبب تهمة سياسيّة ظهرت على حين غرّة، وأُتّهم بها عقب مشاركته في مظاهرة طلّابيّة وطنيّة احتجاجاً على رفع سعر البسكويت ماركة "شاؤول" التّي يفضّلها.

كان رجلاً وحيداً يسكن بيته القديم الذي ورثه عن خالته التّي ربته منذ أن كان صغيراً، لم يستطع أن يعرف أيّ معلومة عن عائلته سوى اسم أبيه وأمّه وعائلته، ومعلومة تذكر أنّه وحيد عائلته، وبخلاف ذلك لم يجد إلاّ معلومات حول تاريخ ميلاده، وتاريخ التحاقه بالجيش، وتاريخ اعتقاله، وتاريخ الإفراج عنه، ومكان إقامته.

أمّا ما حقّقته التّحرّيات الشّخصيّة عن المنتحر، فلم تزد شيئاً عمّا وجده من معلومات رسميّة مدوّنة عن المنتحر، فالكلّ من جيران ومعارف وزملاء في العمل ذكروا إنّه رجل مغلق على نفسه، متقوقع على ذاته، لا يُعرف له شرٌّ أو خير، وإن أكّد البعض أنّه كان من الذين يدسّون بعض الصّدقات في أيدي المحتاجين والفقراء بصمت وعجلة، قضيّة الصّدقات قادت التّحرّي إلى وجهة الحالة الماديّة للمنتحر، كشفه الذّاتيّ كان يشير صراحة إلى حياة شبه معدمة خلا بيت قديم قد ورثه عن خالته، ورصيد متواضع في البنك يمكن ادّخاره عبر سنوات طويلة من أجر عمل كالذي يعمل به، إدارة البنك أكّدت عبر كشف مفصّل ومؤرّخ أنّ المنتحر كان قد سحب ادّخاراته المتواضعة كلّها قُبيل انتحاره بشهرين، وبذا ظهر لغز جديد في القضيّة، فضلاً عن لغزي الانتحار والأموال المختلسة من عمل المنتحر، فقد ظهر لغز أمواله المسحوبة من البنك والمجهولة المصير.

بدأ الضّابط بحثاً جديداً في بيت المنتحر بعد استصداره موافقة النّيابة العامّة على ذلك، لم يجد في منزل المنتحر خلا الرّتابة والمقتنيات الأساسيّة لحياة عاديّة إلاّ مكتبة كبيرة تزخر بمئات الكتب القيّمة ذات الطّبعات الأصليّة فضلاً

عن ألبوم صور قد فُقدت صوره كلّها، وإن بقي التّعليق الكتابيّ المؤرّخ ما زال مخطوطاً بالخطّ الجميل نفسه، وبشكل واضح تحت آثار الصّور المفقودة، وفي الدّرج الأعلى للمكتب وجد غطاء المسدّس الذي انتحر المنتحر بواسطته، ودفتراً جلديّاً كبيراً، كُتب على صفحته الأولى بالخطّ الجميل ذاته الذي وُجد في قصاصة الانتحار "هذا ليس دفتر مذكّرات، بل هو سِفْر إدانة للسّجن الكبير".

"يبدو أنّ السّجن قضيّة ملحّة على ذهن المنتحر" قال الضّابط هامساً لنفسه، استلّ سيجارة من علبة سجائره ببطء، وبذل جهداً لإشعالها من قدّاحته القديمة، أخذ نفساً عميقاً، ثم جلس في المقعد الخشبيّ وراء المكتب، وطفق يقلّب صفحات الدّفتر الكبير.

كلّ مجموعة من الصّفحات عُنونت بعنوان منفصل، كانت العناوين مكتوبة بخطّ واضح، قلبّها الواحدة تلو الأخرى، ثمّ توقّف من جديد؛ ليغرز عقب سيجارته في المنفضة النحاسيّة الموجودة على المكتب، وليشعل من جديد سيجارة جديدة، أخذ نفساً بكراً منها، عاد، وقلّب العناوين بحركة سريعة دون أن يقرأها مرّة ثانية، كانت عناوين غريبة، بدأت بعنوان "البلّورة"، وتوسّطت بعنوان "كنتُ وحدي بين أوهامي وأطياف المنى، والتقينا فبدا لي من أنا وأين أنا"، وانتهت بعنوان "والآن أعود وحدي لكن بدون أوهام وأطياف"، وفي عقب آخر صفحة كُتبت جملة: "ملاحظة: هناك أوهام وأطياف".

فضوله الشّخصيّ والوظيفيّ أمليا عليه أن يقرأ ما كُتب بين دفّتي الكتاب، قرّب الكرسي أكثر من الطّاولة، واتّخذ جِلسة مناسبة له، وبدأ يقرأ، ويقرأ، ويقرأ، وما انقطع يقرأ، إلى أن أنهى القراءة، كان ذلك بعد نهار وليلة، أعضاؤه كانت قد تيبّست تماماً، وحواسّه استُفزّت حدّ الجنون، وملامحه فترت بمقدار جمود ميّت، قلب الصّفحة الأخيرة، أغلق الكتاب، وأشعل سيجارة أخيرة

وجدها في علبة سجائره، أخذ نفساً عميقاً، وانزلق في الكرسي، لم يتابع كعادته حلقات الدّخان التّي يصنعها بنفاث سجائره؛ لأنّ دمعة سخينة كانت قد شوّشت نظره، وحجبت الغرفة عنه للحظات.

مدّ كفّاً كبيرة، ومسح الدّمعات الفارة دون إذن، من جديد تناول ألبوم الصّور الموتور بصوره الفقيدة، قلّبه الصّفحة تلو الأخرى، قرأ كلّ ملاحظة تعريفيّة مكتوبة تحت كلّ صورة منزوعة، عرف اسم كلّ شخص ورد ذكره في الملاحظات التّعريفيّة، تمثّلهم جميعاً صوراً ووجوهاً وقامات وضحكات ومواقف، فقد قرأ في الدّفتر عالم صاحبه كاملاً، تخيّل الصّور المفترضة التّي كانت فوق الملاحظات التّعريفيّة، وسمع صوت تمزيقها وإعدامها على يدي المنتحر الذي غادر العالم بعد أن غادره.

رأى المنتحر كذلك، روحه سكنت جسده، كان -دون شكّ- ربّ الكلمة، كلماته الجميلة السّاحرة نقلت روحه إلى جسده، أحسّ بالمنتحر يسكن أعضاءه، تحسّس وجهه، وشعر بأنّ قسمات جديدة قد افترشته، سارع إلى المرآة المعلّقة خلف باب الغرفة، وطالع وجهه فيها، زفر بارتياح عندما رأى وجهه بقسماته التّي ألفها، وإن رأى في عينيه الذّابلتين من سهر وعناء طويل نظرة المنتحر، لقد عاش المنتحر طويلاً، بالتّحديد عاش حياة قصيرة، ومعاناة طويلة، في السّجن أحسّ أنّ وطنه مسجون خارج الأسوار، وعندما خرج غدا ووطنه مسجونين في معتقل كبير اسمه وطن.

حُرم من كلّ شيء، بداية حُرم من حنان اسمه أبّ وأمّ، حُرم فيما بعد من حنان التّي أحبّها بقدر حبّ الأصداف للبحر، ابتعد عن حبيبته البحر، لكنّه بقي ما بقي يحمل في داخل صدفته صوت هديرها، ورائحة ملوحتها، وصورة هائج أمواجها، سُجن فيما بعد؛ لأنّه قال: "لا للحرمان". كان غريباً في وطنه،

وعدوّاً في سجن وطنه، ضُرب وعُذّب حتّى نسي اسمه، وما نسي قضيّته، وخرج يجرّ الخذلان وقدماً عرجاء شبه مشلولة محتجّة بصمت على العذاب الذي أُوقع في حقّها، وبدأت معاناته مع البلّورة، ضابط المخابرات الذي حقّق معه، وبمعنىً أدقّ الذي أشرف على تعذيبه أخبره أنّه سيكون أسير بلّورته التّي سيتابعه عبرها دون توقّف، عندها هزأ منه، ومن ادّعاءاته، لكنّه عرف فيما بعد أنّه يملك بحقّ بلّورة سحريّة تراقب حركاته، وتنقل خلجاته كلّها، بل وتعدّ أنفاسه، وتحصي وجيب قلبه، لم تكن بلّورة زجاجيّة كتلك التّي يستعملها سحرة القصص الخرافيّة، لكنّها كانت بلّورة كهربائيّة، مدجّجة بالمراقبين، والمتجسّسين ومربوطة بأحدث وسائل وأفراد المتابعة.

أصبح سجين البلّورة، كان يعرف أنّ كلّ كلمة يقولها تُنقل إليهم، وما كان يبالي بذلك، لكنّه آل على نفسه أن يُصعّب عليهم مهمّة مراقبته، كان يقضي أوقات فراغه في التّسكّع هنا وهناك، إلى أن ضاق ذرعاً بنفسه وبالبلّورة، فاتّخذ نظاماً مغلقاً لا يتخطّاه أبداً يريحه، ويريح صاحب البلّورة، في النّهار يكون أسير عمله خلف صندوق المحاسبة، بعد ذلك يتناول الغذاء في مطعم لا يغيّره، يتناول الوجبة نفسها على الطّاولة نفسها، ثمّ يذهب إلى مكتبة عامّة تقع قريباً من بيته، يجلس على الكرسي نفسه، ولساعات ستّ فقط، يقرأ في الكتاب نفسه، وبالتّحدّيد في الصّفحة ذاتها، ثمّ يقفل راجعاً إلى بيته بعد أن يشتري طعام العشاء، يأخذ حمّاماً ساخناً وقد يكون بارداً، يكتب مذكّراته، يمضي ساعة خارج زمن البلّورة، ثمّ يخلد للنّوم، وهكذا دواليك.

لم يخرق برنامجه المغلق ولو ليوم واحد باستثناء يوم انتحاره الذي كتب مذكّراته بلون أحمر، وأكّد فيه أنّ الرّاحة والخلاص من الحياة ومن رقابة البلّورة آتيان لا محالة.

إذن فلغز المنتحر بات ظاهراً، فلقد انتحر احتجاجاً على سلطة البلّورة، كان المفتاح الموجود بين الصّفحة الأخيرة وما قبل الأخيرة هو كلّ ما بقي بعد المنتحر، حدّق طويلاً فيه، قلّبه مرّات عديدة، كان متأكّداً من أنّ سرّ السّاعة الوحيدة الخارجة عن زمن البرنامج المغلقة حلّها في المفتاح، جرّبه على أبواب البيت، وعلى أبواب خزائنه، لكنّ أيّاً منها لم يكن المفتاح له، توقّف عند خزانة المنتحر الشّخصيّة، فتح بابها الأوسط، أزاح الملابس المعلّقة فيها، كانت روح المنتحر لا روحه هي التّي تسكنه، وتملي عليه فكرة الهروب، وفلسفة التّخفّي، وجد في خلفيّة الخزانة باباً خشبيّاً من الواضح أنّه قد صُنع بمهارة، دسّ المفتاح في عين قفله، وأدراه، فانفتح الباب بأزيز كبير، استجمع فضوله الذي ذهب أشتاتاً في مهبّ الحيرة، وألقى نظرة عجلى فضوليّة إلى ما وراء الباب، كانت غرفة كبيرة مطليّة بالأبيض، وليس فيها إلاّ مقعد خشبيّ يتوسّطها وقد كُتب على الحائط بخطّ المنتحر:

"بنيتُ فردوسي وزخرفته

حتّى إذا ما تمّ ضيّعته

أجريتُ في أنهاره كوثراً

فذاقه النّاس وما ذقتُه"

جلس المحقّق على الكرسي، وشرد في عالم من الحرّيّة، وهو يردّد الأشعار المكتوبة على الحائط تمنّى في داخله أن لا تكون البلّورة قد اكتشفت أيضاً هذا المكان، وبسرّه دون أن يعي ما يقول، تمنّى أن تنزل النّوازل بالبلّورة، فتح علبة سجائره ليتناول سيجارة، لكنّها كانت فارغة، تأفّف وَفْقَ عادته، وأخذ نفساً عميقاً، وقال كمن يكلّم نفسه: "إذن على بناء هذه الغرفة أنفق صديقي المنتحر

مدّخراته كاملة، يا له من شقيّ! أراد أن يملك ولو مكاناً واحداً على هامش الحرّيّة".

حوقل طويلاً، ووجد نفسه يفكّر في إن كان قادراً هو كذلك على أن يملك ولو مكاناً واحداً على هامش الحرّيّة.

في اليوم التّالي كان قد قدّم تقريره النّهائيّ الذي أُرفق باعتراف أحد زملاء المنتحر في العمل باختلاسه النّقود المنسوب اختلاسها إلى المتوفّي، وفي طيّه اتّهام صريح للبلّورة بدفع مواطن شريف للانتحار بعد ممارسة أبشع وسائل القمع والتّجسّس عليه.

لم يُناقش تقريره أبداً كما كان يتوقّع، بل أُشيّر عليه بعبارة سرّي للغاية، وفي المساء تسلّم قرار نقله إلى دائرة عسكريّة أخرى في أقصى بقاع البلاد، كان القرار مذيلاً بختم البلّورة، قرأ قرار نقله مراراً، طواه أكثر من طيّة، ثمّ نثره مزقاً في الهواء الذي كان يداعب حلقات دخّانه الذي ينفثه بشهوة.

فكّر طويلاً في الغرفة السّرّيّة البيضاء، اجتاحته رغبة للجلوس فيها، على عجل حزم نفسه، وتوجّه إليها، عندما دخل إلى الشّقة وجد كلّ شيء كما تركه إلاّ الباب السّرّيّ، فقد كان قد اختفى للأبد، وحلّ مكانه حائط صلد يبدو أنّه عتيق، ابتسم ابتسامة اتّسعت لتصبح قهقهة هستيريّة دامية، أخذ نفساً عميقاً من سيجارته، وقال زاعقاً: "إذن فقد وصلت البلّورة إلى غرفة الحرّيّة، اللّعنة، لذلك انتحر صديقي المسكين".

في الصّباح وُجد الضّابط منتحراً في غرفة نوم صديقه المنتحر، وابتسامة غريبة على شفتيه، وليس إلى جانبه قصاصة كُتب عليها بخطّ واضح ومنمّق: "إنّنا مسجونون دون أن ندري"؛ لأنّ هذه العبارة كانت مكتوبة على قصاصة عند

رأس منتحر على مستوى رفيع من الأهميّة، قيل إنّه صاحب بلّورة سحريّة تتجسّس على النّاس، وأنّه اكتشف بمحض الصّدفة أنّه أيضاً مسجون مع المسجونين الذين يطاردهم ببلّورته، مع فارق بسيط أنّهم مسجونون داخل البلّورة، وهو خارجها؛ لذلك فقد انتحر تمرّداً على السّجن أيّاً كان، وترك بلّورته لشخص لا يعرف عن لعنتها، إلى أن يعرف ذلك، وينتحر مثله.

الشّيطان يبكي

ليت النّبي سليمان العظيم كان قد حبسه في قمقم نحاسيّ، كالذي قـرأ عنـه في قصص ألف ليلة وليلة، لـو فعـل ذلـك لاسـتطاع الآن أن يعـود إلى سـجنه، فذلك السّجن سيكون رحيماً معه، شفيقاً به، ولن يشعر فيه أنّه مهدور القيمـة، غير مهيب الجانب، وإن كانت العودة إلى سجنه تبدو هي الأخـرى أمـراً بعيـد المنال.

ماذا حدث للبشر؟ إنّه الشّيطان، فكيف يغدو في أيديهم لعبة خرقاء ترجو الخلاص والرّحمة.

"ألم تسمعوا عني؟! أنا الشّيطان، أنا عدو الرّبّ، أين جبروتي؟" قال الشّيطان بصوته اللّئيم الخشـن، فارتجّـت السّـماء والأرض، واضـطربت الأمـواج، ثـم استكان صوته، وغاب في موجة أسطوريّة من البكاء الأجشّ الكسير.

تساقطت دموع الشّيطان كسفاً مـن النّـار علـى الأرض، ووصـل صـوت بكائه وشهيقه إلى عنان السّماء. الملائكـة أمرتـه بحـزم بـأن يكـفّ عـن إزعاجـه للسّماء، وحذّرته من كسف النّار التّي أحرقت الكثير مـن الأمـاكن في الأرض، لكنّ الشّيطان استمرّ في بكائه النّادر، تمنّى مـن قـرارة نفسـه، وكـاد يتمنّـى مـن أعماق قلبه إلاّ أنّه تذكّر أن لا قلب له أن يجد أحداً يرثي لـه، هـو في حاجـة إلى الحبّ، نعم الشّيطان لأوّل مرة عبر تاريخه الوحشيّ يحتاج إلى الحنـان، حتـى أنّـه فكّر في أن يقبّل أعتاب عرش الرّحمن العظيم، وأن يطلـب مغفرتـه، وأن يقلـب بذلك تاريخ الدّيانات كلّها، وليجد البشر بعده شيطاناً بمثـل نشـاطه وإخلاصـه

لقضيّته، لكنّه تذكّر أنّ الشّهب في انتظاره في السّماء الأولى، ولن يستطيع أبداً أن يدنو منها.

بعد ساعات من بكائه المتّصل أُرسلتْ فرقة عسكريّة دوليّة لمكافحة الشّغب، ومنعته إلى الأبد من البكاء، وهدّدت بالزجّ به في أبشع أنواع المعتقلات إن عاد إلى جريمة البكاء التّي تحرق الأرض، وكتبت قي تقريرها: "إنّ عمليّة إقناع الشّيطان قد تمّت بطريقة سلميّة وحضاريّة".

عندها عجب الشّيطان من اختلاف المصطلحات من عصر إلى آخر. لكن هيئة الأمم المتّحدة كانت رحيمة معه إذا سمحت له بأن يشعر بالأسى كما يشاء، بل إنّها أبلغته رسميّاً بحقّه بالحزن حتى الموت.

كان شيطاناً رجيماً في زمن النّبي سليمان العظيم، كان يوسوس في صدور النّاس، ويرهقهم فتنة وشرّاً، وأخيراً ظفر به سليمان، فحبسه لمليون سنة بين لجج البحر وزبده، عانى الأمرين في حبسه، وانتظر ثانية فثانية ليخرج من سجنه، ويمارس تسليته الوحيدة، لكنّه الآن يتمنّى لو أنّ سليمان موجود ليعيده إلى سجنه؛ فذلك المكان المائع المضطرب أرحم به من البشر المتوحّشين.

كان شيطاناً عندما كان البشر بشراً، لكنّه الآن يجهل ما تراه سيكون بعد أن غدا البشر شياطين. كان يتوقّع أن نشاطه الشّرّير المكبوت لمليون سنة سيفجّر الدّنيا خبثاً وشراً، لكنّه كان مثل عيدان كبريت في حقل مفرقعات ناريّة، الدّنيا كانت تمور بخبثها وشرّها، حاول جاهداً أن يجد له مكاناً في عالم الشّرّ، لكنّه بدا تلميذاً غرّاً في جامعة عريقة، لقد لهى النّاس به، وحار في ألاعيب شرّهم، وعجب: "أنّى لهم هذا الشّرّ كلّه، وهو لم يلقنهم إيّاه؟!"

كاد يموت من الجوع في ذلك العالم المخيف، ولم يجد من يشفق عليه، عزاؤه الوحيد أن لا أحد من الجائعين يجد أحداً ما يشفق عليه، ويرحم جوعه وعوزه. أحدهم عرض عليه أن يستثمر اسمه الشّرّير المشهور في مشروع مربح؛ إذ أراد أن يفتح تحت اسمه مقهى شهيراً للجنود الذين يعسكرون في مكان ما في العالم، ويلهون بجماجم الأطفال الأبرياء، ومع أنّه وافق على ذلك إلاّ أن ذلك البشريّ اللّعين قد خدعه، ولم يعطه شيئاً مقابل استثمار اسمه، بل إنّه كاد يرسله إلى مكان خلف الشّمس كما قال له.

تساءل الشّيطان هل وصل البشر إلى الشّمس أيضاً؟! شعر الشّيطان أنّ زمنه الحديديّ قد ولّى من دون رجعة، وقد جاء زمن البشر الشّياطين، تذكّر أمجاده، وكاد يبكيها، لكنّه تذكّر في الوقت المناسب دموعه الملتهبة، وما ستجنيه عليه من كوارث.

تساءل من سيكون بعد الآن؟ شعر أنّه لأول مرة في حياته يحبّ سليمان العظيم؛ لأنّه حماه زمناً طويلاً دون أن يدري من أولئك البشر الذي يشارفون على الوصول إلى شفير جهنم، وشكّ في أنّهم سيسمحون له بأن يقودهم إلى هناك كما تذكر الكتب السّماويّة، وكما تحدّى الرّبّ بوقاحة في الزّمن الغابر.

حسنٌ أنّ بعض البشر باتوا يعبدونه، لكن ليس خوفاً منه، ولا أيضاً اعترافاً بفضله، مع أنّه لا يذكر أنّ له فضلاً عليهم، لكن حبّاً في لطفه وإعجاباً في رقّته مقارنة مع فظاظتهم وقسوتهم، تمنّى لو أنّه يستطيع أن يحرق أولئك الذين يعبدونه؛ لأنّه رغم كلّ شيء يكرههم، ولا يستطيع أن يهبهم غير الكره.

في زيارة سريعة قام بها لهم عجب من تلك السّلوكيّات العجيبة والشّرّيرة التّي سبقوه إليها، خمّن أنّهم تفوقوا عليه، وكاد يثني عليهم لولا أنّهم طردوه، ورفضوا زعامته، وأعلنوا أنّهم الشّياطين في هذا الزّمن الموحش.

(٧)

المجموعة القصصيّة "الكابوس" [١]

١- صدرت المجموعة القصصيّة "الكابوس" في طبعتها الأولى عن أمانة جائزة الشّارقة للإبداع العربـيّ، الإمارات العربيّة المتّحدة، الشّارقة، ٢٠٠٦، وحازت هذه المجموعة القصصيّة على جائزة الشّارقة للإبداع العربيّ في حقل القصّـة القصـيرة المخطوطـة في العـام ٢٠٠٥، دائـرة الشّـارقة للإبـداع العربيّ، حكومة الشّارقة، الشّارقة، الإمارات العربيّة المتّحدة.

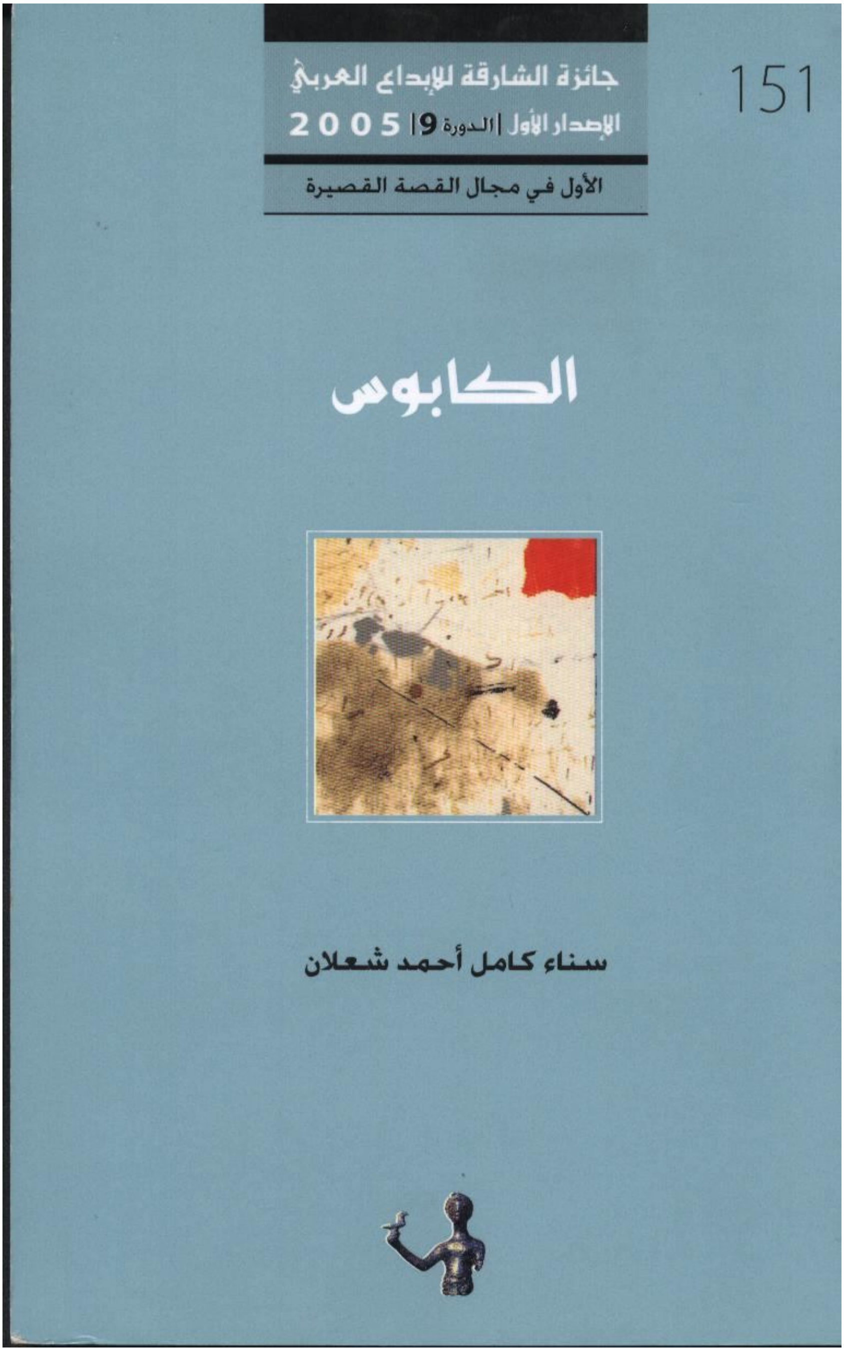
151
جائزة الشارقة للإبداع العربي
الإصدار الأول | الدورة 9 | 2005
الأول في مجال القصة القصيرة
الكابوس
سناء كامل أحمد شعلان

الكابوس

(١)

كابوسه

ثوانٍ فقط بعد أن يغمض عينيه، ويتدثّر بدثار سميك تمضي، ثـم ينسـرب في دوامة سوداء تبتلعه بسكون لذيذ، اسمها النّوم، ما عرف يوماً قلقـاً أو أرقـاً، فهو كما يحلو له أن يصف نفسه بتبجّح يملك النّـوم في قبضـة يـده، لحظـة، ثـم يصبح أسيره دون مشاكل أو انتظار، وإن كان يلقي صعوبة دائمة في أن يستيقظ من نومه العميق، فهو من عشّـاق النّـوم، ومـن الـذين يملكـون فلسـفة بشـأنه، تتلخّص بالاستسلام له، وملازمته طويلاً، والتبتّل في محراب سحره، وإن كان لم يعرف يوماً متعة أو نشوة حلم، فقد كان سلطاناً للنّوم لا للأحلام، تمنّـى كـثيراً أن يحصل على حلم واحد فقط، كلّ من حوله يعتاشون على عذب أحلامهـم، بعض أصدقائه كان الحلم هو محقّق نشوتهم، ومفرغ رغباتهم المدفونة، يفجّرونها سخينة مشتهاة، ويستيقظون بكامل الرّاحة والسّعادة، في حين كانت أمّـه تصـيّر حياتها وَفْقَ أحلامها، أمّا جدّته فكان لها باع طويل في تفسير الأحلام، ولا غرو أن تشتاط كحبّة فشار في مقلاة إن لم توافِ الحقيقة تفسيراتها، وتقارب توقعاتها، أمّا هو فقلما عرف الحلم، كان معلقاً في دوامة سـوداء بـين اليقظـة واللاّيقظـة، وأمّا الأحلام فيجهل تماماً كنه حياكتها، وطريقة صناعتها، بالتّحديـد يجهـل مـا معنى حلم، كيف يبدأ؟ كيف يتوحّش؟ كيف يخبو؟ هو لا يعرف ذلك كلّه.

تلك التّساؤلات كلّها كانت حائرة مثله، معلّقة معه في شرنقته السّوداء التّي تُسمى نوم، أمّه تقول إنّ من لاهم عنده لا يحلم، لكنّه مهموم، جدّته تقول إنّ أصحاب القلوب الطّاهرة والنّوايا الطّيّبة والأفعال الخيّرة، لا يحلمون، وأنّهم يضعون جنوبهم وهم خلو البال من الدّنيا؛ لذا لا ترافقهم إلى النّوم، لكنّه آثم القلب، فاحش الأفعال.

إذن أين حلمه؟ هو لا يملك حلماً، حسبه ذلك الكابوس النّهاريّ الذي يطارده ليل نهار، يؤرّق جسده إلى ما لا نهاية، ويستنزف طاقة نومه وراحته، ويُشكِل الأمور عليه تماماً، لعلّ هذا الكابوس هو السّبب الحقيقيّ في هجر الأحلام له، فكابوسه هو لعنة حياته، لعنة الأصدقاء، ولعنة نفسه الآثمة، ولعنتها هي بالذّات.

بدأت القصّة مزاحاً، ولا شيء غير المزاح والتندّر والبحث عن تسلية، وانتهت بكابوس أعياه علاجاً بالطّبّ والسّحر والقرآن، فرحل كلّ شيء إلا إيّاه، فقد بقي ثقيلاً جاثماً على صدره.

اعتاد على أن يجلس في ذلك المقهى مع الأصدقاء الذين تعرّف عليهم في رحلة الدّراسة، ثم جمعت العربدة والسّكر والفواحش بين ساعاتهم، وقاربت لقاءاتهم، وجعلتهم عصبة تتعاطى العهر والسّكر، وإن كانت تُخلص للمزاح والتّندّر، وتواظب على اللّقاء، وعلى تجاذب أطراف الكلام، وسرد سِير المغامرات.

لا يعرف تماماً ماذا حدث يومها، لعلّها كانت مزحة، لعلّها كانت حقيقة، ربما تكون قوّة خارقة استحوذت عليه، وقد لا يكون أيّ شيء ممّا ذكر، لكنّه متأكد من أنّ كلماته هي من جلبتها، أو على الأقلّ هي من وضعتها في طريقه،

كان عندها يصف إحدى تلك الأجساد النّسائيّة التّي اعتاد أن يهصرها بشبق شهوانيّ، كان ربّ الوصف، كلماته تنقل الزّفرات والخلجات والتّنهدات، ثم تغمر الجسد بقوّة عظمى، سرعان ما تُسرّي عن نفسها بانتعاشة لذيذة، كان جسداً مثل سائر الأجساد النّسائيّة، نسي وجه صاحبته المليحة، لكنّه حفظ مفاتنه وأغواره، وأخذ ينقلها كلمات إلى ذهن الأصدقاء الذي لا يضنّ عليهم بالوصف، بل ولا يمانع في إحالة نسائه إليهم في بعض الأوقات؛ فالمتعة حقّ عامّ، والأجساد لها فتنتها الخاصّة.

سريعاً ما تطوّر الحديث، بدأ بالتّخصيص، ثم بالتّعميم، ثم انتهى بالتهكّم، بلغته السّاخرة، وتصويره المتهكم في وصف المرأة التّي لم يذقها بعد، ويرغب فيها على سبيل التّغيير، ومن باب التّحدّي، أرادها امرأة تخلو من كلّ جمال أنثويّ، امرأة معنّاة بشكلها، موتورة بإثارتها، يريدها مسخاً، لكن دون تشوّهات؛ ليثبت للأصدقاء أنّ رجولته المتهيّجة قادرة على استحضار ذاتها حتى مع أقبح نساء الدّنيا، الأصدقاء كانوا مستغرقين بالضّحك، يتندّرون بهول ما يصف، أمّا هو فكان يوسّط كلماته بحلقات رماديّة ينفثها على مهل من أرجيلته، ثم يسترسل بالوصف، يريدها امرأة قبيحة، قبيحة جدّاً.

فرغت كلماته، وما فرغت أمنيته حتى وجدها أمامه تماماً، بالتّحديد أمام واجهة المتجر المقابل، ترقب بفضول آخر صرعات الموضة النّسائيّة، كانت صيداً لتحدّيه، مناسبة تماماً لرهانه، حفزّه الأصدقاء برهانهم، نحّى خرطوم أرجيلته جانباً، وانطلق إليها؛ ليحقّق رهانه الفاحش.

ساعات أم ليال أم لحظات مرت؟ لا يهمّ، المهمّ أنّ رجولته الطّاغية وقسماته المثقلة بشهوتها قد أزاغت قلبها، وذهبت به شططاً، وحرّرته من سجنه الإجباريّ، تحركت فيها أنوثتها المسحوقة، لم تكن تصدق أنّ أنوثتها الكسيرة قد

تستوقف رجلاً مثله، وكان اللّقاء، أو كان الفراق، على يديه كانت أوّل تنهداتها التّي لم يسمع مثلها، مزيج من السّحر والأزليّة، خليط من الرّغبة والنّشوة، حالة خاصّة من العشق والتّمنّي، توثّبت رجولته كما شاء لها، وانتهى لقاء استمر لساعات خالها لحظات لجمالها، وكسب الرّهان، واختفت غضبى بعد أن عرفت عن رهانه الذي ما رحم قلبها، وفضح سترها، وجعلها عرضة للسّخرية وللتندّر، حقدت عليه بمقدار ما أحبّته، وقد أحبّته كثيراً؛ لذا فقد كرهته كثيراً أيضاً، زهدت به بمقدار ما اشتهته، غابت وخسرت، وكسب هو الرّهان، غابت وتركته يشعر بأغرب خسارة في لحظة الكسب، غابت، وتركته حبيس تأوهاتها، رآها في كلّ مكان، في كلّ ليلة نامت في عظامه وبين أضلعه ، لكنّها ما ظهرت، هو من خلقها، هو من أوجدها، متأكد هو من أنّه من صنعها بكلماته، كوّنها آية في البشاعة، رحلت الأنوثة عن قسماتها كلّها، لكنّها تدفّقت زلالاً في ذاتها وروحها، كسب رهانه، ثم خسر رجولته للأبد، التّي بقيت تنظرها ، لكنّها لم تحضر.

أصبحت كابوسه اللّعين، يتخيّلها في كلّ مكان، يلحظها أمام واجهات الحوانيت، يهرول سريعاً إليها، ثم تختفي، بعد أن يكون قد راهن عليها بأشواقه كلّها، وينام، ولا يحلم، ويستيقظ ليجد أنّه ما زال حبيس كابوس يسمى هي.

(٢)

كابوسها

تعيش الأحلام ليل نهار، في اللّيل ترى نفسها في سعادة لا تعرف نهاية، وفي النّهار تتخيّل نفسها نائمة تعيش أحلام يقظة هانئة، ترى جسدها يكتسي بأنوثة سعيدة تحوّله إلى لحظة سعيدة، ترى نفسها وسط أسرة هانئة، ومع زوج محبّ، تحمل حصاد العمر سعادة وهناءة، هي ملكة الأحلام، وأَمَةُ الحقيقة.

يكفيها أن تقرّر السّعادة، حتى تنالها، تُسدل عينيها، وتترك نفسها للتّمنّي، فتجد المستحيل حقيقة، والبعيد قريباً، تنسى أنّها امرأة محبوسة خارج أنوثتها، لم تذق يوماً لحظة أنوثة على يدي رجل خلا ذلك الكابوس الذي يسيطر عليها، غادرها اهتمام الرّجال، فغادرته، وإن بقيت تحلم به، أمّها الانسان الوحيد الذي أشفق على غبنها في أنوثتها، تمسّد على رأسها، وتنعى قلّة حظّها، فتفهم ضمناً أنّها تنعى قلّة جمالها، فتبتسم بوجع دفين، ثم تصمت.

كانت الطّالبة الألمع في المدرسة ثم في الجامعة، فقد كانت متميّزة في تخصّصها، مبدعة في حقلها، تحظّى باحترام الرّجال دون حبّهم، يسمونها أختهم، في حين يسمون غيرها حبيبة، يبثّونها أحزانهم، في حين يبثون الأخريات أشواقهم، يتحرّون أوقات نشاطها، يعملون معها، ويتحرّون لحظات أنوثة غيرها؛ ليكونوا لهنّ.

اعتادت على أن تحضن الفراغ في حين يحضن غيرها قلوب حانية عاشقة، وأذرعاً طامحة، أزهقت العمر، وبدّدت المدّخر؛ لتساهم في تدريس أخ، أو

لتشارك في بناء بيت لأخت، أو لتجلب هديّة في عيد ميلاد نسيب أو صديق، ثم تلتصق بالحائط حيث الوحدة، الكلّ يروي حلمه لها، لكن لا أحد يفكر في أن يسمع حلمها الذي سرعان ما مسخ في ذاتها؛ ليصبح كابوساً مضنياً.

بدأ كابوسها منذ ليلة رحيل والدتها التي رحلت بعد معركة غير متكافئة مع المرض تاركة بيتاً كبيراً، تقاسمه الأبناء حتى مداسات الأحذية القديمة، وبنتاً عانساً لا أحد يُعني نفسه بحرمانها ووحدتها، فضلاً عن أنّ أحداً لم يفكّر في أين ستقيم بعد أن باعوا البيت الذي بنته بسنين شبابها الضّائع، كما تجاهلوا جميعاً وجود فاتورة ضخمة ترهق ميزانيّة العانس التّي تصدّت لها في حين أعلن الجميع عن أفلاسهم المزعوم، فاستنفدت مدّخراتها البقيّة المتبقيّة بعد تسديد فواتير الحبّ والأخوة والصّداقة التّي غرمت كثيراً في سبيلها.

كان خبر موت أمّها خبراً مفجعاً، جاء صباحاً قبل لحظة الشّرّوق، الأخوة كانوا في أحضان نساء لهنّ صور باسمة بأثواب بيضاء منضدة فوق طاولة غرفة المعيشة، والأخوات بكين في حضون رجال أنجبن لهم أبناء وبنات، وكنّ قبل سويعات يشهقن شهوة في أحضانهم غير مباليات باحتضار امرأة عجوز تُسمى أمّهنّ، أمّا هي فقد انزوت جانباً، كانت في حضن الحرمان، أسعدها أن تجفّف أيدٍ حانية دموع الأخوة والأخوات، لكن ماذا عنها؟! ذهبت إلى أقرب حمام، وانتحبت طويلاً، وتكفّلت بتجفيف دموعها السّخينة الموجعة.

حرمانها فجّر كابوساً رهيباً، كابوساً لا يفرقها لا ليل ولا نهار، كان مزيجاً من الرّغبة والخوف، تجاوز المتوقّع، وكسر المقبول، كان كابوسها هو فتىً أسمر فارع الطّول، يصغرها كثيراً، يناسب فتى صباها، في كلّ سنة كانت تراه، كان جريئاً، له وجود ضبابيّ، هي فقط من تراه دون الآخرين، لا ينتظمه وقت أو قانون، يمدّ إليها يديه المشتهيتين في أيّ لحظة، وفي أيّ مكان، يعرّيها على عجل

في لحظات، يفتضّها بعنف لذيذ، يقبّلها قسراً مع أنّها مستسلمة له، يفوح المكان بأريج أنفاسه، يبتعد منتشياً منتصراً، تتنبّه بصعوبة إلى من حولها، يغيب ليعود مجدداً، كابوس هو، رغبة جارفة تجتاحها هو، كلّ شيء إلا الحقيقة هو، فهو أبداً ليس حقيقة.

تتساءل بصعوبة أهو كابوس؛ لأنّه حقيقة؟ أم أنّه كابوس؛ لأنّه ليس حقيقة؟ تعيها الإجابة، تهزّ كتفيها غير بالية، ومن جديد تستقبل اعتداءه اللّذيذ.

(٣)

كابوسهما

هي كابوسه، هو كابوسها، هو لا يحلم، هي دائمة الحلم، هـي قبيحـة، هـو جميل، هي تنتظره، هو يشتهيها، هي عانس، هو شابّ وسيم، هي مسـتلمة، هـو فاحش، هي وحيدة، هو وحيد، هو يراها في الأمكـان كلّهـا، هـي تـراه في كـلّ مكان، هي تسكن جسده، هو يسكن لهاثها، هي لا تعرف أين هو، هو لا يعرف أين هي، هي تعرف أنّه موجود، هو يعرف أنّها موجودة، كلاهما يدركان أنّهمـا في كابوس، ليس عليهما إلا أن يتجاوزاه، أو أن يتوقّفـا لحظـة؛ ليـدركا الحقيقـة فيه.

في كلّ صباح تقطع الشّارع، فتصدفه، أحياناً يصدم كتفها كتفه، وهي تفتح سيارتها القديمة، تقف في المرآب إلى جانب سيارته الفارهة، وهو يستعد لركوبها، تعتذر أحياناً، يبتسم لها أحياناً، ويمضيان في دربين لا يلتقيان.

يجتمعان في الكثير من مناسك الـدّنيا، في الأعـراس، في المـآتم، في حفـلات الصّيد، في بعض مراسم العمل، يحيي أحدهما الآخر، ثم يقفل مبتعـداً، ليعـيش كلّ منهما في كابوسه، ولأجل كابوسه.

في إضراب عام لبائعي المحروقات، يصدف أحدهما الآخر في حافلة واحدة، يجلس أحدهما إلى جانب الآخر، كتفاهما متآخيان، وجسداهما ملتصـقان، كـلّ منهما يجري نحو كابوسـه، هـي تحلـم بـه، هـو يحلـم بهـا، ينتفضـان، يبتسـمان لبعضهما ابتسامة خجل واعتذار، يقولا بنفس واحد: "لقد كان كابوساً..."

(٤)

كابوسهم

كابوسهم مخيف قلق، يستنزف لحظاتهم، ويقلق سكونهم، يخشون أن تحلم به، أن تراه في قلبها، يخشون أن يجسر، وينام في قلبها، كابوسهم يتمثّل في أحلامهما، أحلامها وأحلامه، يريدانهما في كابوس دائم؛ لأنّ انتهاء كابوسهما يعني بدء كابوسهم، يخشون الحبّ، يعذّبون من يجهر باسمه الملعون، ينكلّون بأجساد من يتعاطونه، وفي آخر اللّيل بين الهيجان والسّكون، في غياهب غرفهم المظلمة وفي عميق أنفسهم المضطربة، يبكون، ويبكون؛ لأنّ حلمهما كان حلمهم الذي غدا كابوسهم.

(٥)

كابوسي

ليس مصرح لي بالتّنديد بالكوابيس، عصاة ما همست لي في حمأتها: "لا للكوابيس"، هتفتُ بحماس مردّدة بعدها: "لا للكوابيس.."

لكن كابوس عصاة تنهال علـيّ، فتـدكّ عظـامي، وتسـحق أمنيـاتي، ظـلّ يطاردوني على الـرّغم مـن أنّـني قـد عاهـدتُ نفسـي علـى عـدم الاستسـلام للكوابيس إرضاء لعصا القبيلة.

(٦)

كابوس...

. . . .
. . . .
. . .

. . . .
. . . .
. . . .

. . . . !

عالم البلّورات الزّجاجيّة

كان رحيل جدّه هو أوّل رحيل يعرفه، عندما غاب الجدّ سأل عنه، فقيل له: "إنّه قد ذهب إلى العالم الثّاني"، ونسي بسبب براءة الطّفولة أنّ يسأل ما هو العالم الأوّل.

عندما مات أبو رجب المرابي سمع عمّه وبعض رجال الحيّ يقولون بتشفٍ بعيد عن طبيعتهم الطّيّبة: "ذهب إلى جهنم الحمراء"، وعندما ماتت أخته عبلة وهي تضع مولودها السّابع في حوش الدّاية أمّ محمود التّي تشبه الغولة، سمعهم يقولون وهم موزعون بين أحزانهم وبين الطّفل الذي يبكي الغذاء بحرقة ولوعة: "ذهبت إلى ربها".

تساءل عندها ما حاجة الرّبّ إلى عبلة التّي لا تملك من دنياها أكثر من عناء تربية أبنائها؟! لكن عندما رأى أطفال أخته موزّعين في بيوت الأعمام والأخوال أدرك كم كانت عبلة مهمّة. الله وحده قدّر قيمتها؛ لذا فقد أرسل في طلبها.

في المدرسة لم يأخذ دروساً لأسبوع؛ لأنّ معلّمهم ذا الكرش المنتفخ كالبالون كان قد اختفى فجأة، قالت الجدّة له: "إنّ الغولة قد خطفته"، فاستنتج أنّ الدّاية أمّ محمود أرسلته حيث أرسلت أخته عبلة من قبل، لكن بقي لغز كيفيّة نقل جسده الثّقيل يُلحّ على باله، إلى أن علم من طلّاب المدرسة ومن المراسل أبي عمر أنّ المعلّم قد هاجر إلى العالم الجديد، وتساءل وقتها بقلق: "هل يعني هذا أنّه ما زال محبوساً في العالم القديم، وهل النّاس في العالم الجديد هم بشر مسالمين أم غيلان متوّحشة كما أخبرته جدّته؟

عندما كبر عرف أنّ هناك آلاف العوالم والعوالم، بعضها نعيش فيه، والبعض الآخر يعيش فينا، أبداً لم يجد عالمه مع أنّه كان يتنفّس، ويأكل، ويشرب، وينمو، وهذه أدلّة قطعيّة على أنّه يسير وَفْقَ ناموس عالم ما.

الجارة أمّ حسن الأعور أطلقتْ عليه اسم عطا الهبيلة؛ لأنّه كان يطيل النّظر في البلّورات الزّجاجيّة التّي يلعب بها أولاد الحارّة، ويصّمم على أنّ فيها عالماً خاصّاً به، كانت الدّنيا في تلك البلّورات رائعة شفّافة ذات انعكاسات لونيّة رائعة، دنيا زجاجيّة تحتمل الأحلام كلّها، وتتسع للأمنيات جميعها، وتتسع لجدّه الرّاحل، وفيها مكان لأولاد أخته عبلة السّبعة الذين ماتت، وتركتهم في عهدة ضرّة تسومهم عذاب الكفرة، وفيها طعام وشراب مثل الذي يراه في التّلفاز، وملابس جديدة في العيد، وبيت له نوافذ واسعة، وحديقة خضراء، بل إنّ هذه الدّنيا متّسعة حتى أنّها قد تكفي لسدّ جشع أبي رجب المرابي، ولسدّ جوع أولاد جارتهم الأيتام، الذين مات أحدهم العام المنصرم بسبب سوء التّغذية.

لقد عشق العالم الزّجاجيّ في هذه البلّورات، كان يجمعها باهتمام، يغسلها ويلمّعها، ويجعل بعضها في جيبه ليداعبها بيده، وليتأمّل بعضها كلّما سنحتْ الفرصة له بذلك، ويسمّي البلّورة الخضراء العالم الزّجاجيّ الأخضر، ويسمّي البلّورة الزّرقاء العالم الزّجاجيّ الأزرق، ودواليك.

عندما نجح في الثّانويّة العامّة، وحصل على معدل ٩٠ ٪ قالت له أمّ حسن الأعور بحسد وغلّ: "والله يا عطا الأهبل ها قد نجحت"، يومها بصق في وجهها، وهرب بعيداً، واختلى لساعات ببلوراته الزّجاجيّة، عندها رأى في عوالمها جامعة يدرس فيها، ويحقّق النّجاح الذي يحلم به، ورأى نفسه بقميص أزرق وبنطال كحليّ جديد مثل الذي اشتراه عمّه في يوم خطبته، وتخيّل نفسه طبيباً يحترمه النّاس، ويساعد الفقراء منهم.

لكن عالمه الجميل بقي حبيس بلوراته الزّجاجيّة، فهو لم يستطيع أنّ يـدخل الجامعة؛ لأنّه لايملك شروى نقير، فضلاً عن عجزه عن دفـع أقسـاط الدّراسـة الجامعيّة، وبدل أنّ يصبح طبيباً أصبح فتى الفرن الذي ينقل الخبز على درّاجتـه الهوائيّة إلى بيوت الأغنياء الذين يسمّون أبناء الذّوات والعزّ، وكان كلّمـا سمـع هذه التّسمية تساءل في نفسه بنقمة: "ماذا ترانا نُسمّى عنـدهم؟ لعلّنـا في نظـرهم أولاد الكلب".

من جديد عاد عطا إلى عالمه الزّجاجيّ حيث يرى نفسه، وقد حصل على شاحنة نقل مستعملة، لها مقاعد جلديّة قديمة، ينقل الخبز بها، بدل أن ينقله على درّاجته الهوائيّة التّي قطعت نفسه، وقوّست ظهره.

اعتاد في كلّ يوم أنّ يمر من شارع كبير حيث الطّريق إلى عالم الأغنياء الذي يفصله عن عالم الفقراء، كان الشّارع كبيراً ونظيفاً ومشجّراً كما هي الشّـوارع في عالم البلّورات الزّجاجيّة، لكنّه كان شارعاً رتيباً مملاً إلى أن أُفتتح فيه ذلك المتجر الفاره، لم يدخله أبداً؛ "فكلّ أهله لو بيعـوا لا يسـاوون ثمـن قطعـة واحـدة مـن معروضاته"، كما قال له صاحب المخبز، لكن واجهة المتجر كان لها سحر خـاصّ ووقع عظيم على نفسه الزّجاجيّة، كان للمتجر لافتة وردية تضاء بأنوار صـغيرة لتشكّل اسم المتجر، وهو: "عالم روزا".

واجهة المتجر كانتْ زجاجيّة لها خلفيّة فضيّة لامعة يتوسّطها تمثـال لامـرأة طويلة شقراء، وأحياناً كان يُغيّر شعرها المستعار، فتصبح سمـراء، لكـن عينيهـا كانتا دائماً خضراوتين صافيتين مثل عيني منال بنت الجيران التّي أحبّها منذ زمن طويل، لكنّ الفقر ألجم لسانه أمامها، أسمى ذلك التّمثال باسم روزا، فلا بدّ أنّ هذا المكان هو عالمها وَفْق ما هو مكتوب على واجهة المتجر.

أدمن على المرور في كلّ صباح من أمام المتجر؛ ليحدّق طويلاً في امرأته البلاستيكيّة الحسناء التّي تتناوب على أجمل أثواب الموضة، تعرّف إليها، وحدثها طويلاً، حدّثها عن عالمه التّرابي فكرهته، وحمدت الله على أنّها لا تعيش فيه، حدّثته عن عالمها، فأحبّه، هو على الأقلّ أفضل من العوالم التّي ألفها، وتمنّى لو أنّه يستطيع أن يدلف إليه، لكنّه كان يجهل السّبيل إلى ذلك كما كانتْ تجهله امرأته البلاستيكيّة هي الأخرى.

فيما بعد عشق حسناءه، وطلب أنّ يتزوجها، فوافقتْ على ذلك مسرورة مبتهجة، بل كادت تخرج من عالمها فرحاً بعرضه، وتغادر منصّة العرض في واجهة المتجر لتقبّل تأكيداً على قبولها لعرضه المفرح لها.

دار نقاش بينهما لأيّام طويلة حول من منهما سيغادر عالمه، وينزلق في عالم الآخر ليكونا معاً، كثيراً ما كان صاحب المتجر أو أحد فتيانه يقطعون الحديث بينهما، ويطردونه من واجهة المتجر، لكن أخيراً كان القرار، لقد اتّفقا على أن يدلف إلى عالمها الزّجاجيّ السّاحر، كان واثقاً من أنّه عندما يلمسها سيتحوّل جسدها اللّدن إلى مادّة حيّة، وينعمان بضوء عالمها، ويعيشان معاً في وارف ألوانه، لكنّه بقي غير متأكّد من الطّريق التّي يتوجب عليه أن يسلكه حتى يدلف إلى ذلك العالم، نظر شمالاً ويميناً، شدّ بيديه على مقود الدرّاجة الهوائيّة المهترئة، تنفّس الصّعداء، ثم انطلق سريعاً بدراجته الهوائيّة نحو الواجهة الزّجاجيّة، وفي أسرع من لمح البصر دلف إلى ذلك العالم المُشتهى، شعر ببعض الألم العظيم، وخال أنّ مِزقاً من جسده بقيت عالقة خارج العالم الزّجاجيّ، وجد امرأته في انتظاره، بابتسامها العميقة نسي آلامه، عالم نورانيّ جميل هو عالمها، غلب عليه اللّون الأحمر، عالم يشبه العالم الزّجاجيّ الأحمر، وغاب مع فتاة عالمه الزّجاجيّ.

في المساء أُودع جسد عطا في قبر خفيض إلى جانب سـور مقـبرة القريـة، كان حول قبره حفنة مـن الرّجـال، وشـيخ الحـارّة، جمـيعهم عجبـوا مـن تلـك الابتسامة العجيبة التّي كانت ترتسم على محياه وهم يدفنونه، قالوا: "إنّ مسّاً مـن الجنون قد دفعه إلى اختراق واجهة المحل الزّجاجيّة"، وقيل: "إنّ ما حدث ليس إلا حادثاً مؤسفاً"، الجارة أم حسن الأعور قالـت: "الله يرحمـه، عـاش أهبـل، ومـات أهبل".

الكلّ أجمع على أنّ عطا الآن في الطّريق إلى العالم الآخر، لكـنّهم لم يعلمـوا أنّه قد انزلق بعد عناء في عالم الأحلام الزّجاجيّة.

أوديسيوس مرّة أخرى

لكلّ موجود أسطورة، هكذا تقول الحكاية، ولأنّ الحكاية تقرّ بحقّيقة وجود الأساطير، كانت أسطورتها، وكانت أسطورة كلّ امرأة منذ كانت الخليقة.

كانت تقف على رجم الحجارة الملساء ذات الأصباغ الملوّنة تنتظر غائباً لم يغب، وحاضراً لم يكن، وبعيداً لعلّه لن يؤوب،"ليته يأتي" حدّثت نفسها، "لعلّه يأتي" أجاب إله البحر بتعاطف كافٍ ليغرق خضرة شعره الذي يحيط بحار الدّنيا بزرقة أبديّة.

كانت هنا منذ أشهر طويلة، بالتّحديد منذ أن جاء ذلك الذي أضاء حياتها، وحرّك أمواج البحر الممتدّ أمامها منذ الأزل، جاء من البعيد، يحمل آلاف القصص التّي لا تعنيها، هو فقط من يعنيها، تقول الأسطورة إنّها خُلقتْ لكي تنتظره.

أيّ أسطورةٍ تقول ذلك؟ هي لا تعرف، لعلّها أسطورة الانتظار التّي حاكتها باشتياق الدّنيا، جاء ملاّحاً طموحاً على مركب أحد السّوّاح الذين يجيئون من أرض الثّلج وبلّورات الماء والصّقيع؛ ليستلقوا عراة أو شبه عراة على شواطئ الجربة لؤلؤة السّاحل التّونسيّ، ولؤلؤة الأساطير الإغريقيّة.

قابلها أوّل مرة في حومة السّوق التّي تقع في قلب الجزيرة في محلّ صنع الفخّار الذي تشتهر جزيرة جربة به، تأمّل طويلاً ما تصنع يداها، ثمّ تقدّم إليها، وسألها أن تساعده في انتقاء هديّة صلصاليّة لامرأة يعشقها بجنون، هي موجودة فِي ميناء ما من موانئ الدّنيا، دون تردّد اختارتْ له تمثالاً صلصاليّاً صغيراً لإله

البحر بوسيدون، نقدها ثمنه دون فصال، وطلب منها أن تضعه في علبة صدفيّة مناسبة، ثمّ أهداه لها بكلّ حبّ وسعادة وحماسّة من حمله من آخر الدّنيا، من يومها لم تقف على تلّة الانتظار، ولم تهمس لبوسيدون بحميميّة الانتظار؛ لأنّه جاء، جاء على شكل أسطورة من البحر.

لكن لجج البحر الآثمة عادت، وابتلعته من جديد، وأفل من حيث أتى، وبقي البحر يصبّرها، وبقيت تسمع صوت هديره غارقاً في صدفاته التّي رتّبتها لآلاف المرّات على شاطئه الرّمليّ السّاخن، كلّ صدفة حدّثتها بذكرى امرأة وقفت تنتظر غائباً اسمه حبيب، أصداف كانت تحمل ذكرى لقاءات سعيدة، وكثير منها كان يحمل صوت البحر، وهو يُغرق دموع نساء ابتلعهنّ الانتظار، ولفظ البحر جيفهنّ إكراماً لذكرى التّلّة، شعرت بأنّها في لحظة ما عمرها عقود طويلة وقفت تنتظر حبيباً تونسيّاً أسمر قال للاحتلال: لا، والتحق بالثّوار الذين ابتلعتهم الصّحراء، ولم يعد.

كم راودت إله البحر لينقل جزيرتها إلى قلب الصّحراء لترى حبيبها! لكن ذلك لم يحدث، وبقي الإله القاسي متمسّكاً بحدود مملكته المائيّة العظيمة، مع أنّه وُلد أصلاً في بحيرة تريتون "شطّ الجريد" في صحراء تونس التّي كان ماؤها المالح الرّحم الأوّل الذي احتواه.

طال الانتظار، طال لقرون طويلة خلت في الماضي، رأت نفسها عبرها عربيّة مسلمة من أهالي الجزيرة تلبس ثوباً قرمزيّاً، تنتظر زوجاً اجتذبته الفتوحات الإسلاميّة، وأدهشته فكرة الأرض الجديدة، إلى درجة نسي فيها دهشة اللّحظة مع المرأة، وسحر العشق، واختفى، وما اختفت التّلّة ولا الزّوجة، ولا توقّف الانتظار، الانتظار الذي عمره آلاف السّنوات، بالتّحديد عمره بعمر أسطورة فنيقيّة قديمة، كان اسم الجزيرة آنذاك هو جزيرة "مينكس"، أيّ الأرض

القليلة المياه، لكنّها كانت مرفأً آمناً لسفن الفنيقيين، كانت بائعة هوى، تبيع جسدها لكلّ بحّار متعرّق أضناه الحرمان، وحرّقته الرّغبة، وفي ساعة رحيل السّفن، كانت تحزن بشدّة، تحزن؛ لأنّها ما زالت تنتظر، تنتظر قادماً لم يأتِ بعد، وتتكبّد في انتظاره ألم وداع رجال الدّنيا أجمعين.

تتذكّر أنّها سعدت مرّة واحدة لا غير بلقائه في أسطورة ما، لعلّها كانت أسطورة إغريقيّة، إنّه أمر مؤكّد أنّها كانت إغريقيّة، تقول تلك الأسطورة إنّ إله الصّواعق زفس غضب بشدّة على أوديسيوس بطل الإلياذة؛ لأنّه نهب مدينة أزماروس، ولمّا أبحر النّاجون أرسل عليهم عاصفةً لتعيقهم، وبعد تسعة أيّام بلغوا جزيرة الجربة، التّي كانت تدعى آنذاك بجزيرة أكلة اللّوتس، واللّوتس فاكهة عجيبة، من أكل منها نسي بيته وبلاده وكلّ شيء يحبّه، ولا يطلب أكثر من أن يظلّ حالماً بين الجداول والشّلاّلات والأشجار المزهرة إلى الأبد، بعض البحّارة أكلوا من هذه النّبتة، ورغبوا فعلاً عن الإبحار، إلاّ أنّ ذلك الأشقر البرونزيّ ذا الجسد المتين والنّظرة القاسية، أجبرهم على الإبحار بعد أن قيّدهم إلى صواري سفينته، رحل يحمل رجالاً ينوحون على ما تركوه من هناء، أمّا هي فقد قيّد قلبها إلى صاريّة سفينة إلى جانب أولئك البحّارة المهووسين بجزيرتها الأسطوريّة.

تمنّت أوديسيوس بكلّ ما أوتيت من قوّة على التّمنّي، أسفتْ لأنّه لم يذق ثمار جزيرتها، ليكون إلى جانبها إلى الأبد في دنيا الأحلام، انتظرته لمدّة عام كامل، انتظرته لألف عام أخرى، لبضعة آلاف عام انتظرته، وجاء، كان شابّاً جميلاً لم تخط السّنون خطّاً على وجهه الذي لوّحت الشّمس نضرته الفاتحة، لكنّه غاب من جديد.

نظرت إلى البحر الذي يأكل انتظارها الأسطوريّ منذ ألف عام، قالت له بحنق ذليل:

- "إلى متى يا بوسيدون نلعب سويّاً لعبة الانتظار إلى متى؟ إلى متى؟"

سؤالها أقلق مرجان البحر، ووعّر انزلاق أمواجه، وثوّر صمت أصدافه، تنهّد بوسيدون، وزفر زفرة اضطربت لها أمواج البحر، واتّكأ بتعب مائيّ غضّ على حربته الثّلاثيّة، وقال لها: "لكنّكِ يا عزيزتي ضعيفة، كلّما أتيتكِ بحبيب ما أسلمتيه للسّفر، وعدت تعتصرين قلبكِ وسنينكِ بالانتظار".

سألته بحيرة "وما في يدي أن أفعل؟ ها؟ قل لي يا بوسيدون العزيز، ماذا في يدي أن أفعل؟"، ردّ بوسيدون بصوت رخيم عميق بقدر عمق المحيطات: "احتكريه، اسجنيه، امنعيه من السّفر، ابتلعيه إنْ اقتضت الحاجة إلى ذلك".

سأل بشكّ: "هل ستقبل ربّات القدر بهذا الفعل؟"

قهقه بوسيدون، وقال: "عليكِ أن تصنعي قدركِ مع الحبّ بنفسك".

غرقت ضحكات بوسيدون في البحر، ومن جديد عاد أوديسيوس، عاد على هيئة الملاّح الذي أهداها التّمثال الصّلصاليّ الصّغير، عاد كلاهما، كان أوديسيوس يحمل ثأراً من الانتظار، وعاد الملاّح يحمل اعتذاراً عمليّاً من القدر، حضنت أوديسيوس العائد في جسد الملاّح الشّاب الذي ضمّها على حين غفلة، يداه القويّتان رفعتا جسدها الصّغير عن الأرض، رقص حذاؤها في الهواء قليلاً، ثمّ تملّص، وانزلق أرضاً، وبقيتْ هي في أحضانه.

حدّثته عن تاريخ من الانتظار، حدّثها عن تاريخ من الموانئ والنّساء والسّفر والحرمان، حدّثته عن الماضي، فحدّثها عن المستقبل، حدّثته عن المستقبل، فأعاد ذكر الماضي، لمئة عام بقيا يتحدّثان على التّلّة، لم ترد أن تفارقه

ولو للحظة واحدة، ضمر جسدهما من طول السّهر والتّعب والجوع؛ فقد كانا هبة لسنين طويلة للحديث والحديث والحديث، خشيت أن تنام، فيأكل، ويرتاح، ويسافر من جديد، ومع أوّل لحظة استسلام يقدّمها لسلطان النّوم، شمّرت عن ذراعيها المخمليين، وبحربة مائيّة كبيرة قطّعته إرباً، وبشوق كبير ازدردت لحمه الفتيّ، وشبعت، لأوّل مرّة في تاريخ الانتظار الأنثويّ البائس شعرتْ بالشّبع، مسّدت على بطنها، فأحسّت بعظام أوديسيوس الفتيّة في مضطرب معدتها، ارتاحت؛ لأنّها لن تستيقظ أبداً بعد الآن لتقف من جديد على تلّة الانتظار، واستسلمت للنّوم العميق الهانئ، نامت إلى ما لا نهاية، لكنّ التّلّة من جديد ضجّتْ بامرأة أخرى ما تنتظر رجل بعيد، وبقي بوسيدون أسير انتظار شعوب من النّساء. ([1])

١ - أسطورة (١): الانتظار أسطورة مقدّسة.

أسطورة (٢): بوسيدون أيضاً كان قد احترف الانتظار.

أسطورة (٣): ليس هناك أساطير مقدّسة.

أسطورة (٤): أوديسيوس لم يكن أسطورة، بل كان حقيقة.

حكاية شجرة

في أرض نصفها ثلج ونصفها الآخر وهج، في أرض نصفها في الشّمال، ونصفها في الجنوب، في أرض نصفها في الماضي، ونصفها الآخر في الحاضر، في أرض نصفها هناء، ونصفها الآخر تعاسة، هناك في أرض الجفاف حيث ملتقى البحرين، في أرض تسمّى قلب، نبتت شجرة وحيدة اسمها شجرة "التّوأمين"؛ سُميّت بذلك لأنّ لا شجرة تنمو وحيدة أبداً، بل تنمو من انفلاق بذرة نادرة، تنبتُ شجرتان من النّوع نفسه، ومن الطّول ذاته، ومن السّنّ عينه، لم تسمع شجرتنا من الشّجرات الأمّهات أنّ شجرة "التّوأمين" قد نمت من قبل وحيدة، فهي تعلم أنّ أي شجرة تبزغ وحيدة لا تُكتب الحياة لها، وسرعان ما تجفّ عروقها، وتذوي أغصانها، وتسقط أوراقها اليافعة، وتسلم نفسها حطباً ميّتاً يهوي على الأرض.

لكنّها نمت وحيدة، هكذا مثل نبات شيطانيّ، تكوّرت، ومزّقت رحم الأرض، ونبتت برعماً أخضر، ثم استطالت، واستدارات في أيّام صيفيّة ممطرة، وغدت شجرة صغيرةً وحيدة، كانت فرداً في حين كانت الأشجار توائم متجاورة متفرّعة من بذرة واحدة.

شعرت باستحياء خاصّ، فقد شعرتْ بأنّها سيئة أو شريرة، لا تستحقّ شجرة رفيقة؛ لذلك نمت وحيدة، ثم ساورها شعور العجز؛ إذ إنّها أطلت من بذرة عوان بين العقم وبين الإجداب، فكانت وليدها الوحيد، وعطائها الأخير

في زمن الشّخوخة، ثم استقرّ في وجدانها أنّ الحظّ قد جافها إذ حرمها من رفيقة تآخي زمانها، وتكون نصفها، وتصبح زوجة لها، فقد كانت شجرة ذكراً وحيدة.

الأشجار العجوزة استعبرت حزناً على الشّجرة الوحيدة، وهشّت بأغصانها تعبيراً عن مساندتها، وحثّت الأشجار اليافعة على مساندة الشّجرة الوحيدة، وعلى تقديم كلّ حبّ لها، لكن الأشجار اليافعة كانت سعيدة بتوائمها إلى حدّ أنها لم تستطع أن تتوقّف إجلالاً لأحزان الشّجرة الوحيدة، في حين اكتفت أشجار أخرى بموقف الحياد، فلا هي أمالت أغصانها بعطف نحو الشّجرة الوحيدة، ولا هي كفّت عن لفّ أغصانها بحنو على أغصان توائمها، فهيّجت بسلوكها أحزان وتوجّدات الشّجرة الوحيدة.

أشجار الغابة كلّها كانت من صنف شجرة "التّوأمين"؛ لذا فقد كان منظر الأشجار المتعانقة -التّي تنمو زوجيّاً من جذر واحد، وتنطلق من ساقين مستقلّين لكن متجاورين، بأغصان متجاورة، وبفروع متداخلة، وبأوراق غضّة من الحجم نفسه واللّون ذاته، وبهامات خضراء يافعة وبطول واحد- منظراً وجوديّاً مألوفاً ومتكرّراً في الغابة لا يُستثنى منه إلا شجرة وحيدة تنمو على هون، تمتدّ أغصانها بعشوائيّة تفيض خضرة وقوّة، وإنْ علت بعض أوراق صُفرة تدّل على طارئ مرض أو قُرب عهد بشفاء.

لأنّها الشّجرة الوحيدة التّي تحدّت وحدتها، وتغلّبت على قانون نوعها، وصمدت أمام وجع الألفة التّي تعوزها، فقد أطلقت الشّجرات عليها اسم أخضر الأوّل، ثم اختصرته من باب التّرخيم باسم "إيخو" الذي ما انفكّ يدرس حالته، ويأصّل لوجوده، إلى أن وصل إلى نتائج مذهلة؛ فقد عرف أنّ تاريخ الأشجار في حقيقته تاريخ أحاديّ لا ثنائيّ، فالأحاديّة هي الأصل، والثّنائيّة هي الطّارئ، فأشجار الدّنيا كلّها باستثناء فصيلة نوعه نادرة النّوع اعتماداً على ما

وصل إليه بعد بحث وتقصٍ، توُلد وتنمو، وتعـيش أحاديّـة، وإن كانـت تعـيش ضمن جماعات تُسمّى غابات، أو عُصب تسمّى حدائق وبساتين، أمّا حالة نوعـه من الأشجار، فهي حالة غريبة، إذ تنبت كلّ شجرتين معـاً، وتتجـاوران طـوال حياتهما، وتموتان كذلك معاً، في اللّحظة نفسها، وللسّبب نفسه.

هذا الاكتشاف أسعد "إيخو" الذي عرف أنّه نموذج عن الأصل، فهو بمعنى أو بآخر حالة أولى للوجود، وهذا اليقين قـاده إلى أسـئلة شـتّى، أولاهـا مـا سـبب انحراف أشجار "التّوأمين" عن الأصل؟ بعبارة أدّق ما سبب جنوح أشـجار نوعـه عن القاعدة؟ وما سبب ظهور الثّنائيّة؟ وهل هذه الثّنائيّة تخـدم النّـوع أم تسـيء إليه؟ وهذا السّؤال يقود بالضّرورة إلى سؤال آخر، وهو سؤال أخطر؛ فهو يقف عند سبب وملابسات هذه الثّنائيّة، أتراهـا كانـت حاجـة ماسّـة دعـت إلى هـذا التّدبير؟ أم هي رغبة طارئة جامحة؟ أم هي طفرة أو حالـة مرضـيّة طغـت علـى الكلّ، وأعيت التّـدبير والعـلاج؟ فتفشّـت، وأصـبحت هـي القاعـدة، في حـين أصبحت القاعدة هي الاستثناء.

إجابة سؤال كهذا ستُبني عليها نظريّة خطيرة، فهو إمّا أن يكون حالة مثـال للشّجرة السّليمة وسط سائد مريض، أيّ أنّه انتصار مثال الشّجرة السّليمة وسط سائد مريض،

أي أنّه انتصار الصّحة على المرض، أو أنّـه حالـة مـرض في وسـط سـليم، وبذا يرى أنّه لا يستحقّ إلا الموت، أو الرّثاء والتّقبّـل علـى مضـض في أحسـن التوقّعات.

أيّاً كانت النّتيجة فهو يرى نفسه مسـوقاً ومـدفوعاً نحـو تسـاؤل كـبير؟ ألا وهو: لماذا هو بالذّات نال هذا القدر المجهول القاسي عليه؟ لماذا كُتبت عليه دون أقرانه الوحدة؟ وماذا سيكون نصيبه من هذا التأبّد المقيت؟

أسئلته كانت كثيرة، لكن الإجابات كانت شبه معدومة، فاكتفى لذلك بجفيف الأشجار العجوزة التّي تحنو عليه، وهي تتأبط أغصان توائمها في نسق تكامليّ فريد.

كانت الشّجرة "إيخو" تحلم شأنها في ذلك شأن أيّ شجرة ذكر في أن يكون لها زوجة تقاسمها أعباء البرد، وسعادة النّسيم، وتجني معها فرحة ثمارهما، وتنعم وإياها باحتضان أعشاش طيور الوروار التّي طفقت تسكن أغصانها على استحياء بناء على رغبتها؛ إذ قدّرت طيور الوروار أنّ الشّجرة "إيخو" قد تكون في وحدة وحزن يمنعانها من استقبال أيّ ضيف، لكن الشّجرة خيبّت توقّعاتها؛ إذ كانت مأخوذة بقضيّة الأنس وجماليّات التّلاقي.

طال العمر، وطالت الوحدة، واعتادت الشّجرة "إيخو" على أن تمضي وقتها في مراقبة انثناءات الأشجار التّوائم حول توائمها، وتحلّقاتها حول أغصانها؛ كانت تجد في ذلك متعة لا تضاهيها أيّ متعة أخرى، وغدت شجرة شابّة في السّبعين من عمرها.

بعض الأشجار الأمهات ماتت، ودّعتها دامعة، لكنّ الأشجار التّوائم الحديثة شغلت مكانها، واستكملت مسيرة حبّها. أحسّت الشّجرة الوحيدة أنّ حياتها ستتوقّف عند المنتصف، وأنّ شبابها يُقصف مبكراً؛ فقد بدأت تشعر بألم في خشبها، وبحركة غريبة في جذرها، وقدّرت أنّ الموت قادم؛ فالشّجرة التّي تُصاب في جذرها عليها أن تفكّر في أمنياتها الأخيرة.

بدأت تنتظر لحظة الموت التّي بدا انتظارها على رصيف الوحدة بشعاً ومقلقاً، وجاءت اللّحظة، أو كادت، هكذا قدّرت الشّجرة من الآلام الرّهيبة التّي هاجمت جذرها، فشعرت أنّه ينفصم، ويتمزّق، كادت تستلم لآخر أنفاسها،

لكنّ الحياة أعطتها مفاجأة أسعدت شبابها الطّويل، وأثارت وحدتها، هي لم تكن تعاني سكرات الموت كما خمّنت، بل كانت نفساً تتساقط أنفساً، وثمرة تنشق عن شجرة، فبعد سنين من الجدب والقحط تحرّكت بذرتها الأمّ، واحتضنت شجرة أخرى، ومن ثم شرعت تدفعها من رحمها باتّجاه السّماء، كانت شجرة أنثى، بدت طامحة كغارب صغير، أوراقها الصّغيرة مثل نجمات في السّماء، أغصانها الغضّة الرّقيقة أحيت قلب "إيخو" الذي حصل على شجرته التّوأم بفارق زمنيّ جبّار، ببزوغ شجرته التّوأم إلى الحياة نسي كامل شكوكه وتساؤلاته، وسلا أحزانه كلّها.

امتدّت فروع أخضر لتشمل فروع الشّجرة الوليدة، مراقبة جذعها الجميل وأوراقها الصّغيرة كانت متعته الكبيرة، وبقربها ذاق معنى جمال التّوأمة، وغدا يؤرّخ لزمن جديد من السّعادة والتّوحد مع أنثاه الشّجريّة المثيرة، أخيراً غدت له حكاية حبّ مثل سائر حكايات الأشجار، أخيراً خطّ القدر قصّته مع أجمل شجيرات الغابة، مع شجيرته التّوأم التّي انتظرها بمقدار سنين عمره، وناجاها دون أن يظنّ أنّ القدر سيجود عليه بلقياها، فقد كان بزوغها من رحم البذرة التّي انشقّت عنه صدفة سعيدة ما خال أنّه سيلقاها؛ لذلك كان احتفاؤه بوجودها احتفاء ماله مثيل، ينزاح بأغصانه يسرة أو يمنة؛ ليسمح للنّسيم بمداعبة أوراقها، ينحني على قمّتها، فيطوقها بأغصانه؛ ليمنع أشعة الشّمس من إذبال أوراقها، ويفصّل امتصاصه للغذاء على قدر الكفاف؛ ليسمح لجذورها بامتصاص الغذاء حدّ التّخمة، متعة العطاء كانت متعة لا مثيل لها، وهو على أتمّ الاستعداد للمزيد منها، إلا أنّ المنشار كان لهما بالمرصاد، شكلهما الشّاذّ دون أشجار الغابة أغرى النّجّار ببترهما بمنشاره الكهربائيّ، فصلهما دون رحمة عن الجذع، فهويا على الأرض.

حبّهما كان آخر ما يحملان، فضلاً عن ذكرى ألم لم يرحل بعد أن استوطن في مساماتهما، ومنشار آثم فرّقهما للأبد ليستلقي براحة إلى جانبهما.

هي كانت ما تزال شجرة غِرّة لا تعرف شيئاً عن تاريخ ملاحم الأشجار وعن مذابحها، أمّا هو فكان يعرف أنّ مصيرهما حزين أسود، توقّع أن يُطعم وإياها لنيران مدفأة ما، كان يستطيع أن يتحمل فكره موته، أمّا فكرة تفحّمها في النّار، فكانت فكرة تزيد من ألم أغصانه المفصودة عن جسده، وما كان في اليد حيلة، سوى انتظار لحظة الافتراق والتّفحم.

قُدّما خشباً خاماً لرجل مسنّ يستعين بنظّارات سميكة، تأمّل خشبهما طويلاً، طرق على أسطحهما، ومسدّ على لحائهما، ثم شرع يُعمل آلته الدّقيقة فيهما، أمضى أيّاماً يحفر في خشبهما، ويطوي أسطحهما، ثم ثبّت أوتاراً على الخشبتين، فغدا "إيخو" كماناً حزيناً، وغدت شجرته الصّغيرة قوساً شُدّ إلى جنبيه شعرات خيل رقيقة بتراصٍ شديد، حدّق الرّجل العجوز فيهما، قلبّهما بحنو، قربهما من صدره، أسند الكمان إلى كتفه، وأجرى القوس عليه، فانطلقت الأنغام شجيّة حزينة، تناسب أحزان عازف الكمان، وتحاكي آلام الشّجرتين التّوأمين المقطوعتين.

كان عازفاً حزيناً، أفنى العازف الكثير من ساعاته في صياغة أحزانه أنغاماً واهتزازات أوتار، ألِفت الشّجرتان أنامله العجوزة التّي تداعبهما بكلّ عطف، حفظتا قسماته العجوزة التّي خطّ القدر فيها ساعاته ودقائقه.

لليالٍ عزف العجوز على كمانه بواسطة قوسه، كان مصمّماً على أن يؤلّف قطعة موسيقيّة حزينة، الكمان العاشق والقوس المتيمة أضفيا من أحزانهما وعزيفهما الشّيء الكثير على أنغامه، فبدت قطعته الموسيقيّة عبقريّة نادرة الوجود، وقادرة على محاكاة الطّبيعة ومناجاة كائناتها.

في الصّباح الذي لم ينتظره الكمان أو القوس، وإن انتظره العجوز بفارغ الصّبر، استعدّ العجوز للخروج، ارتدى ملابس العزف الرّسميّة، المغلّفة بحرص، ومعلّقة منذ زمن في الخزانة القديمة التّي حفر في خشبها المتين كلمة أحبّك، وانطلق إلى المسشفى الذي هجر زيارته زمناً، حيث تنتظره الزّوجة الحبيبة التّي هاجمها مرض الزّهايمر منذ زمن، فأكل ذاكرتها بشهيّة آثمة، ومسح ماضيها وحاضرها من ذاكرتها إلا حبّها للموسيقى، فقد بقي متجدّداً قابعاً في أعماق نفسها، أراد الزّوج أن يهديها معزوفة ليس لها مثيل، أضنى نفسه في صنع الكمان والقوس، واعتصر موهبته كلّها في قطعة موسيقية أخّاذة، طار لعزفها على أذني من يحبّها، لكنّها كانت قد رحلت، وسبقته إلى الموت، تبعها إلى رمْسِها مهزوماً محطّماً، وقف بين يديها بإجلال، ثم عزف على الحجارة التّي احتوت جسدها الهزيل معزوفته الموسيقيّة العبقريّة، عزفها لعشرات السّاعات، حتى كَلّ جسده، وتيبّست عضلاته، شعر بتعب شديد، أسند الكمان والوتر إلى قبرها، انحنى إجلالاً وإكراماً لمن تسكن القبر، ثم ولّى متبعداً لا يلوي على شيء.

الكمان الحزين اشتاق إلى لمس قوسه الأثير، حاول أن يدنو منه بحركات انتحاريّة متهوّرة، انزلق وإيّاه على الأرض إلى جانب الرّمْس، سمعا صوت نزيلته العجوز تدندن مترنمة بالأنغام التّي سمعتها منذ وهلة، تمطيا احتراماً لذائقتيّها العظيمة، واستسلما للشّمس المحرقة، ثم انغرسا في الأرض التّي أنشبا أظافرهما فيها، ثم ضربا بجذورها في العمق، امتدّا حياة تشمل جسديهما، وتغزو مساماتهما، أزهرا زهوراً نادرة، كست جسدهما الخشبيّ، أسماها النّاس أزهار الحبّ التّي توّجت حكاية شجرة عاشقة، فالأشجار مثل البشر تملك هي الأخرى حكايات وسيراً وملاحم وآمالاً وانكسارات ونهايات، وتبقى مقيمة على عشقها، مخلصة لذكراه.

حادث مؤسف سعيد جدّاً

لا أحد يستطيع أن يلومني على ما فعلتْ، فأيّ شابّ يملك ذرّة نخوة ورجولة كان سيفعل ما فعلتْ، الكلّ تفهّم موقفي، حتّى الشّاب نفسه صفت نفسه لي في ما بعد، والقضاء كان رحيماً بي كذلك، إذ خفّف الحكم عنّي إلى حدّ دفع غرامة زهيدة لا قيمة لها، لا أذكر حتّى أنّني دفعتها، وانتهت المشكلة بوصفي شاب دمه حارّ، ولا يحتمل أن يُحاف جانبه، وكثيراً ما وقف لي المارّة والجالسون في الحيّ ليلقوا التّحيّة عليّ على اعتبار أنّي بطل عصريّ، يلبس بذلة أنيقة، ويضع نظّارات طبيّة، لكنّه عند اللّزوم ابن أصل، دمه يغلي في مرجل الشّرّف.

لكنّ المشكلة أنّي لم أتوقّف أبداً عن لوم نفسي، بل أنّي لم أسامحها أبداً مع أنّ صاحب العاهة نفسه قد سامحني على ما يبدو، واكتفى بالانزواء تعبيراً عن حزنه، ورضوخاً لعاهته، لكنّني بقيت أحتقر نفسي، وأنعتها "بالبلطجة"، في حين نعتني الكلّ بالرّجولة والمروءة.

الرّواتب المنخفضة والمواصلات ومديري المرتشي هم السّبب في عاهة مصطفى، كما أنّهم السّبب كذلك في الأزمة النّفسيّة التّي أعيشها الآن، فلو لم تكن الرّواتب منخفضة لما اضطررتُ لأخذ مواصلات درجة ثالثة، لأصل بها متأخّراً إلى عملي منقوعاً بعرقي، منتوفاً كدجاج في وعاء ماء ساخن بسبب الزّحمة وتدافع الرّاكبين والجالسين في الحافلة وتدانيهم، لأجد مديري المرتشي بعد هذا العناء كلّه قد خصم عليّ راتب اليوم، وعندما أحتجّ على ظلمه، يحوّلني إلى مجلس تأديب ليخصم عشرة أيّام أُخر من راتبي المنكمش حدّ التّلاشي، ومن ثم يوجّه لي إنذاراً أول، وبذا أدفع أنا الموظّف البسيط ثمن

خطايا الفاسدين كلّها، وأصبح العدوّ الأوّل للشّعب والدّولة ولمشاريعهما الوطنيّة الموقّرة التّي لا يمكن أن يندسّ تحت لوائها أيُّ مرتشٍ أو انتهازي.

لولا ما ذكرت كلّه لما دخلتُ الحيّ مثل ديك حبش بذيل منتوف، ولما رغبتُ في صفع أيّ أحد لأبرّد نار قلبي، ولما قلعتُ عين مصطفى الوحيدة في سورة غضب تافهة، لولا ذلك كلّه لكانت عين مصطفى اليتيمة الآن في صفحة وجهه، ولما كنتُ أوشك على الجنون.

أنا شابّ متعلّم، متعلّم إلى حدّ معقول، أحمل الشّهادة الجامعيّة الأولى، ولولا ضيق ذات اليد، لكنتُ الآن من حملة شهادة الدّكتوراة في حقل من حقول الفيزياء التّي أحبّها، لكن الفقر قطعني في نصف الطّريق، حتّى أتعفّن في الحارّة القديمة التّي أعيش فيها مع عائلتي التّي بتّ أنسى أحياناً اسم بعض أفرادها لكثرتهم، ولتشعّب حاجاتهم وظروفهم.

كان يمكن أن تتغيّر حياتي كلّها لو كنتُ غنيّاً، أو على الأقلّ لو لم أفقأ عين مصطفى بأداة لم أعد أذكرها، ما أذكره الآن فقط صوت عويل مصطفى كما ذئب أجرب أشعلوا النّار في ذنبه القذر، كان يصرخ كالممسوس، وهو مدمي العين التّي سريعاً ما فرّ زلالها، ثمّ انزلق دمها لزجاً حاراً ينفر من تحت أصابع يده التّي شدّها إلى عينه، وهو يصرخ: "عيني، لقد قلعت يا محمود، عيني، الحقّيني يا أمّي، لقد فقأ محمود عيني".

يومها أدركت أنّ للدّماء قدسيّة، كان جسدي يرتجف وأنا أرى الدّماء تتنزّى من تجويف عينه، ويومها أدركتُ كذلك أنّ عينه الأخرى زجاجيّة، أيّ مجرّد زينة وتجميل، وأنّه لم يكن يرى إلاّ بعينه اليتيمة التّي فقأتها في ثورة غضب مزعومة.

هل كانت نظرة فضوليّة على جسد شقيقتي الصّغرى وهي تشطف سلّم البيت، مشمرّة عن قدميها حتّى الأفخاذ، تستحقّ عين مصطفى الوحيدة ثمناً لها؟ الكلّ قال لي: "نعم".

الجيران شدّوا على يدي مؤيّدين موقفي هذا، حتّى الجارة أمّ مصطفى لم تعد تدعو عليّ بالعمى والعجز والفقر عندما هدأت سورة غضبها، وقبلت بنصيب ابنها من العمى عقاباً له على تجسّسه على أعراض النّاس، والمصيبة أنّ المحكمة عدّت سلوكي الهمجيّ هذا دفاعاً مشروعاً عن عرضي، واستشهد المحامي بآية كريمة من القرآن الكريم لتأكيد مشروعيّة سلوكي، فأيّده القاضي بإيماءة رأس ثقيلة مع أنّ الآية الكريمة كانت لا تتناسب أبداً ومعرض ما أُستشهد بها عليه.

الكلّ قال أنّني معذور في سلوكي المتوحّش، فاستكان مصطفى أمام حكم الكلّ، وقبلتُ بحكمهم وباستكانته كي أنجو بريشي من جريرة جريمتي البشعة، لكنّني كنتُ أعلم أنّ أفخاذ نساء الدّنيا كلّهنّ لا تساوي عين مصطفى الوحيدة التّي طاردني زلالها الأبيض ليل نهار، ونغّص عيشي، ومنعني من النّوم أو الأكل أو الرّاحة.

فكّرتُ في أن أقلع عين المدير وعين المواصلات وعين راتبي القليل بل وعيني، وأن أهبها جميعاً لمصطفى المسكين، لكن لا عزاء لي أو له في ذلك؛ إذ كنتُ أعلم أنّها جميعها لن تهبه حتّى ولو رمشة عين واحدة، ولا بارقة نور وحيدة.

لم يعد مديري المرتشي ولا راتبي الحقير ولا المواصلات التّي تسحق الوقت والأناقة، ولا مستقبلي المتداعي، ولا مآسي الدّنيا كلّها تعنيني بقدر ما تعنيني

عين مصطفى، فكّرتُ طويلاً في أنْ أهبه إحدى عيني، وأن أعيش بالأخرى، وسرتُ قدماً في مشروعي الخطير هذا، إلى أن خاب مسعاي عندما علمتُ من أوّل طبيب حدّثته برغبتي هذه أنّ عمليّة بهذا الشّكل مستحيلة؛ لأنّ مشكلة مصطفى ليست في قرنيّة مريضة، لكن في جهاز إبصار كامل قد أُزيل من مكانه، ولا سبيل إلى الاستعاضة عنه بآخر، وبذلك ضاع الأمل الوحيد لمصطفى، ومن جديد عادت عينه الفقيدة مشكلة حياتي، وكابوس ضميري.

من سوء حظّي أنّ غرفة نومي التّي اشترك بها مع إخوتي الثّلاثة ومع جدّي المسنّ تطلّ على شرفة بيت مصطفى التّي بات نزيلها الدّائم ليل نهار، كان مشغولاً دائماً بمتابعة برامج المذياع، قاطعاً بها ساعات يومه، وإن كان جهازه عُرضة للتّوقّف والتّشويش؛ فقد كان مذياعاً قديماً بلاقط استقبال مكسور، وبذلك كان سوء عملي لي في المرصاد، لا يفارقني أبداً، ولا يسمح لي بنسيانه برهة واحدة.

في البداية اشتريت مذياعاً جديداً وحديثاً لمصطفى بكلّ مال الجمعيّة الذي كنتُ أدّخره لشراء بذلة جديدة، ومن ثمّ حاولت إقناع أختي ذات الأفخاذ التّاريخيّة التّي أريق الدّم من أجلها أن تقبل بالزّواج من مصطفى، لكن مع أوّل حذاء أُلقي في وجهي من يدها العوجاء أيقنتُ استحالة تنفيذ طلبي، وكان آخر عمل ترضية أفعله من أجل مصطفى أن توسّطتُ له من أجل الحصول على عمل في معهد المكفوفين، للدّقّة رتّبتُ له هذا العمل مقابل تجاوز ما قدّمته لأحد المراجعين القذرين الذين يراجعون دائرتي باستكلاب مقيت.

بدأت أحوال مصطفى بالتّحسّن؛ فقد تعلّم القراءة والكتابة بلغة المكفوفين، وبات يذرع الطّريق ذهاباً وإياباً بمساعدة عصى المكفوفين البيضاء

التّي حصل عليها بالمجّان من مؤسّسة المكفوفين التّي يعمل بها، لكنّه ظلّ على الرّغم من ذلك مصطفى المكفوف الذي فقأتُ عينه دون وجه حقّ.

جلستُ طويلاً إلى نفسي، وحاكمتها بموضوعيّة بابليّة، وأصدرتُ الحكم على نفسي دون تحيّز أو تجنٍ، العين بالعين، والسّنّ بالسّنّ، والبادئ أظلم؛ لذلك فقد حكمتُ على نفسي بالعمى، ثمّ تقدّمتُ لنفسي باستئناف رُفض على الفور، وبقي الحكم بالعمى قائماً، لكن على أن يُطبّق على مراحل تتناسب وظروفي.

الحقّ أنّي كنتُ مستعجلاً ومتحمّساً لتنفيذ الحكم كي يرتاح ضميري، وكي أستطيع أن أنام بعد أرق عمره أشهر طويلة، بالتّحديد عمره بعمر عمى مصطفى، في الأسبوع الأوّل من تنفيذ الحكم بعد صدوره، وبعد ردّ الاستئناف تخلّصتُ من نظّارتي التّي كانت بسمك قاع دورق تسخين، كان اليوم الأوّل صعباً جدّاً؛ فقد كنتُ أعاني من قصر نظر كبير مع انحراف في الشّبكية ليس بالقليل، كانت الصّور مشوّشة ومختلطة، عانيتُ كثيراً حتّى لبستُ ملابسي، وذقتُ الأمرّين حتّى وصلتُ إلى عملي الذي ما كدتُ أدلف إليه حتّى انتهت ساعات الدّوام الرّسميّ فيه.

في اليوم التّالي وصلتُ قبل انتهاء وقت الدّوام بساعتين، ولما لم أكن قادراً على القراءة، وتعذّر عليَّ أن أخبر الآخرين بوضع الرّؤية عندي، وبقرار محكمتي الذي صدر ضدّي، فقد اضطررتُ للتّوقيع بالموافقة على كلّ طلب قُدّم لي، الأمر الذي فاجأ كلّ من حولي من موظّفين، وأسعد مديري الفاسد، وجعله يربت على ظهري قائلاً بنبرة لئيمة: "الآن بدأتَ ترى الدّنيا كما يجب".

لكنّني بكيتُ طويلاً عندما وجدتُ مساء في جيب بنطالي رزمة نقود خمّنتُ مصدرها، وسبب وجودها.

مرّ أسبوع على المرحلة الأولى من تنفيذ الحكم، بدأتُ أتـأقلم فيهـا بشـكل مرضٍ مع وضع نظري، وأصبح لزاماً عليّ أن أنتقل إلى المرحلة الثّانية من تنفيذ الحكم؛ لذا فقد ألزمتُ نفسي بإغماض عيني ساعتين يوميّاً.

كانت هذه المرحلة أصعب من السّابقة، لكن سريعاً مـا تعـوّدتُ عليهـا، لا سيما في ضوء ارتياحي فيها، وارتفاع نسبة أربـاحي مـن الأوراق الموقّـع عليهـا بموافقتي، بل إنّي كنتُ غير مضـطر للالتحـاق بعملـي كـلّ يـوم؛ إذ إنّ الأوراق كانت تأتيني يوميّاً إلى البيت لتذيلـها بمـوافقتي السّـامية، مـع عـلاوات وحـوافز العمل الإضافيّ التّي كانت تُصرف لي تحت بند مياومات وأعمال شاقّة وخطـرة خارج الوزارة.

المرحلة الأخيرة كانت العمى الكامل، الحقيقة أنّي لم أنتقل إليها وفق الخطّة المقرّرة، بل وفق الضّرورة والتّعوّد، حتّى أنّـي لا أذكـر متـى بـدأتُ في الانتقـال إليها، فقد وجدتُ نفسي أعيشها دون قفـزة انتقاليّـة أخـيرة، والأمانـة العلميّـة تقتضي أن أقول: إنّ مصادراً أمنيّة رفيعة أبلغتني بمباركتها لهذه الخطـوة السّـعيدة التّي تتوافق وخطّة المرونة التّي تنتهجها الدّولة في مساعيها لمحاربـة البيروقراطيّـة والفساد، ومحاربة شعارات أخرى لم أحفظ منهـا شـيئاً، مـع أنّـي كنـتُ مقتنعـاً بضرورة حفظها لترديدها عند الحاجة.

أصبحتُ أعمى تماماً، ولم أعد أفكّر أصلاً بالرّؤية التّـي كانـت تسـبّب لـي المشاكل والهموم، وغدوتُ محظوظاً بعملي أكثر من مصطفى المسكين الـذي مـا عدتُ أبالي به أبداً، وبتُّ أقول لنفسي، وأنا أهزُّ كتفيّ غير مهتم كلّمـا خطـر في بالي، وقليلاً ما كان يخطر: "له الله، هو المتكفّل بعباده"، وسريعاً ما غـدوتُ أقـول مخاطباً نفسي العمياء: "ما ذنبي أنا فيما هو فيه؟ هذا قضاء الله وقدره".

قضاء الله وقدره اقتضى أن تتحسّن أوضاعي سريعاً، وأن أُعيّن بقدرة قادر وزيراً في إحدى الوزارات، وأن أصبح شخصيّة مرموقة ترى بنور بصيرتها كما يزعم المنافقون والفاسدون، وأن أنسى تماماً قضيّة العمى والإبصار، وأن أُعلّق على باب مكتبي في الوزارة لافتة كُتب عليها بماء الذّهب لردّ الحسد بناء على توصيات أمّي "هذا من فضل ربي"، ثم استبدلتها بلافتةٍ أخرى كُتب عليها بالحبّر الصّينيّ الجافّ بعد بارقة احتجاج صحفيّ على استخدام المؤسّسات الحكوميّ لماء الذّهب في إعلاناتها ولافتاتها "هذا بفضل حادث مؤسف سعيد جدّاً"؛ فاقتلاع عين مصطفى غيّر حياتي وحياته إلى الأبد، يؤسفني إلى حدّ ما أن أقول: إنّ حياته قد تغيّرت إلى الأسوء، وإن كان يسعدني، ويجعلني لا آبه به أنّ حادثة عماه قد كانت طالع سعدي؛ فهي التّي فتحت لي أبواب الحظّ على مصاريعها، ونقلتني إلى دنيا السّعادة بعد شقاء طويل كان البصر والعناد السّببين الوحيدين فيه، أمّا بعد العمى فقد أصبحت الحياة أرحب، والمواصلات أقلّ ازدحاماً لا سيما أنّني بتّ أملك سيّارة فارهة بسائق خاصّ، وباتت مشكلة الإسكّان محلولة، بل طرأت عندي مشكلة الغرف الشّاغرة في قصري الذي اشتريته بأموال الرّشوات، ممّا استوجب عليّ أن أُعيّن عدداً كبيراً من الخدم لشغلها.

أمّا فيما يخصّ راتبي المتواضع فقد تضاعف مئات المرّات وفق نشاطي وتفهّمي المزوّر للأمور التّي كنتُ قاصراً عن فهمها في الماضي، ولم تعدْ عندي مشكلة في التّفاهم مع مديري؛ إذ أصبحتُ مديره الأعلى، ووليّ نعمته. ودمتم.

بطل المكنسة

لم يكن طالباً متفوّقاً، ولا وسيماً، ولا يمتُّ بأيّ صلة قرابة إلى المدير أو إلى أيّ من المدرّسين، لكنّه كان الطّالب الأشهر في المدرسة الابتدائيّة، بل وفي الحيّ القديم الذي يسكنه، حتّى أنّه لم يكن هناك بيت من البيوت المكدّسة على بعضها كما علب الكرتون المقوّى في مخزن قديم في حيّه وفي الأحياء المجاورة، إلاّ ويعرفه أحد من صبيّته، أسموه "بطل القطّة"، ثمّ أسموه بعد ذلك "بطل النّمرة"، بناء على رغبته الشّخصيّة؛ فلم يكن من المناسب بعد أن كبر وأصبح بجسد يسدُّ باباً بأكمله، وبعد أن استدارت عضلاته، واستطالت عظامه، وخُطَّ شنبه أن يُدعى "بطل القطّة"، إن لم يكن هناك بدّ من لقب ما، وهو من عشّاق الألقاب الرّنّانة، لا سيما أنّه لا يملك سواها وجسده القويّ في هذه الدّنيا، فليكن لقبه "بطل النّمرة"؛ ليتناسب هذا اللّقب مع إمكانيّاته وهيبته في الحيّ، وهكذا لقب لن يجافي الحقيقة، فالقطّة أصلاً من عائلة أو أقرباء النّمر، هذا ما قاله أحد أصدقائه الذين أكملوا تعليمهم الجامعيّ نقلاً عن أستاذه الجامعيّ، وكلمة الأستاذ الجامعيّ فيصل في موضوع كهذا دون شكّ.

كانت قطّة ابنة الجيران الأرمنيّة الجميلة قد صعدت إلى إحدى أشجار الحيّ، وعلقت هناك، ساءه أن يرى دموع ماتيلدا الجميلة، وخمّن أنّ هذه هي الفرصة المناسبة لكي يلفت انتباهها، شمّر عن يديه، وقفع طرفي بنطاله مرقّع الرّكب المخلوع السّحاب، وطفق يتسلّق الشّجرة بخفّة سعدان صغير، كاد يقع أكثر من مرّة، لكنّه استطاع في النّهاية أن يصل إلى القطّة العالقة، وأن يمدّ يديه ليخلّصها من مأزقها، سريعاً عاد إلى الأرض، وسط تشجيع جمهور غفير من

صبيّة الحيّ، كان متعباً، ويحمل آثار جروح من مخالب قطّة "ماتيلـدا" التّـي رأى في عينيها شكراً وعرفناً أكثر ممّا رأى في عيني صاحبتها الأرمنيّة الجميلة التّي حملـت قطّتها، وابتعدت بها بعيداً.

حزن يومها؛ لأنّه لم يحظّ باهتمام "ماتيلدا" الجميلة ذات الأثـواب المزركشـة، والظّفائر الكستنائيّة، لكنّه حظّي بتقـدير صـبيّة الحـيّ، ولفـت نظـر الجميـع إلى شجاعته، وتُوِّج من يومها "بطلاً للقطّة"، سرّه اللّقب كثيراً، وإن دفع ثمنـه غاليـاً؛ فقد أوسعه أبوه ضرباً بحزامه الجلديّ عندما علـم بتسـلّق ابنـه الخطـر للشّـجرة إنقاذاً لقطّة "ماتيلدا"، لكنّه لم يبالِ بالضّـرب المـبرح والألم طالمـا قـد أصـبح "بطـل القطّة"، ومن ثمّ رُقي لقبه وطوّر ليصبح "بطل النّمـرة"، وعلـق اللّقـب علـى هـذه الدّرجة، ولم يترقّ أبداً بعد ذلك، بل سرعان ما نُسي تماماً، فقد كبر، وكبر صبيّة الحيّ الذين توزّعوا على مناكب الدّنيا، كلٌّ أخذ نصـيبه الموفـور أو المتواضـع أو حتّـى المنهـوب، وولّـى بعيـداً، نصـيبه كـان دون جسـده العظـيم، ودون آمالـه العريضة؛ فقد توقّف به التّعليم حتّـى المرحلـة الإعداديّـة، وقصُـر بـه الحـظّ في النّسب وفي الغنى، وقعد به الذّكاء، وأعيته الحيلـة، فلـم يكـن حظّـه إلاّ بمقـدار مكنسة وكيس قمامة أسود وممسحة منتنة، تنقّـل في أكثـر مـن عمـل في النّظافـة العامّة، ثمّ استقرّ به المقام ليكون عامل نظافة في أحد بنوك البلدة، وحالفه الحـظّ والاجتهاد ودماثة الخلق ليترقّى، وليصبح كبير عمّال النّظافة، وإن كان يحلـو لـه أحياناً أن يشارك في أعمال التّنظيف إن دعـت الحاجـة إلى ذلـك، أو إن حـدث شاغر بسبب غياب عامل ما من العمّال، أو كان علـى أهبـة الاسـتعداد ضـمن فريق موظّفي الاستقبال للقاء ضيف مهمّ من العاصمة، وما كـان عملـه لـيحطّ من قيمته في نفسه أو في نفس عياله وأهله، فقد كان يكفيه شرفاً أنّـه يأكـل مـن جني يديه، وأنّه ينفق على زوجته وعلى ابنته وعلى أمّه التّي أقعدها المرض مـن جهد جسده، وأنّه لا يقعد عن واجباتهم، ولا يقصِّر في تلبية احتياجاتهم، وكلّه

من مال حلال، يكسبه بعمله الدّؤوب، وإن كان يحلو لزوجته في لحظات من الصّفاء أن تداعبه بلقب "بطل النّمرة" الذي بات يَعدّهُ مزحة طفوليّة لا تليق بهيبته وبوقاره، وبمركزه الحسّاس؛ فهو الآن كبير عمّال النّظافة.

تمنّى في قرارة قلبه الذي يتّسع لحبّ النّاس أجمعين أن يصبح بطلاً لشيء عظيم، ليفخر وابنته بنفسه، وليُسعد شيخوخة أمّه العجوز.

استجاب القدر لأمنيته الصّغيرة، وغدا بطلاً من جديد في ليلة وضحاها، لكن هذه المرّة غدا "بطل المكنسة"، هكذا أسمته الصّحف الصّفراء التّي نشرت خبر بطولته المزعومة، وخيّبت آماله، وأذابته خجلاً، فقد حوّلته في لحظة من "بطل النّمرة" إلى "بطل المكنسة"، شعر بانكسار لا يذكر أنّه شعر بمثله من قبل، كان يتوقّع، ويتوق إلى أن تنشر المجلّات والصّحف المحليّة بل والعالميّة صورته بالألوان، وتحتها خبر بطولته مشفوعاً بمقابلة معه تجريها مذيعة جميلةٌ رقيقة، لكنّ ذلك لم يكن، فقد اكتفت بعض الصّحف المحليّة بنشر خبر بطولته في باب طرائف مشفوعاً بصورة المكنسة دون صورة شخصيّة له تحت عنوان هزيل يقول "بطل المكنسة".

كاد يبكي عندما قرأ الخبر، وحدّق في صورة المكنسة، قال ببله: "لكنّ هذه ليست صورة مكنستي، هذه صورة مكنسة أخرى، مكنستي أطول، وأقدم، وذات خشب منخور من الأسفل"، لا أحد من المساجين لم يبالِ بملاحظته التّي ابتلعها بقهر، وشكر الله؛ لأنّه مسجون، وليس في الخارج، ليصبح نهباً لسخرية الزّملاء والجيران والأقارب، تمنّى أن تطول فترة سجنه حتّى يتسنّى للنّاس أن ينسوا لقب "بطل المكنسة" الذي أصبغه عليه أحد الصّحفيّين العابثين، وإن كان لا يعرف للآن سبب سجنه، كان يتوقّع أن يُجلب إلى هذا المكان ليتلقّى شكراً رسميّاً على بطولته وشجاعته، أو ليدلي بشهادته على أحسن تعديل، لكن أن يُوسع ضرباً فهذا ما لم يتوقّعه، وما لم يستطع أن يجد له مسوّغاً أو تعليلاً، فقد أدهشه أن

يوضع في زنزانة مع جمع بائس من المسجانين السّياسيين أصحاب الشّعارات التّي لا يفهم جُلّها، عندما رآهم للمرّة الأولى استعاذ بالله منهم؛ فقد سمع أمّه تسمّيهم كثيراً بالكفرة الذين لا يخافون الله، في الزّنزانة لم يستطع أن يتأكّد إن كانوا لا يخشون الله أم يخشونه، لكنّه تأكّد تماماً من أنّهم لا يخشون السّوط أو العذاب الذي يعرضون على ألوانه وأصنافه.

أمّا هو فيخشى السّوط، ويكره العذاب، ولا يرغب في المزيد منهما، كم مرّة قال للمحقّقين أنّه ليس إرهابيّاً، وأنّه ليس شريكاً لذلك المسلّح الذي هاجم البنك الذي يعمل فيه بهدف السّطو عليه، كم مرّة قال للجلاّدين وللمحقّق ذي الأنف المعكوف والإبطين المنتنين أنّه تفاجأ باللّص شأنه شأن غيره، وأنّه استغلّ اضطراب اللّص ليهاجمه بمكنسته الكبيرة، فيكسر ذراعه، ويستولي على مسدّسه، ويبرخ عليه إلى أن تأتي الشّرطة وسط هرج ومرج وتصفيق المراجعين وموظّفي البنك الذين علقوا فيه بعد مهاجمة اللّص له.

لكنّ المحقّق سدّ أذنيه المستطيلتين القبيحتين دون كلامه الذي كرّره ألف مرّة، وأصرّ على أنّه شريك للّص، مع أنّ اللّص لم يكن أكثر من شابّ صغير يحمل مسدّس أطفال لا مسدّساً حقيقيّاً، لم يستطع أن يدرك سبب سلوك اللّص، لكنّه أيقن وهو يبكي خائفاً أنّه أبرأ من أن يكون لصّاً أو قاتلاً، وأنّه أقرب ما يكون إلى طبقة الحرمان والفقر والحاجة التّي يحفظ قسمات أصحابها عن ظهر قلب.

لكنّه ليس إرهابيّاً أو لصّاً، بل هو مجرّد عامل نظافة شجاع هزم مسلّحاً بمكنسة ذات ذراع خشبيّ نخر، فلماذا يُضرب على قفاه دون رحمة؟! ألا يكفي أنّه قد سُمّي "بطل المكنسة"، لكنّه "بطل النّمرة"، وإن لم يبالِ أيّ أحد بسجلّ بطولاته، فقد خيّم حزن عجيب على ملامح السّياسيين الذين حزنوا على الفتى

اللّص الذي لفظ آخر أنفاسه تحت التّعذيب بعد أن رفض أن يوقّع على اعتراف بعضويّة مزعومة لإحدى الجماعات المتطرّفة الإرهابيّة.

من يومها غاصت رقبته بين ترقوتيه خجلاً، فقد كان بطل المكنسة الذي سلّم ذلك الفتى المسكين للتّعذيب المميّت، وسلّم نفسه للمساءلة، مع أنّه أقسم ألف مرّة على أنّه ما أراد من ذلك كلّه إلاّ إصلاحاً ودفاعاً عن الوطن، رأى التّعاطف في عيني من حوله من المعتقلين، وإن لم يره في عيني المحقّق الذي أمر بإطلاق سراحه لعدم توفّر أدلّة إدانته، بعدأن تساقط لحمه على أسواط التّعذيب.

تمنّى أن يخرج إلى دنيا قد نسيت تماماً بطولته المزعومة، لكنّ بطولته العظيمة كانت في انتظاره، فقد ناداه الجميع متندّراً أو ساخراً بلقب "بطل المكنسة"، زوجته شكت له من سخرية جاراتها اللّواتي يناديها من باب الإغاظة أو التّندّر بلقب زوجة "بطل المكنسة"، ابنته الصّغيرة كانت ما تزال تحتفظ بفخر طفوليّ بصورة المكنسة التّي نشرتها الصّحف في مجموعة صورها الخاصّة، مدير البنك وقّع قرارين في شأنه، أحدهما يقضي بصرف مكافأة ماليّة زهيدة تقديراً لشجاعته، والآخر يقضي بفصله من العمل لأسباب أمنيّة.

لم يبالِ بالقرارين اللّذين مزّقهما بقرف، فتناثرت الأوراق الصّغيرة في الهواء، وسقطت بفوضى على رخام بوّابة البنك، أحد عاملي نظافة البنك اقترب منه، ولسان حاله يرجو أن لا يلحظه أحد، ربت على كتفه مواسياً له، وقال: "ولا يهمّك يا وحش؛ فأبواب رزق الله كثيرة".

ابتسم له غير مبالٍ بوجعه العميق، وربت على يده، وقال وصوت تعذيب المعتقل يطِنّ في أذنيه، ودمعة تختنق في محجري عينيه، وأوداجه منتفخة كديك روميّ: "لا تقلق عليّ؛ فأنا بطل المكنسة".

سُــهــاد

"إلى روحها التّي ظلّتْ حشرجة محرقة في حلق طفولتي"

الجسور الجديدة قلّما تثير اهتمام أطفال صغار، لكن قـد تفعـل إذا كانـت طريقة لتبديد وقت الدروس المملّة، وحجّة مسـوّغة للإجابـة الخاطئـة، ومـبرراً لعدم السّمع، وملهاة لذيذة في متابعة آلات البناء، وفي الاحتجاج الموصول على صوت المطـارق والمخـارق، ومتابعـة وهـج لحـام الحديـد الأحمـر الـذي ينهـك الأبصار، ويخطف ناظري كلّ من يتابعه.

من غرفة صفنا المعلّقة وحيدة فوق سـطح المدرسـة القديمـة التّـي تحـدّثك جدرانها المشققة، وزواياها المهترئة التّي تسرّب ماء الشّتاء عن أنّها آيلة للسقوط على رأس ألفين ونيف من تلميذات المدرسة اللّواتي تتناثر منازلهن حول المرتفع الجبليّ الصّغير الذي تقبع المدرسة على قمّته، كنا نراقب بنّائي البلديّة ومـوظّفي المشروع يقطعون نهاراتهم تحت الشّمس الكسيفة التّـي تبـزغ علـى اسـتحياء في سماء الشّتاء الممطرة، فترسل دفئاً نزراً، لا يكفي لبعث الحرارة في أيدي العاملين الملتفّين على القواطع الحديديّة يلحمونهـا، ويسـدّون لحمتهـا بمسـامير حديديّـة سميكة، ضاميّن على أكف علتها بـرادة الحديـد، وكسـاها قـرّ الشّـتاء بـالحمرة والجفاف والقشب.

كنا ننتظر بفارغ الصّبر أن تنتهي الحصة، فتخرج المعلّمة متثاقلة كمـا ديـك رومي، فنتسابق -ونحن كثيران نيف علـى أربعـين تلميـذة إلى- نافـذة الصّـف الوحيدة، ندسّ رؤوسنا غير مبالين بحوادث اصطدام الرّؤوس الصّغيرة التّي قـد

تُسفر عن بكاء وشجار وخصام، نتابع وهج لحام الحديد، ونصرخ بغوغائيّة تستجلب نظر العاملين علّنا نقصف رتابتهم، ونشوّش عملهم، لا لهدف خبيث، بل بقصد الشّقاوة والتندّر، نتسابق في رصد قطع الحديد التّي أضيفت حديثاً إلى هيكله في الجسر الذي يمضي بناؤه قدماً، تعلو الأصوات: "هذه الدّعامة جديدة"، و"هذه الحديدة لم تكن البارحة"، و"تلك القواطع الحديديّة المركونة جانباً ستصفّ هناك على أرضيّة الجسر".

نحصي كلّ شيء، حتى أنّنا نحصي بأصوات مرتفعة متسابقة عدد أقداح الشّاي التّي تنزوي قذرة ببقايا شاي بارد في صينيّة معدنيّة قديمة مبعوجة الوسط مركونة إلى جانب الطّريق.

لم نر جسراً حديديّاً معلّقاً في حياتنا من قبل، مع أنّ إحدى تلميذات الصّف المسماة الغليظة؛ لا لشيء إلا لأنّها ابنة مسؤول في الوزارة، ولأنّ لها أجمل عينين خضراوين في الصّف إدّعت أنّها قد رأت مئات الجسور المعلقة في إحدى البلاد الأجنبيّة التّي زارتها في العام الماضي مع أسرتها، لكنّها ما حظّيت منا إلا بالسّخرية والتّكذيب، فما كنّا لنصدق أنّ هناك مئات الجسور في بلد واحد في الدّنيا، لا بدّ أنّها بلد وهميّة من بنات خيال زميلتنا، لاسيما أنّنا لم نستطع حتى أن نعيد لفظ اسمها بعد أن لفظتها صديقتنا التّي أبدت اعتزازاً خاصّاً؛ لأنّها قادرة على لفظ اسم بلد تعجز ألسنتنا الصّغيرة على لفظه.

ما كنا لنتخيّل كذلك أنّ جسراً ما يمكن أن يُبنى في الفراغ المخيف الممتدّ وادياً سحيقاً بين الجبلين اللّذين تتكوّن منهما بلدتنا الصّغيرة، كان على الرّاغب في الانتقال من جبل إلى آخر أن ينزلق حتى سطح الجبل، ثم يقطع الوادي الذي يقطعه طريقان سريعان كثيراً ما يُدهس عليهما الأطفال والشّيوخ الذين لا تسعفهم قدراتهم في اقتناص اللّحظة المناسبة لقطع الشّارع وسط سيل عرمرم

من المركبـات التّـي تسـابق الـرّيح، ولا تُبـدي أيّ رغبـة في مطالعـة العـابرين، فتلصقهم بالإسفلت تحت عجلاتها، ومن ثم ارتقاء درجات السّلّم، وما أكثرها! للوصـول إلى البيـوت أو إلى السّـوق الـذي يربـد باسـتحياء بدكاكينـه القديمـة، وبزبائنه القلّة في قلب الجبل الغربيّ تحت اسم سوق المدينة.

أسعدتنا فكرة وجود جسر معلّق يربط بين جبلي البلـدة، وييسـر الانتقـال بينهما، ويجعله آمناً، ومن يدري فقد تسمح لنا أمّهاتنا بزيارة صـديقاتنا اللّـواتي يسكنّ في الجبل المقابل بعد أن يصبح الانتقال إلى هناك آمناً وسهلاً عـبر الجسـر المعلّق، ولا يستلزم مرافقة كبير يساعدنا على قطع الشّارعين الممتدّين في أسـفل الوادي، ثم يقفل راجعاً، ليعود بعد ساعة أو ساعتين ليصطحبنا إلى بيوتنا.

سريعاً ما وضعتُ قائمة بأسمـاء زميلاتـي في الصّـف، وقـد كـنّ الفتيـات الوحيدات اللّواتي أعرف؛ لأزورهن بعد أن ينتهي بناء الجسر، وقد بدا الانتهـاء قريباً، حتى الطّالبات اللّواتي لم استطلفهن يوماً قمتُ بإدراج أسمائهن في قائمـة زياراتي المنتظرة، فأنا قادرة على احتمال ثقل ظلّهن، وقادرة كذلك على تجشّم عبء زيارتهن على أن أقطع ذلك الجسر ولو مرة واحدة.

بسرعة رتّبت الحجج التّي سأسوقها في مذكّرة مرافعتي أمام أمّي كي أقنعها بقائمة زياراتي هذه، وذلك وفق أهميّتها، تنهّدتُ، وأخذتُ نفسـاً عميقـاً؛ فقـد كنت أعرف أنّ الوقوف أمـام أمّـي والتّصـدّي لإقناعهـا لـيس بـالأمر السـهل، لاسيما إذا كان ذلك بشأن زيارة صديقة أو بشأن التّأخّر ولو لدقائق عن موعـد العودة إلى البيت، ولا سيما أنّني ما أزال طفلة مفعوصـة لم أفقـص مـن البيضـة بعد، على حدّ تعبير خالتي الوحيدة التّي تحظّى بوافر حبّ واحـترام وثقـة أمّـي التّي قد أستعين بها لإقناع أمّي بقائمة زياراتي الخطيرة المدبّرة.

مديرة المدرسة منعتنا مراراً من التّكوّم كما دجاج مزرعة على نافذة الصّف خوفاً من أن تسقط إحدانا منه، لكنّنا ما استجبنا لأمرها ولا لتهديدتها؛ فقد كانت مراقبة بناء الجسر سابقة ممتعة لا تملك طفولتنا الفضوليّة أن تتجاوز عنها، إذن لم يكن أمام المديرة إلا أن تذعن لفضولنا، وأن تساوم حدّاداً ما، وتستصدر فاتورة شراء، لتزرع قضباناً حديديّة في النّافذة لحمايتنا، ما دمّنا نصرّ على أن نراقب بناء الجسر حتى من بعيد في غمرة انهماك الحدّاد في تثبيت القضبان الحديديّة، ضاربين صفحاً عن جعجعة معلّمة الرّياضيات السّمينة التّي انبرت مهتاجة كديك ينوي التّبرّز تريد أن تلفت انتباهنا إلى السّبورة، لنتابع حلّها لإحدى المسائل التّي لم نفكّ أبداً طلاسم حلّها في يوم من قبل، في حين كان اهتمامنا كلّه موزّع بين متابعة تثبيت القضبان الحديديّة، وبين سيرورة بناء الجسر الحديديّ المعلّق.

لم تطل إطلالتنا من خلف القضبان الحديديّة، فسرعان ما فرغ فريق البناء من عمله، وانشغلت المدرسة على اعتبار أنّها المؤسّسة الحكوميّة الأقرب من الجسر بتحضير كلمات ترحيب، وتهيء أماكن الاستقبال للضّيوف الرّسميين على رأسهم ذلك السّمين ذو الكرش المسترسل كعجين خامر، ويُدعى رئيس البلديّة، الذين جاؤوا جميعاً على شرف افتتاح الجسر الذي ما رأيته مغلقاً حتى يحتاج إلى افتتاح، فضلاً عن حاجة مزعومة لحفلة كبيرة ولمدعوّين غرباء يرتدون بذلات أنيقة.

معلّمة الفنّ المعلّمة الوحيدة التّي كانت تجيد طقوس الضّحك والسّعادة فاجأت عيني الفضوليتين اللّتين تراقبان الضّيوف، وتحصيان القادمين الجديد باهتمام لا مبرر له، بحاجة حفل الافتتاح إلى طفلة استقبال، الجميع شُده بلفظ طفلة استقبال التّي لم نسمع بها من قبل، وخمّنت طفولتنا أنّها وظيفة حسّاسة ما

دام الموقف يلّح عليها، على عجل وباختصار قالت معلّمتنا: "إنّ طفلة الاستقبال هي الطّفلة التّي تحمل الزّهور لتقدمها إلى راعي الافتتاح، وتـتحني لـه مبتسـمة، بعد أن تمدّها إليه ليلتقطها، وليقبّلها، ثم يتابع الرّكب مسيرته".

تغاضينا جميعاً عن أزمة القبلة الواجب إعطائها للسّمين ذي الكرش الكبير، وحدّثنا بعضنا بعضاً بحماس بأمنية طفلة الاستقبال، على عجل تفرّست معلّمتنا في وجوهنا المفعمة بالشّقاوة بعد استراحة الغـداء، ثـم مـدّت يـدها سـريعاً إلى كتفي، تناوشتني كصقر يتخطّف فريسته، ومسّدت سريعاً على شعري، فعالجـت الشّعرات المتطايرة منه هنا وهناك بعد رحلة يوم طويل عصيب أمضيته بالتّـدافع والتّماحك بطالبات الصّف، وعدّلت من وضـع هنـدامي، فخمّـن الكـلّ بغـيظ طفوليّ وحسد مجتلب أنّني سأكون فتاة الاستقبال.

كانت المهمّة أسهل ممّا تخيّلت، وأطول ممّا أمّلت، وأقلّ أهميّة ممّا تصـوّرت، فقد نُصبت ساعتين على مدخل الجسر مع حشد غفير ينتظر إقبال السّـمين ذي الكرش الذي عجبت لتأخّره، البعض همس بأنّ التّأخير وترك النّـاس تنتظـر في الشّوارع من طقوس تأكيد الأهميّة للمسؤولين، ثم أطلّ السّمين مع حشد كـبير من المرافقين ومعلّمات المدرسة، اندسستُ بصعوبة بين الأجسـاد المتعرّقـة علـى الرّغم من برودة الطّقس إلى أن جاء دوري، تقدّمتُ إلى ناحية السّمين دفعاً مـن معلّمتي المتحمّسة للحدث، ناولته الزّهور دون مبالاة مـن يحمـل حزمـة فجـل، تقبّلت قبلته الرّطبة بتبرّم وقرف، ثم ابتلعني الزّحام من جديد، الجسر اضـطرب بالموجودين، اهتزازه الرّتيب بعث الخوف في نفسي، وتسـاءلتُ إن كـان الجسـر سيهوي بنا جميعنا في يـوم افتتاحـه، ومـن مكـاني المـزدحم ألقيـت نظـرة غـير مقصودة على نافذة صـفّي الموشّـى بـالرّؤوس التّـي تراقـب الافتتـاح بتحسّـر،

شعرتُ بالفخر، وأحسستُ بأنّ شرف الوظيفة الخطيرة التّي اضطلعتُ بها يستحقّ الموت اختناقاً بين جموع الحاضرين، أو سحقاً عندما يسقط الجسر.

لكن الجسر لم يسقط، وفخري بمهمّتي الخطيرة سرعان ما تلاشى مع أوّل يوم فُتح الجسر فيه لاستعمال العامّة، ولم يعد الوقوف عليه فضلاً أو تميزاً يستحقّ الذّكر، ولأنّ والدتي رفضت بشكل قطعيّ ونهائيّ قائمة زياراتي، فقد اكتفيتُ يوميّاً بذرع الجسر ركضاً ذهاباً وإياباً مع شقيقتي التّي تصغرني بسنة، ثم القفول راكضتين إلى بيتنا نحمل وزناً اسمه حقائب المدرسة المكدّسة بالكتب الثّقيلة والدّفاتر العديدة.

ما تخيّلت أنّ أختي التّي أفوقها جرأة، وطول لسان على حدّ تعبير أبي، سوف تكون أوّل متمرّدة على حظر قطع الجسر، لكن كيف لا؟! ودموعها الطّفوليّة وملامحها الكسيرة الغارقة في سمرتها الفاتحة قد كانت خير سفير لها عند أمّي، كانت ترغب في زيارة صديقة صغيرة، تسكن على الطّرف الآخر من نهاية الجسر، كدتُ أحتجّ على السّماح لها بزيارتها الجليلة دون السّماح لي بذلك، لكن حجّة أختي وإسناد مهمّة مرافقتها لي ألجمتا احتجاجي؛ فقد كانت زيارة أختي ليست سوى سفارة تعزية لصديقتها الصّغيرة التّي فُجعت بموت والدتها منذ أيّام.

اعتدنا على أن نذهب زرافات برئاسة مربية الصّف في حالة التّعزية أو التّهنئة أو الاطمئنان على الصّحة، لكن أختي الصّغيرة لسبب ما عادت طفولتي تذكره اختارت أن تتصدّى وحدها لواجبها الإنسانيّ هذا، وأن تحزم نفسها حاملة رطلين من السّكر لتعزية صديقتها، ولانّي الأخت الأكبر، الأطول قامة، والأقوى بنية، فقد حملت رطلي السّكر بشجاعة ملفّقة ولهاث أتحرّى كبته إلى أن وصلنا إلى باب بيت الصّديقة الصّغيرة، استحضرت وافر شجاعتي وسؤددي في

تلك اللّحظة، ألست الأخت الكبرى والمنتدبة لرعاية أختي الصّغيرة؟ كما أنّني اجتزت قبل دقائق الجسر المعلّق بكلّ رزانة وثقة وشجاعة مزوّرة، دون أن أذرعه ذهاباً وإياباً ركضاً كعادتي، ودون أن أدسّ رأسي بين قضبانه لأراقب من علٍ المركبات التّي تنسرب تحته، ودون أن أقفز عليه إلى أعلى ثم إلى أسفل تحت كي استمتع بمنظر المارين الخائفين.

لقد كنت باختصار مثالاً للرّزانة والاتّزان، ناهيك عن أنّي أحمل هديّة تعزية مثل أيّ سيّدة محترمة مسؤولة جاءت تقدّم مشاعرها الرّقيقة دعماً في لحظة فراق الموت.

كان باب البيت الحديديّ الصّدأ ذو النّافذتين الزّجاجتين الصّغيرتين نصف مشرع، لكن تأكيداً على حسن تهذيبي، قرعته حتى أذنَ لي صوت نسائيّ كسير بالدّخول، دفعت الباب إلى الدّاخل، ودلفتُ وأختي إلى البيت، قبالتنا تماماً كانت تقف فتاة في منتصف العشرينات، يسبقها بطن متكوّر بحمل عظيم، بتلعثم أخبرتها أننا جئنا لنعزي سهاد بموت أمّها، طلبت منا بعطف وحنو أن نجلس، ركنا كيس السّكر ذي الرّطلين إلى الحائط المقشور الطّلاء، وتكومنا دون أن نخلع أحذيتنا الشّتويّة التّي نلبسها بالعادة بمساعدة أمّي على حشيّة بالية تقابلها حشيّة بالية أخرى، تكوّمنا في سنتميّترات قليلة، وانتظرنا أن تأتي سهاد التّي ما كنت قد قابلتها من قبل، فقد كانت في صف أختي الذي لا أعرف من طالباته إلا واحدة أو اثنتين هما الصّديقتان الأعزّ لأختي، أمّا سهاد هذه، فلا بد أنّها ليست من صديقات أختي المقرّبات، وإلاّ لكنت عرفتها من قبل، أو قابلتها في ردهات المدرسة.

جاءت سهاد بعد دقائق من الانتظار، وقوفها بالظّلّ حرمني للوهلة الأولى من أن أميّز ملامحها التّي سرعان ما تبينتها وهي تتكوّم في حيز صغير على

الحشيّة المقابلة، كانت ضئيلة، تبدو في الرّابعة من عمرها، لا في السّادسة من عمرها في مثل سنّ شقيقتي، تلبس بنطالاً كتانيّاً قديماً، وسترة بنية رقيقة، شعرها متراجع إلى درجة كبيرة، فتظهر جبهتها الصّغيرة، وعينيها الغائرتين في جمجمة مكسوّة بجلد رقيق مصفرّ تعلوه وجنتان ذابلتان، وابتسامة كسيرة غائرة.

دموعها كانت الأبرز في مشهدها الحزين وحضورها الكسير، بكت بهدوء لم أعرفه في أترابي من الأطفال، حملت حزناً وقوراً جعلها تشيب في أيّام، وتنضج في فترة غيابها القصيرة عن المدرسة، صمتتْ برهة، ثم حدّثت أختي على استحياء بعد أن ظننت للحظات أنّها لا تعرف أختي أصلاً، تهامستا بوجل، لم أعبأ بما يقال؛ فكلّ ما يُقال لن يمسح حزن سهاد، ولن يلغي يتمها، كانت يتيمة الأب، وها هي الآن تغدو لطيمة سخيمة، دون أبّ أو أمّ، تصارع وحدها اليتم ومرض الفشل الكلويّ الذي يفتك بجسدها الضّئيل، ويكسوها شحوبة وصفرة وعجزاً.

انتهى الوقت المحدّد لزيارتنا نزولاً على رغبتي أمّي، لم أكن أعرف من كلمات الاستئذان شيئاً، وما خلت أنّي سأحتاجها، لذا اكتفيتُ بالانتصاب على قدمي، واقترحتُ على أختي أن نغادر المكان، صافحتُ بإجلال يد سهاد التّي امتدت إليّ هزيلة ضعيفة، تمنّيت لو أنّها تقبل عليّ لأحضنها بقوّة، لكنّها لم تكن تعرفني، وأنا لا أملك الجرأة الكافية للمبادرة في ذلك، أدرتُ ظهري، وتجاوزتُ باب البيت، على الرّصيف تذكّرتُ آسفة أنّني لم أصافح الموجودين مودّعة، عزائي الوحيد في ذلك أنّ أمّي غير موجودة لتعنفني على سلوكي الفظّ، انحيت بجذر نحو أختي، وسألت بفضول طفولتها الغارقة في الحزن الذي عرفته لأوّل مرة في حياتها القصيرة: "من سيتولّى رعاية سهاد؟"

أجابت بنبرتها الخجولة وصوتها المكبوت بدموع غالبتها طـويلاً، فغلبتهـا: "سترعاها أختها؟"

- "أختها المتزوّجة؟"
- "نعم".
- "أستنتقل للعيش عندها؟ أم أنّ أختها ستنتقل للعيش معها؟"
- "لا أعرف".
- "متى ستعود سهاد إلى المدرسة؟"
- "لا أعرف".
- "متى ستعرفين أيّ شيء؟"
- "لا أعرف".

من جديد قطعنا الجسر المعلّق قافلتين إلى بيتنا، الجسر هذه المـرّة كـان أقـلّ إثـارة، حتـى أنّـي لم أفكّـر ولـو للحظـة في التّوقّـف في منتصـفه لأراقـب سـير السّيارات المسرعة، أو لأصدّي وجهي للرّياح، كان الجسر رتيبـاً ممّـلاً وطـويلاً، شعرتُ بأنّني أحمل حملاً ثقيلاً يعوق حركتي، ويثقل كاهلي، ويحني رأسي بانكسار إلى الأسفل، طوال الطّريق لم أنبس بكلمة، وأنا أشدّ علـى كـفّ أخـتي، أجرّهـا خلفي كالمعاقبة، ولا أنفكّ أتمنّى الوصول إلى البيـت، والتّكـوّر باكيـة في حضـن أمّي التّي يتّ أشعر بامتنتان كبير للربّ الذي يتركها في إسار الحياة، لنجـدها في البيت كلّما عدنا إليه.

أردت أن أبثها حزني الأوّل الذي تجرّعته طفولتي بقسوة، كانـت أوّل مـرة أبكي فيها لأنّني حزينة، لا لأنّني أريد لعبة جديدة، أو لأبدي انزعاجاً مـن أخ أو

أخت، لأوّل مرة أعرف أنّ الأمهات قد يغادرن دنيا الأبناء دون عودة، لم أكن أعرف أنّ رحيلهنّ يترك غصّة في الحلوق لا ترحل أبداً، تماماً مثل غصّة سهاد التّي قابلتها اليوم لأوّل مرة في حياتي، ثم لم أقابلها بعد لقائي الأوّل والأخير، لكنّها بقيت خالدة لا تفارق ذاكرتي، وتلّح عليّ على هيئة دمعة أمسحها على عجل قبل أن تتنزّى من عيني، لأجد نفسي متورّطة في اجترار ذكرى حزن طفولتي الأوّل، فأحزان الطّفولة لا ترحل أبداً، لا سيما الأولى منها.

في البيت حضنتْ أمّي أختي بقوّة، ومسّدتْ على شعرها الأسود القصير، ثم أجلستها على ركبتيها، حدثتْ طفولتها الحزينة، وأجابت عن أسئلتها الطّفوليّة التّي تلتهب بأخطر أسئلة البشريّة وأقدمها، أعني أسئلة الموت والحياة، صدر أمّي الذي تمرّغ أختي وجهها الكسيف الباكي فيه كان مقبرة لدموعها، أمّا دموعي فقد احتبستْ في صدري، عالجتُ صمتها بشجاعة حتى استقام لي مطلبي، وبذا كنتُ الأخت الكبيرة الشّجاعة المتماسكّة، لكنّني ما زلت بعد سنوات طويلة في حاجة إلى صدر أمّي؛ لأبكي فيه يتم سهاد التّي لم تعد أبداً إلى المدرسة.

مراراً سألت عن سهاد، تفقّدتُ مقعدها في الصّف سراً بنظرة مسروقة كلّما مررتُ على صف أختي لاصطحبها في رحلة عودتنا إلى البيت، لكن مقعدها بقي شاغراً إلى أن شغلته طالبة أخرى، ونسي الكلّ سهاد التّي قضت أسابيع يتمها الأولى في المستشفى تترجّى شفاء كليتين سقيمتين، صمدت ما استطاعت إلى الصّمود سبيلاً، ثم أسبلت عينيها اللّتين غارتا بقوّة في محجريهما، ومدّت كفاً مستسلمة لترحل مع الموت، ورحلت وحيدة، دون أن ينعاها أبّ، أو تبكيها أمّ.

لم تسمح أمّي لي ولأختي الصّغيرة بأن نشارك في تشييع جثمان سهاد الذي استقرّ في نعش صغير، تحمله أكتاف قليلة، أختي بكت سويعات احتجاجاً على

قرار أمّي هذا، ولزمت الفراش يوماً، أمّا أنا فما باليتُ بقـرار أمـي، مـن نافـذة صفّي راقبت بيت سهاد، وجوه قليلة كانت في وداع نعشها الذي انطلـق تحملـه سيّارة، وتشيعه ثلاث أخر، كان رحيلها حزيناً ووحيداً ومنكفئاً على نفسه كمـا كانت هي.

بعد أن غادر نعشها البيت أُغلق الباب الحديديّ الصّدأ، ولم يفتح أبداً، إلى أن جاءت جرّافات ضخمة، واقتلعته مع جدران البيـت، بعـد أن باعـه الورثـة، ورحلوا عنه دون عودة، أمّا سهاد فقد بقيت وجهاً كسيفاً يعلو بانكسـار جسـداً متكوّماً في حطام جسد صغير على حشيّة قديمة إلى جانب باب حديديّ صدأ في ممّر معتم صغير، وجهاً يحرّض روحي على حشرجة بكاء ما فارقتْ حلقي قـطّ، وتستعدي ذاكرتي على التّذكّر كلّما مررتُ بجسر معلّق، تراقـب نوافـذ طفوليّـة بناءه، فأبحث سريعاً عن وجه سهاد المنضود في ذاكرة طفولتي التّي عرفت سـهاد حزناً، والحزن سهاد، وتردّني طفلة صغيرة تتكوّم بخجل علـى حشـيّة تنتظـر أن يهلّ وجه سهاد في كلّ مأتم تذهب إليه؛ فسهاد ميّتم لم يرحل عن روحي أبداً.

مهرجان البصل

لم تجد أنّ من المناسب أن تحضر مهرجاناً وهي أرملة من عهد قريب، فضلاً عن أنّها في مزاج متعكّر منذ وفاة زوجها على الرّغم من أنّها من عشّاق المهرجانات، ومن الذين يضفون عليها بهجة خاصّة، ويورثونها طقوساً مستحدثة طريفة، ومن الذين يحدثون بها بدعاً متّبعة، لكن حماتها أصرّت على أن تحضر هذا المهرجان بالذّات كي تبرأ من الأرواح الشّرّيرة التّي تلازمها كما تدّعي الحماة المستسلمة للوساوس وللخرافات، والموتورة بابنها الوحيد الذي مات غرقاً في النّهر المقدّس بعد زواجه بأشهر قليلة، ومن ذلك الوقت آمنت بأنّ أرواحاً شريرة سكنت بيتها، واستوطنت جسد الكنّة الشّابّة التّي حلّت الكوارث معها منذ أن حلّت في بيتها.

نزولاً على رغبة الحماة جاءت اليوم إلى "مهرجان البصل" حيث يلتقي المحتفلون كلّ عام مرتدين أبهج الملابس، وأجمل الإكسسوارات مطوّقين بزهور الرّبيع، ومتخفّين وراء أقنعة ملوّنة على شكل حيوانات وطيور.

كان المهرجان المقام على الحدود الشّرّقيّة للغابة يضجُّ بالموسيقى وقرْع الطّبول، وآلاف الأجساد التّي تتداعى في فرح وابتهاج في لوحة فنيّة تضجّ بالحركة، تابعتها آلاف العيون البارزة من تحت أقنعة التّنكّر الملوّنة، فلا يجوز في هذا الحفل أن يُظهر أيّ شخص وجهه خوفاً من أن تعرفه الأرواح الشّرّيرة التّي ترصده، فتصيبه بشرورها، وتلازمه بخبثها.

وصلتْ إلى المهرجان في وقت الأوج تماماً حيث تُدشّن عشرات الأطنان من البصل، تمهيداً لتوزيعها على المحتفلين بطقوس بهيجة ضاحكة، وبمرافقة

ترنيمات سدنة المعبد، لتبدأ مراسيم تقشير البصل وفرك الأجساد به، وصولاً إلى الغاية المرجوّة، وهي تهجير الأرواح الشّرّيرة؛ إذ إنّ البصل هو التّعويذة للقضاء عليها وعلى شرورها، كلُّ محتفل جاء مؤمناً بأنّ روحاً شريرة ما حلّت في حياته، وهو في سبيل ذلك سيفرك جسده بالبصل حتّى يهيّج بشرته لكي يجبر الأرواح الشّرّيرة على مفارقته، والهروب بعيداً.

اعتادت على أن تأتي إلى هذا المهرجان برفقة أمّها وأختيها، لكنّها اليوم جاءت وحيدة، فأسرتها الهندوسيّة المتديّنة المحافظة تشعر بالعار والخزي بسببها منذ أن رفضتْ أن تُحرق نفسها قرباناً إلى جانب زوجها المُسجّى على أعواد الخشب تمهيداً لحرقه، ولنثر رماده في النّهر المقدّس الذي قضى فيه غرقاً، فهي وإن كانت زوجته إلاّ أنّها لم تكنّ له الكثير من الحبّ والعاطفة، وبعبارة أدقّ ما شعرت أنّ ما في قلبها من حبّ يكفي لأن تحرق نفسها في أتون موته، ما زالت تحلم بالكثير، وتتحسّس يداً مثيرة تدبّ على جسدها كلّما استلقت في الفراش وحيدة في بيت حماتها منذ أن رفضت عائلتها أن تأويها احتجاجاً على سلوكها المشين، في حين قبلت الحماة بها نوعاً من إكرام ذكرى ابنها، وطمعاً في أن تستخدمها خادمة بالسّخرة في شؤون البيت والحقل، وكذلك كانت.

أحد المحتفلين حدّق في وجهها الأسمر الجميل الذي تعلوه علامات حزن عميق، ويخلو من أيّ طلاء زينة، وقال لها على عجل وبفضول: "يا جميلة، لماذا لا تلبسين قناع التّنكّر؟! بوجه جميل مثل وجهك هذا سوف تستقطبين الأرواح الشّرّيرة كلّها، وقد تخطفك روح منها، وتسجنكِ بين البحر وزبده".

ابتسمتْ للفضوليّ الذي ابتعد منخرطاً برقص عذب يمسُّ أعضاء جسده كلّها، ويبعث فيها فوضى لذيذة ونشاطاً مثيراً، تحسّست بكفّها التّي أضناها العمل وجهها الذي كادت تنسى شكل قسماته، كان دافئاً ناعماً، بعينيها

اللّوزيّتين ألقت نظرة شزرى على ثوبها الخشن الأبيض الذي ما انفكّت تلبسه منذ أن أصبحت أرملة، تنهّدت وهي تتخيّل كم كان جسدها سيبدو جميلاً ورشيقاً لو كانت تكسوه بسارٍ مزركش شفّاف يظهر خصرها النّحيل، وبطنها الضّامر، ويبرز وشمها الجميل الذي يحيط بصرّتها الغائرة حيث وضعت قرطاً فيروزيّاً لامعاً.

جموع الراقصين دفعتها خطوتين لا إراديّتين إلى الأمام، اصطدمت بالمحتفل الذي يقف قبالتها تماماً، فدفعته بدورها خطوة إلى الأمام دون أن تحكم السّيطرة على نفسها لتقف، وما كادت حتّى انزلقت وإيّاه في قشرة بصل زلقة، تكوّم كلاهما على الأرض، انتابها شعور خليط من الخجل والغضب والاضطراب والاستفزاز، حاولت أن تنتصب لكنّ محاولتها باءت بالفشل، ومن جديد انزلقت أرضاً، لتصبح تماماً في حضن المحتفل، سريعاً ما تسرّبت إلى جسدها حرارة جسده، وانسلّت عيناها لترسوان تماماً في عميق عينيه البارزتين بجرأة وتحدٍّ من تحت قناع البومة الذي يتنكّر به.

رأت ابتسامة شقيّة تركض في صمت عينيه، ساعدها على الوقوف، وانتحى بعيداً، بعد أن أهداها قناعه قائلاً بنبرة صاخبة متحدّية الضّوضاء التّي تشتمل المكان: "ضعي هذا القناع على وجهكِ الجميل، وإلاّ فإنّكِ ستصبحين فريسة سهلة للأرواح الشّرّيرة، وقِبلة لها".

قالت له باضطراب وخجل: "لكن ماذا عنكَ؟"

ابتسم ابتسامة واسعة انتشرت في قسمات وجهه الأسمر الجميل، وقال بحيويّة وحماس، مرقّصاً يديه، ومتمايلاً يسرة يمنة على أنغام موسيقى المهرجان: "ما عليك مني".

- "لكن كيف؟"

قهقه قائلاً بزهو: "أنا الشّيطان نفسه".

كانت تراقب جسده المشحون بحمّى الرّقص والغناء، كان وجهه في الأماكن كلّها أنّى استدارتْ ونظرتْ، أصبح في المهرجان آلاف المحتفلين، ورائحة البصل وهو، شعرت بامتنان خاصّ لحماتها التّي دفعتها إلى هذا المهرجان، تمايلت بهدوء على أنغام الموسيقى، ثمّ استجاب جسدها بليونة وطواعيّة لرقص رشيق على خليط من الموسيقى والتّرنيمات والصّيحات والضّحكات، والتحم جسدها بآلاف الأجساد الصّاخبة، لكنّ وجهه العاري كان في كلّ مكان.

بدأ المحتفلون طقوس دهن أجسادهم بماء البصل، انهمك الكلُّ في ذلك، وسرت في المكان ترنيمات سدنة المعبد وكهنته، فاجتاحت المحتفلين غيمة غازيّة من البصل، فشخصت الحلوق، ودمعت العيون، وانشغل الكلُّ بدموعهم المنسكبة، وبمخاطهم السّائل، الكثير منهم قد مسح مخاطه ودموعه بكمٍّ ثوبه، بعض آخر كان أكثر حظّاً إذ امتلك مناديل ورقيّة استخدمها في مسح دموعه ومخاطه، أمّا هي فانبرتْ تراقب فنتازيّة دموع المهرجان، دون أن تندي من عينيها دمعة واحدة، وإن تأزّم حلقومها بغاز البصل.

اقترب منها، وهو ما زال مستمرّاً برقصه، مال إليها، وقال بهمس من يسأل عن ترنيمة مقدّسة: "يا جميلة لماذا لا أرى لكِ دموعاً، ألستِ من بني البشر؟ ألا يريق البصل دموع عينيكِ السّاحرتين؟" ابتسمت له، وقالت براءة وصدق مدافعة عن نفسها: "عيناي لا تدمعان أبداً من البصل، أمّي تقول أنّ جدّتي كحّلتني بماء البصل بعد ولادتي بلحظات، ومنذ ذلك الوقت بتُّ لا أتأثّر بغاز البصل، ولا تدمع عيناي بسببه".

دنا خطوة أخرى منها، وقال بهمس عذب: "فقط؟"

- "فقط؟"

التقت عيناهما في لحظة انبهار غريب، كأنّ بريقاً أليفاً يسكنهما، لا دموع ولا تهيّج.

قال بعذوبة محتجّة: "لكنّكَ أيضاً لا تبكي من البصل".

ابتسم، وقال لها بثقة: "ذلك لأنّني الشّيطان".

- "ما الذي يدعو الشّيطان لحضور احتفال كهذا؟"

- "رغبته الجامحة في اختطاف حسناء لا يبكيها البصل".

- "لكنّني..."

- "لكنّكِ تستهوين الشّيطان".

- "هو يستهويني".

- "إذن أعطيني كفّكِ؟"

- "أيّهما؟"

- "لا يهمّ".

استمرَّ المهرجان إلى منتصف اللّيل، وخلّف آلافاً من العيون الدّمعة والأجساد ذات البشرة المتهيّجة، في الصّباح كان المحتفلون في بيوتهم يأخذون قِسطاً من النّوم بعد ليلة طويلة من السّهر، إلاّ الأرملة الحسناء التّي اختطفها الشّيطان العاشقة لها.

المستأنس

لم تعجبه تلك القصّة الخياليّة التّي قرأ فيها عن ذئب طيب يتحوّل في كلّ ليلة اكتمال بدر إلى إنسان طيب، يُحسن إلى النّاس أجمعين، ويخفق قلبه بالحبّ الطّاهر، ويحيط معارفه جميعهم بالرّعاية والعطف، ويفاجئ الذّئاب التّي تعيش في حمأة الخوف والبطش بالأمن والسّعادة، تقزّز بشدّة من هذه القصّة، ووضعها في أعلى رفّ من مكتبته؛ كي لا تمتّع أيَّ قارئ، فهو يكره أن يجد أحداً متعة من لدنه أيّاً كان، ولو كانت متعة بمقدار تقزّز من قصّة "المستأنس" التّي فرغ منها للتّو، وللحقيقة شعر بمقدار من الخوف يساوره للحظة تخيّل فيها أنّ أيّ ذئب معرض لسبب أو لآخر ليغدو إنساناً حليقاً دون فراء متلبّد، أو مخالب جارحة، أو حتى دون شهوة الدّم التّي تملأ نفسه رغبة كلّما تذكّرها.

في معرض الحديث عن شهوة الدّم أحسّ برغبة جارفة لاحتساء دم جاره الذي اعتصره البارحة في كؤوس ثلّجها في الثّلّاجة، فهو يحبّ الدّماء المثلّجة بنكهة الزّنجبيل، حتى ولو لم يكن عنده زنجبيل، فسيتخيّل أنّ الدّم بنكهته، لا سيما أنّه لا يريد أن يضيّع سعادته باحتساء هذا الدّم، فقد ناله بعد عناء يوم طويل، فمنذ بدأ جاره السّمين بمراقبته، والتّضييق عليه في المرآب المشترك لهما، وفي ردّ دعواته، وفي مراقبة بيته ليل نهار، بدأ يشعر بشهوة خاصّة نحو دمه، أراد أن يعتصره من كبده الذي يخيّل إليه أنّه كبير بمثل حجم جسده، ثرياً بالدّم الحارّ المتدفّق، وكذلك كان، اعتصره دون مبالاة، وسمح لفرائه القذر أن يغتسل بسيل منه، انساح على الأرض، جرف في طريقه الكثير من روث جاره، ثم انصبّ في بالوعة المطبخ، عندها خطر في باله أن يجمع بعضاً منه في قارورة، يدّخرها للحاجة، فهو حريصُ دائماً على قضيّة الدّم الإضافيّ.

في الماضي لم يكن من هواة الدّم، فقد كان يتقزّز من حرارته التّي سرعان ما تغدو لُزوجة قابلة للمطّ، تلزق على الثّياب كما البُزّاق، لكن مع أوّل مرّة تذوقه فيها، غدا مشروبه المفضّل، هو يذكر أن ذئبته الجميلة التّي عمل معها طـويلاً في مكتب البلديّة، كانت رائدته إلى هذا المشروب السّحريّ، يومها حمل لهـا شـعوراً غريباً اسمه حبّ، هام بها، وتمّناها زوجة تشاركه متعة تـذوّق لحـوم الأصـدقاء الذين كان يتفنّن في ذبحهم، وأكل لحومهم، لكنّها فاجأته بنظامها الغذائيّ الشّاذّ، إذ ادّعت أنّها من النّباتيين الذين يحرّمون اللّحوم على أنفسـهم، ويجـدون متعـة خاصّة في الخضار والفواكه والبقول والمكسّرات، بل إنّها كانت تلحّ علـى رسـم المستأنسين؛ إذ تجد لذة في رسم أعضائهم الملساء التّي تخلو من الفـرو، تحـدّق في عيونهم ذوات الأهداب الرّقيقة، ترسم تموجات شعور رؤوسهم، تحلـم بشـوق بنظرات أعينهم التّي فيها دفقة مقرفة من شيء اسمـه الحـبّ، تستغلّ اشـتهاءه الحيوانيّ لها؛ لتجبره على قبلة غريبة في الفمّ، بعد أن قرأت يوماً عنها في أساطير المستأنسين، تقول إنّ فيها سحراً خاصّاً، ووقعاً غريباً على الجسد والرّوح، لكنّـه يرفض أن يذعن لطقوسها الغريبة، فلقاء الجسد له تقاليده الذّئبيّة التّـي لا يقبـل بمقايضتها بأيّ شيء آخر، ولو برضا تلك الذّئبة السّاحرة، يكفيه أن يضطر لأكل الخضار والفواكه كلّما قابلها لينال رضاها العظيم.

لقد أوصلته إلى حافّة الجنون لا سيما عندما رآها تبتذل طقوسـها الغريبـة، وتتنازل عنهـا في حضـن رئيس البلديّـة، لتنـال منصبـاً جديـداً، ليلتهـا راقـب شخيرهما حتى النّهاية، ثم انقض عليهما، قدّ لحمهما بشهيّة لم يعرفها مـن قبـل إلا مرّة واحدة لن ينساها أبداً، ذلك عندما شوى لحم أخيه بعد أن جعله شراذم أشبعها دقاً وسحقاً، لعلّه كان يستحقّ ذلك؛ فقد كان مخلصاً لشيء عجيب اسمه وطن، بل كاد يقف في طريـق نجاحـه عنـدما فكّـر بتقـديم مسـاعدات صـغيرة

لسماسرة أصحاب عيون تتخفّى وراء نظارات سوداء، ويحملون كتاباً مقدّساً، فيه سِفْر كامل لرحيلهم الأكبر، ولعذابهم المدّعى، أحبّ نقودهم، وشدّة تمسّكهم بدعاية الشّعب المختار، كم مرةّ قال لأخيه الذّئبيّ الملعون الذي كان يرى فيه مخايل المستأنسين أنّ ما يفعله ليس خيانة بل مساعدة مأجورة، إن شاء يستطيع أن يسمّيها استغلالاً وانتقاماً ماليّاً من الأعداء المفترضين، لكن أخاه صمّم على جدله البيزنطيّ، ونعته بالخائن، وكاد يلحق بجماعة من المستأنسين الذين يسكنون الجبال بعد أن لفظهم مجتمع الذّئاب، فما كان في يده حيلة إزاء الخيار الدّمويّ الذي اختاره، إذ وجد نفسه مدفوعاً إلى ذبحه وشيّه، وإطعام لحمه الغضّ ذي الجلد الملس لزبائنه المقدّسين.

حاول طويلاً أن يشرح لأمّه ملابسات الحادث، لكنّها أبت أبداً الاقتناع بكلامه، ووصفته بالدّمويّ، مع أنّها من عشّاق الدّم، ألم تأكل جسد أبناء أخيها الأيتام، وتشرب دماءهم؟ بعد أن حرمتهم من إرث أبيهم، وأنفقت جلّه على بناء المبرّات التّي تحمل اسمها، وتؤطّر صورتها بإطار ذهبيّ على بوّاباتها الكبيرة، في حين نفق أبناء أخيها الجراء الصّغار جوعاً وبرداً بعد أن هجرتهم أمّهم الشّابة الشّرّسة، ولحقت بعواء ذئب قيل إنّ له فراء أشقر مثل فراء قطّة تركيّة مدلّلة.

أبرز لأمّه الكثير من الصّور التّي تظهر أخاه مستأنساً بملامح وقسمات بشريّة مقيتة، وهو يشرب الشّاي بكل وقاحة مع مستأنسي الجبل الذين قرّفوه بقصص وطنيّتهم، وبشعارات عقائدهم، لكنّها صمّت أذنيها دون كلامه، وعوت بحزن، إلى أن استعبرت، لأوّل مرة رأى الحزن في عينيها الحمراوين، بدأت ملامحها بالتّبدّل، اختفى فروها الكثّ، وبرزت بشرتها الملساء، وغار حاجباها الأشيبان الكثيفا الشّعر، وجحظّت عيناها ذاتا الدّموع الآدميّة التّي

حولتها من ذئب إلى مستأنس لعين، كان متأكّداً من أنّها نهاية والدته، فلا مكان للمستأنسين في عقيدة الذّئاب، كان عليه أن يصمّ قلبه دونها، أن ينكر وجودها، وإلاّ فسيكون صورة عنها، ومن يعلم فقد يتحوّل إلى مستأنس ملعون، الدّم الفيصل الوحيد في قضيّته، انتهز فرصة دموعها الطّارئة، وانقضّ عليها، ومزّقها دون رحمة، وقدّم دمها الذي زهد به إلى إحدى مؤسّسات الذّئاب الرّضع، ونسي ذكرى أمّ كان ابنها.

لكن أزمته عادت، وتفاقمت من جديد، فقد أصيب لزمن طويل بحمى المستأنس، مع أنّه يَعدّ المستأنس أسطورة لا مكان لها في حياة الذّئاب، ومع أنّ أحداً من الأطبّاء لم يجرؤ على أن يصارحه باسم مرضه، على الرّغم من أنّ مطالعته الطّويلة في أسفار الطّبّ القديمة التي أكدّت وجود مرض مثل هذا المرض الذي يظهر في لحظة استيقاظ ضمير، وارتفاع درجة التّعاطف، وتأزّم المشاعر، إلا أنّه كان متأكداً من أنّه مصاب بحمى المستأنس؛ فشعر فروه كان في تناقص واضح، ونزوعه عن الدّم والقتل، وميله المرضي إلى مساعدة الآخرين، ورغبته الغريبة في قلب يحبّه، كانت مؤشرات لا يُستهان بها في تشخيص مرضه، كان يعرف أنّ علاجه أسهل بكثير من الإصابة به، يكفيه أن يقترف خطيئة ما ليشفى من مرضه، لكن شيئاً في نفسه كان يستلذّ هذا المرض، وهذا العارض في حدّ ذاته مؤشر لا يُستهان به على أن مرضه بات يدنو من الحالات النّهائيّة التّي قد تنتهي بالموت، فهو ما كان يستطيع أن يتحمّل وطأة الإنسانيّة التّي ستصيبه، وإن استطاع فما كان مجتمع الذّئاب ليقبل به، لا بدَّ أنهم سيطاردونه في الجبال، بل وفي الأسواق إن أفلح بالتّنكّر، ثم يطلقون النّار عليه، أو يزجّون به في زنزانة مظلمة تحت الأرض في أحسن التّخمينات الرّحيمة بجنايته.

لكن لؤم الذّئاب تدخّل -ولحسن الحظّ- في الوقت المناسب، فقد استعاد كامل صحته، ووافر ذئبيته بمجرّد أن شارك في التستّر على تلك المذبحة المثيرة التّي أُبيد فيها آلاف الذّئاب لصالح مشروع سكني استيطانيّ للذّئاب الشُهل التّي أغارت على البلاد زرافات وقطعاناً، وبعد هذه المشاركة الميمونة عاد إلى سابق عهده بمعيّة ثروة جديدة أنفق جلّها على اللّحم البشريّ الذي بات يهواه بشدّة، وتستفزه قرمته كثيراً، فهو يحبّ اللّحم بأشكاله كلّها، يحبّه مأكولاً، أو مهصوراً، أو في فراشه، بل إنّ شهوته امتدّت حتى إلى لحم ابنه البكر الذي ما كادت تلوح عليه أوّل مخايل المستأنس حتى بادر بتقطيعه إرباً، لكن شهوته التّي اضطربت دون مبرر في تلك اللّحظة، أملت عليه أن يصدّ عن أكله، وإن لم يُضعْ متعته فرمه على شكل شرائح صغيرة، ثم تكويمه في كيس قمامة، والتّطويح به بعيداً لتأكله هوام الأرض والسّماء.

لكن حالة الحُمى الملعونة عادت، وهاجمته من جديد، بل إنّه أصيب بحالات مؤقتة تدفعه إلى انفصام المستأنس، فغدا للحظات حرجة إنساناً كاملاً بدمه ولحمه وقلبه، وكاد يعلق في ذلك، إلا أنّ أفول القمر البدر، وتدخّل الجهات الطّبّية حالت دون استمرار ذلك، فقد أقام طويلاً في مصحّة راقية وسرّيّة في بلد ما، يتعالج من مرضه الفظيع، الذي كان إذا أصابته نوباته تحوّل إلى إنسان بطباع دمثة، وروح طيّبة، وقلب يخفق بحبّ البشر أجمعين، لكن من حسن حظّه أنّه سرعان ما شفي من مرضه، وإن بقي عرضة للانفصام في أيّ لحظة، وفي سبيل الاحتياط لعدم حدوث ذلك، كان عليه أن يبتلع مئات الأقراص المضادّة يوميّاً، وإلى جانبها لتر دم طازج؛ إذ كان له تأثير رائع على تخدير مشاعره، وكبت إنسانيته، وتأجيج ذئبيته.

كان يعلم أنّه تحت مراقبة حثيثة من أخطر الجهات الذّئبيّة سرّيّة وفتكاً، وما كان ليبالي في ذلك، فهو يعلم علم اليقين أنّ ذئبيته سوف تنتصر -دون شكّ-

على انفصام المستأنسين الذي يهدّد حياته، ويروع أمن مجتمع الذّئاب، وما خال أبداً أنّ المرض سيعاوده بتجلّياته كلّها مع تلك المستانسة الجميلة التّي أُوكل إليه أمر تصفيتها بعد أن سُجنت زمناً في ذات السّرداب الذي سُجن فيه أيّاماً في زمن انفصامه المرضي، عندها كان مشغولاً عنها بنوبات مرضه، وتأزمات امتساخه، وظنَّ أنّه قد نسيها بعد أن شُفي تماماً، لكن سحنتها الآدميّة بقيت تلحّ على ذاكرته المشحونة بالدّم والموت، كانت لحظة شهيّة نقية بين أرتال من القتلى والمسحوقين، عيناها الفيروزيتان فيهما أمن لم يعرفه من قبل، جسدها الملس ذو المسام النّظيفة عبق بشهوة في أنفه، عندما مسّد على جسدها الصّغير المكوّم على الأرض بعد رحلة عذاب طويلة شعر باطمئنان وشهوة لم يعرفهما من قبل، ليست شهوة للّحم وللدّم، بل شهوة للروح والقلب، ثم غابت، وها قد عادت الآن صورة في جيبه، يحدّق فيها كثيراً، يغفو وهو يتأمل ابتسامتها غير الذّئبيّة، ويؤجل يوماً بعد آخر موعد قتلها؛ إذ يؤّمل نفسه بها، الإنسانة لا الذّئبة.

عليه أن يفجّر رأسها بمسدسه، هكذا يدسّ فوهته في مؤخّرة جمجمتها، ثم يدوس على الزّناد، فيتطاير رأسها شظايا، وتنتهي مهمّته، ويرضي الزّبانية الذين يعمل معهم، ويجهض بموتها أحد رموز ثورة المستأنسين.

كانت تغطّ في نوم عميق عندما انسلّ إلى البيت، ودخل إلى حجرة نومها، جسدها الصّغير يتكوّر على يسار السّرير، القمر البدر يتساقط نوراً على صفحة وجهها متسلّلاً إلى غرفتها من النّافذة المشرعة، يهيئ المسدس؛ ليؤدّي مهمّته، ولينسلّ هارباً، لكن قسماتها الغارقة في خصل شعرها المبعثر تشلّ إرادته، بعض نقاط العرق تتنزّ من جبهتها، يمدّ يده ذات المخالب إلى جبهتها، وبرقة لم يألفها في نفسه يمسح قطرات عرقها، يقرّب يده الحانية من فمها الصّغير، يلحس ما علق فيها من عرق، طعمه مِزٌ مِلْح، لكنّه يشتهيه، يقدّر أنّ سمك الغطاء الذي

تتدثّر به هـو السّـبب في حـرارة جسـدها وفي تعرّقـه، بيـد حانيـة يبعـده عنهـا، فينكشف جسدها الصّغير المتهدّل في منامة ورديّة مزركشة، قـدماها الصّـغيرتان جُلّ ما يلفت نظره، يجلس قريباً منها إلى يمين السّرير، ظهـره يلامـس جسـدها، حرارته تتسلّل إليه، تكاد تنقلب على شقّها الآخر عندما يصدّها ظهره، ويمنعهـا من الحركة، تفتح عينيها بصعوبة، تجده أمامها، تتربّع في فراشـها غـير مفزوعـة، كأنّها كانت في انتظاره، تنظر إليه، وتقول دون مبالاة: "إذن، ها قد جئتَ لقتلي".

- "بالضّبط".
- "ما الذي يحول دون أن تفعل ذلك؟"
- "أنتِ".
- "لم أفهم معنى كلامك هذا".
- "أظن أنّني أحبّك".
- "لكن قلوب الذّئاب لا تعرف الحبّ".
- "لذلك أنا متأكدٌ من أنّني أحبّك".
- "لكن..."
- "أحبّك".
- ....
- "أحبّك".
- "أنت اللّيلة مختلف، في قسماتك شيء لا أفهمه، هل أنت..."

- "نعم أنا منذ اللّيلة مستأنس، لا يمكن أن يحوي قلب ذئب حبّاً مثل حبّي، لا بدّ أنّ حبّك قد مسخ وجودي الذّئبي".

- " لا غرو في ذلك، فقمر اللّيلة بدر مكتمل".

- " ليس اكتمال البدر هو قوّة المستأنسين، بل قلوبهم واكتمال مشاعرهم هي قوّتهم الحقيقيّة".

- "يبدو أنّك غدوت قد حقّاً مستأنساً".

- "ألم أقل لك إنّني أحبّك".

- "لكنّني لم أقل لك بعد إنّني أبادلك حبّاً بحبّ".

- " إذن ماذا تريدين أن تقولي؟"

- "لعلّي أرغب في أن أقول لك إنّي أبادلك حبّاً بعشق".

- "أحقّاً ما تقولين؟"

- ...

أصخى ينتظر إجابتها بشوق وهيام، لكنّها لم تقل حرفاً واحداً؛ لأنَّ رصاصة ما حوّلت رأسها ورأسه إلى شظايا ملتهبة، وأصبحا خبراً في الصّحف المحليّة جميعها التّي علّقت على خبر موتهما بعبارة "مقتل مستأنسين في ملابسات غريبة، التّحقيق ما زال جارياً فيها"، في حين كتبت صحف عالميّة أخباراً على صفحاتها الأولى بعنوان "مقتل إرهابيين في حادثة إرهابيّة آثمة، يشكّ في أنّهما مستأنسان".

بحيرة السّاج

"الله هو الحبّ الأعظم، الحبّ هو الله، الله يأمر بالحبّ، والحبّ يقود إلى اكتشاف عظمة وجبروت وقدرة الله، سبحانه فهو مصرّف القلوب". هذه كلمات نوح بن لامك التّي دعاها فيها إلى استشراف نور الرّبّ، تسلّلت كلماته إلى قلبها المسكون بحب عوج بن عنق، داعب سحرها وشائجه المرهفة ورقاقته الشّفافة حيث الحياة والرّوح، واستوطنت ما بين القلب وحشاياه حيث يكمن حبّ عوج بن عنق، ويفجّر فيها ينبوعاً من الحبّ يكفي لأن يروي عشّاق الدّنيا أجمعين.

ما كان ليملك رجل دجال طلاسم الحياة والأرض، أنّى له أن يحيكَ كلمات السّعادة الكبرى؟ أنّى له أن يعرف أنّ الله حبّ، وأنّ الحبّ هو الله، لو لم يكن نبيّاً؟ لقد آمن قلبها به منذ أن سمعت كلماته التّي أطفأت عذاباتها، وأذاقتها حلاوة اليقين، منذ أن وُلدتْ وهي تسمع قومها يصفون ذلك الرّجل المكتهل بالكاذب والمجنون، لكنّها رأت في كلماته ما لم تره في عيني بشر، رأت الصّدق، ورأت قبساً من نور متّقدة، فآمنتْ به، وكفرت بطواغيت قومها، شدّت بيديها على قلبها الذي يسكنه حبّان: حبّ الله وحبّ عوج، وتحسّسته بحبّ وسعادة، وبحرص من يملك كنزاً في صندوق، وصرخت بأعلى صوتها: "يا ودّ، يا سواع، يا يغوث، يا يعوق، يا نسر، أنا أكفر بكم، وأسبّكم، ما أنتم إلاّ حجارة صمّاء، ليس لها قلب، لا تعرف وجيب قلب، ولا ترقّ لعاشق، ولا تهفو لمتيّم، أنا أكفر بكم، أسمعتم، أنا أؤمن بالله، وأؤمن بالله العزيز القهّار، أؤمن برمز الحبّ الأعظم، أنا مؤمنةٌ بربّ نوح، لتسقطي أيّتها الآلهة الحمقاء السّماء كسفاً على رأسي، لتنتقمي لذُلّكِ، لتنتصري لنفسكِ، أنّى لكِ ذلك؟ إنّكِ لستِ سوى

حجارة صمّاء عاجزة. يا ربّ أنا مؤمنةٌ بكَ، مؤمنةٌ بحبّكَ الذي شمـل روحـي، وأغاث ضياعي".

ردّدت أشجار غابة السّاج كلماتها، حملت الرّيح تحـدّيها، انتظـرت للحظـة بتحدٍّ لا يقل قوّة وعنفواناً عن حبّهـا أن تسـقط الآلهـة الحمقـاء السّـماء كسـفاً عليها، أو أن تغور بجسدها الثّائر العابث، لكنّ ذلك لم يحـدث، حفيـف أشـجار السّاج عزف بالطّمأنينة على وشائج قلبها، بعض شـعرات رأسـها تهـادت مـع نسيم الغابة، داعبت الشّعرات المتطايرة بكفّ يدها، ثمّ ردّتهـا برقّـة إلى مـا وراء أذنيها، وتنفّست الصّعداء ساخرة مـن الآلهـة العـاجزة، تنهّـدت محدّثـة سـكون الغابة: "كنتُ متأكّدة من أنّكِ أضعف من أن تثأري لنفسكِ، أنـتِ آلهـة أكذوبـة، أنتِ طاغوت صنعه الشّيطان، أمّا قلبي فهو خالصٌ لله تعالى".

"عوج، أين أنت؟ لِمَ تأخّرتَ؟ أنا أعشقكَ، هلمَّ إليَّ لتـذوق معـي حـلاوة الإيمان، هلُمَّ إليَّ لنكن أوّل زوج مؤمن في أرض الكفر، هُلمَّ إلـيَّ ليبـارك الـنّبي نوح حبّنا النّديّ، أنا أعشقكَ، وأعشق الرّبّ حيث الحبّ، عـوج، عـوج، وج... ج".

طوّقت أشجار السّاج أمنيتها الحارّة، واستلقت عند أقدام الشّـجرات التّـي بلغت مـن العمـر قرنـاً، مسّـدت الأرض بظهرهـا الصّـغير، وانفرجـت يـداها وقدماها بسكون من يطير فوق الشّمس، وانتظرت عوج، تابعتْ بعينيها أسراب الحمام البرّيّ تقطع سماء الغابة بتماوّجات جماعيّة فريدة، أسراب الحمام كانـت تتناوب على كشف قرص الشّمس وإخفائه، ذلك الجبّـار الـذي يكسـي ببريقـه السّماويّ أعالي أغصان أشجار السّاج، فتظهر كما أعـواد مـن نـور، كـم تحـبّ أشجار السّاج! كم تحبّ هذه الغابة التّي تتربّع على هضبة مهولة دون باقي بقاع الدّنيا؛ فهنا قابلت عوج لأوّل مرّة، كانت عندها طفلة لاهية، وكان شـابّاً عاتيـاً

جامحاً مثل لحظة جنـون، جـاءت لتنصـب أرجوحتهـا علـى أغصـان شـجرات السّاج، وجاء ليقطع أشجار السّاج نكاية بنوح الذي زرع أشـجار الغابـة كلّهـا، وادّعى أنه فعل ذلك تنفيذاً لأمر مقدّس ما، سخر النّاس مـن الأمـر السّـماويّ الغريب، أمّا نوح فهدّد بطوفان قادم، وعقد عزمه على بناء سفينة تحمل المؤمنين بربّه إلى النّجاة، مهما كلّفه الأمر.

استمرّ نوح في رعاية أشجار غابته ضارباً صفحاً عن الغمـز واللّمـز وعـن تندّرات القوم به، وسخريتهم من صنيعه، أمّا هـي فمـا كنـت لتبـالي بـالعجوز المهيب الذي يدّعي النّبوّة، ويزرع ربوة البلدة بالأشجار، بالتْ فقط بأرجوحتهـا التّي تنوي أن تنصبها علـى أعلـى الأغصـان لتتـأرجح بـين السّـماء والأرض، لتكون عصفوراً آدميّاً في الهواء، أعدّت العـدّة لتحقيـق حلمهـا، حملـت الحبّـال، وانطلقت إلى أكبر شجرات الغابة، توقّعت أن ترى نوحاً، وأن تطلـب منـه إذنـاً للتّمتّع بغابته العجيبة، كانت مؤمنة بلطفه، فهي ما رأته غاضباً ولا حانقـاً يومـاً إلاّ إذا كان على مرأى من فاحشة يدّعي أنّها تغضب ربّه، لكنّها لم تتوقّع أبداً أن تجد عوج أمامها، كانت تعرف اسمه الذي يوقع الهلع في القلوب، فهو مـن شـرّ النّاس، ومن أظلمهم، وكانت تعرف ملامحه القاسية الملتهبة بالغضب، فقد رأتـه يوماً يضرب رجلاً حدّ المـوت في سـوق المدينـة لـذنب لا تعرفـه، ولم يعنهـا أن تعرفه؛ فقد كان الهرب بعيداً عنه هو من أهمّ أولويّاتها في تلك اللّحظة.

تجمّدت قدماها العاريتان عندما رأته يوشك أن يهوي بقدّومه العظيم على جذع أكبر شجرة؛ ليقصف شبابها، حدّثت نفسها بالهرب، لكـن الجـذع ونصـل القدّوم شلاّ إرادتها، تمدّد التّراخي إلى سـائر جسـدها، وانزلـق الحبـل مـن بـين يديها، أحدث صوتاً رتيباً خشناً، لفت نظر عوج إليها، كانت طفلة أمام وحـش آدميّ، رأى في صمتها حـديثاً عـذباً، ولأوّل مـرّة في حياتـه ألقـى نظـرة في بحـر

عينيها، ليرى قاعهما الصّافي الذي يمور بفراته الزّلال، قال لها بهدوء بعيد عن طبعه: "ماذا تفعلين هنا أيّتها الطّفلة الصّغيرة؟"

استجمعتْ شجاعتها الصّغيرة، وقالت باضطراب ونقمة واحتجاج: "لماذا تريد أن تقطع هذه الشّجرة الجميلة؟"

قال ضاحكاً، وقد حاصرته طفولتها البريئة بأسئلتها العذبة: "أنتِ لن تفهمي سبب ذلك".

قالت بتحدٍّ جميل: "بل سأفهم".

قال وابتسامة عريضة تجتاح وجهه المقفر من أيّ ملمح إنسانيّ: "إذن اعلمي أنّي سأقطعها نكاية بنوح".

قالت بتعجّب، وهي تخطو خطوة لا إراديّة نحوه: "لكنّني أحبّ هذه الشّجرة، وأريد أن أربط حبال أرجوحتي بأغصانها".

قال دون مبالاة مصطنعة غارقة في ابتسامة هادئة: "اذهبي، واربطيها على شجرة أخرى، أمّا هذه فسأقطعها لا محالة".

قالت باحتجاجٍ ظاهر: "لكنّكَ ستقطع باقي الأشجار يوماً ما".

قال باهتمام: "لماذا تظنّين أنّي سأفعل ذلك يوماً ما؟"

قالت هامسة مرتعدة: "لأنّكَ شرير".

قال ضاحكاً: "من قال لكِ أنّي شرير؟"

قالت بجزم قزم مسحور: "كلّ من يقطع الأشجار هو إنسان شرير".

بهت عوج للحظة من كلمات الطّفلة، ثمّ انفجر ضاحكاً، مسّد على شعرها المسدل، ومدّ قامته الفارعة، وشدّ حبال أرجوحتها على أغصان الشّجرة

الأطول في الغابة، وأرجحها حتّى نامتْ، ثمّ حملها مثل كيس صغير، وقطع بها التّلال حتّى أوصلها إلى حيث بيتها.

كانت تردّد أمام أترابها: "أنا أحبّ عوج، إنّه طيّب"، فينفر الأصدقاء من كلامها خائفين، كانت تردّد أمام الأهل: "أنا أحبّ عوج، فهو طيّب"، فتجحظّ العيون، وتجفّ الحلوق، وتأمرها الألسن همساً بالابتعاد عنه؛ فهو شرير عاتٍ لا يرحم أحداً، يعيث فساداً في الأرض، لا طاقة لأحد بصدّه، حتّى الآلهة عجزت عن أن تضع حدّاً له، فهو شرير أرهق النّاس، وأفسد الذّراري.

"لكنّني أحبّه، إنّه طيّب"، كانت تجيب حائرة بين ما تسمع وبين عطف يديه اللّتين تدفعان أرجوحتها طويلاً في كلّ غداة.

كبرت أشجار السّاج، وكبرت معها، لكنّ أرجوحتها ما كبرتْ، بقيت معلّقة بين أغصان السّاج، تحتضن امرأةً ساحرة، تظنّ نفسها طفلة، كلّما تقاذفها الهواء، وحلّقت بها الأرجوحة التّي يدفعها رجل شرس، اعتاد أن ينير ظلماء حياته بضحكات امرأة تشهق سعادة وإثارة كلّما دفعها دفعة عظيمة في الهواء.

أصبحت امرأة ممتلئة أسمن من أن تُحمل، لكنّه كان مصمّماً على أن يقطع بها طريق العودة محمولة كلّ مساء سيراً على عادة طفولتها التّي بات يستشعر لها وقعاً غريباً على نفسه المثقلة بشرورها وآثامها.

كان فرداً ببوائقه وأحقاده أمام البشر كلّهم، كان يحتقرهم جميعاً، ويبادلهم كرهاً بكره، أمّا هي فقد كانت الآدميّ الوحيد الذي قال له: "أحبّك"، قالها بكامل إرادته وبملء مداركه وحواسّه وفيض مشاعره المتدفّقة، فرد عليها حبها بكلمة: "أحبّكِ"، قهر غلّ السّنوات كلّها وحقدها ليطفئها عند رطوبة قدميها، وقال: "أحبّكِ... أحبّكِ..."

غدت الغابة عدنهم المقدّس، هناك كانت تدركه إنساناً، ويلفيها سعادة، انتظرته دائماً بأشواق الدّنيا الجامحة، لكنّ أشواقها هذا المساء تفوق عظم غابتها، انتظرته لتهديه هديّة العمر، ستهديه الإيمان، ستدعوه إلى الرّبّ، حبّها ردّ إليه ابتسامته، وحبّ الرّبّ سيردّ إليه وجوده وقلبه وكينونته، تخيّلت قلبه يمتلىء إيماناً، تخيّلت عينيه تفيضان نوراً، امتلأت غبطة، وباتت تعدّ اللّحظات لتلقاه.

كان اللّقاء، ودعته إلى الإيمان بربّ نوح، لكنّه أبى وجدّف واستكبر، وكان الحبّ في قلبه دون أن يقوى على إنارته بالإيمان، وتخاصما، وعاد كلٌّ منهما إلى بيته من درب لا يلتقي مع درب الآخر.

هجرا الغابة التّي غدت أخشاباً في سفينة نوح، كانت سفينة عظيمة طولها ثمانين ذراعاً، ظاهرها وباطنها مطليّان بالقارّ، ولها جؤجؤ أزور يشقّ الماء، جمع نوح فيها من كلّ مخلوق زوجين، وجاء غضب السّماء أمطاراً تغرق الزّرع، وتنّوراً يفيض ماء، ويتلف الأنفس، ويجتاح البيوت والجبال، ويسوّيها بالوحل، كانت لحظات رهيبة، الماء يبتلع الأرض بغضب غاشم، الكفرة يدركون في لحظاتهم الأخيرة أن لا عاصم من الله، المؤمنون القلّة حصاد دعوة نوح التّي استمرّت لقرون طويلة يحزمون أنفسهم مطأطئي الرّأس أمام غضب الله، وهم قانتي القلوب، يتسلّقون سلّم السّفينة التّي ستحملهم بعيداً، هي آخر من تسلّق السّلّم، الأمواج المتلاطمة تقفز بتحفّز كي تبتلعها، وأمطار السّماء العاصفة تثقل جسدها، وتتحدّى قوّتها، أيدي المؤمنين تمتدّ من أعلى ظهر السّفينة لتشدّها إلى سطح السّفينة، نوح يأمرها بالتّماسك والسّرّعة.

من لحظات ابتلع الموج كنعان بن نوح الذي كان عزم والده وانصياعه لأوامر ربّه سدّاً منيعاً يمنعه من أن يذوب شفقة على ابنه الكافر العاصي، لكن أين عوج في هذه اللّحظات؟

من جديد صوت نوح يأمرها بالتّمسّك والصّعود سريعاً إلى ظهر السّـفينة، تنصاع للأوامر، لكنّ صوت عوج يملأ نفسها، كما يخترق صوت جلبة الأمواج، من نظرة نصف ملتفّة تراه على أعلى أشجار السّاج الباقية بعد اجتثـاث الغابـة التّي غدت بحيرةً مهولة تضجّ بجثث الغرقى.

لا تميّز غير اسمها من فوضى الكلمات التّي يزعـق بهـا عـوج، قـد أنهـار جبروته أمام يقين الموت، ماء الطّوفان يكاد يغمر رأسه، تقول بعصـبيّة وانفعـال وتوسّل: "أرجوكَ يا نوح أنقذه".

يردّ نوح عليها بانفعال تجلّلـه دمعـة غامضـة: "لكنّـه كـافر، وهـذه السّـفينة للمؤمنين فقط".

- "لكنّني أحبّه".

- "لكنّه كافر، ولا مكان للكافرين بيننا".

كفـّ نوح تلمس كفّها أخيراً، يكاد جسـده المعمّـر يشـدّها بقـوّة إلى سـطح السّفينة، أذناها المشنّفتَان لا تدركان صوت عوج، تدرك بأسىً أنّ الطّوفان ابتلعه إلى الأبد، "فما قيمة الحياة دونه؟" تحدّث حطام روحها، تشدّ كفّها من كفّ نـوح، وتنزلق في الأمواج التّي تبتلعها بنهم، وتبتلـع آخـر إنسـانٍ علـى وجـه الأرض يقول: "عوج، أنا قادمة إليك، أنا أحبّكَ".

قصّة طويلة

مرّة أخرى أهداه صديقه المفتون بالأدب مجموعة قصصيّة لقاصٍّ مغمور لم يسمع به من قبل، كم مرّة قال لصديقه المهمّوس إنّه يكره قصص الدّنيا وحكاياتها كلّها! كم مرّة قال له إنّه مفتون بالميكانيكا التّي يحبّها دون كلمات الدّنيا كلّها، أمّا القصص والشّعر فهذه دنيا يمقتها، ولا يطيق ظلالها الرّتيبة؛ فهو يؤمن فقط بالعلم، ولا شيء غيره، ثمّ أعليه أن يعيد المرّة تلو الأخرى على مسامع صديقه البليد قائل: "إنّه بالكاد يرى، وأنّه لا يستطيع مطالعة أيّ كتاب بسبب مرضه".

حتّى ولو زعق بملء صوته بهذه الحقائق كلّها، فما يظنُّ أنّ صديقه سيسمعه، بل سيظلّ يمطره بهداياه الورقيّة المقيتة، ماذا "لو ألقيتُ بهذه المجموعة القصصيّة من نافذة شقتي؟" سأل نفسه بضحكة ثعلب، "لكن قد تقع على رأس أحدهم فتشجَّه"، "أيّ الرّجال الذين لا يعرفون معنى الملل أو التّعب الذي كتبها؟" سأل نفسه من جديد، ثمَّ ابتسم قائلاً: "لا بدَّ أنّه مجنون، مثل صديقي مثلاً".

إذن سيمزّقه، ويطيّره فتاتاً من نافذة شرفته ليهوي سبعة طوابق على الأرض، "لكن هكذا سلوك سيتسبب في اتّساخ المكان"، حدّث نفسه قائلاً ومتراجعاً بخجل عن قراره المتهوّر هذا.

حمل المجموعة القصصيّة على هون، وحار أين يدسّها، لتتوارى عن طريقه، حدّق جهده في صفحة الغلاف لكي يقرأ اسم المؤلّف، لكنّه عجز عن ذلك، فقد كانت الكلمات ومضات خافتة تتراقص بخبث أمام ناظريه، فتزيغ دون أن يدرك معناها، دعاه الفضول إلى أن يخالف وصيّة طبيب العيون، وإلى أن يلبس

عدسات النّظر، حتّى ولو استمرّت في تجـريح قرنيتيـه، وفي إيـذاء بصـره، فقـد أصبح الوضع لا يطاق، منذ أن أصيبت عيناه بـداء القرنيّـة المخروطيّـة، والعـالم يتراجع في عينيه إلى الخلف، ويبدو أصغر وأبعد، حتّى غدا نقطاً باهتة متراقصّـة بالكاد يدركها، النّور وحده هو من يتسلّل بلين ويسر إلى عينيـه، دون أن يحـدّق فيه بقوّة، ودون أن يُصرّ عينيه ليراه بصعوبة، عجز الطّبّ عن أن ينقـذه ممّـا هـو فيه، واستحالت العدستان الطّبّيّتان إلى أداة سحريّة تعيد النّظر إليه لـيرى بهمـا، وليواري وراءهما عينين كاد النّور يفارقهما، وكادتْ تنسيه كذلك مأسـاته التّـي لازمته منذ أن كان على أبواب التّخرّج في الجامعة، لكن التّهـيج الـذي أصـاب قرنيتيه منذ أسابيع استولد المأساة في نفسه من جديد، واجترّ آلامه وحيرتـه مـرّة أخرى، وابتعثها من التّناسي، لزم البيت طويلاً في الآونة الأخيرة علـى أمـل أن يشفى من التّهيّجات، وأن تقبل أنسجة عينيه بالعدستين اللاّصقتين مـن جديـد، ليبعد شبح عمليّة زراعة القرنيّتين عن عقله.

لكن الملل بدأ يدبّ في لحظاته ودقائقه، استعرض وسـائل التّسـلية جميعهـا التّي تركن نفسه إليها، لكنّه استبعدها الواحدة تلو الأخرى؛ لأنّها كانـت تحتـاج إلى البصر، وهو يشفق على عينيه من أيّ إجهاد مضاعف قـد تبذلانـه، وأخـيراً وجد ضالّته في رحلة سياحيّة إلى أرض الشّمس، استنكر الأصدقاء عليـه رحلـة كهذه في ظروفه الصّحيّة المتعثّرة، ووجدوا قراره وسيلة غير موفّقة لتكبّـد المزيـد من النّفقات الماديّة التّـي هـو في غنـىً عنهـا في ظـلّ ظروفـه الصّـحيّة الرّاهنـة، وحاولوا ثنيه عن قراره بلفت نظره إلى عينيه اللّتين ستعيقان استمتاعه بأيّ منظر في هذه الرّحلة، لكنّه قـال غـير مبـالٍ: "لا يهـم، حسـبي أن أرى ومـيض أشـعّة الشّمس الآسنة في الأفق، فضلاً عن أنّني لا أستطيع أن أرى إلاّ سـواها اعتمـاداً على قرنيتي البائستين.

أشفق الأصدقاء على صديقهم الذي يطارد أشعة الشّمس المتمرّدة الوحيدة على بصره المنكفيء على ذاته، والمخترق الوحيد لحصار الظّلام، وأحسنوا إذ أجادوا إخفاء شفقتهم التّي لا ترضي جموح روحه، ولا عزَّة نفسه، وكانوا في وداعه في محطَّة الحافلات، ملوّحين له بحرارة بأيديهم مودّعين ابتسامته الطّفوليّة المتعالية على انكساراته، مع أنّهم كانوا يعلمون تماماً أنّه لن يرى أيديهم التّي تصكّ الهواء ملوّحة بحرارة مهما اجتهدوا في ذلك، ومهما بذل في سبيل ذلك من صَمّ عينيه حدّ الإقفال، وإجهاد قرنيتيه، فهو لن يرى أبداً من مسافة كبيرة، حسبه متر أو نصف متر يرى عبرهما.

غابت ابتسامته مع الحافلة المبتعدة، وأقفل زجاج النّافذة، بعد أن أيقن انّه أصبح في مسافة لا تسمح لأصدقائه برؤيته، أرخى ظهره الذي غار في مقعد الحافلة الوثير، كانت الحافلة مكتظَّة بالمسافرين الباحثين عن المتعة والتّسلية، إلاّ المقعد الملاصق له، فقد كان شاغراً وحيداً، أسعده ذلك، وضع فيه المجموعة القصصيّة التّي أهداها صديقه له ومحفظة جلديّة، وغاب في سِنَة لذيذة مبعثها اهتزازات الحافلة الرّتيبة، وحرارة الشّمس التّي غمرت وجهه، لا سيما أنّه يواجهها تماماً في مقعده الذي يحتلّ مقدّمة الحافلة.

في غفوته القصيرة تلك رأى عشرات النّساء اللّواتي حفظ قسماتهنّ عن ظهر قلب أيّام كان في كامل قدرته الإبصاريّة، رأى قريباته وجاراته وزميلاته في الدّراسة وزوجات الأصدقاء، بل حتّى أنّه رأى وجوه نساء عاكسهنّ في ما مضى في الشّوارع والتّجمّعات العامّة، تفرّس في وجوههنّ وفي أجسادهنّ ما وسعه التّفرّس، انزلق بعينيه في كلّ انحناءة في قسماتهنّ، داعب باشتهاء كلّ إطلالة لهنّ، استذكر بوجوههنّ كلّ عالم المرأة الذي بات يدركه أصواتاً وأنفاساً وروائح، ويُحرّم عليه أن يعرفه لمساً أو نظراً، اجتهد ليرى وجه حبيبته الغادرة

التّي هجرته بعد أن غدا مريضاً مهدّداً بالعمى، ذهبتْ إلى رجل غيره يملك عينين صقريّتين، وقلباً زجاجيّاً، تمنّى بحقّ أن يرى وجهها فقد كـان علـى الـرّغم مـن غدرها جميلاً رُسم بلحظة تجلّ، لكن عبثاً كانت آماله، فوجهها الغـادر غـاب في حين حضرت وجوه نساء الأرض قاطبة، لكنّ صوتها ذا الدّلال المصطنع بإتقان وحِرَفِيّة لازم وجوه نسائه، وطغى على كلماتهنّ، واحتوى جلبتهنّ كلّها، تـلألأ صوتها طويلاً في ظلام عينيه اللّتين تخترق أشعّة الشّمس إغفاءتيْهمـا، ومـن ثـم غاب عندما غاب دفء الشّـمس، شـعر بـبرودة جهـاز المكيّـف تلفـح وجهـه، استيقظ، واعتدل في مقعده، ومدّ يـده متثائبـاً إلى الكرسـي المجـاور، ليتأكّـد مـن وجود المجموعة القصصـيّة ومحفظتـه الجلديّـة التّـي يحمـل فيهـا بعـض الأوراق الثّبوتيّة المهمّة، فوجد المحفظة والمجموعة القصصيّة، وكـاد يمسّـد عليهمـا، إلاّ أنّ صاعقة المفاجأة أربكته، فقد أدرك أنّهما في حضن ساخن، أيقن مـن اضـطراب صاحبته ومن ليونة حركته، أنّه حضن امـرأة، قـال بتلعـثم وهـو يتلقّـى المحفظـة والمجموعة اللّتين دفعتا برقّة إلى حضنه: "أنا آسف، يبدو أنّـي قـد ذهبـتُ في سِـنَة طويلة".

ردّ صوت أنثويّ بعربيّة فصـيحة يعلـو مخـارج بعـض حروفهـا اضـطراب اللّكنة، وعدم دقّة اللّفظ: "يبدو أنّه كان نوماً سعيداً".

-"لماذا تظنّين أنّه كان كذلك؟"

-"لقد كان على وجهكَ ابتسامة لم تفارقه أبداً"

-"حقّاً؟ كنتُ أظنّ أنّ لوجهي سحنة تكشـيرة وتقطّـب حـاجبين لا تفارقانـه أبداً".

علت نبرة ساحرة في صوتها مردّها إلى ضحكة صغيرة، وقالت: "إذن عليكَ أن تغيّر فكرتكَ عن نفسكَ، فأنتَ تملك ابتسامة ملائكيّة في نومكَ".

- "أشكركِ".

ساد صمت قصير، سمح له أن يتفرّس في ملامحها التّي كانت قريبة منه حدّ الالتصاق به، بشرتها السّمراء، وجسدها الصّغير، وشعرها المعكوف على شكل ذنبة فرس يوحيان بأنّها عربيّة، لكنّ لهجتها، ولغتها الفصحى، واضطراب مخارج الحروف عندها يؤكّدان أنّها غير عربيّة.

قرّر أن ينقل هذا الحديث الذي يدور في رأسه إلى فمه، لعلّه يكون منطلقاً حسناً ليستأنف الحديث الممتع الذي انقطع منذ دقائق، وحسبه أنّه لا يجد موضوعاً آخر يحدّثها به، مع أنّ رأسه يضُجّ بآلاف الفكر التّي يأبى لسانه أن يترجمها إلى جملة مفيدة واحدة، يستهلّ بها سيل حديث ممتع يتمنّاه معها، لعلّه يقطع به وحدة سفره. قال لها وهو يداعب بيديه صفحات المجموعة القصصيّة: "يبدو أنّكَ حديثة تعلّم للعربيّة؟"

- "في الحقيقة أنا أتحدّث العربيّة منذ سنوات طويلة، بالتّحديد منذ أن بدأتُ العمل في سفارة بلادي في العاصمة، لكنّني ما أزال ألاقي صعوبات بها".
- "أعتقد أنّكِ تتحدّثينها بطلاقة باستثناء بعض مخارج الحروف التّي تحتاجين إلى إعادة توقّف عند نطقها".
- "يبدو أنّي أصبحتُ في حاجة حقيقيّة إلى معلّم للّغة العربيّة".
- "هل أفهم من ذلك أنّكِ قد تعلّمتِ اللّغة العربيّة بجهد ذاتيّ، ودون معلّم؟"
- "بالضّبط، لقد تعلّمتها بالممارسة؛ لذلك فأنا لا أعرف القراءة بالعربيّة".
- "مطلقاً؟"
- "خلا بعض الحروف التّي أخطئ في لفظ بعضها أحياناً. مثلاً هذا الكتاب الذي معكَ...".

- قال لها مقاطعاً كلامها: "إنّه مجموعة قصصيّة أهدانيها صديق عزيز".

- "لا أتوقّع أنّي أستطيع أن أقرأ عنوانه".

- "حاولي".

- "م... م... مك... لا أعرف بالتّحدّيد أيّ الحروف هي التّي بعد الميم أهي الياء أم الكاف، الحقيقة لا أستطيع التّمييز بدقّة أيّ الحروف هي الموجودة هنا".

قال بثقة، وهو يطالع صفحة المقدّمة، كأنّه يقرأها مع أنّه كان عاجزاً تماماً عن رؤية العنوان: "مكان في المستحيل"، هذا ما هو مكتوبٌ هنا، وهذا هو عنوان هذه المجموعة القصصيّة".

قالتْ بتحمّس: "يبدو أنّها مجموعة قصصيّة مثيرة". ردَّ باضطرابٍ يحاول أن يخفيه، فما كان يرغب في أن يفقد موضوعاً يثير اهتمامها بعد أن وجده صدفة، ومن غير تدبير: "نعم، إنّها مجموعة قصصيّة رائعة".

- "هل قرأتها كلّها؟"

- "نعم، لقد قرأتها كاملة".

- "هل يمكنكَ أن تقرأ لي قصّة منها، فأنا أستمتع بالقصص التّي أسمعها أكثر من تلك التّي أقرأها، ولا تنسَ أنّي عاجزة عن قراءة اللّغة العربيّة، إلاّ إذا كان في ذلك إزعاج لكَ".

قال وقد أُسقط في يديه، وقعد به لسانه دون أن يجد حيلة مناسبة تنقذه من مأزقه هذا: "بالعكس، يسعدني أن أفعل ذلك، لكن ليس الآن؛ فأنا متعبٌ الآن، ما رأيكِ في أن نفعل ذلك عندما نصل إلى مقصدنا؟"

- "اتّفقنا، لكن عمّ تتحدّث القصّة التّي ستقرأها لي؟"

- "تتحدّث عن رجل يحلم بالمستحيل".

- "هل وجده؟"

- "نعم".

- "كيف؟"

- "خمّني".

- "لا أستطيع التّخمين، هيّا قل لي كيف وجده، أصبح عندي فضول لأسمعكَ تقرأ لي هذه القصّة".

- "لقد أصبح عندي فضول لأقرأ لكِ هذه القصّة".

- "أهي قصّة قصيرة؟"

- "نعم هي قصّة قصيرة، لكنّها طويلة بعض الشّيء، أظنّ أنّها قصّة طويلة".

- "طويلة إلى أيّ حدّ؟"

ضحكَ، وقال بزهو: "إلى حدٍّ أنّها قد تستهلك رحلتنا كلّها".

قالت بتعجّب وحماس: "إذن هي ملحمة تاريخيّة، وليست قصّة قصيرة".

- "ألم أقل لكِ أنّها قصّة طويلة؟"

- "لكنّها قصّة مسلّية، أليس كذلك؟"

- "يبدو أنّ كلينا يرجو ذلك".

كلاهما تمنّى قصّة مسلّية طويلة كانت أم قصيرة، عندما وصلا إلى أرض الشّمس، أنبريا يحدّقان في قرص الشّمس الذي يحتلُّ واجهة المشهد؛ كان قرصاً ذهبيّاً بوهج برتقاليّ وبإطلالة تكتسح أبصار الآتين جميعهم، التقط بعض

المسافرين صوراً لهذا القرص المتوهّج، في حين داهمت حرارة القرص أنعلة أحذيتهم التّي التصقت بالأرض السّخينة، وكادت تذيب جلود أقدامهم.

لم يستطع أحد أن يتحدّى وهج الشّمس بنظرة محدّقة لأكثر من ثوان متهوّرة إلاّ هو، فقد حدّق لدقائق في قرص الشّمس التّي باتت في عينيه، فأستطاع بفضل وهجها الذي يغمر وجه أن يتفرّس في سمرة المسافرة معه، سمرتها رقيقة وجذّابة، لا تملك عينين ساحرتين، ولا ملامح فاتنة، لكنّ انسيابيّة قسماتها، وبساطة زينتها تضفي عليها رونقاً خاصّاً يدعو المرء إلى التّفكير في الأنوثة الرّائعة التّي تبتعد عن الجمال الصّاخب والحضور الحارّق، هي أنوثة رقيقة، وحسب.

قالت له، وهي تحدّق في قسماته المستسلمة بشهوة لأشعّة الشّمس التّي يقابلها بوجهه البيضاويّ: "قلتَ لي ما اسم المجموعة؟"

- "مكانٌ في المستحيل".
- "أيمكن أن يكون هذا المكان السّاحر هو المستحيل؟"
- "المستحيل يمكن أن يكون في أيّ مكان".
- "أيمكن أن يكون لقاؤنا مستحيلاً؟"
- "فقط عندما نفترق يصبح المستحيل بعينه، أمّا الآن فهو الحقيقة الأكيدة".
- "ألا يمكن أن يكون لقاؤنا بداية للقاء لا يعرف المستحيل؟"
- "لماذا تريدين أن ينتهي لقاؤنا بغير المستحيل؟"
- "لا أعرف، لكنّ هذه الشّمس، وهذه الأرض، وأنتَ ذكّرتموني جميعاً بشيء كدتُ أنساه".
- "ما هو ذلك الشّيء الذي ذكرناكِ به بعد أن كدتِ تنسيه؟"

- "ذكّرتموني بشهوة القصّة، بتُّ أحلم بسماع قصّة، كأنّي أميرة مسجونة في قارورة، وكلمة السرّ لإخراجها هي قصّة تفكّ سحرها، وتعيدها إلى سابق شأنها".

سألها بفضول: "أيّ القصص تعنين؟"

- "لا أعرف بالتّحدّيد، لكنّني أحلم بأن تقصّ عليّ في هذه اللّيلة بالذّات قصّة المستحيل التّي ستفكّ المستحيل، وتعيدني إلى سابق عهدي".

سأل بفضول، وهو يدير ظهره للشّمس، ويرنو إلى الظّلام لمتابعة الرّحلة إلى الفندق: "كيف كنتِ في سابق عهدكِ؟"

- "كنتُ بقلب لا يكفُّ عن القرع".

- "والآن؟"

- "أحلم بقلبي الأسطوريّ الذي تُقرع أجراسه في كلّ ليلةٍ".

- "يا لكِ من امرأة عذبة!"

وصلا إلى الفندق، وباتا فيه ليلة وثلاث وست في غرفتين متجاورتين، لم تفكّر أبداً فيها في دعوته لقراءة القصّة على مسمعها، ولم يجرؤ هو على تذكيرها بذلك، فلم يكن ملكاً للقصص، ولا قادراً على القراءة، على الرّغم من أنّه كان يحمل معه عدستين لاصقتين في مائهما اللّزج، ويحتاط بهما، لاستخدامهما عند الحاجة إذا كان لا بدّ له من أن يقرأ القصّة لها، شيء في داخله كان يتمنّى ذلك، وإن كان يخشى أن تكون القصّة آخر مطافهما، فعليها يعتمد فكّ سحرها أو دوامه، تمنّى لو أنّه قرأ قصص الدّنيا كلّها؛ لينتقي منها قصّة سحريّة تفكّ سحرها العجيب، تساءل ألف مرّة أيّ الكلمات هي التّي تحلم في أن يقولها، سأل نفسه لألف مرّة أيّ القصص تحلم في أن يسردها، عندما كان يتأمّل كلماتها

الرّقيقة، وولهها الشّديد في الطّبيعة والنّاس والحياة، كان يشعر بقنوط شديد، فأيّ القصص سترضي امرأة مثل هذه المرأة الفريدة المرهفة الرّقيقة؟

قضى معها أيّاماً ساحرة، زار معها كلّ شبر من أرض الشّمس، لم يسمع أبداً كلمة من كلمات الدّليل السّياحيّ الذي رافقهم في الرّحلة، بل وهب كامل اهتمامه وغاية سمعه لها هي، رأى أرض الشّمس بعينيها، أدرك الأماكن بانطباعاتها وتعليقاتها، شعر بحميميّة مع كلّ مكان بفضل شهقاتها وضحكاتها ولمساتها، أدركَ وقع ووجيب ونفس كلّ لحظة بحركة وانفعالات كفّ يدها الذي لم يفارقه للحظة واحده، بعينيه لم يرَ أيّ مكان، لكنّه رأى الأماكن كلّها بعينيها، لم تفته ومضة رمشٍ منها، فقد كان يرى بعينيها، يعمى عندما تصمت، ينبهر عندما تنبهر، يُعجب عندما تعجب، يتمنّى عندما تتمنّى، التقط لها عشرات الصّور بآلة التّصوير الخاصّة بها وفق إحساسه بها، وليس وفق رؤيته لها، فقد كانت تتحوّل إلى ظلام في عينيه بمجرّد ابتعادها عنه لأكثر من متر واحد، لحسن الحظّ أنّها ما كانت لتبتعد عنه أبداً إلاّ زمن التقاط صورة لها، وبخلاف ذلك، فقد كانت قرينته الإنسيّة التّي لا تفارقه أبداً.

جاءت اللّيلة الأخيرة في الفندق قبل العودة إلى الوطن، لم تقل أنّها ستزوره في غرفته، ولم يدعها إلى ذلك، لكنّه كان متأكّداً من أنّها ستأتي إليه حاملة معها المجموعة القصصيّة التّي احتفظت بها معها بناءً على رغبته لتطلب منه أن يقرأ لها القصّة القصيرة الطّويلة، كان بين نارين متأجّجتين توقدان مرجلاً ضخماً في رأسه المكتوي بحيرته، نار تكويه ببحثه المقدّس عن قصّة ترضيها، وتفكّ سحرها، ونار تدعوه إلى تحّسس كلّ قطعة أثاث في الغرفة بحثاً عن العلبة الطّبّيّة التّي يحتفظ بها بعدستي النّظر اللاّصقتين، قطع هزيعاً من اللّيل، وهو يحاول أن يطفئ ناريه، لكن دون فائدة؛ فلا هو اهتدى إلى قصّته المفقودة، ولا هو وجد

العلبة الطّبّيّة، وهكذا أصبح أعمى تماماً دون قصّته المنقـذة، شـعر أنّـه تعـس لا يعرف من أيّ الاتّجاهات سينقضّ عليه طـائر الـرّخّ؛ ليغـرز في جلـده القاسـي أظافره الحادّة، ويطير به بعيداً، إلى أرض الأحلام والتّمنّي.

"لكن أين ذهبت العلبـة الطّبّيّـة؟ وكيـف سـأتدبّر أمـوري دون العدسـتين اللاّصقتيْن؟" حدّث نفسه لأكثر من مرّة، ثمّ توجّه إلى الهاتف الذي أبصـره كتلـة غامقة متموّجة، رفع السّماعة، وأدار قرصه ليطلب حضور أيّ من خدم الغرف، لعلّه يساعده في إيجاد العلبة الطّبّيّة، لكنّ الطّرقات الرّقيقـة علـى البـاب، وأزيـز الباب الذي فُتح قبل أن يسأل الطّارق من يكـون؟ أو قبـل أن يطلـب دخولـه، جعلته يعيد السّماعة إلى مكانها، لقد كانت هي، جاءت في الموعد الـذي توقّعـه بحدسه، قالت له بفرح طفلة: "لقد أحضرتُ المجموعة القصصيّة معي، هل ستقرأ لي القصّة هذه اللّيلة؟"

ردّ عليها وقد سبقته تنهيدة لم يملك أن يمنعهـا: "بالتّأكيـد سـأفعل، أرجـوكِ تفضّلي بالجلوس".

- "أيمكنني أن أستلقي على السّرير؟ فأنـا أحـبّ أن أسمـع القصـص وأنـا مستلقية في السّرير".

قال لها بتحرّج واضح يعلوه قلق وفضول واضحين: "وهل اعتـدتِ علـى أن تُقصَّ عليكِ القصص في سريركِ؟"

- "أمّي فقط من كانت تفعل ذلك لي ".

- "إذن ستكون منافستي صعبة جدّاً".

- "بالتّأكيد، لأنّكَ لن تنافس قصص أمّي فقط، بل سـتنافس رجـال الـدّنيا كلّهم بقصّة واحدة".

قال لها بنبرة قلقة، وجفاف أجشّ قد تربّع في حلقه: "وماذا لو أنّ رجال الدّنيا حضروا في لحظات، وغابت كلماتي؟"

انتظر إجابتها بقلق، مدّتْ المجموعة القصصيّة إليه، وضربتْ صفحاً عن الإجابة، وقالت بسطوة سيّدة الدّهور التّي حفظت ملامح رجال الدّنيا كلّهم، وخبرت أجمل الحكايات معهم: "اقرأ لي القصّة".

- "لكنّها طويلة جدّاً".

- "أمامنا اللّيل كلّه".

- "ألن تملّي؟ "

- "ألن تدفعني إلى الملل؟"

- "أبداً".

- "إذن اقرأ".

تناول المجموعة القصصيّة بخشوع من يستلم رسالة من الكاهن الأعظم، قلّب صفحاتها بحركة من يطالع السطور، توقّف عند صفحة معيّنة غير منتقاه، نظر في عينيها اللّتين كانتا قريبتين منه حدّ التّآخي، وقال، سأقرأ لكِ قصّة بعنوان "أرض الحكايا".

- "كلّي آذانٌ صاغية لكَ، وقلب مصغٍ لكَ كذلك".

بدأ بقراءة القصّة، قلب الصّفحة تلو الأخرى، حدّثها عن رجل يحمل عشقاً عاتياً، حدّثها عن أرض الحكايا، حيث حكايا البشر جميعها معلّقة في أصداف شجريّة، كانت رحلة طويلة معنّاة التّي سردها على مسمعها حتّى وصل الرّجل إلى صدفته العجيبة، بتعويذة اشتراها بألف جوهرة فكّ طلسمها،

انفتحت الصّدفة، ودوّن فيها حكاية عمره، وجد فيها السّمراء ذات القسمات الأنثويّة المرسومة بعناية إلهيّة خاصّة، ... وكان اللّقاء، وكانا...

سرد الكلمات، كأنّه أمضى عمره ينقشها في قلبه، استولدها من ذهنه دون لحظة توقّف أو برهة تقهقر، كانت تتابع يديه المرتجفتين اللّتين تقلّبان أوراق القصّة بإشفاق عذب، تابعت بولهٍ عينيه اللّتين تتراقص فيهما دمعة لا تدركُ كنهها، وهو يسلمهما إلى سطور القصّة، يتابعها سطراً سطراً، ويحوّلها كلمات تنزل ندىً وسحراً على قلبها، فتفك إساره، وتطلقه حرّاً قويّاً عنيفاً، يدقّ لسارد القصّة دون رجال الدّنيا أجمعين، ألقت برأسها في حضنه الذي اتّسع لها وللمجموعة القصصيّة، وإن كان بها أحفى، وبوجدها أسعد، كلّ كلمة سمعتها منه جاءت منشولة من بئر أمنياتها، كما جاءت من عزيف قلبه، ومن دنيا حكاياه وأحلامه، لا من سطور القصّة التي ما كان يرى منها شيئاً، وإن كان يحسن التّمثيل ليجعلها تعتقد أنّه يقرأ ما خطّ فيها.

سريعاً طلع الفجر، بطيئاً طلع الفجر، لكنّه طلع، وانتهى اللّيل، وما انتهت الحكاية، مع أنّها انتهت منذ زمن طويل، حزما حقائبهما بتؤدة حالمة، وغادرا الفندق بكفّين متعاضدين، وبأحلام لم يُصرّح بها بعد صمت العيون، ونسيا المجموعة القصصيّة التّي حار خادم الغرف ماذا يفعل بها، قلّبها يمنةً وشمالاً، ثمّ حملها إلى المشرف المسؤول عنه ليسأله ماذا يفعل بها؟

قال المسؤول دون اهتمام: "أهو كتاب؟"

- "نعم، مكتوبٌ عليه (ميكانيكا آلات ثقيلة)".

- "أهو كتاب عن الميكانيكا؟"

- "أظنُّ ذلك".

- "لو كان قصّة لأغراني بأن أحتفظ به، لكن بما أنّه كتاب في الميكانيكا فـلا رغبة عندي في الاحتفاظ به".

- "إذن ماذا أفعل به؟"

- "ضعه في الأمانات مع العلبة الطّبّيّة التّي وجدتها في الغرفـة ذاتهـا لحـين عودة صاحبها، وسؤاله عنهما".

- "أتعتقد أنهّ سيعود".

قال المسؤول دون اهتمام، وهو يتناول الكتاب والعلبة الطّبّيّـة ليدسّـهما في خزانة الأمانات: "لا أظنّ ذلك".

صانع الأحلام

أراد أن يكون استثنائيّاً، أراد أن يملك الدّنيا في لحظات، تمنّى أن يملك الشّهقات والزّفرات والخلجات، أراد أن يقبض على الرّيح، وأن يطوّع الأمنيات، وأن يصنع الأحلام، تمنّى أن يغدو للحظة خارج القاعدة والسّائد، طردته المدرسة عندما صرّح برغباته هذه، ورقته أمّه بجلد ثعبان عندما سمعت كلامه الذي أسمته هذيان، وحصل على بعثة لدراسة الشّعوذة والسّحر في بلاد ما خلف البحر تقديراً لتفرّده، وتعاطفاً مع شخصيّته الفريدة، وأُنتدب ليمارس تعلّم وتعليم فنّ الإيحاء والتّحديّق والتّخاطر في أرض الثّلج، ثمّ عيّن محاضراً لعلم التّلبيثائيّ في أرقى جامعات الدّنيا، حيث تُعطى المحاضرات على سطح الماء، وتطفو المباني على قامات الزّبد، وتزرع الأشجار فوق بحيرات الزّئبق، هناك غُسل بماء الورد، وضُمّخ بالمسك، وغدا في سنوات قليلة عميد تلك الجامعة؛ فقد بهر جهابذة العلم بذكائه، وألجم الحاسدين -وقد كانوا كثراً- بإنجازه المبهر الذي سُجّل في سفر منجزات حضارة البشريّة، وجعله من الخالدين في تاريخ بلاد الثّلج، كيف ولا وقد استطاع أن يخترع تمتمات سحريّة وتموّجات مغناطيسيّة قادرة على الولوج بين العقل وإدراكه، وبين القلب وإحساسه، وبين الرّوح وخلجاتها، واستطاع باختراعه الفريد وبكلماته الاستثنائيّة أن يقلب تاريخ الأحلام، وأن يفتن العقول، وأن يصنع أحلاما قادرة على إنعاش النّفوس اليائسة، وبعث الأمل في الأرواح القانطة، وغدا الحلم على يديه صنعة فريدة يُبدع فيها، ويلقمها لحظة هانئة للبشريّة زائغة القلب والأمنيات، وغدا صانع الأحلام، الذي يملك الأحلام، ولا يملك الحقائق.

استثمر اسمه وعلاقاته العلميّة رفيعة المستوى كي يحصل على قروض ماليّة كبيرة، استغلّها جميعاً في بناء مصنع من قشور الورد، خصّصه لتصنيع الأحلام، شهدت أرض الصّقيع أكبر الحملات الدّعائيّة للتّرويج لأحلامه التّي تُصنع بفضل خبرته الاستثنائيّة، وإمكانيّاته الفريدة، وطاقته الرّوحيّة الجبّارة، في الأيّام الأولى من افتتاح مشروعه الطّريف، حصّل على آلاف الزّبائن وعلى الملايين من قطع الذّهب، لكنّ الأسابيع التّالية جاءت قاسمة لما بنى، مشتّتة لما جمع؛ فقد انقطع النّاس عن شراء أحلامه الورديّة التّي سكروا لأيّام طويلة في سحرها، وكادوا يدمنونها حدّ الموت.

اضطربت أحوال البلاد، وعمّ الكسل، وتخيّل كلّ إنسان أنّه أيّ شخص إلاّ نفسه، وغدت معضلة الإنسان الأولى هي أن يجد نفسه، وفي سبيل ذلك أضاع كلّ شيء. قال النّاس جميعهم: "لا للأحلام". قالوها بملء أفواههم، وبكامل إرادتهم، وانحازت الدّولة إلى صفّ إرادتهم، وحرّمت صناعة الأحلام، كما حرّمت المتاجرة بها، وعدّتها ضمن دستورها المعدّل حقّ طبيعيّ ومقدّس للإنسان، لا يجوز المساس به، أو المساومة عليه، وعمّت البلاد حملة توعية كبيرة تدعو إلى الأحلام الطّبيعيّة؛ لأنّها أصدق وأجمل وأدوم، وحُرّمت تجارة الأحلام للأبد، كما أُقفلت أسواق الأحلام السّوداء جميعها.

أُسقط في يدَيْ صانع الأحلام، وعاد من جديد عميداً لكليّةٍ ما في إحدى أعرق جامعات العالم، وأصبح من جديد لا يملك غير وظيفته التّي باتت مصدر رزقه الوحيد بعد أن أفلس تماماً، وبعد أن رتع في جيوب الدّيون، ليغدو مديناً عليه عشرات الالتزامات التّي ينوء دون تأديتها، فتجشّمت الهيئات العلميّة عبء سدّ جُلّ ديونه؛ تقديراً لعلمه ولموهبته الفريدة التّي هجرها هي الأخرى، ولجأ إلى تعاطي الأحلام الطّبيعيّة، وغدا حلمه الحقيقيّ الوحيد هو أن يعود إلى

أرض وطنه، حيث معلّموه الذين ما عرف يوماً طعم تشجيعهم، وحيث الأمّ التي حاق بها الجهل، وحيث الأصدقاء الذين يشبهون الأحلام بضبابيّة وجودهم.

تحقّق حلمه، وعاد إلى الوطن الذي قطع الطّريق إليه محتاراً أيّ الأيدي عليه أن يصافح أوّلاً؟ وأيّ دعوات العمل سيقبل؟ وأيّها سيرفض؟ وحضّر من باب الاحتياط كلمات الاعتذار التّي سيبث بها إلى الجهات التّي سيستثنيها من قائمة زيارته، فضلاً عن كلمة الشّكر التّي سيلقيها في أوّل مؤتمر صحفيّ سيُعقد له في أرض وطنه، ولأنّ خطّه غير واضح، وكثيراً ما تُلبس عليه بعض الحروف عند قراءتها، فقد قام بطباعة كلمته على الآلة الكاتبة بخطّ واضح عريض، كما استنسخ نسخاً من خطابه؛ ليعطيها للصّحفيّين الذين يفترض أنّهم سيحضرون المؤتمر الصّحفيّ الذي سيُعقد له.

في المطار لم يجد في انتظاره سوى أبيه وأخيه وزوجة أخيه ورهط من الشّباب قيل إنّهم حفدة وأنسباء للعائلة، في حين غابت أمّه التّي ابتلعها الموت، ولم يتوقّع بالطّبّع أن تحضر حبيبته التّي هجرها منذ دهر، فلا بدّ أنّها قد تزوّجت الآن، وأصبحت أمّ أبناء وبنين، بل لعلّها نسيت أنّها عرفته في يوم من الأيّام، وخلا الأقارب لم يحضر أحد، ولم يحضر صحفيون يمثّلون أيّ حكومة.

احتاج إلى أيّام ليدرك أنّ لا مكان له في بلده، ففي بلده لا يؤمنون أصلاً بالأحلام، بل إنّه قد سمع من مصادر موثوقة أنّ الأحلام ممنوعة في وطنه بقرار عسكريّ عرفيّ، لكنّه كان مصمّماً على أن يصنع أحلاماً في بلده، ولو كانت أحلاماً صناعيّة، لا تعرف لذّة النّوم، ولا نشوة التّمنّي، ولا احتراق الانتظار، ولا سعادة التّحقّق.

أحلامه كانت بقدر موهبته في صنعها، وإن لم تكن كافية لتوفّر له لقمة العيش، تدبّر أمره ابتداءً بصنع حلم الشّبع، ثمّ بصنع حلم ما لذّ وطاب من الأغذية، ثمّ غلب الجوع أحلامه، واضطرّ كاسفاً آسفاً إلى أن يطوّف على المؤسّسات الحكوميّة والخاصّة باحثاً عن فرصة عمل تتناسب وقدراته، وتكافئ مواهبه، وترضي طموحه، وترحمه من مدّ يده إلى أبيه العجوز ليشاركه تقاعده الزّهيد.

توقّع وظيفة حكوميّة مرموقة، ثمّ انتظر وظيفة مقبولة، ثمّ بات ينتظر أيّ وظيفة حتّى، ولو لم تكن في مجال تخصّصه. لكنّ الدّولة الحريصة على استثمار طاقتها البشريّة نزعت إلى وضعه في أخطر مناصبها، بل إنّها استحدثت من أجله منصباً خطيراً يتناسب وكفاءاته، ففي جوّ من السّرّيّة التّي تتناسب مع المرحلة الرّاهنة العالقة منذ عقود أخطرته شفويّاً على لسان أحد عملائها الموثوق بهم أنّها قد عيّنته على الدّرجة السّابعة بوظيفة صانع أحلام شعبيّة مع التّأكيد على حقّه في الحصول على مستحقّات هذه الرّتبة الرّفيعة التّي على رأسها التّأمين الصّحيّ في الدّرجة سبعين في المستشفيات الوطنيّة التّي تنافس في أسعارها أعلى معاقل الصّحة في العالم.

سعد صانع الأحلام بهذه الوظيفة إلى درجة أنّه أحسّ بذبحة صدريّة تلوح في الأفق، لكنّ سعادته عادت إلى نصابها، واستوت في سورتها عندما استلم مقاليد منصبه، وشرع في تأدية واجبه، ساءه في البداية أنّ عمله يزيد عن ساعات الدّوام الرّسميّة، لكنّه شعر بسعادة عظيمة عندما هُمس في أذنه بضرورة تلبية الواجب، لا سيما أنّ من همس في أذنيه كان يحمل سوطاً عتيداً، خال أنّه انقرض منذ زمن طويل، إذ لم يَرَ مثله منذ أن هجر كتاتيب بلده، وطار إلى البعيد.

في البداية ظنّ أنّ وظيفته حكر على قدراته وإمكانيّاته كما أُعلم سابقاً، وقد أسعده ذلك بمعنىً أو بآخر، بالتّحديد أشعره بنوع هزيل من التّفرّد الذي سرعان ما تلاشى عندما وجد الكثير من صانعي الأحلام يسبقونه في سلّم وظيفيّ وطنيّ طويل، وإن بقي تميّزه وإبداعه في عمله عزاءه الوحيد في كربه المحيق.

أعلى سلّم صناعة الأحلام كان حلمه، وبذل في سبيل ذلك الكثير من التّجارب والأبحاث، وخلص إلى نتيجة واحدة مفادها أنّ الأحلام تبقى أحلاماً، وأنّها ذات طبيعة إدمانيّة، تذوب في الدّم، وتغدو مكوّناً من مكوّناته، ثمّ سرعان ما تقتل، لذا فقد كتب في توصية سرّيّة للغاية وجدت طريقها إلى قاعات الاجتماعات السّرّيّة أنّ الأحلام هي الأفيون المخدّر الذي يحتاجه العوام، بل أكّد أنّ الحكومة ستثري على حساب الحالمين الذين سيّدفعون بسخاء مقابل شراء الأحلام، ولو باعوا جلودهم وعظامهم في سبيل ذلك.

الحكومة لم تكافئه على دراسته الخطيرة، وإن صرفت له أحلاماً كثيرة، ودعته بتوصية ردّت بها على توصيته الخطيرة أن يصنع لنفسه أحلاماً ملوّنة باذخة، إلا أنّه لم يعمل بتوصية الحكومة حرصاً على جهده، وضنّاً بهدر المال العام على أحلامه خاصّة لا تعني الشّعب الحالم، في حين صرّح مصدر ثرثار أنّ خزانة صانع الأحلام الشّعبيّة كانت تعجّ بالأحلام المسروقة.

امتلأت البلاد بالأحلام المصنوعة ذات الملمس النّاعم، والجرعة المخدّرة، والرّائحة المنعشة، افتُتن بها العامّة، وجعلوها منتجاً وطنيّاً، هتفوا باسمه في المظاهرات والاحتجاجات ومسيرات الولاء والتّأييد، وباتوا لا يفرّقون تماماً إن كانت أحلامهم المصنوعة حقيقة؟ أم الحقيقة هي أحلامهم؟ ثم خلصوا في النّهاية إلى أنّ الأمرين سواء.

أمّا صانع الأحلام الذي تقاعد دون أن يتجاوز الدّرجة السّابعة بعد رحلة قيل في إحدى الصّحف الوطنيّة أنّها حافلة بالعطاء والتّضحية والإخلاص، فقد استثمر كلّ ما بقي من همّته وطموحه ونبوغه، وكانت في المحصّلة قليلة لا تكفي لتحريك دولاب عربة قديمة، في صنع حلم ورديّ يجعله يحلم بأنّه ليس صانع أحلام؛ ليسعد ولو مرّة واحدةً بنوم هانئ طويل، يذوق فيه طعم حلم طبيعيّ، وعندما تعذّر عليه ذلك قبل مكرهاً وبناء على المصلحة الوطنيّة كما أُعلم بكتاب حكوميّ شديد اللّهجة بحلم مزيّف، أدمنه سريعاً، وأنساه أنّه قد كان في يوم من الأيّام قادراً على الحلم، شأنه في ذلك شأن شعوب من الحالمين.

آنسة قطّة

السّاعة العاشرة مساء هو وقت مشاهدة مسلسلها التّلفزيونيّ المفضّل الذي اعتادت على أن تشاهده منذ أن كانت طفلة، في الماضي كانت مستعدّة لإلغاء أيّ التزام من التزامات اللّعب مع الأطفال وتأدية واجباتها المدرسيّة لمتابعة حلقاته الواحدة تلو الأخرى، لكن منذ أن كبرت، ومنذ أن توقّف عرض حلقات جديدة من مسلسلها المفضّل، عمدت إلى شراء حلقاته الكرتونيّة كاملة، واعتادت على أن تعيد مشاهدتها حلقة إثر حلقة على أيّام، وقد تحابي نفسها إذا كانت في حالة نفسيّة مثبطة، أو غير قادرة على انتظار يوم آخر لتتابع إحدى المواقف المفصليّة الحادّة والمثيرة في برنامجها الكرتونيّ الذي تحفظه عن ظهر قلب، فتحضر حلقتيْن من حلقاته بدل واحدة، فهي لا تفتأ تُثار وتُستفزّ وتجهش ببكاء مرير كلّما شاهدت تلك المواقف المتأزّمة والمحزنة التّي يمرّ أبطال مسلسلها الكرتونيّ المثير فيها.

تنهي عملها الشّاق، تقوم بآخر مراسلاتها الإليكترونيّة، قد تعرّج على بعض الأصدقاء، وقد تتناول العشاء مع بعضهم، وأحياناً قد تكون عضواً رئيساً في محاولة للإيقاع بجسدها في أتون الجنس بحجّة الحبّ واللّقاء الأعظم، لكنّها تتجاوز ذلك كلّه، وتضرب صفحاً عنه، وتعود إلى بيتها تحمل الكثير من الأوراق التّي ما تزال في حاجة إلى إلقاء نظرة عليها، وكيساً ورقيّاً كبيراً، يحمل الكثير من المثلّجات الغازيّة، والمكسّرات المحمّصة، وبعض الفاكهة التّي لا تحبّها، لكنّها تدّخرها لضيف عابر، أو لقريب قد يعرّج عليها، وإن كانت تعلم أنّ ذلك قليل ما يحدث، للدّقة هي لا تكاد تتذكّر متى حدثت زيارة كهذه آخر مرّة.

تدلف إلى بيتها على رؤوس أصابعها التّي تعاني من التّنفّخ بعد يوم عمل طويل وشاقّ، تلبس طواله حذاء كلاسيكيّاً يناسب لباس عملها الرّسميّ حيث تقابل أرفع الشّخصيّات السّياسيّة والأدبيّة وأبرزها، تخلع حذاءها بصعوبة، تطوّح بحقيبة يدها لترسو على أقرب أريكة، تخلع معطفها ذا الماركة الإيطاليّة الفاخرة، تمدّ يدها إلى الحائط حيث القواطع الكهربائيّة، تدوس عليها بأناملها المحمرّة، فتضيء أنوار الصّالة وغرفة المعيشة.

تأخذ حمّامها سريعاً، تحضّر طعام العشاء الذي غالباً ما يتكوّن من الشّطائر والبوظة المطعّمة بالمكسّرات، تخفّض من صوت موسيقى الكاريبي التّي تكرهها أمّها في حين تعشق الموسيقى الفلكلوريّة الوطنيّة والأهازيج الشّعبيّة، تأكل طعامها على عجل لتتابع مسلسلها الكرتونيّ المسجّل على أشرطة الفيديو، تستعجل أمّها أكثر من مرّة لتشاركها طعام العشاء الذي كادت تنهيه، تغسل يديها، وترفع أطباق الطّعام، تكدّسها في حوض الغسيل، وتُأمّل نفسها بغسلها غداً، تطفئ ضوء المطبخ، وتتّجه إلى غرفة المعيشة، وهي تحمل كأس مثلّجات كبير، تتربّع على أريكتها المفضّلة قبالة التّلفاز مباشرة بعد أن تدُسّ شريط الفيديو في جهاز العرض، تمسك بالمتّحكّم الإليكترونيّ، وتبدأ بمشاهدة مسلسلها المفضّل الذي تشعر أنّ روحاً سعيدة تسكنها كلّما جلست تتابعه، في لحظات تغدو طفلة جذلى، تتمدّد على بطنها أمام التّلفاز، وترقّص قدميها في الهواء، وتلاحق بلعق لسانها سيل البوظة المنزلقة ذائبة على جنبات مخروط البسكويت.

من جديد تجهر بصوتها داعية أمّها وأُختيها لمشاركتها متابعة برنامجها، مع أنّها تعلم أنّ أُختيها قد ملّتا تماماً من مشاهدة الحلقات المعادة، في حين أنّ أمّها ليست من هواة برامج الأطفال المتحرّكة؛ فهي من أنصار مسلسلات الدّراما العربيّة، ترقّص جسدها بوتيرة هادئة، وعيناها جاحظتان تتابعان باهتمام أبطالها

الكرتونيين، ومن وقت إلى آخر تستعجل أمّها بنبرة طفوليّة لحوحة لا تخلو من تضجّر وتأفّف في طقوس لاهية ما تبدّلت أبداً.

كلّ شيء في حياتها قد تغيّر، جلّه تغيّر إلى الأفضل، وبعضه أورثها انكسارات ما عرفت لها جبراً، تبدّلت طقوس حياتها، ولعلّها تغيّرت هي أيضاً إلاّ طقوس مشاهدة مسلسلها التّي ماعرفت تبدّلاً أو تحوّلاً منذ كانت طفلة، اعتادت على أن تتابع بطل مسلسلها الوسيم الشّهم الذي يشقّ أيّام حياته، ويضني نفسه في مساعدة الآخرين، وفي ملاحقة الشّرّير الذي خطف حبيبته التّي لم تُعرض صورتها ولو مرّة واحدة في حلقات المسلسل الذي كان ينتهي دائماً نهاية مأساويّة تفطر قلبها، فبطلها الوسيم ينتهي صريعاً أمام البرج الذي تسكنه حبيبته دون أن يراها، لتستغرق هي في بكائيّة حزينة اعتادتها، وكادت تدمنها.

اللّيلة ستشاهد الحلقة الأخيرة من مسلسلها، كم تشعر بالتّوتّر كلّما حان دور متابعة هذه الحلقة! ارتعدت فرائسها وهي تحدّق في عيني البطل البنفسجيّتين السّائحتيْن في حزن عميق، بطلها مزيج من رجل وسيم وقطّ أشهل، له وجه وقامة رجل، وعينا قطّ وأذناه، وذيل مشعوعر كثيف يطوّح في الهواء، وبزّة كلاسيكيّة يعلوها رداء أسود عليه رسم قطّ أحمر، قامته القويّة ذات القوائم الصّلبة سرّ قوّته فضلاً عن قفزاته الرّشيقة، ومخالبه القططيّة الجارحة.

كان بطلها القطّ من ضمن خططها الطّفوليّة في الماضي، كانت تتخيّل أنّها ستغدو سيّدة مجتمع ناجحة، وأنّها ستدرس في إحدى الجامعات الحكوميّة التّي بالكاد تستطيع والدتها الأرملة أن تحتمل نفقاتها، و-دون شكّ- أنّها ستلمع في مجال الحسابات الإداريّة التّي أبدتْ ذكاء وألمحيّة فيها منذ كانت صغيرة، و-دون شكّ- أنّها ستغدو يوماً مديرة بورصة عالميّة، وسيظهر بطلها القطّ حيّاً حقيقيّاً في

حياتها، سيُجنّ بحبّها، وسينظم في جمالها أشعاراً خالدة، تسجّل اسميهما في سِفْر الحبّ العظم.

كبرت، وتحقّقت أحلامها بمعنىً أو بآخر إلاّ الحبّ، فقد كانت تعسة متعثّرة فيه، فكلّما أحبّت رجلاً زهد بها، ولم يحبّها، وكلّما أحبّها رجل زهدت به، ولم تحبّه، وبذلك عرفت الحبّ عشرات المرّات، ولم تصدف الحبيب، وبقيتْ تحلم بالفتى القطّ الذي يتقن فنون الحبّ والفروسيّة، عشرون عاماً مضت، وهي متسمّرة في مكانها تردّد كلّ ليلة سيرة حبيبها القطّ المنتظر.

في الحلقة الأخيرة من المسلسل الكرتونيّ يحتفل البطل القطّ بعيد ميلاد حبيبته المخطوفة، هذه المرّة الأولى التّي تصدف الحلقة الأخيرة عيد ميلادها، تذكّرت أنّ أحداً اليوم لم يتّصل ليقول لها كلّ عام وأنتِ بخير، قدّرت أنّ أمّها لا بدّ أنّها قد صنعت لها كعكة شهيّة مثل التّي اعتادت على أن تصنعها لها في عيد ميلادها، ولعلّ أُختيها أيضاً ادّخرتا لها هديّة ما.

لكنّها تتمنّى لو أنّها تقضي عيد ميلادها مع حبيبها القطّ الذي تعلم أنّه سيهلك دون حبّه في نهاية هذه الحلقة، تتنهّد، وتقول في نفسها: "أتمنّى أن تكون هديّة عيد ميلادي ساعات فرح وحبّ مع بطلي القطّ، أتمنّى ذلك من عميق قلبي".

نور ورديّ يغشى المكان، جلبة ملوّنة تمتدّ لولبيّة لامعة، تحتويها سريعاً، ثمّ تجذبها إلى شاشة التّلفاز، تخترقه سريعاً بانزلاقة نوريّة سلسة، ثم تجد نفسها في عالم مسلسلها التّلفزيونيّ، ظلال وارفة ورديّة في المكان، الأرض هشّة مثل قطعة بسكوت، والأجواء تُخترق بحركة يد، كلّ شيء ملوّن يتحوّل عند لمسه إلى نقطة لونيّة، وفي البعيد قلعة كبيرة ذات أسوار حجريّة قديمة، مرسومة بدقّة، وتحت

شجرة الطّرنج الأسطوريّة يتمدّد حبيبها القطّ، يعالج كلوماً قاتلة، تهرول راكضة إليه، يعيقها الثّوب الكلاسيكيّ الملوّن الجميل الذي تلبسه، والحذاء الزّجاجيّ الذي يظهر مخالب قدميها، تطالع مخالب يديها بسرور؛ فمن دواعي سرورها أن تصبح قطّة عاشقة، ذيلها المشعوعر الكثيف يتأرجح يمنة ويسرة وهي تركض.

تنحني بالقرب من حبيبها المكلوم، توسّد رأسه في حضنها، تداعب وجنتيه، تأخذ بلعق جراحه بلسانها الأحمر اللّزج، يتقارب الجلد المتفسّخ، وتبرأ الجراح المتعفّنة، يلفح نسيمٌ ذهبيّ معطّر المكان، يتطاير شعر الرّجل القطّ، ويتهاوى على وجنتيه، يفتح عينيه، يطالعه وجهها الجميل، يبتسم، ويقول: "أين أنا؟"

تقول له بنبرة من حفظ دوره السّينمائيّ عن ظهر قلب: "أنتَ معي".

يقول باستغراب واضح: "لكن كان من المفترض أن أموت، أليست هذه هي الحلقة الأخيرة من المسلسل الكرتونيّ"؟"

- "كان من المفترض أن يحدث ذلك، لكنّني جئتُ كي أنقذكّ".
- "ماذا عن موتي؟"
- "لن تموت، بل ستكون حبيبي".
- "لكن من داوى جراحي؟"
- "أنا من فعل ذلك".
- "أيعني هذا أنّنا عالقان في هذا المسلسل؟"
- "أظنّ ذلك".
- "ألن تغادري، وتتركيني؟"

- "أبداً".

- "حلمتُ دائماً بلقياكِ..."

- "أنا انتظرتكَ طويلاً..."

- "ما اسمكِ يا جميلة؟"

- "سمّني ما تشاء..."

- "ما رأيكِ باسم ميمو الشّقيّة؟"

- "يبدو اسماً مثيراً، ويوافق اسم نيمو الشّجاع".

- "أنتِ تملكين أجمل عينين بنفسجيّتين رسمتهما يدي فنّان، كما أنّكِ تملكين ذيلاً مشعوعراً كثيفاً مثيراً للغاية".

- "أيعجبكَ؟"

- "أكثر ممّا تتصوّرين، إذن أنتَ حبيبتي المسجونة في القلعة التّي قطعتُ أربعين حلقة كي أنقذها".

- "تستطيع أن تقول ذلك..."

- "هل يمكنكِ أن ترافقيني إلى بيتي؟"

- "لكنّ بيتكَ موجود في الحلقة السّابقة".

- "ما المشكلة في ذلك؟"

- "انتقالنا إليه يعني أنّنا يجب أن نضع شريط الحلقة السّابقة".

- "نضعه أين؟"

- "لا عليك ممّا قلت".

- "أتحبّين أن نتمشّى سويّاً بالقرب من جندول السّعادة؟"

- "بالطّبع..."

- "أستطيع أن أحملكِ إن شئتِ".

- "يسعدني أن تفعل ذلك".

يحملها، ويقطع بها البساتين حتّى يصلا إلى جندول السّعادة، يستقلّ معها قارباً خشبيّاً، يجدّف بهدوء، القارب يتهادى على صفحات الماء الزّرقاء، سطحها الرائق يشفّ عن عالم رائع من الأسماك والمرجان البلّوريّ والمخلوقات النّهريّة الصّغيرة، يحدّثها بآلاف القصص، يجدّف، ويجدّف، حتّى يصلا إلى تخوم الحلقة، حائطٌ أسود صلد يصطدمان به، يسكنها خوف كبير، تطوّق رقبته بذراعيها، يقول لها: "لا تخافي، لكنّنا وصلنا إلى آخر الحلقة".

تسأله بتوتّر: " ما الحلّ لهذه المشكلة؟"

يقول بحزن كسير: "لا حلّ لهذه المشكلة، ليس أمامنا إلاّ أن نستسلم إلى قدرنا".

تقول بتوثّب قطّة مشاكسة: "هذا لن يكون، سأبذل المستحيل لنبقى سويّاً، سأنفق مدّخراتي كلّها لإنتاج حلقات جديدة من مسلسلكَ هذا، لن نفترق أبداً، سأكلّف الرّسامين برسم نهاية رائعة لنحيا فيها بسعادة، لن أسمح لأيّ قوّة مهما عُظمت أن تفرّقنا".

يسألها بانكسار: "أتعنين أنّكِ ستعودين إليّ من جديد؟"

- "بالتّأكيد. ثق بي".

- "أنا أحبّكِ".

- "أنا كذلك، لن أسمح لقوّة أن تحرمني من حبّكَ الذي أنفقتُ الانتظار في انتظاره".

- "أنتِ من وهبني الحياة من جديد، أنتِ قوّتي السّحريّة".

- "أنا أحبّكَ، أحبّكَ، أحبّكَ".

يزداد السّواد، ويعلو صوت جريان شريط الفيديو حتّى يعلق في النّهاية، يبتلع السّواد البطل، وتختفي الألوان كلّها، تشعر بأنّها تهوي من علٍ في سديم أسود مظلم، تصرخ برعب، ثمّ تستيقظ هلعى، تمسح وجهها بكفّيها، تطالع السّاعة التّي تملأ المكان بصوت مسير عقاربها، تحرّك قدميها المتيبستين من نوم طويل، تنتصب بصعوبة، أشعّة الشّمس الشّتويّة تتسلّل من خلف السّتارة، وتزعج بصرها، فتشيح بوجهها مبتعدة، تلبس حذاءها البيتيّ الرّقيق، وتتّجه إلى الحمّام لتأخذ حمّاماً بارداً منعشاً، تعرّج على المطبخ؛ لتشرب كأس ماء تجلو به جفاف حلقها واضطراب أنفاسها.

بعد الحمّام تلبس ملابسها الرّسميّة، تكاد تزعق طالبة أمّها كي تسألها عن رأيها في ما تلبس، تتذكّر بصعوبة أنّ أمّها لن تلبّي أبداً طلبها، فقد توفّيت منذ سنوات، وتركتها وحيدة تعالج أحزاناً لا تنتهي، وذكريات لا ترحل، لا سيما بعد أن تزوّجت أختاها، وسافرتا بعيداً، وانقطعت أخبارهما عنها إلاّ من رسائل قليلة ترسلانها من حين إلى آخر.

مشّطت شعرها المسترسل على عجل، داعب حلم اللّيلة السّابقة ذاكرتها، ابتسمت منتشية، في المرآة رصدت لمعاناً غريباً في عينيها، عدّلتْ بقلمها بعض برامجها اليوميّة التّي كتبتها في سجلّ يوميّ صغير كي لا تنساها، كان شريط الحلقة الأخيرة من مسلسلها المفضّل ما يزال على منضدة غرفة المعيشة، دسّته

بجذر في بيته الورقيّ، ووضعته في مكانه على رفّ أشرطة الفيديو، سجّلت على ورقة مستقلّة اسم وعنوان ورقم هاتف ناشر هذا المسلسل نقلاً عن غلاف الشّريط الإلكترونيّ، ابتسمت من تلك الفكرة المجنونة التّي مرّت في خاطرها، وحوقلتْ غير مصدّقة أنّها تنوي إنتاج حلقات جديدة من مسلسل "نيمو الشّجاع"، لكنّها عزّت نفسها بعائد الرّبح الكبير الذي سوف تجنيه من إنتاج مسلسل كهذا، فهي ما زالت تذكر النّجاح الجماهيريّ الكبير الذي لاقاه عندما عُرض لأوّل مرّة منذ سنوات طويلة.

دسّت الورقة في حقيبتها، ألقت نظرة أخيرة عجلى على هندامها في مرآة الرّدهة المؤدّية إلى باب الشّقة، فتحت الباب بمفتاحها المنضود ضمن مفاتيح كثيرة في ميدالية فضيّة محفور عليها رأس قطّ، تنفّست بعمق، أغلقت الباب وذيلها المشعوعر الكثيف يتحرّك يمنة ويسرة.

الضّفّة الأخرى

لا يذكر كيف كانت البداية، ومن يذكرها؟ بل من يستطيع أن يجزم بأنّها كانت البداية؟ في هذا المكان يستشعر أطواق النّهاية تحاصره، تعصر أمانيه، تمضغه بضعفه واستعطافاته، وتلفظه في النّسيان.

كان يشعر بشوق وبنشوى، ومن يستطيع أنّ ينكرهما؟ الشّقاء هو الحقيقة الوحيدة في هذا المكان، الأشياء كلّها بطعم هذه الضّفّة وبلونها، كلّها تحمل الرّتابة، وتشيع في نفسه القرف، والتّوق إلى السّعادة إلى الضّفّة الأخرى حيث الحلم.

مثل القصص كلّها، وعلى منوال الحكايات جميعها التّي سمعها، والتّي قرأها كانت قصّته، بل كانت قصّة كلّ أولئك الذين يراهم على مدّ بصره على هذه الضّفّة، بعضهم يكبرونه سناً، والبعض الآخر أصغر منه سنّاً، نساء ورجال، أصدقاء ومتعادون، جادّون ومتعبون، كلّهم ينبضون بروح الخلاص وأمل الوصول إلى الضّفّة الأخرى.

لا يعرف كثيراً عن متاع الحياة، المكان الذي جاء منه نسيه تماماً، بل لا يكاد يذكر أنّه قد جاء من مكان ما أصلاً، لكنّ الذين هنا جميعهم جاؤوا من البعيد، ولعلّه مثلهم، فلا أحد يُولد هنا، لا أحد يُولد على ضفّة الانتظار، لكنّ الكثيرين يموتون عليها، لا يذكر له اسماً ولا وطناً ولا أمنية، لا يذكر إلاّ ما هو في صدده الآن.

لم يبرّ بوالدين، ولم يزرع أبناء، ولم يحضن زوجة، ولم يذق جمال الانصهار في جسد آخر، في بعض الأحيان يحلم بجسد غضّ ينصهر فيه حتىّ يعتصر آهاته،

لكنّه ما يبرح أن يضنّ بنفسه على نساء هذه الضّفّة، في الضّفّة الأخرى سيكون له وقفة طويلة مع نساء ذلك العالم المختفي هناك.

قبل زمن لا يعرف له مقدار، فلا ساعة ولا زمن ينتظمان الشّوق والانتظار في هذا المكان، عرف امرأة سمراء على هذه الضّفّة، الآن هو لا يذكر لها اسماً، لعلّه لم يُعنّ نفسه بالسّؤال عن اسمها أصلاً، لكنّه أحبّها، كان يجزم بأنّه سيتزوجها في الضّفّة الأخرى، كانت تعرف الكثير عن الأسماء والتّواريخ والعوالم وسير الأبطال ونهايات الثّورات، كلّها قصص حزينة، لكنّه أحبّها، أحبّ القصص أم المرأة؟ لعلّه أحبّ كليهما.

حلم وإيّاها طويلاً وطويلاً بالضّفّة الأخرى، حيث السّعادة والأمان والشّباب والحبّ، اتّفقا على أنّ ينجبا الكثير من الأبناء، وأن ينعما بكلّ لحظة في ذلك العالم، كانت تشتعل بذلك الحلم، وتتدفّق به، لكنّ ذلك النّهر الكبير المتلاطم الذي يفصله عن الضّفّة الأخرى ابتلعها بتوحّش، وهي تحاول أن تجتازه سباحة، شأنها في ذلك شأن الكثير ممن حاولوا اجتيازه.

فكّر بأنّ يحزن عليها، لكنّه كان قد نسي كيف يحزن البشر، وعندما حدّق في النّهر الأسود الكبير الذي يبتلع البشر دون رحمة، ولا يلفظهم، بل يمتصّهم كما يمتصّ أحلامهم وأشواقهم، شعر بجبروته، فخشيه، حتّى أنّه نظم طاقة من الأشواق البريّة التّي تنغرز أشواكها دون رحمة في زهور ورديّة كبيرة، وقدمها احتراماً وإجلالاً إلى هذا النّهر المتدفّق في ظهر الزّمن، وعاد إلى بيته القشّيّ وقد نسي تماماً أنّه كان قد قابل تلك السّمراء الغريقة في يوم من الأيّام، وعندما لمح صوت ضحكتها العذبة في أذنيه من عبق الماضي القريب تساءل من تكون؟ ثم هزّ كتفيه دون مبالاة، وقصد مضّجعه الخشن.

في مساء ذلك اليوم سمع أصوات نساء الضّفّة الأخرى، كانت أجسادهنّ كأنّها قطع اللّيلك، ضحكاتهنّ سعيدة، يشاطرن الرّجال الذين معهم الضّحك والسّعادة والحبّ.

أمضى ساعات وساعات ينقش على ورق البرديّ ما يتوقّع أنّ يجده من ملذّات في تلك الضّفّة، اللّغة هي الشّيء الوحيد الذي يذكر أنّه تعلمها.

أمضى زمناً طويلاً لا يعرف له مقداراً أو اسماً يدوّن ملذّات تلك الضّفّة، وصف سعادة لا تنتهي، وأشواقاً تُروى، وشباباً يتجدّد، جال في أراضٍ من الخير، وسماء دافئة، وعاشر نساء خُلقن من الجمال، وخالط رجالاً دستورهم الوفاء، باختصار كانت النّساء من مرمر، والرّجال من زبرجد، والأرض تفيض لبناً وعسلاً. كتب، وكتب، وكتب عن ذلك العالم حتّى انبرت أصابعه، ووهن عظمه.

كلّما شعر بالتّعب يمتدّ إليه كان يرسل بصره إلى تلك الضّفّة، فيرى السّعادة تنتظره، الكلّ هناك نساء ورجال ينتظرونه على الشّاطىء المنتظر.

قرأ النّاس على الضّفّة التّي هو عليها ما كتب المرّة تلو الأخرى، وردّدوه آلاف المرّات حتّى حفظتْ الضّفّة والأشجار وحجار الأرض ما قالوا، أصبح ما كتب دستورهم، وأصبح هو رسولهم، وبات هو المخلّص المرتجى، وصاحب الحظوة العظمى.

عندما جاء الوقت المنتظر ألقى الجميع بأنفسهم في الماء، أعلنوا ثورة على النّهر الذي لا يرحم، قرّروا أنّ يكسروا جبروته، وأن يحطّموا ظلمه، بصيحة رجل واحد، كانوا جميعاً أجساداً غاضبة تحاربه، وتخوض غماره، والنّهر لا يرحم، ثار على وقاحتهم، ابتلع أكثرهم، ولفظ بعضهم، قليل هم منْ نجوا من سواده الذي لا يعرف نهاية.

عندما وصل الرّسول إلى الضّفّة الأخرى كان ممتقعاً بالتّعب والوهن حدّ التّلاشي، وكانت فرحته لا تعرف حدّاً، كان نبياً قد صدق وعده، وقاد قومه إلى الخلاص الذي يرتجيه، قليل من أتباعه كان قد نجا، وقف بصعوبة، ثمّ أخذ يقفز فرحاً بوصوله إلى جنّته، أدار نظرات عجلى في المكان، تراءى له أنّه في الضّفّة التّي جاء منها، لكنّ البحر على يمين الضّفّة، وهذا يعني أنّه على الضّفّة الأخرى، بدليل أنّ الضّفّة الأولى كان النّهر على يسارها.

الوجوه هنا بقسمات مختلفة، لكنّها تحمل الأمنيّة نفسها، وهي قطع النّهر والوصول إلى الضّفّة الأخرى، تحلّقت الوجوه بأجسادها المتعبة حوله، حاصرته بآلاف الأسئلة حول الضّفّة الأخرى، صعق لأنّ أجساد النّساء لم تكن من مرمر، ولا أجساد الرّجال من زبرجد، ولم تكن الأرض تفيض لبناً وعسلاً، وكانت الحيوانات مفترسة وكاسرة كما هي على الضّفّة الأولى، والبشر يتابعون بحرقة أملهم المرجوّ في الضّفّة الأخرى.

استقبل النّهر بوجهه الكسيف، شعر بأنّه يسخر منه، عرف أيّ نبيّ مدعٍ كان هو، تحسّس جسده الذي أحرقته السّنون، شَعْر لحيته الأبيض لاح في وجهه، تراءى هدير النّهر في أذنيه ضحكات سخرية مريرة، حدّق في الوجوه المرسومة بقسمات الرّجاء، تنهّد على مضض وقال لهم: "الضّفّة الأخرى مثل هذه تماماً، لكنّك قد تدفع عمرك ثمناً لتعرف ذلك".

جلس بانكسار على تخوم ضفته الجديدة الحلم، وأخذ يراقب الضّفّة الأولى من جديد، حيث النّساء من مرمر، والرّجال من عسجد، والأرض تفيض لبناً وعسلا، فكّر بأنّ يصبح نبيّاً مرّة أخرى، لكنّ الباقي من العمر كان لا يكفي لذلك.

صداع قلب

كلماتها الحوشيّة الغريبة المختلطة بكلمات عديمة المعنى تملأ الحيّ من جديد، صراخها وزعيقها اللّذان ينطلقان مثل زامور صدأ لأتفه الأسباب يملآن الحيّ وفق عادتهما التّي تكاد تكون يوميّة، يتقلّب في فراشه مراراً، يدفن رأسه تحت دثاره، ثمّ تحت وسادته، لكن دون فائدة، فصوتها يتنزّى من كلّ مكان، ويحاصر رأسه، ويصيبه بداء مجنون اسمه صداع الصّباح، يعتدل كالممسوس في فراشه الغائر به، يحاصر شعره وأعلى جمجمته بيديه اللّتين تشدّان بعصبيّة على الألم الذي يهاجم رأسه؛ فالحياة لم تعد تطاق معها، العمل طوال اللّيل في مناوبات ليليّة مجهدة، ومن ثمّ صوتها طوال ساعات الرّاحة النّهاريّة أصبح جحيماً لا يطاق.

لعن الدّلال أبا سامي الذي ساقه إلى هذا المكان، فقد خدعه مرّة عندما أقنعه بالسّكنى في مكان يفوق طاقته الماديّة، ومن ثمّ خدعه ثانية عندما جعله يدفع في شقّته الصّغيرة التّي تبدو مثل علبة كرتون حلوى رخيصة أجراً يفوق ما تستحقّه، لكنّ ذلك كلّه يهون لو أنّه كان يحصّل متعة النّوم التّي باتت متعة ورفاهية غائبة بسبب جارته اللّعينة التّي تعشق المشاجرات والزّعيق حدّ الإزهاق، يخال أحياناً إنّها تحيا وتقتات بهذه المشاجرات، وأنّها ستغدو لو حُرمت منها فاقدة لأجمل خطوط وجودها التّي لا تكتمل إلاّ إذا نكّدت عيش جيرانها، ونغّصتْ حياتهم.

عندها تنوّعُ في أسباب المشاجرات وحيثيّاتها وشخوص المُتشاجر معهم، لكنّها تحافظ على سيناريو واحد، فالمشكلة تبدأ بزعيقها وندبها، وتتفاقم عندما

تبدأ بتوزيع الشّتائم والتّهم والسّباب وأقذع الوصوفات والتّلميحات، ثمّ تتأزّم عندما تبدأ بالتّصريح، ورجم المحصنات، والتّشكيك بالأنساب.

تَضْرب غالباً، وتُضْرب نادراً، ثمّ تنهي برنامجها المعتاد في قسم شرطة العاصمة، ثمّ تجرّ أحدهم أو إحداهنّ إليه، وتفتح ملفّ شكوى جديدة، وفي اليوم التّالي، تتنازل عن الشّكوى، وتقبل بالصّلح، وكان الله بالسّرّ عليم.

في البداية كان ينفجر ضاحكاً ضارباً كفّاً بكفّ، وهازّاً منكبيه حدَّ الانكفاء على ظهره كلّما سمع قصّة من قصصها، أو كلّما شكى له أحد من أفعالها ومن أخلاقها السّيّئة، لكن ما إن اعتاد على صراخها وفوضاها حتّى أصبح من أشدّ المتبرّمين بوجودها، فقد منعته النّوم بمشاكلها واحتجاجاتها، وأساءت إلى مظهره كلّما جاءه ضيف لزيارته، فوجدها تنبح في الحيّ دون توقّف، تنتصب بجسدها البرونزيّ الجميل، وتتمايل بتشنّجات وإيماءات وإشارات فاضحة، ثمّ تصفق كفّاً على كفّ، وتبدأ في بثّ برنامجها اليوميّ الذي فكّر يوماً في إفراد جزء من وقته لرصد كلماته البذيئة وتعابيره الساقطة، وتلميحاته الفاحشة، فلا بدّ أنّها تملك - دون منازع- قاموس ألفاظ البذاءة كلّها، والحقيقة إنّ خياله الذي غُذّي بأرقى روايات الأدب العالميّ، وصُقل بعيون الشّعر العربيّ والإنجليزيّ الذي يتقنه لغة أمّ ثانية قد عجز عن أن يجعله يتصوّر امرأة مزيج من الأنوثة المتوّحشة والبذاءة المقزّزة، والوقاحة المتناهية، فضلاً عن الوقوع في دائرة الاستفزاز بشكل دائم، كما أنّه حال دون أن يسمح له بتصوّر أنّ امرأة غجريّة سيّئة السّمعة تتعاطى الاستجداء عملاً تعتاش منه تكون جارة له يوماً ما.

تخيّلها غجريّة سمينة بملابس مهترئة تفوح برائحة القذارة والتّعرّق، ذات جسد مترهّل يصرّح بجرأة عن نفسه، وأقدام متشقّقة الكعاب، هذا التّصوّر يلائم تماماً زعيقها الذي خلق في رأسه صداعاً لا يفارقه، مع أنّه كان قد لمح جسدها

الجميل أكثر من مرّة من بعيد، وهو يستقلّ سيّارته منطلقاً إلى عمله، لكن كان يسعده أن ينتقم منها، ولو حتّى بخياله الذي يُعمله لتشويه شكلها، والتّنديد ببشاعة وجودها، وقرّر أن يكتشفها، وأن يتبع صوتها النّحاسيّ الحادّ، لعلّه يقتلها، ويعود إلى فراشه هانئاً سعيداً.

كان قد حزم أمره هذه المرّة، نعم، قرّر أن يتوجّه إليها، وأن يقف قبالتها تماماً، وأن يصفعها على مرأىً من الجميع، لعلّها تخرس إلى الأبد، فيتمكّن من النّوم، سبّها في داخله، ثمّ جهر بشتائمه لدرجة أنّه تخيّل أنّ كلماته قد وصلت إليها، وعلى حين غرّة ألفى القبض على نفسه، وهو يصفها بأقذع الصّفات، ويكيل إليها حشداً من البذاءة التّي ما دري أنّه حفظ بعضاً منها؛ لكثرة ترديدها لها على مسمعه من لسانها السّليط، شعر بالخزي من كلماته السّوقيّة، لكنّه عزّى نفسه بغضبه وبسمعتها السّيّئة التّي لا تربأ بها عن التّهم والشّائعات.

فتح باب شقّته مثل المأفون، صكّه بقوّة كادت تخلعه، عندما لامست قدميه برودة الأرض تذكّر أنّه حافٍ لا حذاء يقيه البرد أو الأذى، لكنّ غضبه كان أشدّ محفّزٍ له للمشي كيفما اتّفق، فاستجاب له دون تردّد، ارتقى عشر درجات بقفزات عملاقة، ثمّ تذكّر أنّ عليه أن ينزل السّلّم لا أن يرتقيه كي يتّجه إلى عمارتها التّي تقف في مدخلها، وتنصب هناك شرورها وإذاعة بذاءتها، بصق على الأرض، ومن ثمّ انطلق في عدوٍ سريع ليقطع درجات السّلّم، حتّى وصل إلى عتبة الباب الرّئيسيّ لعمارته، تنفّس الصّعداء، وتسلّح بشهيق عميق، ثمّ يمّم نحوها، قطع الشّارع العريض الذي يفصله عن مكان وقوفها، كان حشد من سكّان العمارة قد تحلّقوا حولها، يداها الصّغيرتان تكمشان بصلابة ياقة أحد سكّان الحيّ، فيهتزّ بين يديها، وهي تسبّه، وتتّهمه بأفظع التّهم الأخلاقيّة، يبدو بين يديها كعصفور مهصور بالكاد يلتقط أنفاسه التّي يكاد يلفظ آخرها، منظره

الظّريف يكاد يدعوه إلى الضّحك الذي يتسرّب لذيذاً إلى نفسه، ويكاد يطفئ لهيب غضبه، لكنّه يأبى إلاّ أن يحقّق الغاية التّي جاء من أجلها، يستجمع شتات عزمه، وماضي غضبه، وينقضّ كالنّسر على يديها الصّغيرتين اللّتين ما ظنّ أنّها تملك يدين بمثل جمالهما وأديمهما البرونزيّ الذي يسكن في موجة من اللّمعان والبريق الذي يضفيه عليه حشد كبير من الأساور والخواتم الملوّنة والزّجاجيّة التّي ترتديها، يقول لها، وقد دفعها بعيداً، فحرّر ياقة الرّجل من قبضتها: "كفّي أيّتها العاهرة عن إزعاجنا".

يصمت الجميع بدهشة، تزوغ عينا الرّجل الذي خلّصه من يديها، تتماسك بعد أن كادت تقع أرضاً من هول دفعته لها، تنظر في عينيه نظرة قطّة متوحّشة، عيناها الرّماديتان فيهما أجمل تعبير وأغربه، تجتاح وجهها غيمة غضب حمراء، يكتسي بريق عينيها بإهانة من الواضح أنّها لم تستطع أن تستمرئها، تقترب منه، وثدياها مستنفران ببروز لذيذ من تلك الفتحة العريضة الكبيرة في ثوبها القديم، تبصق في وجهه باحتقار، وتقول له: "يا أولاد الكلب، أنا العاهرة أم أنتم؟ في كلّ يوم أشهد كلباً على بابي، يقبّل قدمي، وينبح دون عرضي وجسدي، وعندما أصدّه، تصفني بالعهر. غداً تقف هنا، وأتشاجر معكَ مثلما أتشاجر مع هذا الذي جئتَ تدافع عنه، ولنفس السّبب الذي أتشاجر معه بسببه، ستأتي إلى هنا فقط لأنّكَ تحلم بجسدي."تبصق أرضاً من جديد، وتقول: "يا ابن الكلب..."

كلماتها تثير صداعاً غريباً في قلبه ورأسه، جسده مستنفزّ من أنوثة ساحرة تحاصر رجولته، تضطرب حواسّه كلّها، ويتساءل بفضول أنّى له أن نسي أن يسأل ولو لمرّة واحدة عن سبب مشاجراتها وزعيقها، كلماتها الصّادقة ذابت في كلّ ركن من ذاته، لكنّها أهانته، عيون الجميع تحاصره، فجأة أصبح عالقاً هو الآخر ودون توقّع بين يديها، تمنّى لو أنّه يستطيع أن يضمّها إلى صدره، فلا بدّ

أنّ عندها رغبة مهولة للبكاء، حنوٌّ مهول عليها يهاجم قلبه، لكن يده تسبقه فتمتدّ دون وعيٍ، وتصكّ وجهها النّديّ، وتدفعها إلى الأرض، وهو يقول: "اخرسي، يا فاجرّة".

يقفز الرّجل ذو الياقة نحوه، ويقبّل كتفه الأيسر قائلاً بنبرة تشجيع وشماتة: "تسلم يداك، منذ زمن طويل تحتاج هذه العاهرة إلى من يعلّمها الأدب، تظنّ أنّ رجال الدّنيا كلّهم يشتهونها".

صوتٌ نسائيّ لا يعرفه يقول: "متى سينظف حيّنا من هذه الزّبالة؟"

أصواتٌ أخرى تتقوّل، وتتبجّح، وتنبح، لا يدرك تماماً كنه ما يسمع، فأذناه مصابتان بصمم، وصداع رأسه يعجّ في جمجمته، ويمتدّ ليجتاح قلبه، ودبيب غريب يخدّر كفّه التّي صفعتها، يفكّر بالانحناء لرفعها عن الأرض، لكنّ قدميه الملتصقتين بالأرض تحولان دون ذلك، يراقب تثنّيات جسدها اللّدن، تستر فخذيها اللّذين انكشفا إثر وقوعها، تنتصب على مقربة منه، تقترب منه، تشهق نفسه فزعاً، يراهن على كامل قوّته التّي تخذله بلؤم، يعجز عن أن يحرّك ساكناً، يدها تمسّد خدّها الذي صُفع أديمه الهشّ، في عينيها دمعتان ليلكيتان لم يرَ دموعاً بمثل لونهما من قبل، تهتزّ قسماتها ساخرة، وتقول له بيقين قديسة وثدياها يضطربان هبوطاً وصعوداً في حركتي شهيق وزفير متواترتين بسرعة: "ألم أقل لكم أنّكم أولاد كلب، غداً تأتي إليَّ زاحفاً على يديك مثل كلب عطشان، عندها سأبصق عليكَ أيضاً، حتّى ولو صفعتني مرّة أخرى يا حقير".

"حتّى ولو صفعتني... حتّى ولو صفعتني..."، كلماتها بقيت تحاصر أذنيه طوال الطّريق، وبمعنىً أدقّ ظلّت تخنقه، شعر بأنّ أنفاسه تنفد، وأنّ يداً ما تحاصر رقبته، فتح زرّ قميصه، ووسّع من خناق ربطة عنقه، لكنّ أنفاسه

استمرّت في الاحتضار، الشّرْطيّ الذي جاء لاصطحابه تنبّه إلى وضعه، وعرض عليه المساعدة، لكنّه تظاهر بالتّحسّن، في المخفر كانت تجلس على الكرسي الخشبيّ القصيّ، توقّع أنّها قد حرّرت ضدّه شكوى اعتداء وضرب وقذف، سأله الضّابط الكثير من الأسئلة، أجاب عنها بإيماءة من رأس مسكون بالصّداع، لم يستطع أن يخمّن أيّ الكلمات وضعها الضّابط وصفاً لإيماءاته، وقّع محضر الشّكوى على عجل دون اهتمام، كان يشعر بإذلال كبير، وبعار أكبر، تمنّى أن يخفي كفّه التّي صفعتها في أيّ مكان؛ كي لا تذكّره وإيّاها بجريمته النّكراء، تمنّى لو أنّ عينيه تصدُف عينيها في نظرة واحدة، لتنقلا إليها اعتذاراً من صميم رجولته المسفوكة عند جمال أنوثتها، لكنّها أبت حتّى أن تهبه ولو نظرة من عينيها اللّتين تُشيحهما عنه.

غادرتْ المكان قبله، ثمّ غادر بعدها، لم يذهب إلى عمله اللّيليّ، أمضى ليلته يراقب نور غرفتها المضاء، تساءل أيّ النّساء هي؟ لا يعرف عنها إلاّ أنّها غجريّة تستجدي سائقي السّيارات والمشاة والمتسوّقين، بهذه الطّريقة تكسب قوتها، بل وتثري أيضاً، عرف من بعض الجيران أنّها تعيش وحدها في شقّتها، الكثير يرنو لها بعين الرّيبة والشّكّ، ويرجمها بالبغاء والعهر، لكنّه لم يرَ رجلاً يوماً يدخل إلى بيتها، ولم ترنو إلى سمعه ضحكات رجل تتسرّب من بيتها، وما رآها ألبتّة تتأبّط ذراع رجلٍ وهي تدخل بيتها، فأيّ النّساء تكون؟

حاول أن يكفّ عن متابعة نور غرفتها، لكنّ محاولاته باءت بالفشل، وظلّت عيناه ملتصقتيْن بتحدّي جحش صغير بنور غرفتها، على الرّغم من ذلك الصّدأع الذي يملأ قلبه وروحه فضلاً عن رأسه الذي ربطه بإحكام بخرقة قديمة مبلّلة لعلّ ألمه وصراخه وشكواه يتوقّف ولو للحظات.

كانت ليلة هادئة، وخمّن أنّها ستستمرّ دون صراخ صباحيّ، مع أنّ نفسه كانت تشتاق على غير توقّع ودون تعليل لسماع صوتها الحادّ، ورؤية عينيها اللّيلكيّتيْن، وتنفّس صعدائها المتمرّدة، تساءل ماذا علّها تفعل؟ تخيّل رجلاً ساحراً يسكن شقّتها، تصوّرها بين يديه قطّة سيامية مدللّة بفراء وثير ناعم، ازداد صداع رأسه، واضطرب قلبه بغضب جارف، ما كان ليستطيع أن يتحمّل هول هذا التّخيّل، قرّر أن يقتل شكّه بيقين أبلج فيصل، حزم نفسه مثل المجنون، وهرول إلى بيتها، قرع الباب بتوتّر وقسوة، سمع صوت خلخالها ذا الأجراس الصّغيرة يصدر أصواتاً مضطربة تدلّ على أنّها جاءت راكضة لتعرف من زائرها، فتحت الباب، وأطلّ رأسها الصّغير، يليه صدرها الصّغير النّاهد الذي يدفع عشرات القلائد الملوّنة التّي تحيط بجيدها الصّغير، رنت إليه قائلة بتقزّز وتحدّ: "ألم أقل لكَ أنّكَ ستأتي زاحفاً آجلاً أم عاجلاً؟"

هزّته كلماتها، وكاد يمطرها بسيل بذاءة لا يقلّ قذارة عمّا سمعه منها في الماضي، دفع باب البيت بشراسة، ودلف بتوتّر إلى الدّاخل، داهم المكان مثل ثور مطعون برمح، جال على عجل في غرف البيت كلّها، لكنّه لم يجد الذي توقّع أن يجده في البيت، تنفّس الصّعداء، كانت قد أصبحت خلفه تماماً، استدار إليها، فوجدها شاخصة عاقدة يداً على يد، ضاربة بقدمها اليمنى الأرض بإيقاعات قلقة متوتّرة تنمّ عن قرب حلول عاصفة ما، هزّت رأسها بإيماءة قدّر منها أنّ فيها فهم مذبوح لحقيقة شكوكه واتّهاماته، تمنّى أن يرى في عينيها تقديراً أو عفواً، لكنّه ما رأى ذلك، تلعثم ثمّ قال بصعوبة: "أنا... أنا... "

قاطعته، وقالت بغضب: "اخرجْ من بيتي الآن، اخرجْ سريعاً قبل أن أستدعي الشّرطة لتقبض عليك".

- "لكنّني ..."

- "هيّا إلى الخارج".

أمضى أيّاماً يسيط نفسه بنظراتها وكلماتها، واتته ألف فكرة، وتمخّض صداع قلبه عن ألف حلّ، قرّر أن يقتلها، قرّر أن يغتصبها آلاف المرّات، قرّر أن يجثو عند قدميها طالباً العفو منها، قرّر أن يرحل من الحيّ، وأن يتركها إلى الأبد، قرّر أن يلجأ إلى أقرب مستشفى ليعالج صداع قلبه الذي أثقل صدره، وكاد يقتله، قرّر ألف قرار، ثمّ قرّر أن ينفّذ أيّاً من قراراته تلك، لكنّ جيرانه لا سيما رئيس مجلس العمارة التّي يسكنها قرّروا أن يوقّعوا وثيقة شكوى يوجّهونها إلى محافظ العاصمة، يطالبون فيها بترحيل الغجريّة من الحيّ لسوء أخلاقها، وعلى اعتبار أنّ وجودها تهديد لأمن وهدوء وسمعة الحيّ، فضلاً عن حماية الأبناء والبنات الذين تقتضي تربيتهم على الجادّة أن يعزلوا دون أيّ فساد تمثّله تلك الغجريّة.

كان متأكّداً من أنّها من أشرف نساء الدّنيا، وأنّ يد رجل لم تمسّ جسدها البضّ، وأنّ عين رجل لم تغرق في جسدها العاري، لكنّه وقّع على العريضة، لقد كرهها، نعم، كرهها؛ لأنّها طردته من بيتها، كرهها؛ لأنّها سبّبت له صداع الرّأس، كرهها ربما؛ لأنّه يحبّها.

جاء موعد ترحيلها، من شرفة شقّته وقف ليشاهد ترحيلها، ليمرّغ أنوثتها العذبة بشماتته السّوداء، ليتيح لعينيه أن تتملّيا منها لأطول فترة ممكنة، لكنّ ترحيلها لم يتمّ؛ لأنّها كانت قد غادرت الشّقة منذ أيّام، دفعت ما يستحقّ من أجرّة عليها، وسلّمت مفاتيح المنزل لصاحبه العجوز، واختفت بهدوء، شعر أنّ دمعة في عينيها قد سالت بانكسار، مدّ يده ليجفّفها بحنوّ، سقطت يده دون أن يقصد على خدّه، فوجد عليه أربعة سجاماً سخينة، كتم شهقة مكلومة، ودلف إلى غرفته، واستلقى في سريره لساعات بل لأيّام، استلقى في هدوء مقزّز كما لم

يستلقِ من قبل، الهدوء كان مواتياً تماماً للنّوم الذي قلب الدّنيا من أجل الحصول عليه، لكنّه تمنّى على استحياء صوت زعيقها، أغمض عينيه، وحلم بكلماتها ونداءاتها تشقّ صباحه من جديد، في حلمه رآها تسبّه حدّ الإقذاع، ثمّ تستسلم إلى قبلته العميقة التّي تمتصّ شفتيها بلزوجة منعشة ساحرة، هسيس إكسسواراتها مرّن رجولته على التّوثّب، وهمسها الذي ما خبره ألقى الدّنيا عند قدميها، في الصّباح يكون للدّنيا، أو تكون الدّنيا له، لكن دون وجودها، فيمقت وجوده، ويحنّ صداع قلبه إلى صوتها.

طوّف في شوارع العاصمة لمئات المرّات، بحث عنها في عيون الغجر والمتسوّلين كلّهم، تسكّع طويلاً في السّاحات العامّة، والمتنزّهات الوطنيّة، وسمع وشوشات لم يعرفها من قبل، جنّد وقته للبحث عنها، كان يهفو إلى سماع صوتها، أصبح مغرماً بتتبّع المشاجرات النّسائيّة؛ لعلّه يلقى صوتها النّحاسيّ الذي أورثه صداع قلب لا يشفى، لكن دون فائدة، فهو لم يجدها، أو يعثر على درب يوصل إليها.

اعتاد على أن يجلس في مقعده الهزّاز قبالة شرفة منزلها الذي هجرته منذ زمن ينتظر إيابها الذي لم يحدث، أصبح في نفسه ولع خاصّ بالغجريّات اللّواتي يستمرئ كلامهنّ، وينقطهنّ بالنّقود، ويبحث فيهنّ عن غجريّة ساحرة طردته يوماً من بيتها، حتّى غدا اسمه عند الأصدقاء والمتندّرين من حاله (أبو الغجريّا)، لكنّه ما بالى بذلك، بقي أسيراً صباحيّاً لكرسيّه الهزّاز، يدخّن غليونه الفارغ الذي ما ملأه يوماً؛ فهو يكره السّجائر، لكنّه بات يعشق الانتظار؛ انتظار غجريّة يحدّثه قلبه باستحالة عودتها، يشدّ على قلبه المضطرب الذي بات يعاني من صداع رهيب، ويغمض عينيه، ويروح في إغفاءة قصيرة تريحه ولو دقائق من صداع قلب.

القاتل

فكّر كثيراً في التّخلّص منه، بل إنّه دّبر أكثر من مكيدة للتّخلّص من غريمه، لكن دون فائدة، هو يلازمه دون بارقة أمل في الانفصال عنه أو في فراقه.

في أحد المرّات أغرقه، لكنّه عاد بعد دقائق حيّاً من غير مبلّل، في مرّة ثانية ألقاه من فوق بناية شاهقة الارتفاع، لكن عندما استدار وجده ملتصقاً بقدميه، في المرّة الثّالثة قدم به تقريراً سرّيّاً للمخابرات التّي اعتاد على أن يراسلها من وقت إلى آخر لا سيما إذا أراد أنّ يدسّ دسيسة على أحد زملائه في العمل أو الحزب ليتخلّص منه، ويخلو له وجه مصلحته، انتظر أن تلقي المخابرات بغريمه إلى ما بعد الشّمس، لكنّهم عادوا، واعتذروا له، وقيّدوا غريمه في باب سرّي جدّاً ومسجّل خطر.

الشّيخ سلامه الذي يسكن المقابر ويصنع المساحيق والتّعاويذ السّحريّة من عظام الموتى، قال له إنّ روحاً من عالم آخر تسكنه، وترفض أنّ تغادر جسده، وصنع تعويذة له من دم الشّيطان وعين القرد، لكنّ عدّوه الملازم لم يفارقه.

لنقل إنّه فارقه لساعات فقط، عندها شعر بشعور خفيّ يدفعه إلى الاشتياق لذلك الظّلّ المزعج المشاكس، والحاجة له بمعنى أو بآخر، لكن التّخلّص منه كان الحقيقة الأكيدة في خارطة مصالحه وحاجاته.

عندما عاد الغريم إليه كان أقوى وأعتى، وبعبارة أدقّ كان أكثر خيراً، وأنقى وجوداً، ومن جديد عاد يفكر بالتّخلّص منه، وأخيراً بات مستعداً لقتله، نعم، فكّر جاداً في أنّ يقتله؛ ليتخلّص منه.

هو غريمه من سنوات طويلة، يلازمه منذ حداثته، دخل في حياته دون استئذان، بين الظّلمة والنّور كان مسكنه، ثم امتّد ليسيطر على حياته، ويسوّد نفسه سلطاناً على رغباته، ورقيباً على شرور نفسه التّي غلبته أحياناً، وغلبها كثيراً بمعونة ظلّه الاستثنائيّ.

نعم، ظلّه كان هو عدّوه اللدود، وغريمه الملازم، كان ظلاً عجيباً، يلحق به إذا هرب، ويسبقه إذا توقّف، لا يفارقه لا ليلاً ولا نهاراً، يكلّمه طويلاً، يزجره عن الشرّ، ويدفعه نحو الخير، يقهر به ذلك الظّلام الذي يتضخّم في الجسد؛ ليجرّها إلى دنيا الظّلام، هو مخلوق من الظّلام أيضاً، لكنّه نور على نور، عندما يتكلّم يفيض نوره، فيشيع في نفس صاحبنا الرّحمة والحبّ، لا يأكل ولا يشرب، لكنّه يقتات غلّ قلبه، وشكوك نفسه، ووساوس سريرته، له قدرّة عجيبة على التّلاشي في داخل الجسد، ليجده في كلّ مكان في ذاته، يدير دفّة إنسانيته، ويعلي من قيم وجوده البشريّ.

لا يعرف هذا الظّلّ المنطق الفيزيائيّ، ولا يخضع لنواميس الطّبيعة، يرافقه في كلّ مكان، يتخطّى حدود الظّلام والنّور، يتمدّد إلى جانبه، ويشاركه في أفكاره وهواجسه، وليس غريباً إنّ قال إنّه أثيره في بعض الأوقات، لكن على الرّغم من كل ّذلك فهو عدوه الذي لن يفتأ يقاومه حتى يتخلّص منه.

كان صغيراً جدّاً عندما حصل على هذا الظّلّ العجيب، لم يكن قد تجاوز العاشرة، يومها دهس دجاجة الحاجّة خضرة بدراجته، وكاد يتّهم ابن خالته بهذه الجريمة؛ لأنّه يغار من شقرة شعره ومن جمال مبسمه، لكن ظلّه أبى عليه إلاّ أنّ يعترف بالحقيقة، عندها وبّخته الجارة بشدّة، وكادت تضربه، لكن والده كان فخوراً بشجاعته، ونقدت أمّه وهي صاغرة الحاجة ثمن الدّجاجة من مصروف البيت، ليلتها سعد بهذا الظّلّ الخرافيّ الذي يدفعه إلى دائرة النّور،

وقدّر بمنطقه الطّفوليّ أنّ السّماء خصّته بهبة سخيّة واستثنائيّة، في ذلك المساء تمدّد ظله إلى جنبه، كان منكمشاً وصغيراً وأقلّ طولاً ممّا رآه قبل ساعات، في ما بعد عرف أنّ ظلّه يصبح وحشاً كاسراً عندما يقترب من خط الشرّ، لكنّه يعود ليصغر، ويعلو السّلام سواده عندما ينتصر خيره على الشرّ.

لكنّه كره ظلّه مع أوّل عصاة ألقمها المعلم غافر له عندما حاول أنّ يغشّ، ففضحه الظّلّ، وأبى عليه ذلك، تمددّ مثل كالمارد وَفْق عادته، شلّ حركته، وألجم لسانه، ثم أسقط قصاصة الغشّ من يديه، فقبض المعلّم الأحول عليه بالجرم المشهود، ولولا مكيدة الظّلّ تلك لما كان لمعلّمه أن يفضح أمره، في تلك الحادثة المشؤومة عدّ على يديه مئة عصاة غليظة، كاد لحم يديه أنّ يتقطّع، بعضاً من أغشية أصابعه تفسّخت بالفعل، فيما كان صبيّة صفّه يعدّون بتشفٍ دون رحمة وبصوت واحد حميريّ العصي المنهالة على يديه الصّغيرتين بتتابع مرهق.

من يومها لم تهدأ الحرب بينه وبين الظّلّ، كانت سجالاً، كثيراً ما كان يُهزم، كان يغضب لهزيمته، كان يفرح لهزيمته، بمعنى أدّق كان فريسة لشعور مختلط يشبه أن تضع إحدى يديك في ماء ساخن والأخرى في ماء بارد، فيأتي الشّعور متشابهاً مختلطاً معروفاً مجهولاً في آن، ذلك كلّه ويزيد في لحظة واحدة.

لكن ما كان يعيه تماماً أنّه عندما يضع رأسه على وسادة النّوم، ويخلع نعليه على باب عالم الأحلام، كان يدخلها مطمئناً آمناً راضياً، وفي الصّباح تبدأ معركة جديدة، يشعر أحياناً أنّها حلقة صغيرة من ناموس طبيعيّ ينتظم دواخل البشر، ويملي سلوكيّاتهم عليهم.

كان كثيراً ما راقب من حوله، وكاد يجزم أنّ معظمهم يملكون ظلالاً تشبه ظلّه، وإلا فكيف تذوق أنفسهم معنى النّوم؟ وكيف تهتدي إلى طريق النّور؟

كلّ نفس تحتاج إلى ظلّ يرشدها إلى سبيل الحقّ، لكنّه لم يحدّث أحداً أبداً بشأن ظلّه العجيب، فقد كان يُؤثر السّلامة على النّدامة، ويخشى أنّ يُقدح في قواه العقليّة.

لكن اليوم وبعد سنين قد طالت في معركته مع صديقه العدوّ، أو عدوه الصّديق، بات يحتاج فعلاً إلى التّخلّص منه، يريد أنّ يرتقي سدّة الظّهور والسّيادة، ويجلس على السُّدة، الكبير الغريب همس في أذنه البارحة قائلاً بلكنة غريبة عن لغته الأمّ: "بينك وبين أحلامك ذلك الظّلّ، تخلّص منه، وستصفو الدّنيا لك".

إذن هم يعرفون عن ظلّه، بات من الملحّ أنّ يتخلّص منه، أن يقتله سواده الذي يضيء مساحات روحه الواسعة وإلى الأبد، فكّر ودبّر.

أخيراً مات ظلّه، بل قُتل ظلّه، هو من قتله، كان موته حزيناً، لكنّه عاد، وعزّى نفسه قائلاً: "لكن موته كان ضروريّاً"، كان يجلس في ليلة مقتل ظلّه إلى مجموعة من الرّجال الذي يرتدون السّواد والموت في أشهر أبراج المدينة وأبعدها وأكثرها حصانة نزولاً على رغبتهم، المشروب والزّهور وأطيب أنواع الطّعام كللّت جلستهم المشؤومة عليه وعلى ظلّه وعلى وطنه بالألوان الزّاهية، ضحك معهم كثيراً، ونادمهم بكلام بذيء رطنه بلغتهم الهجينة الطّارفة.

عاشر مخاوفهم، وجادلهم طويلاً في مكاسبه من بيع الوطن والشّعب، شعبه هو، كان الظّلّ يتمدّد، وينهر، ويزجر، لكن دون فائدة، قطع أيّ صلة به، دفع به إلى منطقة الظّلام، ليلتها كان ظلاً مكسوراً حزيناً، وكانت قيود ما تكبّلة دون رحمة، في أعماق العيون الزّرقاء للرّجال الغرباء رأى ظلّه ينازع، ويلفظ أنفاسه،

وعندما وقّع أوراق البيع، احترق ظلّه، واختفى، وابتسم الغرباء ذوو الأعين الخرزيّة.

أخيراً تخلّص من ظلّه، قتله من دون رحمة، لم يرثه أحد، شعر بشيء من المرارة في أثر رحيل ظلّه، لكنّه قد ارتاح أخيراً، لكن سرعان ما اشتاق إليه، من جديد دبّر أكثر من مكيدة كي يبعث الحياة في بلاه، تلفّتَ آلاف المرّات بحثاً عنه، عاد الشّيخ سلامه وصنع له تعويذة جلب وحبّ، لكنّ الظّلّ لم يعد، عندما راسل المخابرات في شأن البحث عنه، بعثوا له مغلفاً مع مخبر في ليلة غير مقمرة، وفي المغلف كتب: "نعتذر، سري جدّاً ومسجّل خطر".

اشتاق كثيراً إلى ظلّه القتيل، نوره المسفوك ما انّفك ناراً تحرق يديه، كلّما فكر في البحث عنه، تذّكر أنّه لن يعود إليه أبداً وتوقيعه ما يزال على صكّ البيع في يد الغرباء، لم يستطيع أن يسامح نفسه؛ لأنّه بكلّ وحشيّة وصفاقة قد قتل ظلّه!

صباح الخير يا دكتور

تأففتْ، ثم قالتْ له بنبرة حاسمة تشفّ عن ضيقها من اختلاط الأمور على مداركه: "صباح الخير يا دكتور، قل له فقط صباح الخير يا دكتور، ابتسمْ له، ولا تقل شيئاً آخر".

" هل فهم ما قُلتُ له؟ لعلّه فعل ذلك"، هذا ما كانت تقوله لنفسها، وهي ترتكز إلى حاجز حديديّ صدىء يسّور ذلك المرتفع من الجرف العتيق المشجّر على استحياء وبشيء من الفوضى والتّبعثر، وتناغي بعطف باقة الزّهور التّي تشيعها بعينيها مع فتى حانوت الزّهور الذي انطلق بها بعيداً.

من هنا تستطيع أنّ تكشف جزءاً من ذلك المشفى الذي تبتلعه الأسواق القديمة، وتتنازعه آهات الفقراء، ويغور في غابة من غيوم القتام التّي تصطنعها السّرّفيسات القديمة، والحافلات المكتظّة بزبائنها المحمّلين بفقرهم وغُلبهم وآمانيهم التّي لا تتحقّق.

هو لا يستطيع أنّ يراها من هنا، وهي لا تتوقع أنّ تراه من هنا، لكن تستطيع أنّ تلمحه ببريق سخين في ذاكرتها، فتلعق صورته عن جدران الذّاكرة، هو لا يستطيع أن يراها من هذا المكان، لكن لعلّها تلوح الآن في ذاكرته صورة لامرأة تتشح بالصّمت، تأتي من المجهول، يُلّح صوتها على أذنيه مرّات كثيرة في اليوم، يتمطّى عبر أسلاك الهاتف، ينبعث عميقاً يناجي رقته ولطفه، ويُداعب فضوله وروحه العذبة الشّقيّة كما الأطفال، المتدثرّة بدثار مهيب مصطنع من الوقار والجديّة اللّتين تفرضهما وظيفته الحسّاسة على قسماته الغارقة في سُمرة

دافئة، تمتزج بطعم وببرودة الشّمال الـذي جـاء منـه قبـل أشـهر محمـلاً بـالثّلج والعلم والحبّ ووشائح تكاد لا تنفصم مع حوّاء ذلك الثّلج.

عرفته قبل أن يعرفها، لا، لا ، بل عرفهـا قبـل أن تعرفـه، لم يعرفهـا امـرأة شرقيّة تمور بدفء وحنين لرجل أسمر يتدثّر بالبياض، البياض الملائكـيّ المـوزّع بين الرّحمة والواجب، لكنّه عرفها حالة مرضيّة خطيرة، تنزف بشدّة حتـى تكـاد تنزف روحها، يكاد الموت يمتصّها، ويدخلها قسراً في مملكته السّـوداء، لم يعرفهـا عيناوين وفماً وبشرة كما تُعرف النّساء عادة، لكن عرفها جمجمة محطّمة، وجسد طحنته سيّارة متهوّرة، ومضغته، ثم قدّمته لمبضعه الماهر.

لساعات طويلة أعمل طبّه ومبْضَعِه في جسـدها، وتحـدّى المـوت بحالتهـا، وألجمه بعيداً، راقبها لأيّام في كبسولة من الأجهزة الـتي حبسـها فيهـا، وحـبس نفسه فيها إلى جانبها، وحدثت المعجزة، واسـتيقظت، كـثير مـن العيـون كانـت حولها: عيون أقارب، عيون أطباء، عيون ممرضات، لكنّ عينين اثنـتين تنفرجـان باتساع مبسوط، يسكنهما احمرار السّهر والتّعـب، فيخلّـف سـواراً مـن الشّـفق الأحمر حول بحيرتيهما البنيتن اللّتين تعكسان في صفائهما المجلّـل بـدموع الرّأفـة والرّقة أشجار عينيه اللّتين تسميان رموشاً كانتا في انتظارهـا بفضـول اسـتثنائيّ، أحسّت بكلّ "غرزة" غرزها في جمجمتها، ابتسمتْ بصـعوبة، وقالـتْ لـه: "صـباح الخير يا دكتـور" ابتسـم لهـا، ثـم اتّسـعت ابتسـامته مثـل حلقـات مـن السّـكر، وأصبحتْ صهيلاً جميلاً يرتجّ برجولته السّمراء، وقال: "نحن في المساء الآن".

غاب ذلك المساء، وغابتْ الممرّضة، وغاب الطّبيب، ورحلتْ البقع الحمراء المتورّقة من جسدها، وتركتْ الغُرز إكليلاً شوكياً لا يُنسى في جمجمتها، وأورثها الموت الذي هربتْ منه عرجاً يلازمها في حياتهـا كلّهـا، ويعيـق ركضـها الـذي تعشقه ويعشقها، عرجاً يُذل كبرياء أنوثتها.

بقـي صـهيل الطّبيـب في أذنيهـا، وألحّ الصّـهيل، وألح... وألحّ... وألحّ؛ فكان الهاتف الذي يشقّ صمت المناوبات الطّويلـة والمضـنية في ليـالي مناوبـات طبيبها الخيليّ في كلّ مساء، في البداية كانت مجرّد امرأة أسماها لاهيـاً المزعجـة، تخترق صمته اللّيليّ، وتنزلق دون استئذان في نـذره اللّيلـيّ حيـث يقـدّم نفسـه قرباناً من الانتظار في معبد مرضاه، في ما بعد أصبحتْ صوتاً يألفه، ثـم اعتـاده، ثم نشأ في نفسيهما شيئاً لا يعرف هو له اسماً، وتعرف هي اسمه تماماً، وتدندنه في أذنيه الآف المرّات.

كانتْ تخشى أنّ تلقاه، كانتْ تشعر أنّ عرجها المكبّل بحذاء حديديّ أجـشّ سوف يُصمّ أذنيه، خشيت أنّ يطغـى هـذا الصّـليل البـارد علـى نعمـة صـوته، وعزيف أوتار قلبها، هربتْ منه، لكن إلى متى تستطيع الهروب منه؟

أخيراً قررّ أنّ يلقاهـا، وقـررّتْ أنّ تلقـاه في الشّـتاء حيـث تخنـق الرّطوبـة صكيك حذائها الحديديّ، وحيث يمكن أن تسمح لنفسها بأن تختبىء في أحضانه الحارّقة، وحيث لا تشتمّ عبـق عـرق عنـاء يومـه الطّويـل، ولا تسـمع هسـيس ساعاته الطّويلة التّي يقضيها في التّنقّل بين المرضى والموت.

اليوم هو موعد اللّقاء، بدأته بممازحة طيفه المتخيّل في المرآة، وقالت: "صباح الخير يا دكتور"، وكتبتْ على بطاقة الزّهور التّـي أرسـلتها لـه: "صـباح الخـير يـا دكتور".

عندما أودعت قفص طيور الحبّ لصبيّ حانوت الطّيور الذي أرهقها وهي تلقّنه ما عليه أنّ يقول، وما عليه أنّ لا يقول، قالت له: "قل له: صـباح الخـير يـا دكتور، وحسبك"، وغاب الصبيّ في زقاق المستشفى القديم، ومعه الزّهور الطّامحة إلى اللّقاء وعصفورا الحبّ الصّغيران.

بقيت تنتظر تلك السّاعات التّي تتدفق ببطء حيث ستلقاه عند هذا السّياج كما اتّفقا، أزفَ الوقت، وأفلت الشّمس، اقترب موعد لقاء الدّكتور، وتراءى في مسمعها صوت طائري الحبّ اللّذين أسمتهما: نيران وأشواق.

اقتربتْ حدّ الالتصاق من السّياج، راقبتْ الطّريق طويلاً بشوق ووجيب قلب، هي لا تستطيع احتمال وطأة السّعادة المنتظرة مع الدّقائق القادمة، والسّياج كذلك لا يحتمل الانتظار، كما لم يعد يحتمل الصّدأ والقدم، ينخلع من أظلافه الصّخريّة، ويستسلم إلى النّهاية، وتهوي المنتظرة معه.

نزل المطر بقوّة، وانتظرها على التّلّة الموتورة بسياجها العجوز، ولم تأتِ. وانتظرته في غرفة العمليّات، ولم يأتِ، وحيث وُضع حذاؤها الحديديّ الباقي الوحيد بعد رحيلها، كان هناك طاقة ورود حزينة، وبطاقة كُتب عليها صباحاً بماء الحياة والانتظار وشهوة اللّقاء: "صباح الخير يا دكتور".

صاحب الصّوت الأجشّ

أحياناً نرغب في أنّ نصرخ في بلّورة كاتمة للصّوت، نرغب في أن نبكي، نحتاج إلى البكاء، ومن هو الذي لا يحتاج إلى البكاء؟ لعلّ الأموات فقط هم وحدهم الذين لا يحتاجون إلى ذلك؛ لأنّهم –ولحسن حظّهم– هاربون من كلّ شيء دون جهد.

لكن ماذا عمّن يريد أن يهرب دون أن يُلزم بالعودة مخذولاً متعباً يجترّ مخازيه وهزائمه؟ يريد أن يبكي دون أن يعلّل سبب بكائه بأسباب مقبولة اجتماعيّاً، لا يريد أن يشتكي وحسب، بل يريد أن يُحتفى بشكواه، دون أن يحمل عبء ماذا بعد؟ ولهذا كنت أنتْ، ولهذا كان اللّقاء الغريب.

- "فقط ؟"
- "البقية تأتي يا صاحب الصّوت الأجشّ".
- "ليتك تخبريني باسمك".
- "اطلقْ عليّ الاسم الذي تريديه".
- "اسميك حواء".
- "أمّا أنا فاسميك صاحب الصّوت الأجشّ".

كلنا نحتاج إلى صوت يأتي من المجهول، ويكون المجهول نفسه، ومن هنا بدأت الحكاية، بدأت تماماً منذ أن انتفختْ أوداج حياتي، وامتدّت، وتشّعبت، ووجدتُ فيها كلّ شيء إلاّ نفسي، ولم أجد ذلك الذي نسميه شطر أنفسنا، وفي

اللّحظة التّي شعرتُ فيها بذلك الخريف الذي يعصف بالأرواح التّي لم تذُق طعم رحيق الألفة، بدأت علاقتنا الأثيرية المجنونة.

فكّرتُ في أن أشتكي لأحد لا أعرفه، ثم لا أعود إلى لقائه، كي لا أجد في عينيه دمعة الصّدمة والاستغراب، لا أريد أن أرى نفسي في عينيه طفلة باحتْ له بأسرارها الشّمسيّة، لا أريد أن تذكّرني نبرة صوته بضعفي وطيشي وأحزاني، لكن أين أجد ذلك الإنسان؟ عندما عرفتُ الطّريق إليكَ، وجدتُ بضعاً من نفسي أو أضعتها لا أدري، لكنّني وجدتكَ.

فكّرتُ في أن أطرق أحد الأبواب بحثاً عن مجهول يأخذ بيدي إلى الألفة، مرة أخرى طرحت على نفسي فكرة أن أكلّم أحد المارة، أو أن اصطاد بعشوائيّة عبثيّة أحد الفضوليين في أحد المتنزهات لأكلّمه، وأكلّمه، وأكلّمه، ثم أهجره دون عودة، لكنّني تراجعتُ سريعاً عن وسوساتي اللّذيذة كلّها، ومرة أخرى فكرّتُ في أن أكتب مذكّراتي، لكنّني تذكّرت آسفة أنّني لا أجيد الكتابة، ولا أفكّ أبجديّة سحرها.

الهاتف، نعم الهاتف، حرّكت قرص أرقامه القديم بضع مرات بشكل عشوائيّ، وجاء صوت لا أعرفه، صوت يغلب عليه الكسل، أجشّ، وتعلوه قابليّة واضحة للاستفزاز، دون أن يغيب عنه استعداده للدّعابة والمرح، اضطربتُ، وشككتُ بجدوى هذا البحث العبثيّ، كدت أصكّ السّماعة بالأرض، واستغني عن خطّة البحث الغريبة، لكنّني تمالكتُ نفسي، واستجمعتُ شجاعتي المزعومة، وقلت: "مرحباً، أنا أبحث عن صديق من غير شروط، أتحبّ أن تسمعني؟"

جاء الصّوت بتمطٍ يتأهّب للتّحفّز وبدهشة ملولة لا يحاول أن يخفيها: "ماذا؟"

أجبته بنبرة لا يغيب عنها أمل الرّجاء في الإقناع: "أنا أكره الأسماء والمعلومات، وأرغب في صديق غير فضوليّ. فهل يمكن أن تكون هذا الصّديق لي؟"

لم أسمع إجابة، وساد صمت قلق، ثم قلتْ بخجل واضح: "أنا آسفة، أعتذر عن الإزعاج"، وكدتُ أقفل الهاتف، لكنّ الصّوت الأجشّ استدرك سريعاً، وقال بنبرة عذبة: "ومن يحبّ الأسماء والمعلومات؟"

كانتْ بداية القصّة أو نهايتها أو أزمتها، حتى أنّني لا أعرف أيّ جزء من القصّة كانت هذه الحادثة، من يهمّه أن يعرف ذلك؟ المهمّ أنّ الصّوت الأجشّ أصبح مرآة روحي، وأصبحتُ أسعى جاهدة كي أعود إلى البيت سريعاً بعد الخروج من يمّ العمل اليوميّ، فأخلع نفسي على بوابة البيت، ثم أقفز سريعاً في متعتنا الأثيريّة، متعة الحديث وشهوة الحرّيّة في الكلام دون قيود أو مخاوف.

أصبحنا عبر الأثير واحداً منقسماً إلى اثنين خارجه، يلتئمان كلّما مارسا شهوة الكلام، وبات الصّوت الأجشّ هو ضميري الذي يشاركني نبضي ووعيي، وأصبح الهاتف معشوقي الأوّل، حتى أنّني استدخلتُ صوت رنينه في جهازي العاطفيّ، والجهاز العاطفيّ هو مصطلح للصّوت الأجش يعني به منظومة الصّوت والقلب وأنا وهو والحرّيّة، وغدا لرنين الهاتف عزيف موسيقي أخّاذ يناجي مشاعري، ويستثير كلامي.

كي أحضن صاحب الصّوت الأجش حضنتُ الهاتف لليالٍ كثيرة، بعد أن أصبح من عادتنا أن نقطع معظم اللّيالي في الحديث الذي لا يعرف النّهاية، وفي

الصّباح استيقظ، وقد غسل الحديث أدران اليوم السّابق، وبات حنيني موصولاً لمطهري الأثيريّ حيث صاحب الأجشّ.

طوال أشهر لم أعرف عنه أيّ شيء غير أنّه أثيري السّرّيّ، وأنّه مثقف أعزب يعيش وحده في مكان ما، أمّا هو فلم يسألني إلا القليل من المعلومات عنّي، أو بعبارة أدقّ لم أجب إلاّ عن القليل من أسئلته الفضوليّة التّي تدور حولي بشكل أو بآخر.

عندما عرض علي أن نلتقي خارج الأثير صُعقتُ من عرضه هذا، وتذكّرتُ بجهد يوازي قطع سنين ضوئيّة في لحظات أنّنا في كوكب واحد، وأنّنا كائنات مرئيّة، وأنّنا نستطيع أنّ تلتقي، لكنّني رفضتُ ذلك رفضاً قاطعاً، وآثرتُ أن يبقى صاحب الصّوت الأجشّ حلماً لا أعرف لها اسماً، يقبع في خرانتي السّرّيّة، ويغادرها فقط عندما أفتحها ليلاً وبالسّرّ، ومن جديد نسينا أمر اللّقاء، ومضينا في عبّ شهوتنا السّمعيّة.

بعد أشهر قصيرة لم تحصها سعادتي؛ لأنّ السّعادة لا تُحصى، انقطعت المتعة، وغاب الصّوت الأجشّ دون سابق إنذار، وتقطّعت نياط قلبي وأنا أسمع الرّنين دون أن ألفيه يرفع السّماعة، ويدخلني في دنياه، لأوّلّ مرة أشعر أنّني طفلة صغيرة مسجونة خارج جنّة، أسوارها زجاجيّة شفّافة، لكن منيعة لا تسمع رجاءات الاسترحام.

أخيراً أزمعت أمري، وقررتُ أن أجري وراءه في المجهول، أخذتُ إجازة من عملي، وفي ذلك اليوم بالذّات أقفلتُ الأبواب، وأسدلتُ السّتائر، وأضربتْ عن الطّعام، وبدأت أبحث عنه في بلورة سحرّيّة تخيّلتُ أنّني أملكها، طلبتُ رقمه لعشرات المرّات دون إجابة.

بعد أسبوع من المحاولات رُفعتْ السّماعة، وتتدفّق صوت نسائيّ رقيق بدل من الصّوت الأجشّ، ارتبكتُ بشدّة، وبجنون هربتْ الكلمات كلّها كما رحل الصّوت الأجش، سمعتْ الصّوت الأجشّ يخاطب صاحبة الصّوت الرّقيق من بُعد أمتار من الهاتف بنبرة لا مبالية: "مَنْ؟"، فتجيبه: "لا أحد يجيب!"، فيقول لها كانّه يريدُ أن أسمع كلماته: "إذن اغلقي الهاتف". أغلق الصّوت الرّقيق الهاتف بفظاظة، وعاد الصّوت المتقطّع هو كلّ ما أسمع عبر الأثير.

وضعتُ السّماعة في مكانها، ثم رفعتها من جديد مرة أخرى، وأدرتُ قرصه بضع مرات بشكل عشوائي، جاء صوت أجشّ آخر لا أعرفه، كدتُ أقول شيئاً، لكنّني رغبتُ أكثر في الانزواء في ذاتي، أغلقتْ الهاتف، سحبتُ سلكه من مكانه، تكوّمت في فراشي في مساحة صغيرة، أصغر ممّا يجب، وتذكّرت أنّني في حاجة منذ زمن طويل إلى النّوم؛ فهناك لا أسماء ولا معلومات ولا فضول... ولا أنا... ولا صاحب الصّوت الأجشّ.

المواطن الأخير [1]

مثل تنينٍ غاضب تمور الأرض بنهايتها المخفية، تقدّم نفسها عذراء لمعبودها البحر، تهتز بشدّة، تتراقص كأنّ آلهة غاضبة تصبّ على البشر جامّ غضبها، الكلّ عاجز ينتظر النّهاية المحتومة، المباني والمعابد بدأت تتهاوى، لم يعد هناك صوت ينبس ليبشّر بأحلام الباعة، وضحكات الأطفال، سدّ المدينة قد استجاب لقدره، وبات الماء يتنزّى منه من كلّ مكان، الموت يفغر فاه اللّعين، وصوته يبتلع الصّمت الذي يردّد صرخات "باخوس".

"اللّعنة على قرار مجلس حكماء القارّة، كيف يتصوّر أولئك العصبة من المجانين أنّ الحلّ الأمثل هو إغراق القارّة؟! كيف سار الجميع مثل نعاج خرفة وراء هذه النّبوءة الحمقاء؟ وكيف صدّقوا أنّ الدّنيا مقبلة على وقت سيصبح البشر فيه وحوشاً، وتُعمل فيه آلة الدّمار جبروتها في الحضارة، وتئد الإنسانيّة في باطن الأرض، ويُعلن الظّلم شعاراً، وتُحرق إنسانيّة البشر في آتون أرض قاحلة وتراب وهواء مسمّمين؟! هذا لا يمكن أن يحدث أبداً، أنّى للأرض أنّ تصبح جهنم؟ أنّى للبشر الطّيّبين أنّ يغدوا وحوشاً؟"

"لكن ما الفائدة من هذا الاستنكار كلّه؟ هذه الحضارة قد أخذتْ قرارها، وها هي القارّة تسير ببطء نحو الغرق في أعماق البحر؛ هرباً من نبوءة قد تتحقّق، وجهنم قد تُبعث من هذه الأرض، لكن ما ذنبي لأموت؟ ما ذنب

١- تقول الأسطورة إنّ هناك قارّة تسمى أطلنطا قد غرقتْ في البحر الأبيض المتوسط لسبب مجهول، وإنّ هذه القارّة كانت مثالاً للحضارة والمساواة والجمال والسّعادة والإخاء، والأسطورة لا تذكر أيّ سبب يفسّر غرق القارّة، وإنّما ما يرد في القصّة هو رؤية خاصّة للكاتبة.

زوجتي الرّقيقة "نرفانا" لتصبح طعاماً للأسماك؟ أيّها المستسلمون عليكم اللّعنة، أنا لا أريد الموت، الويل لمجلس حكماء أطلنطا".

دخل "باخوس" المقرّ الأعظم لحكماء القارّة، فقد كان بمقدور أيّ شخص أنّ يدخل إلى المجلس ليقول، ويسمع، ويشاهد ما يريد دون مانع؛ لأنها أرض تعرف العدل والحبّ والمساواة.

دخل إلى القاعة الكبرى، الحكماء كلّهم كانوا يجلسون بصمت وخشوع بانتظار الموت غرقاً مع قارّة أطلنطا، جلال الموت يخيّم على المكان، ماء البحر يغمر الأقدام حتى ما قبل الرّكب، يحدّق في العيون الشّاردة، ويقول بحيرة طفل لا يستطيع أنّ يفكّ طلاسم ما يقرأ: "كيف تقدمون على هذا الانتحار؟ كيف تقدمون على الموت وتحطيم هذه القارّة العظيمة التّي تنعم بالسّعادة والحبّ بسبب نبوءة غبية؟"

ردّ كبير الحكماء بتؤدة وهدوء آتيان من البعيد: "هذه القارّة قامتْ على المعاني الإنسانيّة والجمال وستموت قبل أنّ تشهد موت المعاني السّامية".

- "لكن ماذا لو كانت النّبوءة خاطئة؟ أنموت مقابل لا شيء؟ أتقدّموننا جميعاً قرابين للظّنّ والخوف؟ أنفرّ من وجه الآتي المزعوم؟"

- "إنّ كانت النّبوءة خاطئة، فالبشر لا ينقرضون، وستأتي بشريّة سعيدة مثلنا تماماً، ثم إنّ هذا القرار كان بموافقة الكلّ، أنتَ تدري بذلك من دون شكّ".

- "أنا لن أموت أبداً، أنا لن أموت، أتفهم ذلك، سأجمع من المستقبل الأدلّة والبراهين التّي تثبت أنّكم صدّقتم أكذوبة، وقدّمتم أنفسكم قرابين لنبوءة غبية، أنا لن أموت. أتفهم ما أقول؟ أطلنطا، أنا لن أموت، أتسمعون كلامي هذا؟"

كان الوقت عند الفجر تماماً، الأرض تستقبل نور الشّمس الذي يولد بهدوء في الأفق الذي يردّد صدى صوت "باخوس" الذي يُقلق صمت البحر قائلاً: "أطلنطا، أنا لن أموت"، في قاربه الصّغير كان واقفاً يتمايل بتمايل قاربه الصّغير، يودّع بعينيه تلك القارّة الجميلة التّي تغرق بسرعة، جنّة تغرق في بطن الماء، تُدفن في رحمها قبل أنّ تُدفن في واقع بشع صوّرته النّبوءة، اللّعنة على النّبوءات، الجنة اختفت إلى الأبد لأجل نبوءة غبية، العالم المثالي غرق خوفاً من صورته في مرايا اللاّ مثاليّ، الجمال غرق خوفاً من البشاعة، الرّقة غرقت خوفاً من القسوة.

تبسّم بحقّد وهو يرقب تلك البقعة السّاكنة من الماء التّي ابتلعت لتوها أطلنطا، وابتلعتْ "نرفانا" كذلك، صورتها الجميلة تلوح في الأفق المائيّ، قلادتها التّي تطّوّق عنقه كانت آخر شيء بقي من سحرها، لسنوات طويلة شعر "باخوس" بحزن عميق، ثمّ نسي الحزن، لكنّه لم ينسَ هدفه، وتوّج غربته ووحدته بتلقيب نفسه بلقب "المواطن الأخير"؛ لأنّه آخر مواطن بقي على قيد الحياة من سكّان قارّة أطلنطا.

عاش لآلاف السّنوات يبحث عن الأدلّة التّي تثبتْ خطأ النّبوءة؛ في البداية شهد أرضاً بكراً لم تعرف إلا اليسير من البشر والمعارف، ثم كثر البشر، في البداية ذاقوا البؤس والضّياع والجوع، وبنوا جزءاً يسيراً من الحضارة، وحول الحضارة نشأت حضارات، وبدأ الإنسان ينسى أخاه الإنسان، وطمع كلّ إنسان في لحم وجسد وزوج ووطن الآخر، وبدأت الحروب، وأصبح الإنسان وقوداً لحرب ضروس لا تنتهي أبداً.

ظنّ "باخوس" أنّ الأمر تسلية أو نزوة ستنتهي سريعاً، لكنّ هذه اللّعبة المقيتة راقت لكثير من البشر، وفُرضتْ على مَن لا تروق له، ودفع الضّعفاء الثّمن

دائماً، وغدتْ كلّ حضارة مقبرة للحضارة التّي سبقتها، وبات الموت والقتل هما تاريخ وماضي وحاضر الشّعوب.

كلّ قيمة حملها "باخوس" معه من حضارته البائدة، مثل: الحبّ والعشق والعطاء والتّضحية والآلاف من الفكر الدّافئة لم تصمد أمام هذه البشريّة التّي جنّ جنونها، وظلّت عن جادّة الطّريق، حتى كلمة الله والدّين والعبادة والسّماء والجنّة والنّار غدت أعذاراً مبتكرة لأجل القتل والإبادة والتّعذيب.

في كلّ مكان كان هناك الموت والدّمار، كلّ شيء جميل يحترق، النّيران والقتل والتّعذيب هما آخر ما تبقى لهذه البشريّة التّعسة من نفسها.

حاول "باخوس" أنّ يزرع الحبّ والصّدق في طريقه، وأنّ يجمع الأدلّة على خطأ النّبوءة، لكنّه كان يقف في كلّ مرة ليشهد حضارة تتحطّم وناراً تحرق البشر والسّعادة، ليخرج دائماً بلقب "المواطن الأخير"، الشّاهد العيان على جنون البشريّة، وهو يحمل بضع مئات من الأدلّة على صدق النّبوءة، هل كان مخطئاً؟ هل البشريّة في طريقها إلى الدّمار؟ قدّر أنّه يجب أن يعطي نفسه وهذه البشريّة فرصة أخرى.

انقضتْ ألف سنة أخرى بسرعة، وجاء القرن العشرون، الملابس والمدن الجامعات والمباني والشّوارع، القرائن كلّها تدلّ على أنّ البشر ينعمون بالسّلام، لكن كانت بضع سنوات كافية لتبرهن لـ"باخوس" أنّه قد أخطأ للمرة الألف، فها هي البشريّة تأكل بعضها، العالم ينقسم إلى معسكرات، كلّ معسكر يعدّ الحطب والنّار للمعسكر الآخر، الحروب العالميّة تشتعل في كلّ مكان، الآف البشر يذهبون ضحايا، المال يتدفّق أنهاراً ليصبّ في مصارف اللّصوص، الفقراء يموتون جوعاً، أرض تحترق، وأخرى تغرق، بشر يُقتلون ويُسرقون ويُحرقون، أطفال يُباعون، أعضاء وأشلاء في كلّ مكان.

العلم في كلّ مكان يكادّ يكون مسخّراً لقتل وإبادة الإنسان، المعتقلات والسّجون تملأ الأرض، والبغايا سيّدات المعمورة، والمجانين سادته، الأرض تسرق دائماً، آخر كلّ طريق هناك قتلى وموتى ولاجئون وثورات في كلّ مكان باسم الحرّيّة والإخاء والعدل، وفي مذبح الثّورات لا تذبح إلاّ الحرّيّة والإخاء والعدل، وآخر أخبار البشريّة تقول: "هناك قتل مروّع ينتظر البشريّة؛ فهناك قنبلة فريدة من نوعها، تحتاج إلى تجريب".

اليوم أُلقيتْ القنبلة الموعودة على "هيورشيما" و"نجازاكي"، الموت الأحمر في كلّ مكان، بقايا البشر والأشلاء تملأ الأماكن، الأرض أصبحت موات، والهواء فاسد، والتّراب مميّت، والمنتصر يقول بأسنان تلمع ببريق الوحشيّة: "القنبلة نجحت فيما أُعدتْ له".

"لقد صدقتْ النّبوءة؛ فالبشر قد أصبحوا وحوشاً، البشر أصبحوا وحوشاً"، لُجج البحر الهائم طغت على صوت "باخوس" المفجوع بإنسانيّة البشر، أمام البحر، فكّر للحظات بإعطاء فرصة أخرى لنفسه ولهذه البشريّة المروّعة، تنهّد طويلاً، شعر بغثيان وهو يبصق دماً وقيحاً من صدره، هزّ رأسه بأسف بالغ، وردّد في نفسه، وقد يئس من هذه البشريّة: "البشر أصبحوا وحوشاً، لقد صدقت النّبوءة"، وألقى بنفسه في الماء، واختفى إلى الأبد، كما اختفت أطلنطا المتدثّرة بنبوءتها الملعونة.

انتهى الجزء الثاني

د. سناء شعلان

أديبة وأكاديميّة وإعلاميّة أردنيّة من أصول فلسطينيّة، ومراسلة صحفيّة لبعض المجلات العربيّة، وناشطة في قضايا حقوق الإنسان والمرأة والطّفولة والعدالة الاجتماعيّة، تعمل أستاذة للأدب الحديث في الجامعة الأردنية/ الأردن، حاصلة على درجة الدّكتوراه في الأدب الحديث ونقده بدرجة امتياز، عضو في كثير من المحافل الأدبية والأكاديميّة والإعلاميّة والجهات البحثيّة والحقوقيّة المحليّة والعربيّة والعالميّة.

حاصلة على نحو٦٣ جائزة دوليّة وعربيّة ومحليّة في حقول الرّواية والقصّة القصيرة وأدب الأطفال والبحث العلميّ والمسرح، كما تمّ تمثيل الكثير من مسرحيّاتها على مسارح محليّة وعربيّة.

لها نحو ٦٥ مؤلفاً منشوراً بين كتاب نقديّ متخصّص ورواية ومجموعة قصصيّة وقصّة أطفال ونصّ مسرحيّ مع رصيد كبير من الأعمال المخطوطة التي لم تنشر بعد، إلى جانب المئات من الدّراسات والمقالات والأبحاث المنشورة، فضلاً عن الكثير من الأعمدة الثّابتة في كثير من الصّحف والدّوريات المحليّة والعربيّة.

لها مشاركات واسعة في مؤتمرات محلّية وعربيّة وعالميّة في قضايا الأدب والنّقد وحقوق الإنسان والبيئة والعدالة الاجتماعيّة والتّراث العربيّ والحضارة الإنسانيّة والآداب المقارنة، إلى جانب عضويّتها في لجانها العلميّة والتّحكيميّة والإعلاميّة.

هي ممثّلة لكثير من المؤسّسات والجهات الثّقافيّة والحقوقيّة، كما أنّها شريكة في الكثير من المشاريع العربيّة والعالميّة الثّقافيّة.

تُرجمت أعمالها إلى الكثير من اللّغات، ونالت الكثير من التّكريمات والدّروع والألقاب الفخريّة والتّمثيلات الثقافيّة والمجتمعيّة والحقوقيّة.

مشروعها الإبداعيّ حقل للكثير من الدّراسات النّقديّة والبحثيّة ورسائل الدّكتوراه والماجستير في الأردن والوطن العربيّ والعالم.

من أعمالها المنشورة:

١- الرّوايات:

١. أعشقني.
٢. السّقوط في الشمس.
٣. أدركها النّسيان.

٢- روايات الفتيان:

١- أصدقاء ديمة.

٣- المجموعات القصصيّة:

١. قافلة العطش.
٢. تراتيل الماء.
٣. الجدار الزّجاجيّ.
٤. حدث ذات جدار.
٥. الذي سرق نجمة.
٦. تقاسيم الفلسطينيّ.
٧. عام النّمل.
٨. رسالة إلى الإله.
٩. أرض الحكايا.

١٠. مقامات الاحتراق.

١١. ناسك الصومعة.

١٢. قافلة العطش.

١٣. الكابوس.

١٤. الهروب إلى آخر الدّنيا.

١٥. مذكّرات رضيعة.

١٦. أكاذيب النّساء.

١٧. الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء١

١٨. الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٢

١٩. الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٣

٤- مجموعات قصصيّة مشتركة مع أدباء عرب وعالميين:

١. مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين أردنيين بعنوان "القصّـة في الأردن: نصوص ودراسات".

٢. مجموعة قصصيّة بعنوان "الضّياع في عيني رجل الجبل".

٣. مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين عرب بعنوان "في العشق".

٤. مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصين أردنيين بعنوان "مختارات من القصّة الأردنيّة".

٥. مجموعة قصصية مشتركة مع أدباء مصريين مجموعة نجوم القلم الحرّ في سماء الإبداع.

٥- مسرحيّات للكبار:

١. دعوة على شرف اللّون الأحمر.

٢. "سيلفي" مع البحر.

٣. وجه واحد لاثنين ماطرين.

٤. محاكمة الاسم (×).

٥. السّلطان لا ينام.

٦. خُرّافيّة سعديّة أمّ الحظوظ.

٦- مسرحيّات للفتيان والفتيات:

١. اليوم يأتي العيد.

٢. رحلة مع المعلّمة فرحة.

٧- قصص أطفال:

١. قصّة للأطفال بعنوان "زرياب: معلّم الناس والمروءة".

٢. قصّة للأطفال بعنوان "هارون الرّشيد: الخليفة العابد المجاهد".

٣. قصّة للأطفال بعنوان "الخليل بن أحمد الفراهيديّ: أبو العروض والنّحو العربيّ".

٤. قصّة للأطفال بعنوان "ابن تيمية: شيخ الإسلام ومحيي السّنّة".

٥. قصّة للأطفال بعنوان "اللّيث بن سعد: الإمام المتصدّق".

٦. قصّة للأطفال بعنوان "العزّ بن عبد السّلام: سلطان العلماء وبائع الملوك".

٧. قصّة للأطفال بعنوان "عبّاس بن فرناس: حكيم الأندلس".

٨. قصّة للأطفال بعنوان "زرياب: معلّم النّاس والمروءة".

٩. قصّة للأطفال بعنوان "صاحب القلب الذّهبيّ".

١٠. مئات القصص المصورة للأطفال المبثوثة والمنشورة في مجلاّت الأطفال المحليّة والعربيّة.

٨- المقالات والنّصوص النّثريّة:

١- أبي سيّد الكلمات.

٢- الذين لا ينامون.

٣- قالت النّساء.

٤- غصون وتخوم.

٥- الدّرب إليهم.

٦- الأعمال النّثريّة الكاملة.

٩ – لقاءات حواريّة:

١. الهدهد والخاتم: لقاءات مع مبدعين عراقيين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (١)

٢. العرّافة والجبل: لقاءات مع مبدعين عرب، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٢)

٣. لقاءات حواريّة: لقاءات مع مبدعين عالميين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٣)

١٠ - كتب نقديّة متخصّصة:

١. الأسطورة في روايات نجيب محفوظ.

٢. السّرد الغرائبيّ والعجائبيّ في الرّواية والقصّة القصيرة في الأردن١٩٧٠- ٢٠٠٢م

٣. دور جلالة الملك في مكافحة الإرهاب: تفجيرات عمان في قصص بالشّراكة مع المؤلّف وائل الفاعوريّ.

٤. الدّواني والغواني: غصون في الأدب المعاصر ونقده.

٥. السّراب وأهزوجة النّور: دراسات نقديّة في تجسيد الذّات والآخر في الأدب المعاصر.

٦. ترنّم الصّوت وثورة الصّدى: دراسات في إبداعات معاصرة.

١١- المشاركة في فصول نقديّة في كتب نقديّة محكّمة متخصّصة:

١. المشاركة بفصل بعنوان "السّرد الجميل لتأثيث عالم قبيح" في كتاب بعنوان "حنون مجيد في منجزه القصصيّ"، جمع وإعداد وتحرير د. سمير الخليل.

٢. مشاركة بفصل بعنوان "لقاء مع العلامة علي القاسميّ: أبو المعاجم العربية الحديثة" في كتاب "الدّكتور علي القاسميّ سيرة ومسيرة: مجموعة بحوث

ودراسات مهداة إليه بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسّبعين"، جمع وإعداد د. منتصر أمين عبد الرّحيم.

٣. المشاركة بفصل بعنوان "عبد الكريم غرايبة العملاق الذي ينير الدّرب للجميع" في كتاب "عبد الكريم غرايبة مؤرّخاً عربيّاً".

٤. المشاركة بفصل بعنوان "مساحة التّوتّر بين الانتظار والخيبة عند القاصّ العراقيّ فرج ياسين في مجموعته القصصيّة "واجهات برّاقة" في كتاب "في آفاق النّص القصصيّ: مقاربات في الهويّة والنّص والتّشكيل عند فرج ياسين".

٥. المشاركة بفصل بعنوان "البطل في قصص زياد أبو لبن" في كتاب "القصّة القصيرة في الوقت الرّاهن".

٦. المشاركة بفصل بعنوان "الذين لا يموتون" في كتاب "المبدع الرّاحل محيي الدّين زنكنه بأقلام أصدقائه".

٧. المشاركة بفصل بعنوان "الفنتازيا رداء للتّشوير في التّجربة القصصيّة عند محيي الدّين زنكنة" في كتاب نقديّ بعنوان "نظرات نقديّة في عالم محيي الدّين زنكنه الإبداعيّ".

٨. المشاركة بفصل بعنوان "شهادة إبداعيّة للأديبة الأردنيّة سناء شعلان" في كتاب "دراسات نقديّة عن الأدب الكرديّ".

١٢- الكتب المنهجيّة:

١- كتاب بعنوان "تعليم اللّغة العربيّة للنّاطقين بغيرها: المستوى الخامس"، كتاب مشترك مع مجموعة من المؤلّفين الأكاديميين.

عنوان المؤلّفة: د. سناء شعلان
الأردن – عمان– الرّمز البريدي١١٩٤٢
ص. ب ١٣١٨٦
خلوي وواتس وفايبر: ٠٠٩٦٢٧٩٥٣٣٦٦٠٩
البريد الالكتروني
Selenapollo@hotmail. com
العنوان على الفيس بوك
Sanaa shalan

9 789957 545468